د. إبراهيم الدسوقي شتا

الثورة الإيرانية

الصراع
الملحمة
النصر

الزهراء للإعلام العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الزهراء للإعلام العربى
قســـــم النشـــــر
ص.ب: ١٠٢ مدينة نصر – القاهرة – تلغرافياً : زهراتيف – تليفون ٦٠١٩٨٨ – ٦١١١٠٦ – تلكس ٩٤٠٢١ رائف يو إن
P.O : 102 Madinat Nasr - Cairo - Cable: Zahratif - Tel: 601988 - 611106 - Telex: 94021 Raef U.N

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾

صدق الله العظيم

فصلت / ٣٣

الطبعة الأولى
١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

الجمع التصويرى والتجهيز
بالزهراء للإعلام العربى

تصميم الغلاف : عصمت داوستاشى
الإخراج الفنى : السيد المغربى

دكتور ابراهيم الدسوقي شتا

الثورة الإيرانية

الصراع
الملحمة
النصر

الزهراء للإعلام العربى

إهداء

إلى شهداء الثورة الإسلامية في إيران وإلى الذين يتحرقون شوقا إلى الاستشهاد في سبيل الثورة الإسلامية في كل مكان .

شتا

مقدمة

بسم الله رب المستضعفين وقاصم الجبارين . كنت قد قمت فى كتاب سابق بتقديم دراسة عن الجذور المذهبية والفكرية والقومية للثورة الإيرانية وبقدر ما سمحت به المصادر ، ولم أشأ فى ذلك الجزء أن أخوض فى الأحداث التى مهدت للثورة وفى أحداث الثورة نفسها ، وذلك لأن ملامح الثورة لم تكن قد تحددت بعد ، كما أن المصادر الميسرة آنذاك لم تكن تسمح بالخوض فى هذه الأحداث المعقدة المتشابكة بطبعها والتى سكتت عنها أو شوهتها المصادر الفارسية التى كتبت فى عهد الشاه وتبعتها فى ذلك المصادر الأوروبية فظلت مصدر نقاش واسع وأخذ ورد وهذه هى طبيعة العمل السرى على كل حال .

وقد سبق أن بينت فى الجزء الأول من هذا الكتاب أن الثورة لم تكن فجائية أو تلقائية أو خبط عشواء ، وأننا إن حكمنا على الثورة بهذا الحكم فكأننا جردناها من طبيعتها كأعظم ثورة فى التاريخ المعاصر على الاطلاق ، وليس هذا حكما عاطفيا ، بل هو إجماع من تناولوا هذه الثورة بالدراسة أو التعليق من قريب أو بعيد ، وسواء كانوا من الأصدقاء وما أقلهم أو الأعداء وما أكثرهم ، بل إن الأعداء هم أول من شهدوا لهذه الثورة المجيدة بأنها سوف تغير وجه تاريخ المنطقة إلى عدة قرون آتية .

والشكل المذهبى والعوامل الدينية المؤثرة فى ثورة إيران العظمى قد نشا فى ظل ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية خاصة بحيث أننا إذا مررنا على هذه الظروف ولم نشر إليها ، لما استطعنا أن نفهم ما حدث فى إيران ، ولما استطعنا أن ندرك أن ما حدث قد حدث نتيجة لسنوات طويلة من المعاناة ومن أنصاف الحلول أو الحلول الظاهرية ، ولما استطعنا أيضا أن نفهم كيف تحولت الثورة من عمل سرى إلى عمل علنى ومن لا أيديولوجية إلى أيديولوجية إسلامية

محددة كانت وليدة كفاح الشعب الإيرانى وتجاربه فى المائة سنة الأخيرة ، ولما استطعنا أيضا أن نفهم هذه النقطة الدقيقة وهى : كيف أن التيار الإسلامى استطاع أن يحتوى على كل التيارات الموجودة وأن يوجهها الوجهة التى يشاء وإلى الهدف الذى يريد .

وبينما كانت المقاومة تزداد توسعا وتنظيما وقدرة كما سنرى فى الباب الثانى من الكتاب الذى بين أيدينا ، كانت الأحوال فى إيران تزداد سوءا ، وكان نظام الحاكم الفرد والحزب الشكلى الدمية والرأى الواحد يثبت فشله الذريع يوما بعد يوم وشأنه شأن أى نظام مشابه ويسعى إلى حتفه بظلفه ويقترب من نهايته ويحفر قبره بيده ، وبينما كان يقدم ظاهرا خلابا قشريا لبناء آيل للسقوط ، كانت المقاومة بأشكالها المختلفة تقترب من بعضها وتتوحد لاسقاط النظام ، وما كادت مذبحة خرداد ١٣٤٢ (يونية ١٩٦٣) تنتهى ويتوارى الثوريون إما تحت طباق الأرض أو فى المنافى والسجون حتى ظن الشاه أن الجو قد خلا له ، ومن ثم بدأ يسود إيران جو من الهدوء المريب والاختناق الشديد وبدأت مرحلة التجارب الفاشلة فى كل الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفى ظلها كانت الفرصة سانحة لفلاسفة النظام وركائزه الأجنبية للقيام بعملية منظمة لمحو الشخصية الإيرانية ، وبينما كانت صحف الشاه وأجهزة إعلامه تتحدث عن عصر الحضارة العظمى « تمدن بزرگ » و « المعجزة الإيرانية » ، والتوقعات التى لن تخطىء بأن إيران سوف تلحق بالدول الكبرى وسوف تتفوق على اليابان فى الثمانينات من هذا القرن أو على الأكثر ومع التنازل فى مطلع القرن الآتى ، كانت إيران ظاهرا خلابا لقطعة من النسيج المهلهل ترتع فيها كل أنواع السوس والحشرات القارضة . وأثبتت الأحداث أن « جزيرة الأمان » التى تحدث عنها (كارتر) وهو يراقص « فرح » ليلة عيد الميلاد فى مطلع ١٩٧٧ لم تكن إلا حوت السندباد المشهور فى ألف ليلة وليلة لم يكد يحس بالنار حتى تحرك وقلب كل من فيه إلى أعماق المحيط .

وسوف تظل الثورة الإيرانية مجال أبحاث وكتب ، لكن ما لا تستطيع الأبحاث والكتب أن تدركه أو تقدره حق قدره هو تلك الروح العارمة التى استيقظت فى الشعب الإيرانى بعد نوم القرون ، ولن يستطيع أحد أن يدرك أبعاد

هذه الروح العارمة إلا بأن يدرك فى البداية أبعاد الروح العظيمة لمحرك الثورة الإيرانية وقائدها وملهمها آية الله الخمينى الذى يمثل الروح الإسلامية ومعدنها العظيم الذى انبعث من تحت غبار القرون ، فأيقظ أمة وحرك شعبا وهدم نظاما عاتيا وقضى عليه ، والمفتاح الحقيقى لنجاح الثورة الإيرانية يمكن أن يوجد فى دراسة هذا النمط من القيادة دراسة وافية ، ولن يستطيع أن يفهم شخصية آية الله الخمينى إلا من يفهم الإسلام كثورة ، والشعب الإيرانى كشعب أدرك بحق صوفية الثورة ومزج بين المعتقد والحركة ثم الانطلاق ، أو بالمفهوم الإسلامى بين « العلم والعمل » ، فقدم نموذجا يحتذى لبلاد أصبح الإسلام فيها اسما يلقى فى المحافل ، وتكئة لكل أنواع الخمول والجمود والركود والاستسلام .

وإنى إذ أقدم هذه الصفحات ، لا أدعى أننى وفيت الثورة الإيرانية حقها من الدراسة والتعريف ، فان الميدان جد عظيم ، والجهد قليل ، والأسماء التى سوف تتألق فوق الصفحات تصيب الكاتب بالاحتقار لنفسه وجهده ، إذ بينما نكتب بالمداد ، كتب الآخرون بالدم ، وبينما نطالع الصفحات والتقارير ، واجه الآخرون المصفحات والعربات المدرعة والرشاشات بصدور عارية عامرة بالايمان ..

لكن ، تبقى قدسية الكلمة خاصة فى جو غير مساعد ، وهى كل ما نملك ، نقدمها قربانا إلى الله تعالى ، ونرجو منه سبحانه أن يقبلها منا وهى جهد المقل ، ومنا الجهد على كل حال ومن الله التوفيق . إنه نعم المولى ونعم النصير .

دكتور
إبراهيم الدسوقى شتا
أستاذ اللغات الشرقية
كلية الآداب – جامعة القاهرة
العمرانية فى أول يونية سنة ١٩٨٠



الباب الأول

البناء الذى انهار

الفصل الأول

ظل الله

« إما الشاهنشاهية وإما الفوضى »

محمد رضا بهلوى

عاد الشاه بعد الانقلاب الذى أسقط مصدق بقوة المخابرات الأمريكية وبقوة الأموال الأمريكية ، وعلى حد تعبير المحلل الأمريكى أندريه توللى « من الحمق أن يكتب بعضهم أن الإيرانيين هم الذين أسقطوا مصدق فان العملية أمريكية من ألفها إلى يائها»(١)وفى يوم الانقلاب الذى كان يحلو لأجهزة الشاه أن تسميه « قيام ملى » أى انتفاضة شعبية قام بها الشعب لاسقاط مصدق وإعادة الشاه ، كانت البنادق التى فى أيدى السوقة الذين جمعوا من حى الدعارة فى طهران والعربات التى تقلهم كلها من السفارة الأمريكية ، أما النقود التى دفعها بعضهم لعربات الأجرة فقد كانت بالدولار ، ولم تكن الفرصة مواتية لتغيير العملة الأمريكية إلى عملة إيرانية (٢)كانت عودة الشاه فى ٢٨ مرداد ٣٢ (أغسطس ٥٣) على أسنة الحراب الأمريكية وظروف هذه العودة هى التى حددت الركائز الأساسية التى قام عليها نظامه ، وهى فضلا عن فرض الشاهنشاهية كحتمية ، الاعتماد الأساسى على أمريكا والتى تتم بالطبع بسيطرة أمريكا على كل مظاهر الحكم فى الدولة وعلى الجيش .

كان رد فعل سقوط الشاهنشاهية هو محاولة فرض الشاهنشاهية لا كنظرية فكرية فحسب بل كفلسفة نظام ، كان الشاه بالطبع هو أول من يروج لنظرية الحتمية الشاهنشاهية بينما كان فلاسفة النظام الإيرانى ينقبون التاريخ فى محاولات مستميتة لاثبات أنه إذا كانت الأمم تتجمع حول الأديان أو اللغات أو المصالح والأمانى المشتركة فان إيران هى وحدها من بين الأمم التى تتجمع

حول النظام الشاهنشاهى ، ومن ثم فقد كان أهم ملمح من ملامح النظام السياسى فى إيران هو عبادة الشاه ، ولم يكن الشاه يترك مناسبة دون أن يعبر فيها للشعب الإيرانى عن هذه الحقيقة التى لا تقبل الشك عنده وهى « إما أن يقبله الشعب أو الطوفان » ، وهو يصرح فى آخر كتاب له « بسوى تمدن بزرگ : نحو الحضارة العظمى » والذى صدر سنة ١٩٧٨ والثورة فى طور البداية :

« المجتمع الإيرانى الجديد الذى أرسيت أنا قواعده منذ خمس عشرة سنة على ثلاثة أسس : النظام الشاهنشاهى والدستور وثورة الشاه والشعب هو المجتمع المثالى ... والنظام الشاهنشاهى هو خير ضمان لقوة الوحدة الوطنية وحسم سلطة القيادة والقوة العسكرية والاستقلال السياسى والدور العالمى البارز لوطننا »(٣) ، فاذا قمنا بتفريغ هذا الثالوث الذى يرى الشاه أن « المجتمع الذى أسسه » قائم عليه من ضلعه الأوسط أى الدستور لأن أحدا لم يسمع به منذ سقوط مصدق ، وجدنا أن الشعب الإيرانى قد عاش مضغوطا بين ضلعين : أحدهما الشاه ، والثانى الشاه أيضا وثورته البيضاء التى فرضها بأسنة حرابه كما سنرى .

والواقع أن الشاه فشل تماما فى أن يفرض شخصيته على عموم الشعب الذى لم ينس قط أنه من أسرة حاكمة فرضت بانقلاب عسكرى انجليزى (٤)وأنه لم يتخلص من أبيه إلا بقوات الحلفاء تحتل إيران كلها ، وأنه هو نفسه عاد بقوة امريكا عندما تخلص الشعب منه ، ولم يكن من المعقول والقرن العشرون موشك على النهاية أن يواجه الشاه الجماهير التى تكرهه بالنظرية الشاهنشاهية ، والحديث عن نفسه « كقدر إلهى لا مفر منه » ، وأنه مبارك بالعناية الالهية ، وفى هذا لم يكن يختلف فى قليل أو كثير عن ملوك إيران قبل الاسلام المباركين بالمجد الالهى « فر همايونى » ، وفى كل أفعاله وتصرفاته كان يحلو للشاه التقدمى جدا أن يعتبر نفسه امتدادا لملوك إيران قبل الإسلام ، يقول عن نفسه :

« بالنسبة لى كربان لسفينة وطنى ومصيره فى هذا المحيط المتلاطم لعالم اليوم ، تعد العناية الالهية هى الأساس ... وهى معيار كل الخطط وألوان الكفاح ، ولولا هذا لكانت قدرتى كسائر قدرات البشر ... إن ما قدر على هو أن أقود وطنى إلى الهدف الأصيل »(٥) .

ومن هذا المنطلق الميثولوجي لدولة كانت تعتبر نفسها على أعتاب الحضارة العظمى ، لم يكن مسموحا لأحد أن يناقش ظل الله من منطلق دينى أو حتى من منطلق علمى أو منطقى ، فالامبراطورية التى كانت موجودة فى يوم من الأيام سوف توجد ، والحضارة التى لا يوجد عليها دليل واحد ولم يبق التاريخ منها حتى اسم مفكر واحد سوف تعود ، وليس مسموحا لأحد بأن يذكر حقيقة تاريخية وهى أن إيران لم تحكم طوال تاريخها إلا بالملوك ومن ثم فالملوك أيضا مسئولون عن فترات ضعفها وانحطاطها وخرابها ، أبدا ، كل ذلك لم يكن مسموحا به .(٦)

كل ما كان مطلوباً من جماهير الشعب الإيرانى أن تسلم قيادها للربان العاهل لكى يعيد عهود المجد الغابرة ويصل بالسفينة إلى الحضارة العظمى التى تزرى بحضارة اليابان وأوروبا .

ومن هذا المنطلق الميثولوجي كان يمكن تبرير المركزية الشديدة المبالغ فيها ، فوفقا للأيديولوجية الامبراطورية والحتمية الشاهنشاهية ، فان الوحدة والأمن وتطور النظام أمور لم تكن ممكنة إلا بمركزة كل السلطات فى يد الشاه كرمز للامبراطورية الإيرانية (٧) ، وكان من الواضح بالطبع فى ظل هذا النظام أن المؤسسات لا تزيد عن كونها صورة ، والرجال دمى ، ولا صوت يعلو على صوت الشاه الذى سيصل بالسفينة إلى بر الأمان ، وكان تشجيع الرأسمالية الطفيلية فى إيران يقضى تماما – كما سنرى – على طبقة البورجوازية التى تستطيع التفكير ، فإما أغنياء راضون وهم قلة قليلة جدا ، وأغلبية ساحقة من الفقراء الذين يشغل مجرد العيش تفكيرهم تماما(٨) .

وفى ظل هذه الفلسفة كان الشاه يباهى بمركزيته وديكتاتوريته ويقول : « **إذا لم يكن هناك نظام ملكى فالفوضى وحكم الأقلية أو الديكتاتورية ، وإلى جانب ذلك فان النظام الملكى هو الوسيلة الوحيدة الممكنة لحكم إيران ، وإذا كنت قد استطعت أن أحقق شيئا لإيران وهو كثير فى الواقع فان ذلك يرجع إلى سبب بسيط وهو أننى ملك على البلاد ، إن المرء يحتاج لكى ينجز الأمور إلى سلطة ، ولكى يستمر المرء فى السلطة لا يجب عليه أن يطلب إذنا من أحد أو مشورة من أحد ، بل ينبغى على المرء ألا يناقش قراراته مع أحد** »(٩)

هذه النرجسية الفجة من ناحية ، والتدخل الأمريكى لاعادة الشاه إلى عرشه من ناحية ثانية ، كانا ضلعى المثلث الحقيقى الذى سيطر على الحياة السياسية فى إيران بعد سقوط مصدق ، فنرجسية الشاه وفلسفته الشاهنشاهية لم يسمحا قط بظهور رجل قوى فى إيران حتى ولو كان مباركا من السلطة فربما أعاد سيرة مصدق . وإذا كان الإيرانيون يعتبرون فترة الحكم البهلوى دورات من الاستبداد ، فان الفترة التى بدأت بعد ٢٨ مرداد (أغسطس ٥٣) تعد أعتاها جميعا ، وهى التى مهدت لثورة خرداد ٤٢ (يونية ٦٣) الدموية . وبعد ٢٨ مرداد لم يكن هناك بالطبع لرئاسة الوزارة إلا الجنرال زاهدى الذى شنها حربا لا هوادة فيها على كل من كانت له صلة من قريب أو بعيد بمصدق ، وكانت رئاسته للوزارة بالتعبير الإيرانى فترة اختناق « دورهٔ خفقان » بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، كما كانت « الشيزوفرانيا » الشاهنشاهية تلعب دورها ، فبينما سلط زاهدى على كل العناصر التى تبدو منها أقل بادرة خطورة ، كان الشاه نفسه يحاول استدراج المعارضة وخصوصا أتباع مصدق إلى حل تسووى .. وهى سياسة نجحت إلى حد ما فيما بعد (١٠) ، كان الشاه – كما رسمت له السياسة الأمريكية – يحلم بأن يرث شعبية مصدق ، وهو أمر ظل يعذبه حتى آخر يوم من حكمه ، فكان كل ما يهمه أن يصل إلى نوع من المصالحة مع أتباع مصدق ، وذلك بعد تصفية من لا يرضى بالتسوية بالطبع ، ومن ثم ترك زاهدى منصبه بعد فترة لحسين علاء الرجل العجوز ذى السحنة الهادئة ، ربما ليخفف قليلا من الاختناق ، ويخفف من سياسة التصفية التى كانت قد وضعت على كاهل الجنرال زاهدى ، كانت المهمة الأولى لوزارة علاء إيجاد نوع من المصالحة مع أتباع مصدق ، وكان من الواضح أن أحدا لم يكن ليقبل هذا العار(١١) ، ومن ثم ترك علاء منصبه لمنوجهر إقبال الذى كانت أمامه مهمة أخرى هى توقيع اتفاقية النفط مع مجموعة الشركات العالمية ، الا أنه جوبه بما يشبه العصيان العام وكانت مفاجأة للشاه أن المعارضة لم تصف تماما فى أوساط رجال الدين والتجار والطلبة وأساتذة الجامعات ، ولم يكن من الممكن والحكومة حكومة مصالحة وطنية كما يدعى النظام أن ينفى رجال الدين ، بينما كان التجار أحرارا فى عيشهم لا يعتمدون على الحكومة ، ومن ثم انصب كل التنكيل على رجال الجامعات ، وبالرغم من أن الدكتور سياسى

مدير الجامعة دافع عن زملائه خير دفاع ، إلا أن الضغط أسفر فى النهاية عن طرد عدد من الأساتذة كان منهم : المهندس بازرجان والأساتذة سحابى ومعظمى ونعمت اللهى وعابدى ، ولم يسمح لأحد منهم بمغادرة إيران أو بشغل أى منصب خارج الجامعة ، فكون الأساتذة شركة « لادا » ، إلا أن سياسة المصالحة الوطنية أثبتت عدم جدواها ، وباء الشاه بالخذلان فى اكتساب شرعية لم تكن له ، وقبولا لم يظفر به فى يوم من الأيام .

كان كل النشاط السياسى فى ذلك الوقت من أواسط الخمسينات موجها إلى إضفاء صورة سياسية على نظام الحكم الفردى ، فضلا عن أن المصالحة لم تكن فى يوم من الأيام من أسس سياسة الشاه ، وسوف نرى أن كل المؤسسات فى الدولة بما فيها رئاسة الوزارة والوزارة والمجلسين « النيابى والشيوخ » لم تكن إلا ستارا يحجب الصورة الحقيقية للحكم المعتمد على شقين : عسكرى وبوليسى ، وأن الواجهات كانت تتغير دون أدنى تغيير لما هو وراءها . ومن هنا نمر على تغيير الوزارات دون أدنى توقف ، فلم تكن فى يوم من الأيام ذات سلطة ما . كان إقبال وهو رئيس الوزراء يحس أن السلطة فى أيدى العسكريين ، ويرى أن هذا الاتجاه يوسع الهوة بين النظام الحاكم وبين مجموع الشعب يوما بعد يوم ، وقد حاول القيام ببعض الاصلاحات عن طريق الجامعة ، وأعاد الأساتذة المفصولين (ربما لأن أحدا لم يتقدم لشغل كراسيهم) ، وبالرغم من هذا المظهر المقبول إلا أن أحداث العدوان الثلاثى على مصر فجرت الأحداث ليس على مستوى الجامعة فحسب بل وفى أنحاء البلاد ، وتصدت المظاهرات لاقبال وهو على باب كلية الطب التى كان يعمل أستاذا بها ، فاذا بفيلسوف المصالحة الشاهنشاهية يفتك بالطلاب المتظاهرين ، ويطردهم من الجامعة : (كان منهم عباس شيبانى الذى جاء إلى مصر عقب طرده ومكث بها عاما ثم عاد)(١٢)والذى لم يكن مفهوما آنذاك أن سياسة المصالحة كانت رغم أنف الأنف من الشاه ، فان البعد الآخر فى حكمه ، والذى كان أكثر خفاء هو الذى كان أكثر حضورا ، وديناميته كانت أكثر سيطرة ، هذا البعد هو : السيطرة الأمريكية التى كان الشاه يحس أنها الركيزة الحقيقية لحكمه ، وبات يعتقد أنها وهى السبب فى عودته إلى عرشه رغم أنف الشعب الإيرانى فهى بلا جدال القوة الوحيدة التى يمكن أن تحميه وتبقيه ، وهذه

السيطرة فى رأى لبنى صدر – تتجسد فى أربع ديناميات : دينامية الالحاق بالنظام المسيطر ، ودينامية تفكك النظام التابع ، ودينامية اللاتساوى التى تجسد علاقات المسيطر بالتابع ثم دينامية الضعف وهى النتيجة . (١٣)

فى ذلك الوقت كانت أمريكا قد خرجت من الحرب الكورية مثخنة بالجراح ، وكانت تهدف بالطبع إلى المحافظة على البقية من نفوذها الآسيوى عن طريق المحافظة على النظم التى تدور فى فلكها وتتبعها ، ولم يكن المجال مناسبا بالطبع لنقل التجربة الكورية إلى إيران ومن ثم فلم يكن هناك بد من التدخل تقوم به بين الآن والآخر لمنح النظام السياسى للدول التى تدور فى فلكها شكلا ديموقراطيا . ومن ثم تشكل فى إيران حزبان توءمان هما : مردم « أى الشعب » ومليون « أى الوطنيون » والذى سمى فيما بعد : إيران نوين « أى إيران الجديدة » ، كان تأسيس الحزبين بالطبع محاولة لاحتواء الجنوح الإيرانى التقليدى للتحزب ، وبالرغم من أن هذا التأسيس كان خطوة فى إطار سياسة المصالحة ، إلا أن الشيزوفرانيا الشاهنشاهية لم تكن تسمح إلا بالصورة فحسب ، فقد أسندت رئاسة الحزب الأول إلى اقبال فيلسوف المصالحة ، وإجبار الشعب الإيرانى على « تجرع » الشاه ، وأسندت رئاسة الحزب الثانى إلى أسد الله علم وهو واحد من الشخصيات المقربة للشاه ورئيس وزرائه فيما بعد ووزير بلاطه لسنوات طويلة مقبلة ،فضلا عن أنه لم يكن مسموحا لهذين الحزبين بترشيح أعضاء للمجلس النيابى بدون موافقة مسبقة من الساواك ، ومن ثم كان المجلس الذى يتم انتخابه من بين أمثال أولاء المرشحين بلا حول ولا قوة . ومن الناحية العملية لم يكن لهذين الحزبين أى مضمون وعندما حاول بعض قادة حزب مردم الخروج عن الاطار المرسوم تم طردهم (فى سنة ٧٢ طرد على نقى فانى وفى سنة ٧٤ لقى خليفته ناصراميرى نفس المصير)(١٤) .

وبالرغم من تكوين هذين الحزبين كانت أمريكا لا تزال تحس أن قشرة الهدوء فى إيران لا شك تخفى وراءها ما وراءها ، فضلا عن أن هذه القشرة كانت تهتز بين الحين والآخر ببعض الاحتجاجات أو المظاهرات أو الاضرابات ، وكان من أكبر ما يقلق السياسة الأمريكية أن تتسع وتشتد ، وكان نشوب الحرب فى فيتنام يجعل أمريكا أكثر قلقا على بقية حلفائها ، فغيرت

سفيرها فى إيران ، وأرسلت لجنة من الكونجرس الأمريكى لتقصى أسباب الفساد فى إيران .

كانت سنة ٣٦ (٥٧) هى قمة الهجوم على سياسة إقبال التى تخفى نفسها فى رداء المصالحة الوطنية بينما هى فى الحقيقة تجاهد جهاد المستميت لاسباغ وجه سياسى على الحكم البوليسى العسكرى الذى كان قد بدا على أشده ، وبوصول السفير الأمريكى الجديد هايلد تشاينج ، تم القبض على كل العناصر الوطنية فى أصفهان وشيراز وتبريز ومشهد ، وكان الرد الطبيعى من قبل العناصر الوطنية متأخرا بعض الشيء (١٥) ، ولم يكن هناك بد من أن تفكر السلطة الأمريكية المسيطرة بعد صعود كنيدى إلى مقعد الرئاسة فى حل بديل ، وكانت الثورة البيضاء « انقلاب سفيد » أو ما كان يحلو للشاه تسميته « ثورة الشاه والشعب : انقلاب شاه وملت » .

قدم الشاه بنود ثورته البيضاء الستة (والتى زيدت فيما بعد على مر السنين حتى وصلت إلى تسعة عشر بندا » إلى استفتاء عام فى السادس من بهمن سنة ١٣٤١ (٢٦ يناير سنة ١٩٦٣) . ولأول مرة فى التاريخ تقوم ثورة بمرسوم شاهنشاهى ، والشاه نفسه يعترف بهذا : « **وجه تميز هذه الثورة أنها خلافا لكل الثورات ليست من طرف أقلية فرضت على أغلبية ، لكنها على العكس تماما ، فرضت من الأغلبية الساحقة على أقلية قليلة منها لكنها ذات سلطة عظيمة** » (١٦) .وكأن النظام الضارب كان يريد بهذه الثورة التى لا تعدو مجرد قانون إصلاحى براق ومكتوب وضع خصيصا للحيلولة دون قيام الثورة الحقيقية أن يجعل من نفسه لسان الدفاع عن الشعب المضروب ، وأراد الشاه أن يضم لنفسه بضربة واحدة الفلاحين والعمال ليكونوا الجناح الآخر لحماية نظامه مع الجناح الرئيسى : الجيش والساواك ، وفى نفس الوقت يمكن عن طريق الخطب والشعارات الرنانة تمييع الحركة الحقيقية للشعب والتى كانت قد طرحت الحل العسكرى فى صيف ٤١ (٦١) وتوسيع الهوة بين المناضلين الحقيقيين وبين القاعدة الشعبية العريضة التى ينبغى أن تنضم اليها ، كانت الثورة البيضاء فى الحقيقة خطوة مرسومة بدقة وعناية : إن الشعب الإيرانى يريد ثورة ، فليكن التغيير من أعلى ، ولتكن الثورة قاعدة سياسية وعسكرية للشاه ، كانت الناصرية

تجتاح العالم العربى ، وكان كاسترو ونهرو يملآن الدنيا ويشغلان الناس ، وكان الشاه يحلم بالنزول إلى قرى إيران فيقابل كما كان كاسترو ونهرو وعبد الناصر يقابلون . (١٧)

وبالرغم من الأرقام الفلكية التى أعلن الشاه أنها صوتت لصالح الثورة البيضاء (حتى إذا كان الاستفتاء حقيقيا فمن الذى يمكن أن يصوت سلبيا لأى برنامج إصلاحى مكتوب ؟) لقيت الثورة البيضاء من الناحية السياسية هزيمة ساحقة ، فقد كان رجال الدين لها بالمرصاد كما سنرى ، ومن ناحية أخرى ، لم تعد هذه البنود الخلابة والألاعيب الشاهنشاهية تنطلى على أحد ، فقد كان الجميع يعلمون أنه بينما كان الشاه يوقع هذه القرارات الاصلاحية بيد ، كان يوقع وربما باليد الأخرى أوامره لأصحاب الوجود الحقيقى فى السلطة الجيش والساواك تحمل القمع المتواصل للعناصر الوطنية الحقيقية ولطلاب الاصلاح الحقيقى ، وكان الشعب الإيرانى فى السنوات الأخيرة خاصة قد جرب الكثير نتيجة للفصام الذى كان الشاه يعانى منه ، وكان يدرك أن وراء كل قرار ديموقراطى مذبحة تدبر فى الخفاء ، ووراء كل احتفال وأضواء تزداد السجون امتلاء ، ومن ثم فبقدر ما أقام الشاه من ضجة فى إعلان ثورته البيضاء كان القمع يجرى فى الخفاء ويعمل فى الحركات التحررية الوليدة (١٨) ، ولم تكد تمض بضعة شهور على إعلان الثورة البيضاء حتى فقدت بياضها بمذابح يونية ٦٣ ، ولما كان من المعلوم فى البداية أنها لا تحتوى من الثورة إلا على الاسم ، فلم يعد منها إلا اسم بلا محتوى مثل بقية الشعارات الطنانة التى كان الشاه يطلقها .

كانت السلطة الأمريكية المسيطرة تدرك كل هذه الأمور ، وفى تقرير قدمه دين راسك فى ٢٨ ابريل ١٩٦٣ إلى الرئيس كنيدى ، والذى يشير إلى العلاقات الخاصة جدا التى كانت تربط بين أمريكا والنظام الإيرانى ، يحذر راسك كنيدى من تقاعس أمريكا فى تقديم العون للشاه إذا جوبه بأى مقاومة ، وأن نتيجة هذا التقاعس سوف تكون غالية جدا بالنسبة للولايات المتحدة ، ونصح كنيدى فى ألا يترك فرصة دون أن يجعل الشاه يحس أنه فى حمى أمريكا ، كما يقدم راسك بعض المقترحات لدعم ديكتاتورية الشاه فى إيران ، ومن أهم هذه المقترحات أن تقوم أمريكا بمساعدة الشاه فى تصفية العناصر المضادة غير الشيوعية . (١٩)

وكانت النتيجة الوحيدة - على المستوى السياسى - للثورة البيضاء ، أنها كانت اعترافا ضمنيا من الشاه بأن إيران فى حاجة إلى إصلاح وفى حاجة إلى ثورة ، وهو مالم يكن أحد من عمد النظام يجرؤ على البوح به فقد كانت النغمة السائدة أنه ليس فى الامكان أبدع مما كان ، ومن هنا أراد الشاه أن يخدع الشعب فكشف نفسه ، وكان هذا فى حد ذاته بداية لمؤشر هبوط قوة النظام ، فقد كان الشاه يريد أن يخدع فاذا فشل فى الخداع دارى فشله بالقمع ، وبعد إخماد الحركات الشعبية الدينية فى صيف عام إعلان الثورة البيضاء كان الحكم الحقيقى فى يد الساواك والجيش ، وخاصة بعد اغتيال رئيس الوزراء حسن على منصور رئيس الوزراء على يد جماعة اسلامية . وقد تبعه هويدا الذى ظلت وزاراته حتى قبيل الثورة ، فلم تكن هناك حاجة لتغيير الوجه السياسى ما دام الشاه قد أصبح يلعب على المكشوف .

كانت آخر تجربة سياسية فى عصر التجارب الفاشلة والدمى التى تمثل دورا مرسوما لا يقنع أحدا بل يعلم الجميع أنه تمثيل لتغطية الطبيعة الحقيقية للنظام ، هى : إعلان نظام الحزب الواحد ، وكان هذا بالطبع زيادة فى مسخ صورة الديموقراطية المفتعلة ، فبينما تنهج نهجا رأسماليا فى الاقتصاد ، تقيم سياستها على ما يسمى بالحزب الواحد وهو أوضح سمات الديكتاتوريات الماركسية ، كان الشاه يحس أن نظامه لا يمكن أن يدوم على ركيزة من الساواك والجيش ، وكانت التجارب السياسية الفاشلة تضيف أبعادا جديدة على الصورة الساخرة لنظام الشاه ، وفى فبراير سنة ١٩٧٥ ، قرر الشاه أن يمارس سياسة أكثر نشاطا تستهدف تجميع التأييد لنظامه وتقوية الدور السياسى الذى تلعبه الجماهير ، ومن هنا أعلن تشكيل حزب « رستاخيز ملت : أى البعث الشعبى » ، وكان الحزب فى الحقيقة بعثا شعبيا ، لكن ليس حول الشاه كما كان يأمل ، فقد كان شيئا هلاميا لا فكر له ، وعن طريق الحزب قام الماركسيون الإيرانيون بحملات دعاية مكثفة للنظام الشاهنشاهى ، وانضم إليه السياسيون القدامى لتسهيل الصفقات والأعمال ، كان الشاه يريد للحزب أن يكون (**بيتا يجتمع فيه كل أفراد الأسرة الكبيرة المسماة بالشعب الايرانى** » (٢٠)**وذلك بالطبع للتباحث مع « رب العائلة » حول الأمور التى تهم (العائلة) ككل** ،وبالرغم من أن صحيفة الحزب والتى سميت باسمه لم تكن توزع عشر الأعداد المطبوعة منها ، إلا أنها كانت منبرا يصب العفن

على أم رأس الشعب الإيرانى المسكين المغرم بالسخرية اللفظية والذى سرعان ما أطلق على الحزب وعلى صحيفته اسم « رسواخيز أى منبع الفضيحة » كما أدرك تماما أن الحزب ليس إلا جناحا مدنيا وظاهرا لمنظمة الساواك ، ومن هنا كانت مقار الحزب هدفا من الأهداف فى عام الثورة .

وفى عام ١٩٧٧ أعلن أن خمسة ملايين إيرانى قد انضموا إلى الحزب ، وكان الهدف بالطبع هو مواصلة إرغام الإيرانيين ممن يعتمدون فى أرزاقهم على الدولة على إعلان ولائهم وتأييدهم للنظام على الملأ ، وكانت فلسفة الشاه بالنسبة للحزب مثل فلسفته بالنسبة لكل إجراءاته وقراراته ، من ليس معنا فهو علينا ، وكعادة الطغاة الذين يخادعون الناس ولا يخدعون إلا أنفسهم ، لم يكن ليفهم أبدا أن الأحزاب الحكومية التى يكونها الطغاة وهم على قمة السلطة لن تجمع حولها إلا أولئك الذين يستفيدون من السلطة فهم منضمون إليها بحزب وبغير حزب ، وعملية احتوائهم قد تمت منذ زمن ، ومن ثم فان الدمى السياسية التى ظهرت فى السنوات الأخيرة لحكم الشاه لم تمنحه الشعبية التى كان يريدها وكانت كقطع الشطرنج تتغير أماكنها لكن داخل الرقعة ولنترك الشاه يحدثنا بنفسه عن آخر تجاربه السياسية :« **يجب تقوية صفوف الإيرانيين ... إننا نقسمهم إلى نوعين : هؤلاء الذين يؤمنون بالنظام الملكى وثورة السادس من بهمن أى الثورة البيضاء وهؤلاء الذين لا يؤمنون بها ، والشخص الذى لا ينضم إلى الحزب الجديد ولا يؤمن بهذه المبادىء الثلاثة ، إما أنه شخص ينتمى إلى منظمة غير شرعية أو مرتبط بحزب توده المحظور وإما أنه خائن ، ومثل هذا الشخص ليس أمامه إلا واحد من طريقين : إما أن يوضع فى واحد من السجون الإيرانية ، أو يستطيع إن أراد أن يغادر البلاد غدا حتى دون أن يدفع رسم الخروج من المطار ، ويستطيع أن يذهب إلى حيث يشاء لأنه ليس إيرانيا ، فهو شخص لا ينتمى إلى أمة أو وطن** »(٢١) .

هكذا بالحرف الواحد ، وكان قمة الجنون الشاهنشاهى وجنون الدعاية الشاهنشاهية أن يعتبر الشاه مرادفا لإيران ، وأن يكون حق المواطنة لمن يؤيد السياسة الشاهنشاهية فحسب ، نوع من الجنون يصاب به الطغاة ، ونوع من الحلول السياسى يحسه الطاغية الذى لا يتخيل أنه من الممكن أن يوجد من يعارضه

بأن كل شيء حتى نفس الوطن قد ذاب وحل فى وجوده هو ، فيصبح معارضه خائنا للوطن وربما حوكم أيضا بتهمة الخيانة العظمى ومن ثم ففى السنوات الأخيرة كان الشاه يعنى إيران وكانت إيران تعنى الشاه ، وكان يكفى أن ينتقد أى إنسان حتى ولو كان أجنبيا مظهرا من مظاهر الفساد الضارب بأطنابه فى إيران ، لكى يتهم على الفور بأنه يهاجم الشاه .

وبينما كان هذا الجنون الشاهنشاهى يثير كل العناصر المتحررة فى العالم ، كانت المباركة الأمريكية مستمرة مهما تغير الرؤساء مهما تغيرت السياسات ، ومن هنا كانت السياسة الأمريكية هى – بتعبير يزدى – التى تمثل الدور الأول على مسرح الأحداث فى إيران ، والواقع أن إيران كانت حقل تجارب للسياسة الأمريكية لما تسميه بمحاصرة الشيوعية والحد من نفوذها ، فمنذ تجربة الأحلاف العسكرية ثم سياسة القواعد العسكرية كانت إيران ونظامها الطرف الذى يسرع لتنفيذ السياسة الأمريكية ، وكانت السياسة الأمريكية بعد فشلها فى الحروب المحدودة وانتهائها كلها بخسارتها تعطى اهتماما بالغا للحد من قيام الثورات الداخلية فى الدول التى تدور فى فلكها ومنها إيران بالطبع ، وكان آخر سفير للولايات المتحدة فى إيران قبل الثورة هو وليم سوليفان وهو من كبار المتخصصين فى سياسة إحلال السلام بالقوة فى بعض المناطق ، كما كان من أقطاب جهاز المخابرات الأمريكية ويحتوى سجل شرفه على دور كبير فى تقوية ماركوس الفلبين فى أوائل حكمه (٢٢) ، وتتلخص سياسة إحلال السلام بالقوة فى تصفية المناطق الحمراء أو المناطق التى يوجد فيها مجاهدون حقيقيون ونقلهم إلى مناطق تكون سيطرة الدولة فيها قوية ، وكانت هناك سياسة أخرى كان سوليفان يعد من كبار المتخصصين فيها وهى تقضى بتعقب المجاهدين فردا فردا ، وكلما شكوا فى أحد قبضوا عليه وأجبروه على الاعتراف على الشبكة التى يتبعها ، وبينما كان يمكن القبض على المشتبه فيهم عن طريق إطلاق الرصاص على أقدامهم ، كانوا يغتالون فى الشوارع على النمط الأمريكى الذى استخدم مرارا فى فيتنام (٢٣) .

وبالرغم من أن شعار كارتر فى معركته الانتخابية هى سياسة الدفاع عن حقوق الإنسان كان من الواضح أنه لم يكن يقصد بها إلا الاتحاد السوفيتى فى سبيل من يسموا بالمنشقين أو فى سبيل توريد اليهود الروس إلى اسرائيل ،

أما عن المسلمين فى إيران فلعل السيد كارتر لم يكن يعتبرهم بشرا ، ومن ثم كان مما لا يحتمل بالنسبة للشعب الإيرانى أن يعلن كارتر دائما « شاه إيران من أفضل أصدقائى » أو يعلن « إن قضية حقوق الانسان تشغل الشاه كثيرا ولا شك أن الأمر قد تحسن كثيرا فى العشرين سنة الأخيرة » أو يعلن فانس « لن تؤثر قضية حقوق الإنسان على العلاقات القائمة بين إيران وأمريكا » ، ومن ثم فان أمريكا والشاه معا كانا قد وضعا فى المرحلة الأخيرة من مراحل النظام مخططا لضرب القوى الإسلامية فحسب ، فقد كان النظام قد بدأ منذ زمن فى تدليل الماركسيين الإيرانيين على أساس أنهم أصحاب رؤية واقعية ، وللتقرب من دول الكتلة الشرقية .(٢٤) .

وبالرغم من كل هذا أرى من الطريف أن أنقل تفسيرا للشاهنشاه عن ديموقراطيته : « ديموقراطيتنا تقوم على منح الحرية الكاملة للأفراد فى المجتمع مع مراعاة عوامل الانضباط فى هذا المجتمع ، وأى نوع من الإخلال بهذه الديموقراطية واستغلال المناخ الديموقراطى لن يقبل ولن يسامح من أجل شرذمة من المخدوعين أو المغرضين أو المجانين ... وهم موجودون فى كل الدول المتقدمة وقد كونوا شبكة إرهاب دولى ، ولا إذن لهم بالعمل فى هذا الوطن ، فإما أنهم جهلة وبلا منطق بالفطرة ، وإما أنهم مضللون عن طريق عمليات غسيل المخ ، وإما أنهم مرضى نفسيا »(٢٥) .

وقبل أن نترك هذه النقطة قد يتساءل سائل : أهذا كل ما يمكن أن يقال عن النظام السياسى للشاه ؟ والجواب : وماذا يمكن أن يقال غير ذلك ؟ يكفى أن الحتمية الشاهنشاهية كانت النظرية المسيطرة على الحياة السياسية فى إيران منذ سنة ٥٣ لكى ندرك أنه لا فرق يذكر بين زاهدى وعلاء وإقبال وأمينى وعلم وحسنعلى منصور وهويدا رئيس الوزراء لثلاث عشرة سنة اللهم إلا فى الأسماء ، فاذا كان النص الذى كان يمثل واحدا ، فبأى شىء يهمنا تغيير الممثلين ؟ المهم أن ندرك أن عناصر القوة لم تكن من الناحية السياسية إلا شيئا واحدا : الحتمية الشاهنشاهية وشخص الشاه ظل الله فى الأرض ، أما السلطة الحقيقية التى كانت تحمى وتنفذ وتقمع فقد كانت فى أيدى الجيش والساواك ، ولم يكن الشاه أكثر من منسق لسياسة الإلحاق الأمريكية ، وأمام الشعب كان

يعالج تفاقم المشاكل باضافة المواد إلى الثورة البيضاء ، فاذا ارتفع اللغط بشأن الغلاء ، أضاف بند مكافحة الغلاء إلى بنود الثورة البيضاء ، وبهذا الأسلوب كان الشاه يعالج المشاكل بالأوامر الشاهنشاهية ذات فعل السحر .

ونستطيع أن ندرك مدى أهمية الجيش بالنسبة للنظام الشاهنشاهى إذا وضعنا فى الحسبان أن الأسرة البهلوية قد وثبت على عرش إيران بعد انقلاب عسكرى (١٩٢١) وأن الشاه قد عاد إلى عرشه بعد شبه انقلاب عسكرى (١٩٥٣) ومن هنا كانت سياسته بالنسبة للجيش مزيجا من الامتنان والثقة والتخوف ، وهذا التناقض يعد من أبرز التناقضات التى تميز سمات الحكومات العسكرية التى لا يرأسها عسكريون ، وتبقى المعادلة الصعبة بين تسمين الكلب أو تجويعه قائمة على الدوام ، وبينما يكون الجيش هو الدرع الذى يحمى يكون فى نفس الوقت القبضة التى تهدد ومصدر الخطورة ، ولم يكن هذا بالطبع يغيب عن خاطر الشاهنشاه الذى لم يكن يقلقه شيء أكثر من الحفاظ على عرشه ، وكان حتى عند إحساسه بالخطر الحقيقى يخشى من إطلاق الجيش على الشعب خشية أن يحس الجيش بأهميته القصوى بالنسبة للعرش فينقلب عليه ... إذن : كيف تحل هذه المعادلة الصعبة ؟ .. لنعد إلى فكرة بنى صدر : دينامية الالحاق ... فاذا كانت أمريكا تسيطر على النظام الشاهنشاهى عليها أيضا أن تسيطر على هذا الوحش – وإن كان قد ثبت فيما بعد أنه وحش من ورق – وعلى أمريكا أن تروضه دائما وتحتفظ بالتوازن الصعب أو بالمصطلح الإيرانى بحيث لا يحترق السفود أو الكباب .

وتثير البربرية التى أبداها الجيش حتى آخر لحظة من لحظات الثورة وقبيل انتصارها النهائى سؤالا هاما : ماذا تم حتى أصبح جيش الشاه من أكلة لحوم البشر ؟ أية عوامل خضع لها الجيش حتى قام إبان عام الثورة بهذه الأفعال الجنونية التى لا يرتكبها جيش من الغزاة احتل بلدا أجنبيا ؟ وبالرغم من أن سيطرة قيم لا إنسانية على بعض فرق الجيش الإيرانى قد تفسر بعض جوانب هذه البربرية ، وبالرغم من أن الجيش كان قد وضع فى حالة استنفار دائم ، وبالرغم من أن بعض الجنود كانوا يعصون أوامر ضباطهم وينضمون إلى الثوار ، فانه لا يمكن إلا أن يشك المرء فى أن الجيش الإيرانى كان قد أسس منذ البداية

على أساس أنه قوة موجهة إلى الداخل لا إلى الخارج ، أى قوة قمع رهيبة لأية حركة داخلية .

ولكى نفهم كيف أسس جيش الشاه علينا أن نعود إلى الوراء خمسة وعشرين عاما ونذكر الانقلاب العسكرى الذى أسقط مصدق وأعاد الشاه إلى عرشه بمساعدة الامبريالية الأمريكية ، وبعدها مباشرة وضع الجيش الإيرانى تحت سيطرة البنتاجون الأمريكى ، أما المستشارون العسكريون الأمريكيون الذين بلغ عددهم فى السنوات الأخيرة أربعين ألفا والذى أعاد الشاه من أجلهم الامتيازات الأجنبية إلى إيران فقد استخدموا كل خبرتهم لتحقيق عدة أهداف أهمها خلق جيش بعيد عن الشعب لا يؤمن بشيء إلا بالشاه ، ولا يؤمن حتى بالله والوطن إلا إذا ذكرا فى إطار الشاه ، وكانت أول خطوة فى تنفيذ هذا المخطط هى محو كل ذرة من التفكير والحرية والوطنية فى صفوف القوات المسلحة ، وبعد القضاء على شبكة حزب توده فى الجيش وإعدام عشرات من الضباط الوطنيين رميا بالرصاص (من أمثال خسرو روزبه وسيامك ومبشرى ووكيلى) كان هذا الأمر ممكنا ، ثم وضع نظام للجيش يقف بكل من لا يطيع الأوامر طاعة عمياء عند أدنى الرتب العسكرية تمهيدا لطرده وتصفيته ثم وضع برنامج تعليمى فى أمريكا لتربية الضباط الإيرانيين فكريا ، كان هذا التدريب يحتوى على عمليات غسيل مخ وحرب نفسية لا معرفة بالتكتيكات العسكرية الحديثة ، وكانت هذه الدورات التدريبية التى يجتازها الضباط العظام مرتين خلال حياتهم العسكرية عبارة عن عسكريات الحروب الداخلية ومقاومة حزوب العصابات وحروب الشوارع والمدن وهى أمور ليست فى حاجة إلى جيوش منظمة على الاطلاق ، كان الهدف تكوين جيش محلى ، نموذجه الراقى جدا فرق حماية الشاه المسماة بالخالدين « جاويدان » وكانت كلها من الضباط منذ سنة ١٩٦٥ حين حاول أحد الجنود اغتيال الشاه ، كان الهدف من تأسيس الجيش تأسيس نظام لقتل الإخوة لا تأسيس جيش يرد الأعداء ويحفظ الحدود .

حتى البنتاجون قالها عدة مرات تلويحا وتصريحا أن جيش الشاه لو تسلح حتى أسنانه بأسلحة غير ذرية فلن يستطيع أن يصمد أقل صمود أمام السوفيت وأن كل ما يمكن أن يتأتى منه خارج الحدود لا يزيد على قمع بعض الحركات التحررية فى المنطقة مثل حركة ظفار .

ولم يقم التدريب الأمريكى المستمر بمحو كل ما يتعلق بالفكر والمنطق والاستدلال عند أولئك الذين بلغوا أرقى المراتب فى هذا الجيش فحسب ، بل وقام بمحو قوة الابتكار والارادة والتصميم وقدرة القيادة وجعلها فيهم عند أدنى درجاتها .. فى مثل هذا النظام وبمثل هذا التدريب يمكن أن يخرج قادة أشد قسوة وغلظة على مواطنيهم من أى أجنبى ... من الممكن أن يخرج مخلوق مثل غلامرضا اويسى ، كان يتظاهر فى وقت من الأوقات بأنه متصوف لكنه عند اللزوم تبدل إلى واحد من أكبر سفاحى العصر الحديث ، أو يخرج قائد آخر قيل عنه انه مبتكر وذكى ويسقط عند قدم الشاه يطلب منه الإذن بأن يسوى طهران بالأرض (٢٦) .

إن المعادلة الصعبة التى ذكرتها آنفا من الممكن أن تفسر بأن الجيش كان يتوسع كما وكيفا ، أى عددا وسلاحا ، لكن بدون عمق وبدون أيديولوجية ، بل إن من أهم الانجازات التى قام بها الشاه هو أنه استطاع بمساعدة الأمريكيين أن يجر العسكريين إلى حضيض الفساد ، وبصرف النظر عن الوسائل المخربة الروحية والمعنوية والتعليمية ، روج بينهم ذلك العامل الذى يخرب كل شيء من البداية وهو الاهتمام بالماديات ، بسخائه المفرط بالنسبة لهم وتغافله المفرط أيضا بالنسبة لفسادهم (٢٧)هذا فضلا عن « النفخ » المعنوى المبالغ فيه فكثيرا ما كان الشاه يخطب فى الأمة مادحا الجيش ناعتا أفراده بالأبطال لمجرد أنهم دمروا قرية أو قبيلة أو أخمدوا مظاهرة ، ومن ثم كان الجيش هو ذلك القوام الهلامى الذى لا يستند على قاعدة شعبية أو فكرية ولا غاية له ولا هدف ، وإلى جوار ذلك كان الجيش خير تمثيل للبنية الطبقية الإيرانية المغرقة فى القدم ، فكانت الهوة التى تفصل بين رتبة ورتبة تجعل كل رتبة طبقة قائمة بذاتها بكل امتيازاتها ، ولا شك أن هذا العامل قد استغل خير استغلال من القوى الثورية ... والا : يبقى وقوف هذا الجيش المهول عاجزا عن فعل أى شيء للشاه الذى كان يقسم بحياته قبل الله وقبل الوطن لغزا لا حل له ولا تقترب منه الأقلام كما حدث بالفعل .

وغداة الانقلاب المدعوم من المخابرات الأمريكية ضد مصدق دشن مشروع كبير من أجل تحديث الجيش الإيرانى وذلك فى إطار التحديث الذى كان يحدث على مستوى الدولة عموما ، وكان المقصود بهذا التحديث جعل الجيش « القبيلة »

ذات الامتيازات فى الأمة ، وهكذا لم تنفق المبالغ الضخمة فى الخارج لشراء المعدات العسكرية فحسب ، بل إن أبواب البلد فتحت على مصاريعها لكل أنواع الاستيراد كما يتمنى العسكريون أصحاب الامتيازات . وبالتدريج كانت الصلة تتوثق بين الجيش والانتاج ، وكما سنرى كان كبار القواد ينالون أنصبتهم من الغنيمة كاملة ، ويؤدى تحويل رءوس الأموال الضخمة من الانتاج الداخلى إلى الاستيراد إلى خلق مؤسسات صناعية وهمية لا تستخدم الا لترتيب شكل المنتجات المستوردة وإلى ركود أنواع الاقتصاديات المدعومة برأس المال الداخلى ، كما أن الأجور المرتفعة وتكاليف الصيانة وأسعار السلع المستوردة تؤثر على توزيع الدخول وتخلق طبقة طفيلية داخل الطبقة المسيطرة تكون ذات دخول مرتفعة جدا وهذه الشرائح المتأثرة بطريقة الحياة الأمريكية تلح فى طلب خيرات وخدمات يعجز الاقتصاد الإيرانى عن إنتاجها (٢٨)فضلا عن أن جانبا كبيرا من الأموال كان يهرب إلى الخارج خاصة أمريكا .. ونظرة إلى تعداد كبار الضباط الذين اشتروا أراضى فى أمريكا يفسر جانبا من جوانب النشاط الرئيسى للجيش الشاهنشاهى المظفر .

وطبقا لهذه السياسة يتغير الجيش فى قدراته وتركيبته الاجتماعية وفقا للتجديد التكنولوجى ، وتلحق كوادر هذا الجيش القيادية وأولئك الذين ينفذون أوامر الخبراء الأمريكيين بأوساط معينة حيث الامتيازات والمركز يتعلقان بروابط إيران وأمريكا متعددة الجوانب ، روابط تشكل فيها أمريكا القطب المسيطر ، ويصبح الرأس أو القيادة العليا للجيش الامبراطورى أمريكيا ، والدليل على ذلك قانون الامتيازات الذى وافق عليه المجلس النيابى ومهد بذلك للسيطرة التامة للولايات المتحدة (٢٩)ومن البديهى أنه فى كل مرحلة من مراحل الالحاق عرف الجيش الإيرانى أيضا حملات تطهير الضباط ، ولهذه التطهيرات أسباب سياسية واجتماعية واقتصادية وتقنية ، ولها تفاعل مع الصراعات الداخلية والخارجية فى الجيش ، ومن خلال عملية الالحاق بالجيش المسيطر (الأمريكى) وتبعيته للخارج يصبح الجيش الإيرانى فى تناقض مع تطلعات الشعب ، كما أن احتياج المسيطر لإيران يتطلب تغييرا مستمرا فى البنى الاجتماعية ، وهذا هو السبب الحقيقى للثورة المسماة بالبيضاء ، والنفقات المتمركزة والآخذة فى التمركز تدفع نحو الخارج حجما متناسبا من ثروات البلد ، والمقاومة الاقتصادية لا محل لها فقد حطمتها الثورة البيضاء كما سنرى بعد أن هدمت القواعد التى ترتكز عليها (٣٠)والجيش الإيرانى هو أداة

هذا التفكك ، وتصبح العلاقات بين الجيش والأمة علاقات عنف أكثر وأكثر .

وكما يُراكم الجيش الوظائف فانه يزيد من قدرته فى المجالات التنفيذية والتشريعية ويمد من سلطاته القضائية عبر التوسع فى سلطة المحاكم العسكرية وصلاحياتها والمراقبة التى يفرضها على السلطات المدنية ، وهو يشرف أيضا على الادارات العامة حافظا للعسكريين مراكز القيادة ، كما أنه بعد الثورة البيضاء يخلق بشكل متواز مؤسساته الخاصة من قبيل المؤسسات التربوية (جيش التعليم) والصحية (جيش الصحة) والانشاءات (جيش التعمير) بل والمؤسسات الدينية (جيش الدين) وكل هذه الجيوش أسست طبقا لقرارات الثورة البيضاء ، وإلى جوار هدف السيطرة ، كان الهدف أيضا نقل بعض بنود ميزانية الوزارات الأخرى إلى الجيش (٣١) .

كما كان هذا الجيش يطور مراقبته للمجتمع ويوسع مجال عمله خارج حدود البلاد وهذه المراقبة ليست مجرد مراقبة عامة ، إنها عملية تخريب كاملة تشكل التجمع الوحيد المنظم جيدا فى البلد ، والجيش سيدها يمتص القوى المحركة للمجتمع اقتصادية كانت أو اجتماعية أو ثقافية ويسحقها ، إنه يتكون كمجموعة مسيطرة داخل تشكيلة اجتماعية حيث تزداد اللامساواة ، فهو قطب تراكم السلطة وهو الوسيلة والقاعدة الضرورية ليقسم المجتمع إلى قسمين : قسم ملحق وتابع وقسم لا يدمج ، ولا علاقة بينهما إلا علاقة العنف (٣٢) .

كان الجيش علاوة على أنه أداة تخويف وبطش ووسيلة إلحاق بالقوى المسيطرة يعامل كمنظمة اقتصادية واجتماعية ، فمن الناحية الاقتصادية كان مجالاً للانفاق فى عدد من المشاريع ، وكانت ميزانية الدفاع سنة ١٩٧٦ مثلا تساوى ميزانية الدفاع فى الصين الشعبية ، وكان جزء كبير من ميزانية الدفاع يذهب كدعم لخدمات الجيش وحتى يجد ضباطه أغلى السلع بأرخص الأسعار ، وكان للجيش تعاونياته وبنوكه مثل بنك سبه (أسس ١٩٢٥) والمؤسسة التعاونية للقوات المسلحة (أسست ١٩٤١) ، وكان دور الجيش الواضح جدا اجتماعيا فى عملية قمع القبائل (التى تمت تحت اسم إسكان العشائر) ، كما كان الجيش وسيلة فى تطبيق برنامج تفريس إيران ، وكانت كل الكتابات التى تصدر عن الجيش تكتب بلغة فارسية خالية تماما من الألفاظ

العربية (تمثل الألفاظ العربية حوالى أربعين فى المائة من اللغة الفارسية)(٣٣) .

ولكى ندرك اتساع مكانة الجيش فى النشاطات القومية العليا علينا أن نبرز بالتفصيل سلسلة مراكز الانفاق العسكرى المباشر وغير المباشر ، وهى تشمل نفقات التجهيزات العسكرية والاستثمارات فى معامل التصليح (صيانة الطائرات فى مهر آباد وصيانة السفن فى بندر عباس) ، ونفقات تأهيل العسكريين ونفقات تجديد الأسلحة وتطويرها ومرتبات الخبراء العسكريين الأجانب ، ونفقات البنى التحتية اللازمة لهذه الأمور : السكك الحديدية والمدرجات والمرافىء والمعسكرات والملاجىء الواقية ... الخ ، ثم النفقات الملحقة بالعمليات العسكرية داخل البلاد وخارجها ، وتزداد هذه النفقات بسرعة ، وتبلغ ارتفاعات رهيبة وذلك طبقا لدرجة إلحاق الجيش الإيرانى بتشكيلات الحرب الأمريكية والذى يتطلب أن يبقى دائما فى حالة تأهب ، يضاف إلى هذا النفقات المتعلقة بالدين الخارجي والنفقات المبذولة للحفاظ على النظام داخل الجيش وخارجه ، ومن ثم كان أعلى معدل فى زيادة النفقات يوجد داخل الانفاق العسكرى فقد كان يزداد بمعدل ٢٦٪ سنويا .

وكان مجموع النفقات العسكرية يتجاوز طاقة التوفير فى الاقتصاد الايرانى ، ومن ثم كان الاقتصاد الوطنى يضطر إلى الاستدانة من الخارج أو اللجوء لرءوس الأموال الأجنبية ، وتعد النفقات العسكرية هى القوة المحركة لتبعية الجيش والاقتصاد الإيرانى ، والتفاوت المتزايد فى المستوى التقنى لكل من البلد والجيش يحدد أكثر وأكثر العلاقات بين الجيش والاقتصاد الوطنى ، وفى كل مرة يتجدد السلاح تزداد الهوة اتساعا بين المستوى التكنولوجى الوطنى والمستوى العسكرى . (٣٤) على كل هذه المستويات ، كانت إيران هى الصيد السمين والمضمون للولايات المتحدة ، فهى تجبر الإيرانيين على دفع ثمن التسليح المرتفع ، ولا تحرم البلد من ثرواته فحسب بل وتربط جيشه بها وتجعله فى تناقض تام مع الشعب ، ولم يكن دور الجيش بالنسبة لأمريكا أكثر من دور عميل يؤدى أثمان ما يشتريه أيا كان نقدا وعدا ، وهو جيش ينفق ما يوازى عشرة مليارات دولار سنويا ، ليس هذا فحسب ، بل وإداراته فى أيديهم بحيث لا يستطيع أحد الاقتراب منه أو المساس به دون إذن من المستشارين

الأمريكان ، بل ولا يستطيع الشاه نفسه أن يحدد طائرة ما يركبها طيار ما فهذه مهمة الأمريكيين (٣٥) وكانت هذه النتيجة بالطبع تخريبا تاما للاقتصاد الإيرانى ، فقد كان الصعود المستمر فيما يحتاجه الجيش من الميزانية يهدد فعليا بتوقف بعض المشروعات المدنية ، بالرغم من الارتفاع المستمر فى عائدات النفط ، كان هناك عجز مستمر فى الميزانية . (٣٦)

كانت أمريكا بالطبع لا تعتمد على جيش إيران فى الدفاع عن مصالح الغرب فى المنطقة كما أشيع وكما يعتقد بعض قصار النظر ، فدور الجيش الإيرانى فى الدفاع عن المنطقة كان دورا معنويا إن صح التعبير ، أما هذا التسليح فقد كان ذا طابع تجارى فى المقام الأول فقد كانت صفقات السلاح فرصة استثمار لأمراء البيت المالك وكبار رجال الحاشية(٣٧) ومن وجهة النظر الوطنية ، كان ما تدركه المعارضة أن ما يهم أمريكا فى المقام الأول هو تصريف أكبر قدر من السلاح المخزون لديها فى مقابل البترول الإيرانى ، كان الطلب الملح على السلاح من أمريكا بمثابة « كنز لا ينضب بالنسبة لصناعة السلاح فى امريكا » كما عبرت الواشنطن بوست ، وكانت « عمليات الشاه فى شراء الأسلحة من أمريكا تتفق تماما مع الأهداف الاستراتيجية لها » كما عبرت النيوزويك (٣٨)فاذا أضفنا إلى ذلك أن المستشارين المسئولين عن شراء الأسلحة كانوا من الأمريكيين آلذين يتقاضون رواتب ضخمة من الحكومة الإيرانية لتسويق السلاح الأمريكى (٣٩)علمنا الأبعاد التى تثير السخرية للأمر كله .

كل هذه النفقات ، ولم يقدم جيش الشاه « البطل » من أمجاد خارج الحدود إلا الحرب فى ظفار ، وبالرغم من مضاعفة مرتبات الجنود ستين ضعفا علاوة على المبالغ التى كانوا يتقاضونها عند الرحيل ، وبالرغم من أن دعاية الشاه كانت تصور لهم الأمر بأنه لا توجد حرب فى ظفار ، كان الكثيرون يحجمون عن السفر ، وبينما كان عدد ثوار ظفار لا يزيدون عن الألفين ، كانت قوات إيران وحدها تبلغ اثنى عشر ألف جندى إلى جوار قوات إنجليزية وأردنية وسعودية ومرتزقة باكستانيين (٤٠) وهناك من يرى أن الجيش حارب أصلا فى ظفار للتدريب على حروب العصابات ، وبالرغم من ضيق المجال هنا بالنسبة لتفصيل سلاح الجيش الشاهنشاهى ، هناك رأى بأن معظم سلاح هذا الجيش كان مما

يختص بحروب المدن على أساس أن الشاه قد يغتال فى أية لحظة فيتدخل الجيش (٤١)

هذا الكيان المهول الذى أسس أصلا كأداة للقمع ، والذى طارت شهرته فى الآفاق كرابع جيش فى العالم ، ولعلها من قبيل الحرب النفسية ضد شيوخ الخليج ، كان بدوره لا ينجو من يد البطش . ففى سنة ١٩٥٨ اتهم الجنرال قرنى رئيس المخابرات العسكرية بالتآمر ضد الشاه ، وفى سنة ١٩٦١ طرد الجنرال تيمور بختيار أول رئيس لجهاز الساواك وأبعد كسفير لإيران فى إيطاليا ثم اغتيل فى العراق بتهمة التآمر على الشاه ، وكانت حركة ١٩٦١ فى الجيش من الخطورة بحيث شملت عددا كبيرا من القادة من أمثال عبد الله هدايت قائد الحرس الامبراطورى والرجل الثانى فى الجيش بعد الشاه والجنرال علوى كيا رئيس المخابرات العسكرية ، وفى سنة ٦٣ طرد ثلاثمائة ضابط من الجيش ، وبعد هذه الفضائح كان الضباط الذين يشك فى درجة ولائهم يحاكمون بتهمة الفساد أو استغلال النفوذ ، وبالرغم من هذا التدليل الزائد حوكم ثلاثة من الجنرالات وكولونيلان سنة ٧٤ بتهمة الفساد ، وفى سنة ٧٦ حوكم قائد البحرية وحكم عليه بالسجن خمس سنوات .(٤٢)

كان الجيش بدوره يعانى من حالة الفصام الشاهنشاهى ، كان يسعد الشاه حقا أن يستعرض قواته البحرية والجوية والبرية بشكل نازى ، وأن يحلم بالامبراطورية القديمة ويدعى حقوقا ليست له فى الخليج ، ويصاب إعلامه بالجنون إن ذكر الخليج باسم الخليج العربى ، ويتبجح أمام سادته الذين يفهمونه جيدا ويفهمون طرازه فيدعى أنه قادر على التصدى للسوفيت .... لكنه عندما كان يخلو إلى نفسه كان الخوف يعذبه أنه ربما انقلب عليه هذا الجيش فى يوم من الأيام ، وكانت محاولات اغتياله لا تنتهى ، وفى المرة الأخيرة كانت المحاولة على يد جندى من جنود حرسه الخاص ، ومرات حومت الطائرات فوق قصره ، فما الذى فعله حقا لكى يحتفظ بهذه المعادلة الصعبة ؟ تجريد الجيش من كل مضمون فكرى ، وضع الجيش تحت السيطرة التامة للسادة الأمريكيين ، ثم المستشارين الاسرائيليين ، اذلال الشخصية العسكرية الإيرانية ، الرقابة الشديدة على الجيش والفتك عند أول

بادرة خطر ومن ثم : كان الجيش أداة قمع وتخويف ، أجل على المستوى النفسى ، وعندما جد الجد ، لم يستطع أن يحمى مصالح سيده ، فقد كان لقادته مصالحهم وكلها فى الخارج ، وكانوا قد ترهلوا وأصيبوا بما يصاب به المرفهون وأصبحوا من ذوى الاهتمامات الأخرى ... ومن ثم استطاعت الجماهير أن تقوم بدورها تماما كما سنرى .

الفصل الثانى

الساواك
الموت فى كل مكان

« إذا لم نستطع تحطيم ما يدفع الإنسان من داخله إلى المقاومة ، فانه لن يمكننا السيطرة على الثورة أو على الروح الثورية » .

أحد كبار موظفى الساواك .

تعد الساواك – والكلمة اختصار لـ (سازمان اطلاعات وامنيت كشور) : منظمة المخابرات وأمن الدولة – من أشهر أجهزة القمع العالمية ، ولا يعنى هذا أنها كانت أعتاها ، فمثل هذه المنظمات تعمل الآن فى شبكة شبه عالمية ولا تتميز واحدة عن الأخرى لا فى الأسلوب ولا إجراءات القمع ، إلا أن الساواك كان أكثرها افتضاحا ، فان المنظمات الأخرى تعمل فى أطر محدودة ، وضد جماعات أو تيارات محددة ، بينما كان جهاز الساواك يمد أذرعه الرهيبة وظله الكئيب على كل الشعب الإيرانى بل على ملايين الإيرانيين الذين انتشروا فى أقطار الأرض هربا من جنة الشاه الموعودة . وقد تراعى المنظمات المشابهة الأخرى السرية فى عملها ، أما الساواك الإيرانى فقد كان يعمل على المكشوف ، وكان الهدف المحدد هو إرهاب « المدنيين » بحيث لا يفكر « برىء » واحد فى أن يحيد عن الطريق .

ثم إن الساواك الإيرانى يعد علامة استفهام كبرى ، ولا يقل دوره فى الثورة الإيرانية عن دور الثوار أنفسهم ، فقد استطاع بعتوه وجبروته وعدم مراعاته لأبسط قواعد الخجل تعبئة شعب بأكمله . وأثبت فشله فى قمع الثورة تلك

الحقيقة البديهية التى يصر الجبارون على تجاهلها ، وهو أن القمع واستخدام الجهال لم يعد بعد وسيلة مجدية ، فلو أن قوى الجبارين تستخدم بدلا من مؤسسات القمع المسماة بالأمن أو أمن الدولة وهى لا تهتم فى الحقيقة إلا بأمن الجبار والطاغية ، لو أنها استخدمت بدلا منها جماعة من العلماء المتخصصين الموضوعيين لاستطاعت أن تدفع عن نفسها شرورا كثيرة ، ولكانت الحكومة الإيرانية قد استطاعت أن تدرك عوامل اللغط ونذر الثورة ليس قبلها بعامين كما يقال بل قبلها بعشرة أعوام ، لكنه الدرس الذى لم يعه نظام الشاه فجرف مع التيار . ووكالات المخابرات أو مؤسسات أمن الدولة وما إلى ذلك من الأسماء التى تطلق على منظمات الجاسوسية فى الدول الكبرى ومنظمات قمع الشعوب فى الدول الصغيرة لا تملك فى كثير من الأحيان تجاه قوة الشعوب إلا التجاهل ، لا لشىء إلا لأنها باعترافها بحركات الشعوب إقرار بعجزها وعدم قدرتها على القيام بمهامها الأصلية التى أسست من أجلها ، وهذا الضعف الطبيعى جدا فى أمثال هذه المؤسسات نقطة استغلال عظيمة فى حركة الثورة التى تبدأ عادة بأفراد ثم تتسع .

فاذا أضفنا إلى هذا أن الساواك الإيرانى هو الآخر لم ينج من عملية الالحاق الأمريكى ، وأنه كان يخضع مباشرة لاشراف وكالة المخابرات الأمريكية ، وينعم بخبرة « الموساد » الاسرائيلى تلميذ « الجستابو » النازى النجيب ، أدركنا أن منظمة الساواك الإيرانى لم تكن منظمة معلومات بالمعنى المفهوم بقدر ما كانت قوة خفية يسلطها النظام على من يشاء حيثما يشاء وأنى يشاء دون سبب مفهوم ، وإذا علمنا أن أمثال هذه المنظمات لا بد وأن تكون على علم تام بالبنية الاجتماعية والأصول الفكرية للمجتمع الذى تعمل فيه وأنها تقوم فى الحقيقة على أسس نفسية تنبع من فهمها لنفسيات الشعوب التى تتعامل معها ، أدركنا نقطة الضعف التى كانت موجودة فى الساواك الإيرانى الذى كان يطبق وسائل أمريكية مجربة فى دول أمريكا اللاتينية وآسيا لكنها قد لا تصلح أبدا مع الشعب الإيرانى ، ومن ثم فان تجارب الساواك فى القمع كثيرا ما كانت تواجه بنماذج أسطورية فى الفداء والشهادة .

كان تأسيس الساواك الإيرانى نتيجة حتمية لأحداث ١٩٥٣ وسقوط

مصدق ، وكان أساسها إدارة المخابرات بفرعيها العسكرى والمباحثى الذى كان تحت قيادة الجنرال تيمور بختيار ، وفى سنة ١٩٥٧ كان تأسيس الساواك قد تم ، كان من الواضح منذ البداية أن هدفها الرئيسى هو حماية النظام ، وأنها مؤسسة ذات طبيعة خاصة ، فهى تتبع مكتب رئيس الوزراء مباشرة ، ورئيسها فى درجة نائب رئيس الوزراء ، وعند التأسيس كانت أهم مسئولياتها مناهضة الحركات العسكرية المضادة والجرائم العسكرية والمحاولات التى قد تقوم لاغتيال الشاه أو أحد أفراد الأسرة الحاكمة وتحقيق الجرائم السياسية أمام المحاكم العسكرية .(٤٣)

وفى فترة التصفيات (١٩٥٣ - ١٩٦٣) لم يكن للساواك نشاط علنى يذكر ، أو بمعنى أصح كان نشاطه محصورا فى حدود المهمة التى أسس من أجلها ، ومن هنا كان الجيش هو الذى أحبط ثورة ١٩٦٣ ، وقد رأس تيمور بختيار الساواك منذ إنشائه حتى طرد (ثم اغتيل فى العراق على يد الساواك أيضا سنة ١٩٧٠) ، وتلاه حسن پاكروان الذى انخفضت أسهمه ثم طرد عقب ثورة ٦٣ ، ورأسه حتى قبيل الثورة نعمت الله نصيرى ، وكان يوصف أنه فى قسوة بختيار لكنه يفتقر إلى المزايا التى كان يتميز بها پاكروان (أى مزايا ؟) .

ومن الخط البيانى لتطور ميزانية الساواك يتضح لنا تطور أعمالها واتساع نشاطها فقد كانت ميزانيتها المعلنة ٢٢٥ مليون دولار (عامى ٧٢ و ٧٣) ارتفعت الى ٣١٠ مليون دولار سنة ٧٤ وتجاوزت ٥٠٠ مليون دولار بعد ذلك ، وباعتراف الشاه نفسه ازداد عدد المتعاملين مع الجهاز من ٣١٢٠ سنة ٧٢ إلى ٦٠ ألفا سنة ٧٤ ، وفى سنة ٧٦ ذكرت صحيفة النيوزويك أن عدد الذي يمدون الساواك بالمعلومات يصل إلى ثلاثة ملايين إيرانى وهو رقم متواضع جدا إلى جوار الرقم الذى كان الإيرانيون أنفسهم يذكرونه وهو عشرة ملايين ، وإن دل على شيء فانما يدل على مدى الرعب الذى نجح الساواك فى إلقائه فى قلوب الإيرانيين .

وفى قمة توسعه ، كان جهاز الساواك ينقسم إلى تسعة أقسام تتصل بالجاسوسية ومكافحة الجاسوسية والمخابرات العسكرية ومكافحة الارهاب ونشاط الأفراد (وكان تحت إشراف ناصر مقدم ، آخر رئيس للساواك بعد عزل

نصيرى وإبعاده كسفير لإيران فى باكستان فى عام الثورة) ، وكان أهم ضباط هذا القسم (برويز ثابتى) الذى تدرب فى إسرائيل ، كما اشتمل الجهاز على أقسام للرقابة على المطبوعات والسوق والأجانب فضلا عن القسم الذى ساهم مساهمة فعالة فى فضح النظام وهو القسم الخاص بنشاط الإيرانيين فى المنفى .

كان من الواضح أن الساواك جهاز سرى ذو حضور علنى ، وداخل إيران كان أمثال ثابتى يعقدون المؤتمرات الصحفية ، بل وكانت المبانى التى يستخدمها الساواك معروفة لدى الجميع ، وكان عملاء الجهاز منبثين فى كل مصنع وإدارة حكومية ومدرسة وجامعة ومتجر عام وشركة وفندق وجامع وشارع ، كان حضورهم فى أى تجمع بديهيا وتحصيل حاصل ، يوجدون فى كل مكان يطلق عليهم الإيرانيون إسم « ازما بهتران »وهو اللقب الذى يطلق أيضا على الجن والشياطين ، وكان هذا الحضور المفترض سببا كافيا لبث الرعب ، وكان أى صوت يرتفع بالنقد فى أى مجال حتى فى المجالات البعيدة تماما عن السياسة ثم لايختفى يتهم صاحبه على الفور بأنه « منهم » وأنه فعل ذلك لكي يستدرج الأعداء الحقيقيين للنظام ، حتى الوزراء والشخصيات الكبرى فى الدولة كانوا يدركون تماما أن من وضع الساواك عينيه عليه لن ينجو إلا بتدخل الشاه أو الشاهبانو شخصيا .(٤٤)

وكان الساواك يرسل الخطوط العامة لتعليمات الرقابة إلى الصحف كل شهر وهذا فى الأيام العادية ، أما فى أوقات القلاقل والاضطرابات فقد كان الحضور مستمرا ، وفى سنة ٧٥ أغلقت الحكومة ٩٥٪ من الصحف والمجلات الإيرانية ، كما كانت دور النشر تواجه صعوبات لا تحتمل ، فان سلطات الرقابة التابعة للساواك لم تكن لتبحث مسألة التصريح بنشر كتاب أو عدم نشره إلا بعد طبعه بالفعل ، وهذا يعنى أن على الناشرين أن يتحملوا المخاطرة بعدم السماح للكتاب بالتداول بعد طبعه وبعد تحمل نفقات الطبع ، والنتيجة الطبيعية لذلك هى الابتعاد عن نشر الأعمال التى تحمل ولو نسبة واحد فى المائة احتمال صدور قرار بعدم نزولها إلى السوق ، وفى المقابل كان للساواك نشرياته ومجلاته التى يمولها ويستخدم فيها بالطبع أولئك الذين يثق تماما فى ولائهم للنظام .(٤٥)

والحديث عن الإرهاب الفكرى الذى كان جهاز الساواك يمارسه يطول ، فكلما كانت تجربة من تجارب الشاه السياسية تفشل ، كان يتوقع السخرية من المثقفين الإيرانيين وهم جد مغرمون بها ، ومن ثم كان جهاز الساواك يتكفل بعمليات التصفية الجسدية المنفذة باتقان مذهل بحيث يبدو الأمر بالفعل سكتة قلبية (يقال أن هناك بعض العاملين فى الساواك متخصصون فى احداث السكتات القلبية .. ولست أفهم بالطبع إلى أى شيء كان يتعرض الضحية حتى يتوقف قلبه عن النبض ..) وتحتوى قوائم ضحايا الساواك على عدد كبير من المفكرين والكتاب من أشهرهم جلال آل أحمد الذى مات بالسكتة القلبية فى كوخ له على بحر الخزر ، وصمد بهرنگى وهو كاتب شاب مات غرقا فى نهر ارس بينما كان من المشهور أنه كان يجيد السباحة ، وقد يبلغ هذا الارهاب الفكرى حد الاحالة إذ كان الخطباء الدينيون المشكوك فى ولائهم للسلطة يمنعون من الخطابة فى المآتم والمساجد والمناسبات الدينية ، وكان الشعراء ممنوعين من ذكر اللونين الأسود والأحمر فى قصائدهم على أساس أنهما رمز لجناحى الثورة ، وكثيرا ما حورب كتاب شرفاء عن طريق نشر مقالات منسوبة إليهم تتحدث عن موضوعات مستهجنة مثل الحرية الجنسية وإباحة الاجهاض والدعوة إلى تقنين تناول المخدرات ، وعندما احتجت الشاعرة صفار زاده على نشر مقالة باسمها فى جريدة اطلاعات ، لم تنشر الجريدة الاحتجاج ، بل نشرت خطابا إلى الشاعرة فحواه أن نشر مقالها المذكور قد أوقع الجريدة فى حرج شديد ، كما كانت المقالات تزيف كما تزيف اللقاءات الصحفية على ألسنة الأساتذة من الزوار الأجانب فى مدح النظام الشاهنشاهى والتقدم « المذهل » الذى أحرزته إيران « تحت قيادة الشاه الحكيمة » ، أما المحاضرات والندوات واللقاءات العلمية المفتوحة فحدث ولا تسل ، وكثيرا ما هاجمت الشرطة الجامعة لفض محاضرة أو ندوة لا صلة لها بالسياسة لأنها لم تحصل على إذن مسبق من الساواك ، وما حدث للدكتورة « هما ناطق » نموذج فى هذا المجال ، فقد هوجمت ندوة لها فى الجامعة ثم اختطفت وضربت ، ثم روج منشور يهاجمها ويتهمها فى شرفها ويصفها بأبشع النعوت ، ولما احتج زملاؤها استدعوا جميعا وتعرضوا للمهانة ، كما كان الساواك يدس السكرتيرين على العمداء والوكلاء والمديرين ، كما كان من الممنوع منعا باتا لقاء الزعماء

الدينيين ولقاء السجناء المفرج عنهم ، وكان من ضروب المستحيل الاتصال بالمنظمات الاسمية لحقوق الإنسان فى إيران أو اتحادات الكتاب أو الجمعية الإيرانية للدفاع عن الحريات ، وكان هذا سببا كافيا للطرد من البلاد إذا كان الذى يحاول ارتكابها أجنبيا .(٤٦)

وما حدث للمفكر العظيم الدكتور على شريعتى نموذج فى هذا المجال : على شريعتى الحائز على دكتوراه الدولة من السوربون فى العلوم الاجتماعية يطرد من الجامعة وينفى كمدرس فى مدرسة ابتدائية فى قرية ، ثم ينتقل إلى طهران فيحاضر فى حسينية الارشاد فيسجن ، ثم يفرج عنه فيطلب منه مغادرة البلاد فيغادرها إلى لندن ، ولا يمهل فيموت فى اليوم التالى بالسكتة القلبية (؟) ، وتمنع الحكومة كتبه فتتداول سرا ، ويكون جزاء من يقبض عليه وهو يقرأ هذه الكتب المضللة السجن أو الاعدام ، ولماذا شريعتى ؟ لقد كانت كتب بازرگان وطالقانى تفرض على السجناء من الماركسيين لهدايتهم بينما كان طالقانى وبازرگان سجينين فى زنزانات مجاورة ، حتى كتاب نهج البلاغة للامام على وهو كتاب لا يكاد بيت يخلو منه فى إيران يعد أيضا من « الكتب المضللة » التى تعد قراءاتها سببا فى السجن والنفى والتعذيب وربما الاعدام .(٤٧)

كانت الفلسفة التى قام عليها الساواك منذ البداية « **أن الشعب قد مات** » ، وفى السنة الأولى لتأسيس الساواك نشر أحد الكتاب مقالا فى مجلة ديبلومات تحت عنوان « ماذا يريد الشعب » ؟ وعلى الفور استدعاه العميد كيانى مدير إدارة المطبوعات فى الساواك وقال له : ألم تقرأ تعليمات تيمور بختيار ؟ وأشار إلى توقيع بختيار أسفل المقال وقال : اقرأ التعليق ، وقرأ الكاتب التعليق : استدع فلانا وقل له ان الشعب قد مات .(٤٨)

وهكذا ففى الحياة العادية وعلى مستوى عموم الشعب أحدث الساواك فى حياة كل الناس رعبا شديدا ، كان كل فرد من الأسرة يشك فى أخيه ، وعندما كان الجهاز يحس بقدر من الهدوء كان يفسره بأنه لا محالة يخفى مؤامرة جديدة ضد النظام أو تشكيل جماعة فدائية جديدة ، فكان يصاب بالرعب خشية أن يفاجأ بما ليس فى الحسبان وهنا كان يقوم بحملة ضارية لخنق كل همسة ،

وبدون أى دليل وبحجة البحث عن المنشورات أو السلاح ، كانت قواته تهاجم المنازل فى منتصف الليل وتهتك الحرمات ، وإذا ارتفع صوت احتجاج كان يواجه بالضرب ، وفى مرحلة من المراحل كانت قوات الساواك تقف فى مفترقات الطرق والشوارع والميادين ، وتهاجم كالكلاب المسعورة ودون إنذار الرجال والنساء وتفتش جيوبهم أو حقائبهم بحثا عن المنشورات ، ثم تضربهم بالهراوات وكعوب البنادق وتفر ، وكان لا يمكن لأحد أن يتقدم بالشكوى إلى جهة قضائية وإلا كان مصيره السجن بالطبع ، إلى هذا الحد بلغت عمليات القمع توقحا ووحشية وعلنية ، فقد كان الجهاز يعتبر كل فرد من أفراد الشعب مشروع ثائر وخارج « بالقوة » على السلطة .(٤٩)

واذا كان الحال هكذا فى الشوارع على رءوس الأشهاد ، علينا أن نتصور الوضع داخل السجون الإيرانية ، فلم تكن مدينة إيرانية تخلو من سجن سياسى من أهمها السجون الموجودة فى طهران : كميته والقصر وأوين وقزل قلعه ، وكان اتساع إيران جغرافيا ووجود درجات الحرارة المختلفة فيها فرصة لنقل السجناء إلى أسوأ المناطق طقسا (تبريز فى الشتاء حيث تبلغ درجات الحرارة عدة درجات تحت الصفر وبندر عباس صيفا حيث تزيد على الخمسين) ... كانت اليسجون الإيرانية تحتوى على كل الأعمار من صبية دون الخامسة عشرة إلى شيوخ فوق الثمانين ، حشروا جميعا فى سجون واحدة دون محاكمة ودون حكم ، وليس من العجيب أن يكون ٩٠٪ من سجناء نظام الشاه وضحايا الساواك ممن تلقوا تعليما عاليا أو اشتهروا بحرية الفكر أو تعلموا فى أوروبا ثم عادوا من المطار إلى السجن مباشرة ، وكثيرا ما كان يحقق مع المتهمين ثم يعودون إلى منازلهم ، ليعتقلوا فى اليوم التالى مع ساعات تحقيق أكثر ، وهكذا دواليك فى اليوم الثالث ، وفى اليوم الرابع كانت الضحية تترك أمام منزلها فى حالة من الاعياء بحيث لم تكن تستيقظ فى اليوم التالى ، وفى هذه الحالة يمنع أهل الضحية من إقامة أى نوع من العزاء أو مراسم الحداد ، وكانت أبواق الشاه تتحدث عن المعتقلين كماركسيين كفرة ، بينما تثبت كل الاحصائيات أن عدد الماركسيين المقبوض عليهم لم يكن يتجاوز ١٠٪ من عدد المعتقلين (أى ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف معتقل) (٥٠) ، وكانت الدعاية التى تسبق المعتقلين إلى السجن أنهم من « الشيوعيين الملاحدة أعداء الدين

وإمام الزمان » بحيث أن الحراس كانوا لا يخفون دهشتهم عندما يرونهم يصلون . (٥١) .

حتى ولو كان الأمر كذلك ، لم يكن هذا مبررا لمطاردة المناضلين وقتلهم أمام عيون الناس وتحت أبصارهم فى الشوارع وفى أشد شوارع طهران ازدحاما مثل لاله زار وصفيعليشاه وتاج، حتى ولو كان الأمر كذلك لم يكن مبررا لابادة عائلات بأكملها مثل عائلات رضائى ومتحدين وآلاديوش ، حتى ولو كان الأمر كذلك لم يكن مبررا لكل أنواع التعذيب والتنكيل ، فاذا كانوا حقيقة شرذمة من المهربين والمخربين كما أعلن الشاه مرارا ، فهل يمكن أن يسببوا للنظام كل هذا الرعب حتى يواجهه بهذا العنف ؟ هذه السجون كانت فى الحقيقة مغارات لتعذيب البشر ، والشاه بصفاقته المعروفة لم يكن يخفى أن سجون إيران تمارس التعذيب « المتقدم جدا » ، وكان رده على مراسل صحيفة أجنبية عن مدى صحة ممارسة التعذيب فى إيران : « لماذا لا ينبغى علينا أن نمارس أساليبكم ؟ ... لقد تعلمنا طرق التعذيب المتقدمة جدا منكم .... إنكم تحصلون على المعلومات بالأسلوب النفسى ونحن نقوم بنفس الأمر ...»(٥٢) .

وكان التعذيب يزداد قسوة وفظاظة كلما كانت الضحية ذات قيمة فكرية أو وظيفية ، ولنترك الشاعر الناقد الكاتب الدكتور رضا براهنى يقدم لنا جزءا من تجربته : « معظم الآلات المهمة فى التعذيب كانت موجودة فى الطبقة العليا ، ولم أكن قد حملت بعد إليها ، ولكن كان مكتب الدكتور رضوان الذى كان يحقق معى موجودا إلى جوار الحجرة المهمة . وذات يوم حينما استدعيت إلى مكان اخر لأمر ما ألقيت نظرة على الحجرة المذكورة . هذه الحجرة تشبه المقابر الفرعونية ، وكانت مخصصة لأولئك الذين قاموا بما يسمى بالأعمال الارهابية أو أقدموا على قتل الشاه أو أحد أفراد الأسرة المالكة ، ولم يكن أسلوب المعاملة بالنسبة لكافة السجناء واحدا ، لكن بالنسبة للسجناء الأكثر أهمية ، كان العمل يجرى على وتيرة واحدة : ففى البداية كان السجين يلقى به بين عدد من الجلادين ينهالون عليه ضربا بالعصى والهراوات ، فان لم يعترف علق منكسا وجلد ، فان لم يُجد هذا فتيلا تعرض للاعتداء الجنسى ، فاذا صمد تعرض لصدمة كهربية تدفعه للعواء كالكلاب ، فان قاوم نزعت أظافره وأسنانه ،

وفى بعض الأحوال الاستثنائية كان يدفع بسفود من الحديد المحمى من فمه ليخرج من قفاه ، وهذا العمل كان يحرق الفم كله واللسان وفى أحيان كثيرة أدى إلى الوفاة » (٥٣) .

وكان بعض المجاهدين يتعرضون للتعذيب عن طريق وضع الأغلال فى أقدامهم وأيديهم وحول ظهورهم ثم تعريضهم للتيار الكهربى ، وقد تعرض المجاهد همايون كتيرائى لهذا الضرب من التعذيب حتى ظهرت عظام قدميه ، ولم يكن من المستطاع الافراج عنه وهو فى هذه الحالة فأعدم ، وتساقطت أطراف المجاهد أصغر بديع زادگان بفعل المواقد الكهربية ثم أعدم ، أما المجاهد « ناب دل » فقد ضرب بالسياط وهو لا يزال مخدرا لاجراء عملية جراحية له وحاول مرات الانتحار بفك خيوط جرحه (٥٤)أما المجاهدة أشرف دهقانى فقد تعرضت لكل أنواع التعذيب البدنى والنفسى واعتدى عليها جنسيا مرارا وتوفى أخوها أمامها تحت التعذيب حتى تعترف ، تقول عن تجربتها : **« كنت أحس تحت التعذيب أننى أم تنتظر طفلا وتعلم أن نهاية العذاب والألم هو الميلاد .. وأنا ماذا كنت سألد ؟ ... الموت »(٥٥) ، كانت أنوف المعتقلين تستخدم كأهداف للرماية ، كما كانت الرهائن تؤخذ من أقارب المعتقلين ، وعذب ابن السيدة أحمدى وهو طفل رضيع يبلغ من العمر أربعة شهور (ولد فى السجن) أمامها ، عذب الرضيع الذى يبلغ من العمر أربعة شهور (مائة وعشرين يوما) أمام والديه ليعترفا ، لقد قال أحد الآباء الذين عذب أولادهم أمامهم : (وددت لو كنت أحمل سكينا أقتل به ولدى بيدى لكى يستريح) . كانت الظهور والبطون تشوى على المواقد الكهربية ، وكانت الأثداء تقطع والقصر يغتصبن أمام ذويهن ... أجل كان ينبغى أن يضحى بالإنسان على مذبح الحضارة العظمى . (٥٦) .**

وكانت هناك أيضا ضروب التعذيب النفسى ، مثل إدارة الشرائط المسجلة فى منتصف الليل والتى تحتوى على أصوات الاستغاثة والألم ، وقد سلم كثير من المجاهدين الذين صمدوا تحت أقسى أنواع التعذيب البدنى .. سلم الدكتور (پارسا نواد) بعد العبور به من دهاليز رطبة ومظلمة الى مكان يسيل منه الدم والدخول به الى حجرات تحتوى على آلات التعذيب والملابس الدامية

والأجساد الممزقة ، وسلم الدكتور (مولوى) بعد استماعه لشرائط مزيفة تمثل أسرته تسترحمه وتدعوه إلى الاستسلام ، وعرفت السجون الإيرانية عن طريق الحلفاء الأمريكان أنواع العقاقير التى تضعف الارادة وعقاقير الهلوسة والاغتيال فى السجون الانفرادية وإطعام السجناء الزجاج المبشور ، أو إرغامهم على شرب بولهم (٥٧)أو التبول فى أفواه رجال الدين أثناء تعذيبهم ، وممارسة كل أنواع الاهانات .

وتحت هذا التعذيب ، لم يكن موت المجاهدين أمرا مستبعدا ، وفى ٢٨ ديسمبر سنة ٧٤ استشهد آية الله حاجى حسين غفارى بعد أن سلق فى زيت الزيتون المغلى ، وبين الآن والآخر ، وحين تستنفد كل وسائل التعذيب ، كان عدد من المسجونين الذى كان مجرد خروجهم من السجن وآثار التعذيب بادية على أجسادهم فضيحة للنظام يعدمون أمام المسجونين الآخرين وذلك بالطبع من خلال طقوس وثنية كأن يرغموا على حفر قبورهم بأيديهم ، أو الهتاف بحياة الشاهنشاه وهم يعدمون أو **تمزيق المصاحف** ، ولم يكن يحلو للنظام أن يقوم بعمليات الاعدام إلا فى صورة جماعية ، ثم يعلن فيما بعد أنهم قتلوا أثناء محاولات الفرار (تسعة فى يوم واحد من ابريل ٧٥) .

وبعد كل هذا التعذيب والإذلال ، لم يكن النظام يرفع أيديه عن الضحايا ، فكانت صحفه التى لا تخجل تنشر صور الضحايا وآثار التعذيب بادية على أجسادهم ، وتنشر الكثير عما كانت تسميه الحياة السرية للمجاهدين ، وتفيض فى الحديث عن الاباحية التى يعيش فيها المجاهدون والمجاهدات ، وتصريحات لذويهم بأنهم يتبرأون منهم إلى الأبد لتجرئهم على الشاه المفدى ... إلى آخره من هذا الدجل والعهر الاعلامى الذى لا تجد له مثيلا إلا فى الشرق الموبوء بالطغاة ، ولم يكن حكم البراءة أو تصريح الافراج بالذى يعيد السجين إلى حياته الطبيعية ، بل كان يحرم من حقوقه المدنية لمدة عشر سنوات ، أو ينفى إلى الخارج إذا كان من الشخصيات العامة ، أو ينفى إلى قرية نائية إذا كان من رجال الدين يلاحظ تماما عدم تناسب جوها مع المرض الذى يشكو منه المنفى .

وعلينا أن نتصور ردود أفعال هذا الإرهاب الدموى المقصود والمخطط ،

فالذى يهم اية سلطة إرهابية هو أن تظهر الارهاب فى صورة أكبر مما هو عليه وذلك لكى تجعل الشعب الواقع تحت سلطة الإرهاب فى حالة خوف دائم ، ويمكن أن تكون الشائعات التى تنتشر حول سطوة النظام من فعل النظام نفسه ، ومن ثم كانت جماهير الخائفين تساعد فى تضخيم الصورة وإعطائها أبعادا أكثر هولا من أبعادها الحقيقية ، ولقد روج النظام أن بطاقة عضوية الساواك هى جواز المرور إلى المراكز الحساسة والعليا ، وكم من العلماء الأفاضل والشخصيات الفكرية العليا كنت بمجرد أن أجلس إليها فى إيران تأتى شخصية حاقدة أو منافسة لتحذرنى فى السر من فلان هذا لأنه عميل للساواك ، وكم من أستاذ نبغ فى علمه وتخصصه وتحدث حديثا فيه قدر من التحرر والابتكار ، يكون من نتيجته أن يحك أحدهم رأسه شاكا وهو يقول : « عجبا ... يتحدث هكذا ولا يزال حرا ... لا بد أنه منهم » .

ولقد اشترك كاتب هذه السطور لعدة أيام فى معسكر (بابلسر) الصيفى فى صيف ٧٧ ، كنت كلما تحدثت مع أحد المشتركين فى المعسكر حول موضوعات ثقافية أو أدبية ، جاء من يهمس فى أذنى بعدها : هل تحدثت إلى فلان احذر منه إنه منهم .. أو احذر من هاتين الفتاتين اللتين تلازمان مجموعتكم ، إنهما يدعيان أنهما من كلية كذا وأنا منها ولم أرهما فى حياتى ، وفى النهاية قال أحدهم : إن ٩٩٪ من المشتركين فى المعسكر من عملاء الساواك وأنه قد جيء بى خصيصا للايقاع بى .. وبالرغم من أن أحاديثى معهم لم تكن تتجاوز أمور الفكر والأدب ، إلا أننى فوجئت عند عودتى إلى طهران برئيس المؤسسة التى كانت تستضيفنا يخبرنى أن الساواك قدم ضدى ثمانى تقريرات (فى فترة أسبوع) ، وأنه لولا تدخل الشهبانو شخصيا ، لما استطاع الشيطان – على حد قوله – أن يخلصنى من قبضتهم ... لن أنسى ما حييت أيام الرعب التى عشتها وأنا أشعر – كما حذرونى – أن عين الساواك علىّ أينما أذهب ، وهو أيضا يحجز جواز سفرى حتى لا أرحل « لأن فى هذا إهانة للنظام » .

كان من الواضح أن تضخيم الصورة إلى هذا الحد يستطيع أن يضرب الحركات الثورية فى مهدها ، فقد كان الخوف – والخوف وحده وليس

الايمان بالنظام كما كان يروج النظام هو الذى يدفع الكثير من البسطاء للرضوخ للجهاز وإفشاء أسرار المجاهدين ، ولم تكن نهاية الذى يقع فى يد الساواك السجن أو الموت ، بل كان يتبعه كما ذكرت التشويه المعنوى : أذكر أننى ذهبت إلى إيران فى دورة بحث فى صيف ٧٥ ، وكان من برنامج الدورة لقاء مع شعراء إيران وكتابها ومفكريها ، وطلبت لقاء مع رضا براهنى ، وكنت كلما أذكر الاسم أشعر بوجوم غريب من الحضور .سرعان ما يتلوه هجوم على براهنى : من ؟ ماذا أعجبك فيه ؟ إنه شاعر من الدرجة العاشرة ، إنه ليس شاعرا على الإطلاق ، إنه ليس ناقدا ، إنه لم يكتب شيئا يذكر ، وكان علينا مع ذلك أن نجلس إلى أشباه أساتذة لا يحسنون الحديث عن مصادر التخصصات التى نالوا فيها الأستاذية .

كان الساواك هو وسيلة الاقناع الحاضرة حين لا يقتنع الشعب ، وامتد نشاطه إلى ميادين مضحكة وبالغة السخف ، من قبيل إجبار الطالبات على خلع الحجاب إلى إرهاب الأساتذة الذين لا يشتركون فى احتفالات ذكرى الثورة البيضاء أو عيد ميلاد الشاه ، فى هذه الحالة كان الخطاب التالى يوجه إلى المقصود :

« السيد .... أو السيدة ....

بالرغم من صدور المنشور المؤرخ فى ٢٥٣٥/١١/٣ والذى أبلغ إلى جميع الأقسام وفحواه أن يشترك كل العاملين فى هيئات التدريس والاداريين فى الاحتفال السنوى بذكرى ثورة الشاه والشعب فى ٦ بهمن ليساهموا فى تعظيم هذا اليوم المبارك ، لوحظ للأسف أن سيادتكم لم تشتركوا فى المراسم المذكورة ، فالمرجو إبداء السبب فى عدم اشتراككم وفى حالة عدم وصول جواب منكم ، فان الجهات المسئولة سوف تبلغ قرارها فى هذا الشأن إلى رئاسة جامعتكم ... » طبق الأصل (٥٨)هكذا .

إلا أن الخطأ البشع الذى وقع فيه جهاز الساواك ، هو أنه حاول أن يمدد أذرعه الأخطبوطية خارج البلاد ، فكان أن أعلن الفضيحة على الملأ ، لم يكن يكفيه أن يغادر المغضوب عليه تاركا جنة الشاه ، بل كان يطارده حتى أقصى الأرض ، وقد زاد الطين بلة المظاهرات التى كان الطلبة الإيرانيون يقومون بها

فى المنفى عند زيارة الشاه لأية دولة أوروبية ، فكان الصحفيون يطاردون الشاه بسؤاله عن أرقام مبالغ فيها بالطبع عن تعداد السجناء السياسيين فى إيران ، ومن هنا وجد النظام أن حالة الرعب التى جاهد فى توصيل الشعب إليها قد انقلبت ضده ، فبالرغم من كل مساوئه كان الشاه يحرص على ظهور نظامه بصورة طيبة أمام السادة ، ومن ثم ألحق بكل سفارة مكتبا للساواك ، لم يكن لأحد حتى السفير نفسه الحق فى دخوله (فى السفارة الشاهنشاهية فى مصر ، اكتشف الطلبة الإيرانيون الذين هاجموها فى عام الثورة حجرة خاصة بالساواك ، لا يدخلها إلا موظفوها الذين يتبعون الساواك مباشرة ، وليس للسفير أية سلطة عليهم ، وكان من محتويات الحجرة ملفات عن كل العاملين فى الدراسات الإيرانية فى مصر ، وتقارير عن كل موظفى السفارة ..... وصناديق مجوهرات خاصة بالسادة الموظفين ، وكان أحدهم ابن رزم آرا رئيس الوزراء المقتول فى أوائل الخمسينات) .

وقد افتضح نشاط الساواك فى الخارج بعد تسرب بعض الوثائق من السفارة الإيرانية فى جنيف ، اتضح منها أن هذه السفارة هى المركز الرئيسى للساواك فى أوروبا ، كما تسربت وثائق من السفارة الإيرانية فى لندن تضم خطابات لبرويز ثابتى مسئول الساواك الكبير يطلب معلومات عن اثنين من أعضاء البرلمان الانجليزى دأبا على التهكم والسخرية من نظام الشاه ، وفى أغسطس ٧٧ وبعد تسرب وثائق جنيف طردت الحكومة السويسرية أحمد ملك مهدوى الذى أعلن كمسئول للساواك فى غرب أوروبا ، كما أعلن أن هناك موظفا فى سفارة إيران فى باريس هو همايون كيقابوس عمله الحقيقى يتبع الساواك ، وفى أكتوبر ٧٦ نشرت الواشنطن بست أن منصور رفيع زاده وهو موظف فى بعثة إيران فى الأمم المتحدة هو فى الحقيقة مسئول الساواك فى الولايات المتحدة . (٥٩).

وفى ١٩٧٦/١١/١٦ نشرت الواشنطن بست خبر إرسال فرق اغتيال من قبل الشاه إلى أوروبا وذلك لاغتيال المعارضين وبحيث يبدو الاغتيال حادثا عاديا من حوادث المرور ، وقد نشر الخبر فى الوقت الذى صرح فيه الشاه فى واحد من أحاديثه بأن رجاله يزاولون نشاطهم فى أوروبا وأمريكا وأن الجهات المسئولة فى هذه البلاد على علم بما يجرى ، وبالرغم من أن هنرى كسينجر

كذب الخبر رسميا ، وبالرغم من أن الحكومة الأمريكية أعلنت أنها سوف تبحث الأمر ، وبالرغم من أن الحكومة عادت فأعلنت أن عملاء الساواك قد اتصلوا بالسفير الإيراني فى أمريكا أردشير زاهدى ووعدوه بأنهم لن يقوموا بعمل يخالف القانون فى أمريكا ، إلا أن الفضيحة كانت قد انتشرت وزكمت الأنوف ، وقد اكتملت للفضيحة أبعادها عندما أفشى مايك والاش فى برنامجه الأسبوعى فى تليفزيون «C.B.S» مهمة خان بيرا مبعوث الساواك فى باريس لاغتيال صادق قطب زاده عقابا له على تنظيم أولى المظاهرات ضد الاستبداد الشاهنشاهى أمام الأمم المتحدة ، وإلى جوار ذلك افتضحت مؤامرة أخرى لاغتيال الدكتور مصطفى چمران فى لبنان الذى كان مهاجرا إليها ويعد من كبار مساعدى الإمام موسى الصدر فى تأسيس حركة المحرومين ، وكانت الخطة هذه المرة أن يتم اغتيال الدكتور چمران على أيدى فلسطينية وذلك لاشعال الفتنة بين شيعة لبنان والمقاومة الفلسطينية فيها ، وبالفعل تم اتصال الساواك باحدى الجماعات الفلسطينية المغمورة اليسارية والتى كانت لاتجاهها اليسارى تخشى من تغلغل الاتجاه الإسلامى المتمثل فى حركة المحرومين ، إلا أن منظمة أمن الثورة الفلسطينية اكتشفت المؤامرة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فعندما فشلت الساواك فى اغتيال الدكتور چمران ، روجت أنه عميل لسوريا في لبنان ثم نشر مقالات باسم الدكتور ابو الفتح نجفى قشقائى تتهم چمران بأنه كان عميلا للنظام الناصرى ضد الشاه ، ثم أصبح عميلا للبعث العراقى ، وهو على كل حال شيوعى من حزب توده ... وهكذا كان يتخبط النظام . (٦٠)

هذه الفضائح التى كان الساواك يقوم بها دون أى نوع من المداراة ، كانت سببا رئيسيا فى نتيجتين مهمتين : الأولى أنها قد بلغت بالجماهير إلى حافة اليأس ، وكان حرقها الأخضر مع اليابس بالتعبير الإيرانى لم يجعلها تقضى على أعدائها بل وأخذ يكسبها الأعداء يوما بعد يوم ، وسوف نرى أن الأسرة التى كان يسقط منها ضحية كان يتلوها عدد آخر من الضحايا من نفس الأسرة .. ثأر وحب استشهاد لم يفهمهما الساواك الإيرانى ، وعندما يحس البرىء أنه سوف يؤخذ بلا ذنب ، فقد يشعر بالعزاء إن قدم شيئا قبل أن يموت .
أما النتيجة الثانية فقد كانت على المستوى العالمى ، فبالرغم من أن انتهاك

حقوق الإنسان والتعذيب والاعدام والاعتقال سمة عامة من سمات الحكم فى العالم الثالث إلا أن الوقاحة التى اتسم بها النظام الإيرانى فى علاجه للأمور جعلت إيران تذكر على رأس الدول التى يمارس فيها انتهاك حقوق الإنسان حتى قبل شيلى والأرجنتين والفلبين ، ومن ثم ألفت لجان حقوق الإنسان وجمعيات الدفاع عن حقوق الإنسان العالمية بكل ثقلها فى إيران ، وبالرغم من أن النظام الشاهنشاهى كان يرحب جدا بالضيوف خاصة من الأوربيين لاطلاعهم على تقدم إيران وبرنامج التحديث القائم على قدم وساق ، إلا أن أعضاء هذه اللجان كانوا يقابلون بالطبع أسوأ لقاء وتوضع العراقيل أمام قيامهم بمهماتهم بحيث يعودون إلى الجهات التى أوفدتهم فى العادة بخفى حنين ، مما كان يزيد فى أبعاد الفضيحة ، كتب أحدهم فى تقريره :

« لم أستطع حتى أن أحصل على موعد للقاء رئيس الوزراء ، وقابلنى مدير مكتب وزير العدل ثم تفضل وذكرنى بأنه لا يستطيع أن يعطينى أى نوع من المعلومات ، أما المدعى العام فقد وضح لى أنه لا يملك أية صلاحيات لاعطائى أى نوع من المعلومات ، وفى وزارة العدل قالوا لى : الساواك فقط والمحكمة العسكرية هما الجهتان الوحيدتان اللتان من الممكن أن تحظى منهما بمعلومات ، لكنى لم أستطع الظفر بموعد للقاء رئيس المحكمة العسكرية أو رئيس الساواك ، وقال لى عدد من الضباط أنه لا يمكن إعطائى أى نوع من المعلومات لاعتبارات الأمن ، وأنه من الممكن أن أتصل بوزارة الإعلام ، وفى وزارة الإعلام لم أحظ بشىء ، وعند لقائى بالسيد جلالى نقيب المحامين وهو أيضا سكرتير الجمعية العامة لحقوق الانسان فى إيران ، كان من المدهش أنه لم يرض أن يحدثنى قط » (٦١) .

ولعل السيد كاتب التقرير لم يكن ليدهش إذا علم أن الجمعية العامة لحقوق الإنسان فى إيران كانت تحت اشراف أشرف بهلوى أخت الشاه التوءم . وعندما عقد الجناح الهولندى لمنظمة العفو الدولية مؤتمرا لدراسة الأوضاع فى سجون إيران ومدى تطبيق حقوق الانسان فى إيران (١٨ و ١٩ فبراير ٧٧) هدد نظام الشاه بمقاطعة هولندا اقتصاديا ، فلما اعتذرت هولندا على عدم استطاعتها منع المؤتمر من مزاولة اختصاصاته لأن هذا ليس فى اختصاصها ، أشركت إيران

عددا من عملاء السافاك على أساس أنهم من محررى صحيفة كيهان ، وعندما ندد المؤتمر بالنظام الإيرانى وأدانه لم يجد الشاه بُدا من اتهام كل المشتركين فى المؤتمر بأنهم من الشيوعيين ، ووصفت صحافة الشاه المؤتمر بأنه مؤتمر « الحشيش والسياسة » .

وقد أثبت عام الثورة — كما سنرى — أن كل ما فعله السافاك قد ارتد عليه تماما ، كان يريد حماية النظام ففضحه أمام الشعب وأمام العالم ، وكان يريد تخويف الشعب فدفعه إلى حافة اليأس وهو أول درجات الفدائية ، وظن أنه أخرس كل صوت ومحا كل رأى وحطم كل قلم فأعطى النظام إحساسا كاذبا بالطمأنينة والأمن وسوء التقدير لقوة الخصوم ، وسوف نرى أنه أراد أن يجر المعارضة إلى مواجهة فجرفته والنظام الذى يحميه إلى الهاوية وضاع تعب السنين بددا .



الفصل الثالث

الظاهرة البهلوية فى الاقتصاد
عصر النهب

« إن النظام يستهلك المستقبل ... هذه هى
مأساة شعبنا »

ابو الحسن بنى صدر

شهدت السنوات الأخيرة الثلاثة لوزارة هويدا (٧٤ - ٧٧) تطورات اقتصادية خطيرة كان أقل ما توصف به أنها كارثة ، فقد ارتفع الدخل السنوى للنفط من عشرة مليارات من الدولارات سنويا إلى عشرين مليار . لكن ... لم يدخل من المبلغ الزائد أى مبلغ إلى الخزانة الإيرانية ، بل وضع هذا المبلغ تحت تصرف الاحتكارات الغربية أو المنضمة إلى المعسكر الغربى أو التى تسعى إلى الانضمام إلى المعسكر الغربى ، وكان من الغريب حقا أن تسعى أمريكا إلى كسب الأنصار لكن عن طريق الأموال الإيرانية ، لكن هذا كان من سمات سياسة الالحاق الأمريكية ، وكان من الغريب أيضا أن تسارع الأموال الإيرانية إلى شراء أسهم الشركات العالمية الموشكة على الإفلاس (كطريقة مثلى لتهريب الأموال) ، وفوق كل ذلك كان السفه الذى لا يصدق فى شراء الأسلحة وبناء المفاعلات الذرية ، وكل هذا السفه والانفاق والكرم الجنونى كان يحدث فى دولة يخلو أغلب ريفها من مستشفى أو طبيب أو مدرسة أو مدرس أو طرق ، ناهيك عن برنامج الاسكان الذى كان يتعثر وينام ثم لا ينهض ، أما ما تبقى من المبلغ فقد ألقى به فى سوق الانفاق الداخلى دون أى برنامج أو وضع فى البنوك الداخلية لحساب الشركات التى تملكها الأسرة

المالكة أو لحساب مؤسسة پهلوى وهى ملك شخصى للشاه وفروعها العديدة .

كل مابقى بعد ذلك من دخل البترول الإيرانى أنفق على تحسين واجهة السوق الإيرانى ، أى ملأ الواجهات الزجاجية والمتاجر العامة فى العاصمة بكل ما يخطر على البال من سلع كمالية واستهلاكية ، ومن ثم كان الزائر لطهران يستطيع أن يجد كل ما يفكر فيه من سلع عالمية ، وأن يكون هذا الأمر للذى ينظر إلى الأمور نظرة سطحية علامة على تقدم إيران الاقتصادى فى عهد الشاهنشاه الأمجد ، ومن ثم أنفق ما بقى من دخل البترول على شراء القمح من أمريكا والأرز من تايلاند والبصل من باكستان والبطاطس من الهند والبرتقال من جنوب أفريقيا وإسرائيل والدجاج من هولندا والبيض من إسرائيل والجبن من الدانمرك والخراف من تركيا واللحوم المثلجة من استراليا .... ونتيجة لهذه السياسة الاقتصادية الخاصة بعصر الحضارة العظمى ، كان التضخم السنوى الذى تجاوزت نسبته ٢٥٪ يبتلع المرتبات الشهرية وكان أكثر من ٨٥٪ من العمال والموظفين مدينين للبنوك أو لصغار الرأسماليين الذين كانوا يقرضون أموالهم بالربا الفاحش (الهجوم على البنوك مظهر من مظاهر الثورة فى العام الدامى) .

ومن ناحية أخرى كان أقل من ١٪ من الشعب الإيرانى يملكون الفرصة للاستفادة من هذه الفوضى الاقتصادية وما يتبعها من ارتفاع جاوز كل حد فى الأسعار ، فكان أكثر من نصف الدخل القومى متداولا فى عمليات تجارية مقصورة على هذه الفئة بينما كانت إحصائيات حكومة هويدا المزيفة تجعل الدخل السنوى الوهمى للفرد الإيرانى يتجاوز أربعة آلاف ثم خمسة آلاف دولار سنويا ، وكان الشاه فى أحاديثه الصحفية يتحدث عن حسد العالم للشعب الإيرانى لكثرة الكمية التى يتناولها من اللحوم .

كان العصر هو عصر السلطة البورجوازية العظمى ، وكان كل أركان الاقتصاد فى عصر النظام الذى كان يسمى بـ « أعتاب الحضارة العظمى » والذى يسمى الآن بعصر مؤسسة پهلوى أو عصر الاغارة والنهب يقومون ويتضخمون فى بحر عشرة أو خمس عشرة سنة آلاف الأضعاف ، واستطاع المليارديرات أمثال هزبر يزدانى ورضائى وياسينى بالتعاون مع قواد الساواك ورجال البلاط من أمثال أسد الله علم وزير البلاط فى حكومة هويدا أو الجنرال أيادى « الطبيب

الخاص للشاه » وأردشير زاهدى « الزوج السابق لابنة الشاه وإبن الجنرال زاهدى منقذ الشاهنشاهية والسفير الأبدى فى الولايات المتحدة » وأصحاب السمو وصاحبات السمو الذين لاحصر لهم ، استطاع كل هؤلاء إقامة نظام نهب كالغول الأسطورى ونظام اقتصادى فاسد من قمة الرأس إلى أخمص القدم يعيد إلى الأذهان عشرينات أمريكا وتتضاءل إلى جواره كل مافيات العالم .

ولكي نعلم بدقة جذور نظام النهب من كافة النواحي ينبغي علينا أن نعود إلى الوراء خمس عشرة سنة ، أى المرحلة الثانية من مراحل الثورة وبعد إخماد ثورة ٤٢ (٦٣) ، وبعد أن قدرت حكومة إيران العواقب ، لعلها فهمت أن الأمر من الممكن أن ينتهى دون إنذار وفجأة ، فلم يكد يمر عام على حكومة هويدا حتى ضربت الحكومة عرض الحائط بكل المبادىء القانونية والشرعية والأخلاقية ، وتبدل جهاز الحكومة إلى آلة عظيمة تستطيع فى أقل مدة وبأقل النفقات الممكنة أن تحصل على معظم الدخل القومى وأن تستغله ليس لصالح الشعب أو الألف أسرة التى يقال أنها تسيطر على كل جوانب الحياة فى إيران أو حتى الحكومة ، بل لصالح عدد من العائلات يزيد عددها عن المائة قليلا وكلها تنتسب إلى نسبين : البلاط والساواك .

فى هذه الفترة التى تبلغ خمس عشرة سنة كان جهاز الحكومة من عدة أبعاد يشبه جهاز الحكومة الذى استمر ثمانى عشرة سنة فى فرنسا فى عهد لويس فيليب ومونارشى جوييه (١٨٣٠ - ١٨٤٨) يصفه مؤرخ فرنسى كبير قائلا : « فى هذه السنوات كانت الحكومة أشبه بشركة تجارية ، وكان المال هو حلال كل المشكلات السياسية والادارية ، وكانت عجلة كل نشاط فى المجتمع تدور حول المال وبالمال ، وحتى لويس فيليب نفسه كان أكبر متعامل فى السوق يقول لرعاياه فى كل لحظة كونوا أثرياء » . لكن الأمر فى نظام النهب لم يكن حتى مثل الشركة التجارية فى عهد لويس فيليب ، فان التجارة المشروعة والمعاملات والصفقات الجائزة فى السوق قد انتهت تماما ، وأعطت مكانها لنظام السلب والنهب ، أما « الرعايا » فقد سقطوا بين براثن « مؤسسة بهلوى » و « الساواك » ، أما مؤسسة بهلوى فهى التجسيد الكامل والمنظم لنظام الغارة والنهب فلم تكن تبقى على شيء ، وبعد أن بسيطرت على كل

وسائل الانتاج ذات النفع وسيطرت على السكر والأسمنت والحديد وحتى الخل ، أنشبت مخالبها فى سوق الأرض والمساكن وتأسيس المدن الوهمية ، ولما لم تشبع اتجهت نحو الشاطىء الشمالى « من رامسر إلى كيش » فأسست نوادى القمار وبيوت الدعارة والنوادى الليلية لكى يتم الكسب جنبا إلى جنب مع الفساد والانحطاط الاجتماعى والأخلاقى . وكانت أشرف بهلوى هى طليعة المضاربين فى سوق الأراضى والمعتمدين على أراضى الأهالى ، وبمجرد أن اشتعلت بورصة أراضى العقارات والأراضى البور فى إيران ، وضعت معظم ثروتها فى هذه الصفقة التى تعد من أعظم الصفقات فى القرن العشرين ، بل وفى سبيلها أغلقت مصنعها لتصنيع الهيرويين فى بابل ، كما كانت فرح أول من افتتحت سوق اليانصيب الشعبى أو القومى وبهذا كانت تجبى الاتاوة من الأمة فردا فردا (٦٢) .

هذه الصورة العامة لعصر النهب كانت قائمة على أساسين : سلب مجموع الشعب أى قدرة اقتصادية أو استقلال اقتصادى ، والأساس الثانى هو الاعتماد على المحصول الواحد أو السلعة الواحدة وهذا بالطبع فى إطار نظرية الالحاق الأمريكى والجانب الاقتصادى منها وهو أهم جوانبها على الإطلاق ، فالسياسة الأمريكية المرسومة فى أية دولة تتدخل فيها الى أن تقضى اقتصادها لتجعلها دائما فى حاجة إليها ، وبالرغم من إعلان النظام على لسان أمينى أنه ليس يضر أن يصل ثلاثة أعشار الغنيمة إلى الشعب بينما تحتفظ الحكومة بسبعة أعشارها (٦٣)إلا أنه كان من الواضح أن الحكومة ببرنامجها كانت تنوى أن تسلب من الشعب الجزء من الألف الذى يملكه وفى يده بالفعل ، وكانت الرأسمالية الغربية تدرك تماما ولا تنسى ما حدث فى عهد مصدق عندما أمم النفط فردت عليه الدول الغربية بحصار اقتصادى اجتازه هو بقرض وطنى فما العمل ؟ العمل هو محاصرة الشعب الذى يمكن أن ينجد حركة وطنية ولا يمكن ذلك إلا بالقضاء على البنية الاقتصادية الإيرانية وتحويلها إلى بنية سلعة واجدة وياحبذا لو كان الأجانب هم الذين يسيطرون على هذه السلعة أى النفط . ومن ثم ينبغى تدمير كل وسائل الانتاج التقليدية فى إيران : الزراعة والرعى والتجارة والصناعة الوطنيين ، وينبغى أن يحل الملاك الأجانب محل الملاك الوطنيين بمقتضى بنود الثورة البيضاء وهذا يعنى تصفية كبار الملاك التقليديين وهم أيضا عنصر من عناصر الخطورة على النظام ولا مركزية

السلطة ، وكانت الشركات الغربية تتقاطر على إيران بالآلات التى تباع بأثمان باهظة والخبراء الذين يتقاضون مرتبات خيالية ، وتقدم القروض ذات التسهيلات بفوائد خيالية وتباع منتجات الشركات بالملايين ، كان كل ما تنبذه الأسواق الأوروبية ينزل كالسيل على كل أنحاء إيران ، ومن ثم ضربت الصناعة الإيرانية ضربة قاصمة ، ثم انتقلت الآفة إلى الزراعة فاذا بنقص رهيب فى المحصولات الغذائية كانت الدولة تتحمل الدعم المتزايد فى سبيل توفيرها عاما بعد عام ، وكانت قيمة الواردات الغذائية سنة ٤١ (سنة ٦٣) ميليارين من الدولارات تزايدت عدة أضعاف حتى نهاية السبعينات ، والنتيجة النهائية أن إيران التى كانت تنتج ما يفيض عن حاجاتها من المواد الغذائية لم تكن تنتج فى نهاية السبعينات إلا ما يكفى ٧٪ من سكانها فحسب .

وبينما كان الشاه دائم الحديث عن إصلاحه الزراعى فى الثورة البيضاء ويجعله مجال فخره ، كان الواقع الأليم يسفر عن نفسه ، فقد قضى على طبقة الخانات أى إقطاعيى إيران ، وأحل محلها طبقة من السماسرة العالميين الذين كونوا الثروات دون إنتاج يذكر ، وقام هؤلاء بتحويل اقتصاد إيران من اقتصاد زراعى مستقر الى اقتصاذ طفيلى استهلاكى لا انتاجى . كان الاصلاح الزراعى هو البند الأول فى الثورة البيضاء ، وغالبا ما تشدقت به أجهزة الشاه الإعلامية على أساس أنه النموذج الناجح للثورة البيضاء والتقدم الشاهنشاهى ، فإلى جوار أن الفكرة نفسها لم تكن فكرة الشاه ، بل فكرة جون كنيدى بعد أن لمح له خروشوف أن إيران ثمرة ناضجة آيلة للسقوط ، وفهم كنيدى أن هذا التلميح ليس إلا بسبب الفساد الاقتصادى ونظام الاقطاع الزراعى فى إيران ، فقد كانت أملاك كبار الملاك تعد بالقرى بما عليها وليس بالهكتارات . وتحتوى إيران على ١٦٥ مليون هكتار من الأراضى ، ٥٥٪ منها من الصحارى والجبال والمستنقعات و ٣٠٪ من الغابات و ١٢٪ صالحة للزراعة يزرع منها ثمانية مليون من الهيكتارات فقط (٦٤)وكانت الأسرة الشاهنشاهية هى أكبر الملاك فى إيران ، كما كان نظام السخرة لا يزال متبعا . كان الاصلاح الزراعى أيضا وليد انتفاضات ١٩٦١ ، لكن مرحلته الثانية والكبرى بدأت سنة ١٩٦٣ ، وكان الاصلاح غريبا فى محتواه ، فقد كان توزيع الأراضى يتم إما بالتأجير لمدة ثلاثين سنة أو بيعها للفلاحين بالأجل أو شرائها منهم (؟) أو انتزاعها من كبار الملاك مع دفع التعويضات المناسبة ، وقامت الحكومة

بتأسيس بعض المزارع التعاونية اشتركت إسرائيل فى تأسيسها بالخبرة والآلات وكانت تأخذ جزءا من إنتاجها .(٦٥)

وكان من أهم ملامح الاصلاح الزراعى الشاهنشاهى هو إتاحة الفرصة على أوسع نطاق لرأس المال الأجنبى للتدخل عن طريق تقديم الميكنة الزراعية ، وتجلى ذلك فى مشروع تنمية خوزستان (وهى أكبر المناطق بالنسبة للمشروعات وأشهرها بالنسبة للمجاعات) ، وكانت فكرة مشاركة الخبرة الغربية قد بدأت فى الخمسينات بعد زيارة لديفيد لينتتال واقترح إمكانية التعاون فى هذه الميادين ، وكانت النتيجة نوعا من الخطط على المدى الواسع بعد بناء سد « دز » (وقد ضخمت الدعاية الشاهية فى دوره بالنسبة لتوفير المياه ، وكان ذلك فقط للشركات الأجنبية وكبار الملاك) ، وبعد الاصلاح الزراعى انتزعت الأراضى من أيدى الفلاحين فى خوزستان ليتركز المشروع فى أيدى ثلاثة : هاشم نراقى أحد كبار الاستماريين ويمتلك ٥١٪ من الأسهم وبنك ستى الأمريكى ويمتلك ٣٠٪ وبقية الأسهم فى أيدى مجموعة من صغار المستثمرين المتصلين بالسلطة ، وبالطبع تم طرد الفلاحين من أراضيهم (١٧ الف فلاح فى سنة ٧٤ وحدها ، وكان بعضهم يعملون كعمال موسميين فى الأراضى التى كانت لهم آنفا) ، وعندما قام تمرد بين فلاحى المنطقة ضحت الحكومة بهاشم نراقى (سنة٧٥) وانتقلت أسهمه إلى البيت المالك ، وإلى جوار ذلك كانت أغلب أسهم إصلاح الأراضى البور فى المشروع الذى سمى بمشروع كاليفورنيا — إيران فى أيدى مساهمين أمريكيين ، وذلك بدعوى تقديم تكنولوجيا الزراعة (٦٦) .

وبينما كانت طبقة المعدمين تزداد ، كان كبار الملاك الذين انتزعت أراضيهم على طريقة النظام يدخلون فى عداد ملوك الصناعة والسمسرة كما سنرى ، فقد عوضت أسرة أسد الله علم على أراضيها الشاسعة فقد كانت تمتلك نصف المنطقة التى تقيم فيها تقريبا ، أما المشروعات التى كانت تطنطن بها دعاية النظام على أساس أنها مشروعات قومية ولصالح المجموع فكانت من الأملاك الخاصة جدا ، فالمشروعات التى كان الشاه وحلية النهب يشتركون فيها كان يعلن عنها أنها أملاك عامة ومشروعات شعبية وثمار الثورة البيضاء (٦٧)والمشروعات الزراعية كانت تتم فقط على الورق ، ويكفى أن نذكر فى هذا المجال أن الاستثمار فى مجال الزراعة قد انخفض من ٥٦٪ سنة ٥٦ إلى ٣٣٪ سنة ٧٦ .

ولكى تزيد هذه الصورة قتامة ، ويسيطر النظام سيطرة تامة على الانتاج الزراعى ويطبق البرنامج الذى أعلنه هويدا عن « تخلية الريف » (فقد كان عدم وجود تجمعات سكانية فى إيران من أهم أسباب عجز الحكومة والسلطة المركزية فى السيطرة عليها تماما) ، قام النظام بتدمير وسائل الزراعة التقليدية ، فالمعروف أن نظام الزراعة فى إيران يعتمد على نظام القنوات المغطاة (كاريز) التى تعتمد على آبار عميقة تعتمد على مساقط المياه من الجبال أو تجمعات مياه الأمطار والمياه الجوفية ، وتغطى هذه القنوات لكى تنجو من عوامل التعرية ، وقبل الثورة البيضاء كان يوجد فى إيران ما يزيد على أربعين ألف قناة مغطاة بعضها يرجع تاريخه إلى ما قبل الإسلام ، وبعد الثورة البيضاء لم تبق من هذه القنوات أكثر من ثمانية آلاف وذلك لأن الشاه وضع نظامه البنكى تحت تصرف الرأسماليين الكبار الذين كانوا يرون فى الاستثمار الزراعى استثمارا بطيئا ، ونتيجة لذلك توصل النظام إلى هدفه تماما فى برنامج التخلية إذ اضطر عدد كبير من الفلاحين إلى هجر أراضيهم ، بينما كان لكبار الملاك أراض أكثر مما كان لهم قبل الثورة البيضاء هجروها إلى استثمارات أسرع وأكثر كسبا . وساعد فى هذا البرنامج لتدمير الزراعة أن النظام البهلوى كان يقدم الدعم لا للمحصولات الوطنية التى توافق اختفاؤها النسبى مع اختفاء القنوات المغطاة ، بل للواردات ومنها القمح الأمريكى مثلا ، وفى نفس الوقت لم يتم دعم أسعار الانتاج ، ولنا أن نتصور مدى تأثير ذلك على دخول الفلاحين الفقراء الذين كانت تبتزهم تعاونيات الشاه أكثر مما كان يفعل الخانات القدماء ، ومن خلال وهم التصنيع وسياسة فلاسفة النظام الذين نادوا بتحويل ستين ألف قرية إيرانية إلى عشرة آلاف مركز زراعى صناعى ، تم تدمير العديد من القرى من أجل إقامة هذه المراكز النموذجية دون أن يتم بناء شىء .(٦٨)

أما تأميم ما يسمى بالمنابع الطبيعية للثروة أى المراعى والغابات ومصائد الأسماك ، فلم يتم هذا التأميم لصالح الشعب الإيرانى إلا على الورق ، كان التأميم للمحافظة عليها كما نص البند الثانى من بنود الثورة البيضاء ، لكن الواضح أنها كانت تحفظ من أن يطأها فرد إيرانى بقدمه ، والنموذج الواضح لهذه الظاهرة يمكن رؤيته فى مناطق دشت مغان ودشت أرژنگ وسجستان ودشت عمران فى قزوين ، وهناك منطقة واسعة بين گلبايگان وخمين وقم وكاشان وحتى « مورچه خورست » فى أصفهان وضعت كلها تحت سيطرة الدولة باسم المحافظة عليها ،

أما سكانها الذين كانوا يعملون بالرعى وتربية الحيوان فقد اختفوا منها تماما خلال عشر سنوات ، وأخيرا اتضح أن المنطقة قد وضعت بأكملها تحت سيطرة شركة إنجليزية لتربية الحيوان وتعبئة اللحوم وذلك لوضع اللحوم فى أيدى الشعب بأسعار معقولة ، لكن يبدو أن المقصود كان الشعب الانجليزى لا الإيرانى لأن أسعار اللحوم كانت قد بلغت فى إيران حدا غير معقول بحيث كانت إيران تستورد اللحوم المثلجة والمجمدة التى كان الشعب يشبهها بالميتة .

وفى جنوب منطقة فارس تقع منطقة « **دشت ارزنك** » إلى جوار بحيرة « **بختكان**» وكانت المنتجع الصيفى لحوالى مليونين من أبناء العشائر العربية ، لكنها انتزعت منهم فى خلال عشر سنوات وضربت حولها الأسلاك الشائكة وأخليت تماما سكانها ، وعندما جاء زوج ملكة إنجلترا لزيارة إيران زار المنطقة وأبدى إعجابه بها كمنطقة مثالية لتربية الحيوان ، وضعت الحكومة المنطقة بكل ما فيها تحت سيطرة شركة إنجليزية ترأسها ملكة إنجلترا نفسها .

أما دشت عمران قزوين وهى من أكثر مناطق إيران خصوبة فقد انتزعتها الحكومة من ملاكها الصغار ، وفيما بين عامى ٣٥ - ٤٠ « عامى ٥٦ - ٦١ » قامت إسرائيل باقامة مزرعة نموذجية فيها ، ومدت إليها المياه من سد طالقان ، وأصبحت منطقة استغلال للرأسمالية الأمريكية وإسرائيل . وفى دشت مغان أقام الروس سدين وأوصلوا إليها مياه نهر « ارس » ودخلت روسيا الحلبة لتنال جزءا من الغنيمة التى لم يعد لها صاحب . أما سد « دز » الذى أقيم على نهر كارون فقد بلغت تكاليفه سنة ٣٧ (سنة ٥٨) حوالى سبعمائة مليون تومان وأنفقت مائتا مليون تومان أخرى على شبكة الرى وانتزعت مائة وخمسون قرية من الأهالى وكان المستثمر هو الشاه شخصيا مع بعض الشركات الأمريكية .

والنموذج الصارخ لعمليات التخلية هو مدينة زابل التى هجرها ٩٠٪ من سكانها بين عامى ٤٢ - ٤٦ « عامى ٦٣ - ٦٧ » ، ومع أن منطقتى بلوشتان وزابلستان من أكثر مناطق إيران خصوبة ، إلا أن الدولة بدأت فى سياسة التخلية عندما أقامت سدا على نهر هيرمند فى أفغانستان أصاب المنطقتين

بالجفاف بحيث هاجر ٩٠٪ من السكان إلى جيلان . وأعلن راديو لندن أنه بعد إخلاء المنطقة وقعت الحكومة عقدا مع شركة أمريكية لكى تقوم بحفر ثلاثة آلاف بئر وزراعة المنطقة ، وكان المقصود بالطبع إقامة حزام أمن ضد قبائل شرق إيران وقبائل البلوش ، ومن ثم فان المنطقة التى كانت تسمى « أهراء إيران » أصبحت خالية تماما من السكان وأصبحت إيران تستورد الحبوب من الخارج ، ولا جدال فى أن سياسة الحكومة فى تخلية الريف كان الهدف منها « مركزة » السكان فى المدن لتسهيل السيطرة عليهم ، ولتقديم عمالة رخيصة للشركات الأجنبية والشخصية ، ومن ثم كان معدل « البطالة » يزداد عاما بعد عام بحيث أصبحت هذه المشكلة من أعقد المشاكل التى تواجهها حكومة الثورة . وقد بلغت هذه السياسة حدا من الإجحاف بحيث انتزعت ملايين الهيكتارات فى الشمال الإيرانى ووزعت على أمراء الأسرة المالكة ، وفى الشمال انتزعت أراضى مائة قرية من ملاكها وحولت إلى حدائق صيد خاصة بالشاه ، وإمعانا فى التحدى سميت « شاه پسند » أى التى أعجبت الشاه ، وفى تأميم مصائد الأسماك فقد سبعة آلاف صياد حياتهم فى مقاومة الاستيلاء على مصايدهم ، وكان الهدف هو سيطرة أفراد من عصابة النهب على إنتاج الكافيار ، ولقيت مصائد الجنوب نفس المصير ، أما مراعى سمنان فقد استولت عليها الحكومة وأممتها ... وفى خلال عشرة سنوات من التأميم أصبح مالكها الأوحد الملياردير البهائى هزبر يزدانى ، ولم يكن الحال أفضل فى تأميم الغابات ، فقد طرد الأهالى من غابات « نكا » فى الشمال وسلمت إلى شركة رومانية لاستغلالها فى صناعة الورق . وهكذا فان سياسة الثورة البيضاء الاقتصادية لم تكن إلا إعادة توزيع الغنائم ، ولنا أن نتصور عدد الضحايا الذين سقطوا وهم يدافعون عن أملاكهم ومصادر أقواتهم ، بينما كان الأمر بين تهليل أجهزة إعلام الشاه ليس إلا وضع كل شىء فى قبضة عصابة النهب.(٦٩).

ولأن فلسفة النظام كانت قائمة على « التحديث » و « الالحاق » و«التصنيع» من عمدها، فقد بلغت الرغبة فى تصنيع البلاد ومنافسة اليابان فى هذا المضمار حد الهوس ، وكان هويدا نفسه يعلن : « **إننا سوف نتفوق على اليابان ، وسوف ننتج من الصلب أكثر مما تنتجه كل أوروبا وكل الاتحاد السوفيتى قبل سنة ٨٣ ، وسوف تكون إيران قوة من القوى الكبرى الخمسة**

قبل نهاية القرن ، وإن الحضارة العظمى التى سوف نبنيها فى خلال السنوات العشرة القادمة سوف تكون نموذجا يحتذى ، ليس بالنسبة للدول النامية فحسب بل ولأوربا أيضا » (٧٠)ولم يكن لهذا الهراء من نتيجة إلا القضاء على السوق الإيرانى التقليدى من ناحية ، وتمركز الصناعة بحيث حل الاقطاع الصناعى محل الاقطاع الزراعى من ناحية أخرى ، وفى سنة ٧٤ كانت خمسة وأربعون أسرة تسيطر على ملكية ٨٥٪ من المصانع (٧١) ، هذا إلى جوار أن المجمعات الصناعية الكبرى فى إيران كانت قائمة على « تجميع » المنتجات الأجنبية ، أما الصناعات التقليدية التى اشتهرت بها إيران طوال تاريخها مثل السجاد فقد سقطت فى أيدى حفنة من الاحتكاريين اليهود ، ونظرة واحدة إلى لافتات محلات تجارة السجاد فى شارع الفردوسى فى طهران « وهو مركز بيع السجاد الإيرانى » كانت تبين ذلك بجلاء ، ويتمثل هجوم الصناعة الأجنبية حتى فى هذا المجال فى أن مجلس الشيوخ الإيرانى قد فرش مقره بالموكيت . وحتى فى داخل هذا النطاق الأسرى لتصنيع إيران كانت الأسرة التى تخل بالسياسة المرسومة تطرد من الحلبة لتحل محلها شركة أجنبية ، ومن ثم كانت فى إيران شركات تتبع أمريكا وبريطانيا واليابان وسويسرا وفرنسا وإيطاليا والدانمرك والسويد بل وإسرائيل واستراليا واليونان والهند وكينيا وبنما (٧٢) ، وكان الشاه يبادر إلى شراء أسهم الشركات التى تقترب من الافلاس ويفتح لها فروعا فى إيران ، ومعظمها شركات سلع استهلاكية كانت تستخدم العمال الإيرانيين بأقل الأجور ، ثم تستنزف الشعب الإيرانى بنظام التقسيط الربوى ، وتقضى على الصناعة الإيرانية وتروج لفلسفة الاستهلاك الغربية .

وكان من الواضح فى ظل هذا النظام أن الصناعة الإيرانية ليست سوى جهاز اجتذاب للموارد نحو الخارج ، إذ لم يتم فى إيران بناء اقتصاد يهدف إلى التخفيف من الاحتياج إلى الخارج بل إن هذا الاقتصاد بنى على أساس زيادة هذه الاحتياجات .. يقول بنى صدر : وبما أن احتياطى البترول عندنا سوف ينفد فى خلال عشرين سنة فانه ينبغى الحصول على النقد الأجنبى من خلال الصادرات غير البترولية أى بمضاعفتها بشكل ملموس ، لكن بأية معجزة يمكن حدوث ذلك ؟ لقد قمت بدراسة على مستوى إيران ووجدت أن كل فروع الاقتصاد الإيرانى (البتروكيماويات مثلا) جزء من شركات متعددة الجنسية

وتابعة لدورات اقتصادية عالمية ، وليس لها أدنى علاقة باقتصادنا ، أما الصناعات المتطورة فقد وصلت إلى درجة لا يوجد بينها علاقة تكامل ، وهكذا يصبح المطلوب مضاعفة الاستيراد .(٧٣)

فى ظل هذا النظام الصناعى نستطيع أن نتخيل أحوال الطبقة العاملة فى إيران ، وقد كانت تتزايد بالطبع من تأثير برنامج تخلية الريف ، وغنى عن القول أنها بالرغم من هذا التطور الكمى لم تكن تتمتع بأية حقوق إجتماعية أو نشاط سياسى ، وكان النشاط الاقتصادى يستتبع تطورا فى العمالة (من العمالة الزراعية إلى العمالة فى النفط والصناعة والانشاءات) إلا أن العمالة الزائدة ووجود الأيدى العاملة بوفرة فى الأسواق نتيجة لعملية الطرد من الريف إلى المدينة كان يجعل المعروض دائما أكثر من المطلوب ومن هنا لم يكن العامل يجرؤ على المطالبة بشىء (٧٤)حتى وإن جرؤ بعض العمال على المطالبة بالحد الأدنى من العيش فهناك القمع ، وقد أدى قمع إضراب عمال المحاجر والقمائن ومصانع البلاط سنة ٥٦ إلى سقوط مئات من القتلى ، أما إضراب التباطؤ فى الانتاج الذى قام به عمال مصانع النسيج فى طهران فى بداية ٧١ فقد انتهى بتعزيز المراقبة البوليسية على العمال وزيادة فى الأجر قدرها ستة قروش ووعود شاهنشاهية ببناء مساكن لم تنفذ قط بل فصل مئات العمال ، كانت المواكب العمالية لاتفتأ تذرع شوارع المدن حيث تهاجم بعنف من قبل البوليس كما حدث مع موكب عمالى خرج من مصنع النسيج « زيبا » وكان فى طريقه إلى مركز المدينة سنة ٧١ ، وكثيرا ما هوجمت مصانع « الكرج » وسقط العشرات قتلى كما حدث فى أبريل ٧١ (٧٥) ، وكان بند الثورة البيضاء الذى ينص على اشتراك العمال فى ملكية المصانع وأرباحها أكذوبة شاهنشاهية كبرى ، فان الذى حدث أن جماعات من « العمال » الذين دسهم النظام هم الذين تقدموا لشراء الأسهم المعروضة ، وإلا فقد كان من المعروف أن العمال يعيشون فى مستويات منخفضة جدا فمن أين لهم شراء هذه الأسهم ؟ ولم يذكر أحد – وهذا مبلغ علمى – أن الأرباح قد وزعت فى سنة من السنوات ، بل إن برنامج التأمين الاجتماعى لم يصدر بقرار شاهنشاهى كبند من بنود الثورة البيضاء إلا فى أواخر السبعينات .

نعود إلى السلعة الوحيدة ، البترول أو المادة المباركة كما كان يحلو للشاه أن

يسميها ، وبالرغم من أن البترول منذ إنتاجه واستغلاله كان الموجه للسياسة الإيرانية وكان البنية التحتية لكل الاجراءات السياسية التى حدثت منذ مطلع هذا القرن وحتى حركة مصدق ، إلا أن الشاه استطاع أن يقلل من تأثير البترول على السياسة بقدر الامكان بوضعه تحت سيطرة عدد من الشركات العالمية وذلك لكى يكون تحت حماية عدد من الدول تريحه فى هذا المجال ، إلا أن البترول — كما يقول بنى صدر وهو خبير اقتصادى فى المقام الأول — بقى غريبا عن الاقتصاد الإيرانى منذ إنتاجه واستغلاله ، وكان أحد العوامل الرئيسية فى تفكك هذا الاقتصاد وانهياره وهذا بسبب استغلاله كسلعة مقابلة للواردات فقد سمح بنبذ المنتجات القومية وسبب عملية تحول لنمط الحياة من خلال حاجات يتعلق إشباعها بسلع منتجة فى الخارج ، وبهذا المعنى يشكل البترول كموجه مالى عامل تفكيك للمجتمع وللاقتصاد الإيرانيين وعامل تتبيع لعناصر لايمكن تتبيعها بالنظام المسيطر ، ويقال غالبا إن الاقتصاد المسيطر يلاحق حتى آخر قرش المبالغ المدفوعة مقابل المواد الأولية ، لكن الذى لا يذكر فى الغالب هو أن هذا الاقتصاد يستخدم فى نفس الوقت تلك المبالغ ليعيد بناء الاقتصاد الذى يسطر عليه لمصلحته ، أو بمعنى آخر يفرض نظامه للحاجات مقابل استيراده للمواد الأولية .(٧٦)

وبالرغم من أن الاقتصاد الإيرانى كان يعتمد على هذه السلعة الوحيدة لفترة طويلة إلا أنه لم يرشد هذا الاستخدام ، فقد كان دخل إيران من هذه السلعة الوحيدة يبلغ ربع دخل مثيلاتها من الدول المصدرة للبترول ، فقد كان البترول هو السلعة الوحيدة التى يعتمد عليها الشاه لا لصالح شعبه أو حتى مشروعاته الشخصية بل لحماية شخصه ونظامه ، ومن ثم كان يقوم بضخ البترول دون حساب ، وقد اعترف بأنه ضخ البترول للغرب عندما قطع عنه فى حرب أكتوبر ، وفى مقابل كمية تبلغ أربعة أضعاف ما صدرته الجزائر فى إحدى السنوات كان دخل إيران يقل عن دخل الجزائر بمقدار الربع (٧٧) كان النظام فى هذا المجال يتصرف بطريقة تؤدى إلى أن يكون هناك استهلاك مسبق للمستقبل ، أى تصدير الثروة بشكل يكون فيه تطاول على المستقبل واغتصاب من حصته ، **وكما يقول بنى صدر : لو تم دمج البترول فى الاقتصاد بشكل تكاملى لكان فى الامكان الحصول على ما يتراوح بين ٥٠٠ سنة وألف سنة من البترول فى خدمة الاقتصاد وهذه الألف سنة يستهلكها النظام فى عشرين سنة ... هذه هى مأساة شعبنا** .(٧٨)

ونستطيع أن نتخيل مدى النهب العام الذى حدث فى عصر الشاه من دخل البترول إذا أدركنا حجم الثروة التى تمتعت بها إيران فى عصر البترول واجتماعات الأوبك ورفع الأسعار المستمر وقد قدرت ثروة الغاز وحدها بثلاثة آلاف واربعمائة مليون دولار فى سنة ١٩٨٠ ، كان دخل البترول ٢٠ مليار وخمسمائة مليون دولار سنة ١٩٧٧ . (٧٩)هذا التخريب المتعمد المرسوم بدقة والذى تنفذه عقول تعى ما تفعل تماما أدى إلى خلخلة البنية الاجتماعية فقد كان المقصود بالظاهرة البهلوية فى الاقتصاد على المدى البعيد هو إعادة توزيع الطبقات وبنائها اقتصاديا ، وكان هذا بالطبع مظهرا لنوايا سياسية خفية ترتبط بتوزيع مراكز القوى إذ كان النظام البهلوى يعى تماما دور طبقات معينة كرجال الدين وتجار السوق التقليديين فى عملية تمويل الثورات منذ مطلع القرن أما رجال الدين فقد تكفل بهم رضا خان (٨٠) ، وطبقا لفلسفة الاقتصاد فى عهد محمد رضا كان الدور على التجار التقليديين فى السوق القديم فى طهران وهو ليس سوقا بالمعنى الذى قد يتبادر إلى الذهن لكنه شبه مدينة كانت تسيطر على العمليات التجارية على مستوى الدولة عموما ، وكان الهدف هو تصفية هذه الطبقة التى تمثل مخروطا تعتمد قاعدته الأساسية على المسجد ، ومن ثم تم نقل الثقل التجارى إلى شمال المدينة (شوارع بهلوى وشاه رضا والشوارع المتفرعة منها) ، ووضع فى أيدى جماعة من التجار ترتكز على الشركات الأجنبية وعملها الرئيسى هو السمسرة لهذه الشركات ، وإلى جوار ذلك أدى توسع البنوك والمؤسسات الائتمانية للدولة والقطاع التجارى الحديث إلى مساعدة النظام فى هذه الخطة ، خاصة وأن أذون الاستيراد وتحويل العملة والسفر كانت كلها أمورا فى يد الدولة ، والمعلوم أنه فى هذه الحالة تستطيع الدولة بسرعة شديدة أن تنقل مراكز الثروة من يد إلى يد ومن مكان إلى آخر ، وساعد فى سرعة تنفيذ هذا المخطط الخبيث تدهور مستوى الزراعة ومستوى الصناعة التقليدية التى كانت تنتج السلع الأساسية التى يعتمد عليها السوق التقليدى ، ولأن البنوك كانت فى الأغلب الأعم قطاعا خاصا ، فقد كانت تعلم أين توجد منفعتها الحقيقية و لم يكن تعاملها مع الجماهير إلا عن طريق الإقراض بالربا الفاحش .

وسوف نرى أن أحد الملامح البارزة للعام الدامى أى عام المواجهة هو هجوم الجماهير على البنوك، ففى خلال ذلك العام هوجمت مقار ألف وأربعمائة بنك،

وفى يوم واحد هو ٤ نوفمبر سنة ٧٨ هوجم أربعمائة مقر للبنوك (٨١)إذ كان الهجوم على البنوك رمزا للهجوم على نظام الاقتصاد الغربى الربوى من ناحية ورمزا للهجوم على الطبقة الجديدة التى حلت محل تجار السوق التقليدى من ناحية أخرى ، **وهناك سبب رئيسى آخر وهو أنه عندما زاد التضخم عن حده فى السنوات الأخيرة بدأت البنوك فى إقراض الأفراد بفوائد عالية جدا ومن ثم كان أكثر من ٨٥٪ من الموظفين والعمال مدينين للبنوك وكانت هناك أراضى شاسعة انتزعت من أصحابها وفاء لديون لم تسدد** ، وإلى جوار ذلك كثيرا ما اشتركت بنوك لها إسمها فى عمليات نصب واحتيال عن طريق ضمانها لمشروعات وهمية تقدم بها كبار المشتركين فى حلبة النهب ، وكثير جدا من شركات تقسيم الأراضى وبناء المساكن الوهمية كانت تحتال على الجماهير بالتعاون مع بنوك لها اسمها وسمعتها (٨٢)وإذا أضفنا إلى كل هذا أن البنوك كانت عن طريق فروعها التى تنتشر فى أنحاء الأرض وسيلة سهلة جدا لتهريب الأموال الطائلة خارج إيران ووسيلة — عند اللزوم — لدعم العملات الأجنبية والدولار على الخصوص — أدركنا لماذا كانت البنوك هدفا من أهداف الثورة كرمز يجمع سياسات الاستغلال والتخريب والالحاق بكل صورها .

أما النتيجة الحتمية لعملية « إخلاء الريف » وهى أيضا كما رأينا نتيجة مقصودة ذات هدف سياسى ، فقد كانت خلق طبقة واسعة غير زراعية تعيش على الأجور ، وفى سنة ٧٧ كان عدد العاملين فى الصناعة مليونين ونصف وفى الانشاءات مليونا وذلك بين ٤/١٠ مليون يشكلون مجموع القوى العاملة ، وبالطبع أصبحت الدولة هى القوة المسيطرة على الاقتصاد وصاحب العمل الرئيسى ، وإلى جوار العمال كان هناك سنة ٧٧ حوالى ٣٥ الفا فى القوات المسلحة (وهو الرقم المعلن) و ٨٠٠ الف فى الوظائف العامة و ١٦٠ الف فى التعليم وكلهم يعيشون مباشرة على أكتاف الدولة ، وإلى جوارهم كانت الدولة مسئولة عن توظيف قطاع أوسع من السكان فى المؤسسات الاقتصادية والمالية .

وأدى ذلك إلى أن التركيب الطبقى يعكس هذه التغييرات والأقسام الثلاثة الرئيسية فى هذه البنية الطبقية الجديدة هى : الفئة العليا من القوات المسلحة ، والادارة المدنية وملاك الأراضى الرأسماليون وأصحاب الأموال والمقاولون ،

وفى ظل هذا النظام تعددت البورجوازيات فهناك بورجوازية البلاط وبورجوازية المقاولات الكبرى المتصلة بالبلاط وبورجوازية كبار الموظفين المنتسبين للنظام ، أما الطبقة العاملة فلم تمنح الفرصة لكى توسع نطاقها عن طريق تكوين بورجوازية خاصة بها (٨٣)وبالنسبة للثروة العامة كان نصيب ١٠٪ من السكان هو ٤٠٪ من الاستهلاك ، وبين الطبقة الحاكمة الجديدة والعدد المتزايد من العمال الذين يتقاضون أجورا فى المدينة توجد طبقة متوسطة جديدة يتزايد عددها وتشمل المزارعين الصغار والصفوف الأدنى من موظفى الحكومة والأرستقراطية العمالية فى المصانع ، وقد ظل تركيب هذه الفئة وتوجيهها السياسى ذا أهمية كبرى فى حسم نتيجة الصراع بين الطبقة المسيطرة والطبقة التى تتقاضى الأجور ، ومن هنا فان قبضة الدولة قد أخذت فى التشدد على المجتمع الإيرانى منذ سنة ٥٣ ، ويوصف عهد الشاه بأكمله بأنه ربع قرن من التوسع فى السيطرة البيروقراطية المدنية والعسكرية بصورة مستمرة والتحكم فى نشاط السكان على نطاق واسع ، وهذا بالطبع مع قيام الشاه بإحكام قبضته على الطبقة البيروقراطية فى مركزية ذات جذور قديمة (٨٤)

ولعل هذه السياسة فى حد ذاتها كانت أبشع أخطاء النظام·فان هذا التضييق والتكثيف فى الجهاز الحكومى وجعل مجموعة كبيرة من الشعب تعتمد فى أرزاقها على الدولة وإن ضمن للنظام الأمان عند تشديد قبضته فانه كان يسبب له صداعا شديدا عند تراخى هذه القبضة ، ومن ثم سوف نرى أن الثورة الإيرانية قد نجحت بسلاح لم يدر للشاه بخلد ، ولم يخترع له البنتاجون سلاحا مضادا بعد وهو الاضراب .

وكان اتساع المدن السرطانى العشوائى فى نظر النظام مظهرا من مظاهر التحديث ، فقد تطور مجتمع المدينة من ٣١٪ من مجموع السكان سنة ٥٦ إلى ٧٤٪ سنة ٧٦ ولنأخذ مثالا على ذلك تطور العاصمة طهران ، فقد كان تعدادها دون المليون سنة ٤٠ ووصلت إلى ما يقرب من أربعة ملايين ونصف سنة ٧٠ ومن المتوقع أن يصل إلى تسعة ملايين سنة ٩٠ (٨٥)وكان المهاجرون أو بمعنى أصح المطرودون نتيجة لبرنامج إخلاء الريف يتركزون فى شريط حول العاصمة يحتوى على حوالى أربعة وأربعين تجمعا سكانيا تبدو كالعورات فى

عين أى زائر لعاصمة الحضارة العظمى ، ومن العسير لأى زائر أجنبى أن يجد طريقه إليها ، وكان هؤلاء يقيمون فى أشياء تسمى مجازا بالمساكن ، ومساحة المسكن حوالى ٨٠ متر مربع مقسم إلى حجرتين تقيم أكثر من أسرة فى كل حجرة ، ولم تكن لحكومة « الحضارة العظمى » من وسيلة لمداراة عجزها عن مد هذه الأماكن بالمرافق إلا أن تأمر شرطتها بمهاجمة هذه التجمعات ليلا بالبلدوزورات وهدم هذه المساكن على رءوس الأهالى كما حدث فى منطقة « دولت آباد » ، وكان الأمر ينتهى أحيانا بالصدام المباشر ، وفى منطقة على آباد وضع السكان نساءهم وأطفالهم أمام عربات البولدوزر ، وكانت مآسى أمثال هؤلاء سببا فى انتهاز الأمير عبد الرضا الفرصة فاستولى على منطقة شاسعة من الأرض فى جنوب طهران وبناها مساكن أخذ يبيعها بالتقسيط لأمثال هؤلاء ، ومن ثم كان ثمن أراضى المطرودين يعود مباشرة الى جيوب الأسرة المالكة ، وكتبت المانشترجارديان « **أسوأ أنواع الفقر الموجود فى العالم يمكن أن يوجد فى جنوب طهران** »(٨٦)وكثيرا ما كان الزائر الأجنبى لإيران يشاهد قوافل المهاجرين على مشارف المدن الكبرى يقيمون رجالا ونساء وأطفالا على مشارف المدن فى انتظار فرصة للزحف .

وكانت خلخلة البنية الاجتماعية فادحة النتيجة على جيل الشباب والمجتمع الإيرانى فى مجموعه مجتمع شاب إذ يمثل فيه الشباب حوالى ثمانين فى المائة من مجموع السكان ، وقد أصبح هذا الجيل الشاب دون أهداف ومشاريع ، ولم يعد ضمن البنية القديمة للمجتمع فحتى النظام الاجتماعى للقرى والقبائل والمدن قد تغير وبسبب التخلخل الاجتماعى بات ملايين الشباب مقطوعين عن أوساطهم الاجتماعية لا يعملون فى مهنة ثابتة محرومين من كل نشاط مهنى أو فكرى قلقين على مستقبلهم المظلم ، ولذلك كان من السهل تعبئتهم وربطهم بالإسلام والثورة حيث كان من المستحيل فصل أحدهما عن الآخر . (٨٧)

وهل يمكن أن يصدق إنسان وسط جعجعة الإعلام الشاهنشاهى واحتفالاته الباذخة أن النتيجة الحتمية للظاهرة البهلوية فى الاقتصاد كانت الافلاس التام والسقوط بين براثن سياسة القروض ؟ كيف ؟ هل يمكن أن يصدق أن النظام الذى كان يقرض حتى آخر لحظة كان غارقا فى الدين ؟ هذا هو الواقع الأليم ...

فبالرغم من هذا الرواج الإعلامى الاستهلاكى المفتعل ، كان العجز فى ميزان المدفوعات يزداد يوما بعد يوم ، أما الواردات فقد بلغت عدة أضعاف الصادرات كما كانت مشكلات الشحن والتفريغ تكلف إيران عدة ملايين كغرامات سنويا (١٥٠ مليون دولار فى سنة ٧٦ وحدها) هذا إلى جوار الخسائر الناتجة من جراء الحرائق المفتعلة ، وطبقا للتقرير السنوى للبنك المركزى كانت ديون إيران تبلغ ٥٢٢ مليون دولار سنة ٦٩ وحدها (٨٨)زادت إلى عدة مليارات قبيل الثورة ، وكانت الحكومة نفسها تساهم فى زيادة حدة التضخم وانخفاض العملة الإيرانية وذلك بطبع كميات كبيرة من أوراق البنكنوت دون غطاء ، وفى الاحصائية الرسمية لسنة ٧٠ قامت الحكومة بطبع ما قيمته نصف مليار من التومانات دون غطاء (٩٠) .

وتتجلى الظاهرة البهلوية أكثر فى سياسة الأجور والنفقات ونفقات الخدمات ، وكانت آخر زيادة فى الأجور قد وصلت بأجر العامل الزراعى إلى ما يساوى ثلاثة دولازات يوميا بينما كان العامل الصناعى يتقاضى من أربعة دولارات إلى ثمانية دولارات يوميا ، وكان عامل البناء يتقاضى أربعة دولارات ونصف ، وعلينا لكى نفهم مستوى هذه الأجور أن نعلم أن الليلة الواحدة فى مستشفى أقل من المتوسط كانت تكلف ما يوازى سبعين دولارا (٩١)والحديث فى هذا الموضوع من شاهد عيان يطول ، ويكفى أن نعلم أن كيلو جرام الأرز (وهو الوجبة الرئيسية فى إيران) بلغ ثمنه قبيل الثورة ما قيمته دولارين ونصف ، كان الاقتصاد البهلوى مظهريا تماما لأنه كان اقتصاد شريحة من شرائح المجتمع فحسب ، فمدينة طهران تحتوى على حوالى مليون سيارة خاصة لكنها لا تحتوى على شبكة مواصلات عامة تعمل كما ينبغى ، ناهيك عن شبكة المرافق عموما ، وبينما كانت المتاجر تغص بالسلع الترفيهية والكمالية ، كانت المواد الغذائية اللازمة فى حالة أزمة دائمة . (٩٢)

وبالرغم من عائدات البترول الضخمة كان متوسط عمر المواطن الإيرانى لا يتجاوز خمسين سنة أى أقل من متوسط عمر المواطن فى الهند ، كما أن نسبة وفيات الأطفال فى إيران ١٣٩ فى الألف أى نفس نسبة الهند ، كما تصل الأمية إلى ٧٠٪ ، وفى عام ٧٧ بلغ عدد الطلاب الجامعيين الذين يدرسون فى إيران ١٧٠ ألفا فى مقابل ٥٥١ ألفا كانوا يدرسون فى الخارج .(٩٣)

ولم تكن صحف النظام تستطيع أن تخفى بعض الأخبار التى تنشرها خبط عشواء وهى تعنى الكثير ، أخبار عن الهجرات المستمرة للإيرانيين الذين يحاولون دخول دول الخليج تسللا كحادثة غرق خمسمائة مواطن إيرانى حاولوا التسلل الى الكويت ووفاة أربعمائة منهم وسقوط الباقين فى أيدى الشرطة الكويتية (سنة ٧١) وهذا فى الوقت الذى كانت فيه نفس هذه الصحف تنشر أخبار قروض بمليارات الدولارات لاعانة الدول الصناعية الكبرى ، وكان هناك طبيب واحد لكل تسعين ألف إيرانى (كيهان شهريور ٥٣) وبلغ تعداد ضحايا الطرق فى شتاء ٥٠ (سنة ٧١) ستمائة ألف شخص بينما دفنت آلاف القرى تحت الثلوج (كيهان ديماه وبهمن ماه ٥٠) ولم تخف صحف النظام أخبار القحط الذى مات فيه الآلاف جوعا (كيهان فروردين ٥٠) ونشرت الصحف إحصائيات من قبيل أن هناك أكثر من ١٦ ألف بائع سجائر على الأرصفة فى طهران وحدها وأن ١٪ فقط من سكان طهران يتمتع بدخل معقول وأن السل منتشر بين العمال (كيهان مرداد ٥٣) .

لكن : أين ذهب كل هذا الدخل الرهيب للبترول الإيرانى ؟ لا شك أن الجواب موجود فى الحسابات السرية للبنوك العالمية ، والأملاك الموزعة بين أقطار الأرض خاصة أمريكا ، ولن أعيد هنا معلومات تزخر بها الصحف السيارة يوميا ، ولعلنا نعود فى الجزء الثالث من هذا الكتاب إلى هذه النقطة عندما تتوفر لنا وثائقها ، هذا بينما أنفق جزء كبير من هذا الدخل فى محاولة اقامة قشرة لإيران « الحضارة العظمى » ذات « الوجه القومى » كما سنرى فى الفصل التالى .



الفصل الرابع

محو الشخصية الإيرانية

« لم تكن المصيبة نهب الثروة بقدر
ما كانت تفريغ الانسان من محتواه »

علي شريعتي

لم تكن المصيبة الكبرى فى هذه الفترة التى استمرت خمس عشرة سنة أو ما اصطلح على تسميته بعصر النهب كامنة فى سلب الثروة القومية ونهبها ، إذ بالرغم من كل هذا السلب والنهب كان من الممكن تعويض الخسارة بدخل البترول أيضا خلال عدة أعوام ، لكن الفاجعة الكبرى التى لا يمكن أن تعالج أو تعوض حتى فى سنوات وربما أجيال هى الانحطاط الروحى والمعنوى والأخلاقى واسع النطاق الذى كان يجر كل المجتمع إلى حمأة الفساد ، ويجعل انعدام الشرف والحيثية وانعدام الشخصية وفساد الذوق وضياع الحقيقة أو بعبارة بسيطة تفريغ الشخصية الإيرانية وتجويفها وتجريدها من كل شرف وحيثية إنسانية هدفا عاما حتى شرف الإنسان وكرامته الإنسانية كانا معروضين فى سوق البيع والشراء ، ففى مجتمع تسيطر عليه قيم المادة تصبح الثروة هى وسيلة كسب الاحترام والشخصية بين الناس ، وتصبح أيضا وسيلة الأمن والشعور بالأمان ، وفى فترة لاحقة لم تكن حتى الثروة تنجى صاحبها من المصير المحتوم إذا تصرف تصرفا بسيطا خارج ماهو مرسوم ، فكانت الأموال تصادر وينتقل إلى السجن كما حدث فى حالة المليونير همدانيان أو المشنقة كما حدث للمليونير

فاتح ، كان الأمر أشبه بعصابة يعرف كل فرد فيها دوره ودائرة احتكارية للنفوذ والثروة معا ، وعلى رأس هذه العصابة توجد الأسرة المالكة يصلها جعلها المعلوم ثمن التغاضى والتسهيلات (٩٤) .

أما الدائرة الاحتكارية فتمثلها الجماعات التى كانت وثيقة الصلة بالغرب وتشكل مجموعة تحكم منذ ثلاثمائة سنة حتى الآن ، وهى تشمل مائة وتسع وعشرين أسرة ترتبط ببعضها بنسب أو بسبب ، وكلها تشكل نسيجا مثل شبكة على شكل هرمى فى قمتها الأسرة البهلوية والشركات الخاصة المهمة والنظام البنكى والوزارات الرئيسية أى وزارة المالية ووزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووزارة الخارجية وهيئة الخطة كلها فى يد هذه الشبكة ، وربما يتصدى أحد من خارج الشبكة لعمل ما تحت ضغط إنجليزى ثم أمريكى فاما أن يجذب إلى داخل الشبكة عن طريق الزواج أو يطرد بعد أن يقوم بمهمته (مثل ضياء الدين طباطبائى الذى كان من خارج الشبكة فطرد بعد تسعين يوما واستقرار انقلاب رضا خان) ، وإذا نظرنا إلى تشكيل المجلس النيابى طوال تاريخه لوجدناه أيضا يدور حول هذه الأسر المعدودة ، فكان نواب كرمان مثلا لايخرجون عن أسرتين ونواب اراك عن أسرتين وهلم جرا . هذا الهرم كان يأخذ على عاتقه عملا هاما وهو أن كل صدام كان يحدث داخل المجتمع كان يجذبه إلى داخله ويصفيه ، وعندما كانت تحدث بعض الصدامات داخل الهرم فإنها لم تكن تتجاوز ما يشبه نقل قطع الشطرنج لكن داخل الرقعة ، كان مصدق نفسه من داخل الشبكة لكنه كان شاذا فى نظرها وعرف داخلها كمجنون ، ولم يكن زاهدى منها لكنه ارتبط بها عن طريق المصاهرة (بزواج أردشير زاهدى من ابنة محمد رضا وظل داخل الشبكة حتى بعد الطلاق) وكان بختيار ونصيرى رئيسا الساواك منها ، بل وجذب بعض رؤساء السوق والمسيطرين عليه إلى داخلها ، بل إن رؤساء حزب توده (الحزب الذى كان يمثل الجماهير !؟) كانوا من داخلها ، فايرج اسكندرى السكرتير العام وأحد كبار المؤسسين من الأسرة القاجارية ، أما نور الدين كيانورى السكرتير العام الحالى فهو حفيد فضل الله نورى صهر الأسرة القاجارية (٩٥) .

هذه الشبكة السرطانية التي تحتكر النفوذ والثروة والمناصب والسلطة كانت تمثل بالنسبة للسيطرة الأجنبية وسياسة الالحاق المسماة بسياسة التحديث طبقة التراجمة والعارفين بالطريق والأدلاء للأجنبى ، أو بتعبير شريعتى كانوا « عملاء هواة للظلمة » ، كانت لها قاعدتها السياسية التى تتمثل فى العمالة للأجنبى الذى لم يعد يستطيع التدخل بالجيوش كما كان يفعل فيما مضى ، أما قاعدتها الاقتصادية فمعلومة وهى شبكة الدلالة والسمسرة ، وكان لها قاعدتها الفكرية والثقافية التى تجمعها ، وقد يبدو غريبا أن يكون لهذه الجماعة قاعدة فكرية ، لكن الدعوات المسمومة ذات الظاهر الخلاب من قبيل نبذ التعصب الدينى أو القومى ونبذ التمسك بالقديم والدعوة إلى التسامح والعالمية والإنسانية كانت قاعدتها الفكرية (٩٦) ، وكان لها مظهران : الماسونية والبهائية ، أما الماسونية فذات تاريخ قديم فى إيران دخلت إليها مع أوائل مفكريها الذين تعلموا فى اوروبا فى منتصف القرن الماضى وعلى رأسهم ملكم خان ناظم الدولة ، واشتركت الجمعيات الماسونية فى الحركة الدستورية بتوجيه من الانجليز لإكساب الحركة بعض التوازن بين التيارين الديني والعلمانى ، وفى السنوات الأخيرة لا يكاد المرء يصدق التغلغل الماسونى فى الأوساط الثقافية والحاكمة والذى فضح بعد نجاح الثورة بحيث أن جامعة كاملة مثل جامعة بهلوى فى شيراز كانت من أكبر أوكار الماسونية فى إيران ، وكانت كل المواد فيها تدرس بالانجليزية ، كما كان الأساتذة يقدمون إنتاجهم للترقية باللغة الانجليزية ، وأكثرية المصادر فى مكتبتها باللغة الانجليزية ولم يكن يعين فيها إلا من يزكى من قبل الماسونية العالمية (٩٧) ، كما أن تعداد من شغلوا مناصب وزارية فى السنوات الأخيرة وأعلن أخيرا أنهم كانوا ضمن الماسونية العالمية – لا يكاد يصدق .

ويكفي أن ندلل على نفوذ البهائية فى إيران من أن المبادىء البهائية قد تغلغلت حتى فى أوساط رجال الدين ، وكان من المعروف أن هويدا كان بهائيا ، وأن عددا كبيرا من جنرالات الجيش كانوا من البهائية ، وكان مصمم برج طهران المعروف بالشهياد بهائيا ، وقد صممه بحيث يدل على أصول البهائية ، وكان كبار العاملين فى الحرس الامبراطورى والبلاط والساواك من البهائية ، كما كان من المعروف أن كبار طبقة التجار الجدد منهم ، وهذه سياسة أمريكية معروفة فى

تشجيع الأقليات وذلك لتكوين طابور خامس يدافع عن السياسة الأمريكية ومصالحها فى البلاد التى تسيطر عليها ومن أهل البلاد أنفسهم ، وفى ظل هذه السيطرة البهائية على إيران والمباركة بالطبع من الصهيونية العالمية ، كانت الثروة مركزة فى أيدى البهائيين وليس أدل على ذلك من وجود أمثال الملياردير هژبر يزدانى .

ولنا أن نتصور نتيجة هذا الاحتكار لكل شيء فى بلد يكون الشباب نسبة ٨٠٪ من سكانه والنتيجة الأولى هى إبعاد الغالبية العظمى من الإيرانيين عن مراكز السلطة والقوة والنفوذ وإغلاق أبواب التقدم والنجاح أمامهم ، وكانت الحكومة الإيرانية تبدو متعمدة فى ابعاد الإيرانيين مهما كانوا نوابغ فى تخصصاتهم ، ومن هنا كانت الكثرة الغالبة من الإيرانيين المثقفين تعيش خارج الوطن ، كما أنه كان من الممض بالنسبة للعديد من أساتذة الجامعات وذوى الخبرات أن ينظروا إلى أموال وطنهم تنهب تارة باسم شراء معامل ومنشآت لا يحتاجها أحد وتارة باسم مرتبات لخبراء لا يزيدون عنهم فى شيء (٩٨) ، وكانت خرافة التكنولوجيا التى تروج عمدا فى دول العالم الثالث على أساس أنها معضلة المعضلات قد أدت إلى نتيجة عكسية فقد أشيع أنها حكر على الغرب ، فكان كثير من العائدين من الخارج من التكنيكيين يعملون فى حقول بعيدة عن تخصصاتهم فكثير من المهندسين الزراعيين كانوا يعملون مثمنين للأراضى فى بنك الرهونات وكثير من الكيميائيين كانوا يعملون كمديرى عموم وكثير من الجيوليجيين عملوا فى حقل المقاولات بينما كانت الأعمال التى ينبغى أن تسند إليهم فى أيدى غيرهم من الأجانب ، (٩٩)وإذا أغلقت أبواب النجاح أمام الشاب ، إلى جوار غيبة الديموقراطية والأحزاب فى مجتمع مغرم بالتشكيلات بطبعه ، وعندما تكون النوادى والجمعيات ممنوعة ، بل ولا ينجو المتردد على المساجد من النظر الشذر فإن ذلك الذى طردته القرية إلى المدينة يقوم بسد جوعه بشطيرة ثم يمضى إلى الحلاق أو الخياط أو ماسح الأحذية ... ثم بيت الدعارة (كان يوجد فى طهران حى كامل للدعارة) ، وإن لم يكن فالسينما (ولم تكن هناك رقابة إلا على الأفلام السياسية أما الأفلام الجنسية فكانت تعرض دون رقيب) أو ينشغل بقراءة مجلات عصر الحضارة العظمى التى كانت تعمل بجهد فى محو الشخصية .(١٠٠)

ولعل الصورة الكاملة لبرنامج التغريب « غرب زدگى » ومحو الشخصية الإيرانية نجدها عند عدد من الكتاب الإيرانيين الذين أخذوا يدقون نواقيس الخطر ، ولعل جلال آل أحمد من أوائل الكتاب الإيرانيين الذين وضعوا أيديهم على هذا الداء العضال ، فقد كانت عملية الغزو الفكرى فى نظر الكتاب الإيرانيين الواعين أشد تأثيرا من عملية النهب الاقتصادى ، على أساس أن العملية الأخيرة سوف تنتهى عندما تجف منابع البترول ، فالغرب لا يتدخل عسكريا أو اقتصاديا فحسب بل يتدخل ثقافيا وفكريا عن طريق ما يسمى بالمنظمات العالمية ، وأن هجوم الآلة لايستهدف الاقتصاد فحسب ويستهدف أيضاً العقائد والثقافة (١٠١) ويتساءل جلال آل أحمد : فلنطالع الصحف التى تصدر فى الشرق ، ما هى أخبار الهند واليابان والصين ؟ لاشىء .. كل الأخبار عن نوبل وانتخاب البابا وجوائز مهرجان كان وآخر مسرحيات بورودواى أو أحدث أفلام هوليود ، (١٠٢)ولعل مالم يلاحظه جلال آل أحمد أن الإعلام فى ظل النظم الديكتاتورية عموما غالبا ما يهدف إلى هدفين : نزع التسييس أى اهتمام الناس بالسياسة ، وصناعة النجوم المزيفة وترويج الفنون الهابطة لشغل الشعوب المستضعفة وتقديم قدوات فى ميادين الفن وكرة القدم وما إليها من الميادين التى لا تمثل خطورة على النظام الحاكم بل وتضر بالشعوب عموما .

وقد ناقش الباحث الإيرانى الدكتور محمد على ندوشن نفس القضايا من منطلق آخر وهو منطلق الثقافة عموما ففى صيف ٧٦ قام الإعلام الشاهنشاهى بهجمة عنترية على التراث الثقافى لإيران ، وكان السؤال الذى طرح : ماهو الضرر الذى يمكن أن يلحق بالشباب إذاهم انصرفوا عن تراثهم الثقافى تماما ماداموا لن يحتاجوا إليه فى النهاية فى عالم سادته ثقافة واحدة ، وبدلا من إضاعة الوقت فيما لاطائل من ورائه انصرفوا من البداية إلى الثقافة الغربية ؟ (١٠٣)ويناقش الباحث دور الأجهزة الإعلامية فى الترويج لهذا الاتجاه ، وكيف تبدل الحضارة إلى قناع حضارة وتحول الإنسان إلى مجرد متفرج تعلمه أجهزة الإعلام كيف يأكل وكيف يشرب وكيف يلبس وكيف يعيش وكيف يفكر على الطريقة الغربية (١٠٤)ثم يتحول الأمر إلى أن يفكر كل امرىء فى أن كل شىء يفتقد اللون الغربى لا قيمة له ، ويتجاوز الأمر المخبر إلى المظهر فالسوق كله يعتز بالأسماء الأوروبية (١٠٥) (فى سهرة ضمت المؤلف مع الدكتور ندوشن وعدد من المهتمين بالثقافة فى منزله

فى صيف سنة ٧٧ دار الحديث حول مظاهر التغريب فى المجتمع الإيرانى وكيف أن الأمر قد خرج من الجد إلى الاسفاف ، وروى أحد الحاضرين وكان سفيرا لإيران فى افغانستان أنه كان فى زيارة لأحد أحياء جنوب طهران فوجدهم قد كتبوا اللافتات التى تبشر بعيد ميلاد قائم الزمان – الامام الغائب – باللغة الانجليزية) فقد كان من مظاهر محو الشخصية سلب الثقة من اللغة الفارسية على أساس أنها لغة لا تستطيع أن تعبر عن ثقافة الزمان وكان الشاهنشاه يتحدث فى المحافل الدولية بالانجليزية وكان سفراؤه يخاطبون الطلبة المضربين على أبواب السفارات باللغة الانجليزية ، ولم يكن أردشير زاهدى يستطيع الحديث بالفارسية ، ومن ثم كان تدريس لغة سعدى وحافظ وجلال الدين يهمل عن عمد ، وكانت أقسام اللغة الفارسية فى كليات الآداب فى إيران أقل الأقسام عددا (١٠٦)ولم يكن خريج الجامعة يستطيع أن يقرأ صفحة واحدة من التراث قراءة صحيحة ، ودأبت المؤسسات الثقافية فى السنوات الأخيرة على نشر ملخصات من التراث بقصد تبسيطه والحقيقة أنها كانت تمسخه ، ولنطالع مع الدكتور إسلامى ندوشن بضع أعداد من المجلات التى صدرت فى مطلع سنة ٥٠ (سنة ٧١) بمناسبة عيد النوروز « رأس السنة الإيرانية » : فكل المجلات تحتوى على موضوعات من قبيل القصص الغرامية والجنسية والبوليسية وأخبار العجائب والأمور الخارقة للعادة وأخبار الموضة والزينة ومشكلات عاطفية وشخصية وقسم للصحة يتناول أمور إنقاص الوزن والمقاييس المثالية للجسم وصفحات فكاهية وصور للممثلين أما صور الغلاف فكلها لنساء عاريات . (١٠٧)

وكانت عملية محو الشخصية تصل إلى أشدها ، عندما يصل الأمر إلى الدين ، فبالرغم من أن ٩٠٪ من الإيرانيين من المتدينين الذين يدينون بالولاء لولى العصر « الامام الغائب » ويعتبرون أية حكومة زمنية مهما بلغت عدالتها حكومة غاصبة إلا أنه بمجرد دخول الصبى مراحل التعليم كان يفجأ بأن المقصود هو أن تمحى من شخصيته كل العوامل والأصول الدينية وذلك دون تقديم بديل إلا قشور الحضارة الغربية الوافدة (١٠٨)والمطالع للكتب المقررة على مراحل التعليم المختلفة لا يستطيع أن يظفر بأى موضوع له صلة بالدين بل يجد نوعا من التكتم الشديد على كل ما يتصل بهذا الأمر ولنا أن نتصور

الفجوة الرهيبة التى تنشأ فى أعماق الطفل عندما يجد هذا الازدواج بين عالمه الموجود وعالم الكتاب ، ولم يكن الأمر قاصرا على المدارس بل كثيرا ما يلفت نظر الزائر لطهران قلة عدد المساجد الموجودة فيها بالنسبة للعواصم الإسلامية الأخرى بل ويلاحظ أن المساجد الكبرى كانت مغلقة أو محولة إلى متاحف بالرغم من أن حالتها تسمح باقامة شعائر الدين ، أضف إلى هذا ما كان يعمد إليه النظام من تشويه لرجال الدين وتصويرهم كرمز للجهل والرجعية والنفاق والازدواجية وهو أمر كان الشاه نفسه يشترك فيه .

وبالرغم من أن مظاهر الحياة الغربية أصبحت تسود العالم اليوم بفضل فلسفة الاستهلاك التى تحول الفرد من إنسان ذى قيم ومبادىء إلى إنسان مستهلك فحسب يسعى طول اليوم من أجل أن يكسب ما يستهلكه ويحلم طوال الليل بما سوف يستهلكه ، ويعيش حياته القهقرى ، بمعنى أنه يعيش طوال حياته يسدد أقساط ما استهلكه بالفعل ، بالرغم من هذا وبالرغم من أن إيران لم تكن بدعا فى هذا بين دول العالم الثالث (أو العالم الثانى كما يسميه شريعتى على أساس أن العالم ينقسم إلى كتلتين فحسب : عالم من الأقوياء يضم الامبريالية الرأسمالية والامبريالية الشيوعية وعالم من الضعفاء) فان أمر محو الشخصية الإيرانية وتلويثها ومسخها عن طريق عالم الأقوياء لتحويل الضعفاء إلى مخلوقات مستهلكة فحسب كان يؤرق المفكرين الإيرانيين فى السنوات الأخيرة ، ولم تكن قضية أصالة الشخصية والعودة إلى الذات تطرح كموضوع يثير اللغط بين المفكرين فحسب ، بل كموضوع يمس الأمة فى أخص دقائقها فإن الشخصية الإيرانية التى كانت ذات سمات معينة حافظت عليها طوال قرون كانت يوما بعد يوم تتخلى عن مكانها لما قدم إلى إيران على أساس أنه الحضارة اليوم ، ولم يكن هذا التغير السريع يثير سخرية المفكرين الأصلاء فحسب بل ويثير ذعرهم وبالتالى لم ينظروا إلى هذا الأمر كما ينظر إليه فى كل بلاد العالم الثانى كأمر طبيعى أو ظاهرى أو قشرى بل اعتبروه أخطر كثيرا من نهب الثروة لأن تفريغ الشخصية من الداخل وتحويل أجيال الشباب إلى مجموعة من الشخوص المفرغة داخليا كان الضمان الوحيد للنظام فى تأمين نفسه ضد أية ثورة أو حركة ، بل إن ما كان يعد من سمات الشخصية الإيرانية وهو الإسلام والمذهب

الشيعى كان قد مسخ وانحرف عن مساره الصحيح فاذا به مجموعة من العادات والتقاليد القشرية التى لا تحسب من الإسلام فى شىء ، بل مجموعة من المراسم من خلق النظام الصفوى الذى حكم إيران منذ بداية القرن السادس عشر ، ومن ثم فان ما يمارس فى إيران باسم الإسلام ليس من الإسلام فى شىء بل وينبغى أن ينحى جانبا مع بقية ما يحاول النظام فرضه .(١٠٩)

والغريب أنه بينما كان النظام يضرب دعاة التنوير الإسلامى ويسميهم بالماركسيين الإسلاميين كان ينظر - خاصة فى سنواته الأخيرة بعين العطف والرعاية إلى أولئك الذين عرفوا فى إيران كماركسيين خلص ، وبالرغم من قلة عددهم وشأنهم فى إيران إلا أنهم كانوا يتمتعون ببعض حرية العمل ، ومن ثم كانت مهمة توجيه العقل الجماعى لإيران إما فى أيدى أبواق مأجورة تدعو إلى اعتناق حضارة أوروبية لم تفهم منها شيئا وتعتبر مظاهر التغريب والاستهلاك حضارة ، أو فى أيدى جماعة من أتباع الجناح الآخر من الامبريالية ، كل همهم نقل عملية الالحاق من جناح غريب إلى جناح آخر غريب وبين شقى هذه الرحى كانت الشخصية الإيرانية تمحى تماما ويقضى عليها .

وفى ظل فلسفة الحتمية الشاهنشاهية أراد الشاه أن يلغى أربعة عشر قرنا من تاريخ شعب ، ليس هذا فحسب بل والفترة الوحيدة فى تاريخ الشعب الإيرانى التى كونت ثقافته وفكره ، أراد الشاه أن يرغم الشعب على الاعتراف بأن الإسلام لم يدخل إيران ولم يمر بها ، ويعلن نفسه امتدادا لملوك إيران قبل الإسلام ووريثا لفترة عفى عليها الزمن ، فترة لم تترك كتابا أو طبيبا أو فيلسوفا ، وكان احتفاله الباذخ الكسروى بهذه المناسبة فى أكتوبر ٧١ مادة شيقة للصحفيين ، وعلى موائد لحم الطاووس التى أقامها الجالس على عرش الطاووس احتفالا بالغاء الإسلام فى إيران وإحياء أمجاد قورش الأسطورى ودارا وكمبوجيه المجنون وسابور ناقب الأكتاف وكسرى أبرويز الذى مزق خطاب رسول الإسلام حضر رؤساء الدول الإسلامية ، وكان الأمر مثيرا للضحك والسخرية على هذا البذخ المبالغ فيه والمظاهر الكسروية فى النصف الثانى من القرن العشرين والشاه والشهبانو وحركاتهما وسكناتهما وملابسهما وموكب العربات والجنود فى ملابس القرن السادس قبل الميلاد ، كانت كلها أمورا تثير الضحك

والسخرية عند أولئك الذين يعلمون تاريخ إيران جيدا ويعلمون أن تاريخ إيران قبل الإسلام لم يكن إلا سلسلة من الصدامات العسكرية مع اليونان وروما وبيزنطه وليس فيه شيء آخر يستحق الفخر ، كان الشاه التقدمي جدا الذى جعل من وطنه وطنا على أعتاب حضارة عظمى مضحكا كأشد الممثلين الهزليين إضحاكا ، وبالنسبة للشعب الإيرانى كان الأمر مثيرا للاستنكار فقد كان الكل يعلم أن هناك قحطا فى خوزستان وكانوا يعلمون أن الشاه وجهازه القمعى قد قاموا قبيل الاحتفالات بحملة اعتقال لكل القوى الوطنية لتأمين إقامة الضيوف الأعزاء ، أما عند المثقفين الإيرانيين ، خاصة أولئك الذين لم يعرفوا إيران تستحق الاحترام وثقافة تستحق الفخر إلا فى ظل الإسلام ، فقد كان هذا الأمر يعد خيانة جديدة من سلسلة الخيانات التى يرتكبها الشاه فى حق بلده وفى حق مواطنيه ...

« أجل ينبغي أن يقمع الإسلام . وكيف ؟ بأن يبعث الموتى الذين اهترأت عظامهم من جديد ، موتى من أمثال قورش ودارا ، وينبغى أن تبعث الديانة الزردشتية ، وأن يوضع شعار الاله فروهر على الجدران ، وأن تقلد أعمدة تخت جمشيد بحمق على مبنى البوليس ، على كل حال أخذوا يسوقوننا برؤيتهم غير الغربية وغير العربية نحو شيء لا رؤية فيه ولا يمكن أن يطلق عليه تراث ... ماذا يمكن أن أقول بشأن حضارة لم تعرف حتى الورق ، ودعك من أباطيل المستشرقين فلكل منهم غرض ، إن الحضارة كمجموعة من النظم التى تكون ثقافة مميزة وتنتقل من جيل إلى جيل قد بدأت فى هذا الوطن بالإسلام ، وبينما كانت هناك مدرسة سقراط وأرسطو كان الملك هنا لا يزال ينحت نقوشه على الحجر ، فهل يمكن أن أفخر أنا بهذا التراث ؟ »(١١٠)

وقد تناول شريعتى العظيم هذه القضية من منطلق آخر ، فإيران القديمة قبل الإسلام تعنى عبادة الشاه ، وإحياء إيران القديمة يعنى إحياء عبادة الشاه وبالتالى كل القيم التى كانت عبادة الشاه تمثلها يقول « كانت ثقافتنا القديمة ذات عدة ملامح طبقية بل وطبقية مغلقة شديدة الوطأة بشكل يعد من الصعوبة بمكان أن تحس معه بالقومية فى حدودها وصورها المعنوية ، لأن المنافسة بل والتناقض

بين الطبقات الأربعة الموجودة : الأشراف والاقطاعيين ثم رجال الدين ثم الكتبة ثم الحرفيين والزراع أمور كانت موجودة بحيث أننا لو تصورناها عناصر تؤلف قومية واحدة ذات روح مشتركة وثقافة مشتركة وضمير مشترك ورؤية مشتركة لكانت نظرتنا هذه بعيدة وكلية وذهنية وتجريدية لا تتواءم أبدا مع الواقع لأن هذه الطبقات كانت مغلقة ، وكانت هناك أسوار ضخمة عالية عبوس لا باب فيها ولا نافذة قد أحاطت بكل طبقة بحيث أن الفرد لم يكن يستطيع قط وفى ظل أية ظروف أن ينتقل من طبقة إلى أخرى ، فلم يكن مستوى الحياة العادية وحده أو الدور الذى تقوم به كل طبقة فى الانتاج أو معدل الدخل أو الرخاء الاقتصادى هى العوامل التى تميز طبقة عن أخرى بل كانت كل طبقة عالما مستقلا منغلقا على نفسه بتقاليده الاجتماعية وأشكال حياته وروابطه الفردية وحتى تبريراته المذهبية والفلسفية والعلمية والميتافيزيقية وحتى طرز اللباس والزينة ونوع الغذاء ... وماذا أقول ؟ بل ولغة الخطاب فى كل طبقة كانت تختلف عن الأخرى ، كانت اللغة الدرية لغة البلاط والأوستائية لغة رجال الدين ليس هذا فحسب بل لم يكن هناك خط مشترك ، وهذا التميز الطبقى بلغ حدا لم يسمح حتى بوجود موسيقى قومية وكان كل فرد ملزما بالعزف أو السماع فى إطار الموسيقى التى حددت لطبقته فالأغانى الخسروانية كانت خاصة بالبلاط ومحافل الملوك والأمراء والأناشيد موسيقى العسكريين والأبطال ، والزمزمة « باژ » موسيقى رجال الدين والرباعى موسيقى الفلاحين والعامة ... إذن فأى عوامل مشتركة تصنع من هذه العناصر المستقلة الغريبة الطبقية أمة واحدة ؟ أهى الاشتراك فى التراب أو الدم أو الماضى أو الدين أو الحكومة ؟ من بين كل هذه العناصر كان الرباط الوثيق القوى المقوى الذى يكون قرابة روحية وتفاهما فكريا وباطنيا هو الدين الذى كان أولا : أقوى عامل للحدود والثغور الطبقية وحافظ لها ومبرر لها ، وثانيا : أنه فقط وفى أوائل عهد الساسانيين وعلى أيدى ملوك هذه الأسرة صارت الديانة الزردشتية ديانة رسمية وقومية وثالثا : فى نفس الوقت الذى تصل فيه هذه الديانة إلى أوج قوتها وسيطرتها ويصير نظام الحكومة دينيا ويسيطر الموابذة على طبقة الأمراء العسكريين ويكون الامبراطور الساسانى نفسه منها ، يصل نفوذها الروحى فى المجتمع إلى الحضيض ويظهر المذهبان القويان : المانوى والمزذكى داخل إيران ويزدهران بسرعة البرق ، ويهزان جسم

المجتمع تماما ثم تأتى المسيحية من الغرب منتشرة انتشارا متزايدا بل وتجتاح المدائن عاصمة الساسانيين ، ومن المشرق ينتشر مذهب بوذا ويقيم كعبته فى بلخ ... ومن ثم فان العامل الوحيد الذى كان يجاهد ليصنع من هذه الأعضاء المتنافرة بل والمتناقضة فى المجتمع الإيرانى القديم أى من الطبقات التى كان لكل منها لغة خاصة وخط خاص وموسيقى وفن خاصان وآداب وطقوس خاصة وأوضاع وحياة اجتماعية خاصة وحقوق فردية وحقوق جماعية خاصة وحتى أشكال ملابس وبيوت وطعوم وزينات خاصة ... **العامل الوحيد الذى كان يجاهد ليخلق من هذه الأشياء جسدا واحدا يسمى الأمة أو على الأقل يبدو هكذا كان مبدأ الشاهنشاهية أو عبادة شخص الشاه ، وكان التركيز فى إيران القديمة قد وجه من طرف الكتاب والسياسيين لهذا الأمر ولتبريره الدينى والميتافيزيقى وما يسمى بالمجد الالهى الهمايونى والعلاقة بين الشاه وآهورا مزدا .. وعلى** هذا النسق فبدلا من القومية التى تتشكل من أسس مشتركة صنعوا مركزية أى بدلا من الروح المشتركة صنعوا ملكا مشتركا .

لقد قام سيف الإسلام السياسى والثقافى والاجتماعى بقطع التيار الذى كان قد بدأ فى إيران بانتصار الأسرة الأكمينية ، وانفصلت إيران تماما عن عهدها القديم بحيث أنه فى جيش الخراسانيين العظيم تحت قيادة أبى مسلم لم تكن السيوف المحددة لمصير الخلافة الإسلامية تذكر شيئا عن جيش خراسان تحت قيادة رستم فرخزاد الذى وقف أمام الفتح ، ومنذ بداية القرن الثالث الهجرى بدأت الأسر الإيرانية الحاكمة تحكم إيران ، وعدم معرفتهم بإيران قبل الإسلام بلغت حدا بحيث أن علماءنا وأدباءنا ومؤرخينا القوميين فى نصف القرن الأخير مهما بحثوا ومهما جاهدوا لا يجدون شيئا يذكر فى هذا الموضوع ، وقد تعسف علماؤنا الذين صاروا قوميين ليجدوا فى مقابل النوابغ العالميين أمثال ابن سينا والخوارزمى حتى شخصية واحدة ذات قيمة علمية وأدبية فى إيران القديمة ولم يجدوا ، وأول شعراء بدأوا فى نظم الشعر بالفارسية بعد الإسلام ونضجوا فى بلاطات إيرانية مسلمة ، لا توجد عند أى واحد منهم أقل تشابه فى فكرة وروحه وفنه ولغته مع شاعر أو أديب من أولئك الذين لابد وأنهم كانوا موجودين قبل الإسلام ، حتى لغتهم وخطهم نسوهما تماما ، وظل هذا النسيان للغة

والخط والدين والثقافة والتاريخ والحضارة .. الخ حتى إستطاع المستشرقون الأوربيون قراءة النقوش البهلوية والأوستائية واكتشاف نقوش دارا وقورش وبدأ الاستشراق عمله فى أوروبا لمصالح علمية وغير علمية .. ثم إكتشفت كل العهود القديمة دفعة واحدة ، ويا لها من صداقة كصداقة الدبة صداقة دعاة الإيرانية ، أجل أولئك الذين من جراء عداوة الإسلام التى صارت موضة يشطبون كل هذه الثروات العظيمة والمفاخر الغالية التى تصنع الشخصية بعد الإسلام ، ولم يزدهر العنصر الإيرانى هكذا قط ، ولا يمتلك دليلا كهذا يعترف به العالم على قدرته ونبوغه وخلاقيته وجدارته الذاتية ، وبينما يقومون بالسخرية من هذه الثقافة العالمية أو كتمانها يسرعون ويجدون فى البحث عن دليل عن القومية والمفاخر القديمة ، وعندما لا يظفرون بشيء ذى قيمة يصطنعوه ، **فلابد أن دلائل الحضارة كانت موجودة وسرقها العرب أو سرقها الإسكندر الملعون ، وكان مما سرقه الإسكندر أن خرج كل هؤلاء الفلاسفة والفنانين والعلماء والأدباء .. حسنا بأى دليل ؟ نعم : بدليل العقل ، أى هل من الممكن أن أمة عظيمة وقوية وشهيرة ومتحضرة مثل إيران فى العصر الأكمينى والأشكانى والساسانى لايكون لديها شيء محترم ؟ لا يكون لديها فيلسوف أو شاعر أو مفكر أو عالم أو كاتب ؟ لا .. لا يمكن ، إذن كان لديها ، نعم وأين هى الآن ؟ .. أخذوها .. من ؟ الإسكندر والعرب .. الملعونون ، حتى أسماء فلاسفتنا وشعرائنا ونوابغنا العظام سرقها هؤلاء الأنذال .. حسنا وماذا علينا الآن أن نفعل ؟ لاشيء .. نشتم العرب والاسكندر ونربى أطفالنا من الصغر على بغضهم وكراهيتهم** »(١١١) .

هذه الصورة التى نقلتها بالتفصيل عن فليسوف الثورة الشهيد على شريعتى تبين إلى أى حد كان الخلط الثقافى والدجل الفكرى يقومان بعملهما فى إيران ، لقد انبرى فلاسفة النظام ينقبون التاريخ عن ملوك إيران القديمة يقولونهم مالم يقولوا ويقصون عنهم من آيات المجد ما لم يحدث أبدا وما لم يرد فى كتب ، وكان الشاه شخصيا على رأس الحملة يمول شخصيا المجلات العلمية الأجنبية التى تفتعل إيران القديمة كما يحبها ، ويقوم بفتح أقسام الدراسات الشرقية فى الجامعات الأمريكية والأوروبية تكيد للإسلام ، وكانت المراكز الثقافية

الشاهنشاهية فى العالم تتجاهل أمهات الكتب الفارسية ، وتروج كتابا مليئا بالأخطاء التاريخية مثل كتاب بيرنيا مشيرا لدوله عن إيران القديمة وتستأجر له المترجمين (بيرينيا هو قامع حركتى كوچوك خان وخيابانى .. أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب) أو تروج سيل الكتب السطحية التى صدرت بمناسبة إحتفالات الامبراطورية ، وكان النظام يقيم مهرجانا سنويا للفردوسى ناظم الشاهنامه ، لا يذكر فيه إلا تمجيد الشاهنشاهية وإعتبار الاساطير التى نظمها الفردوسى حقائق تاريخية مؤكدة ، وفى واحد من هذه المهرجانات كنت حاضرا ، وسألتنى إحدى الصحفيات عن رأيى فى الاحتفال ، فأجبتها : إن مما يزرى بالفردوسى أن يصور فقط كناظم للاساطير القديمة وأن يتجاهل جانب الحكمة الإسلامية عنده تماما .. ولم تنشر الصحيفة حرفا واحدا .. بينما كان الشعب الإيرانى يردد قول شهيده سعيد محسن الذى قاله فى محاكمته وأمام جلاديه : « **ألم يكن أعظم أباطرتكم هو الذى ينقب الأكتاف ؟ ألم يكن ملككم العادل هو الذى قطع رءوس أربعين ألف فى ليلة واحدة ؟ هل نسينا أن محمد شاه قاجار جعل من مدينة كرمان مدينة للعميان ؟ .. من الأفضل لهؤلاء الملوك أن يتواروا خجلا وخزيا وأن يلقى بهم فى مزبلة التاريخ ..** » .(١١٢)

كان تفسير الشاه وتبريره لهذا السفه أنه خير دعاية لإيران .. لكن أى إيران ؟ إيران التى كانت تعيش فى مخيلة الشاه فقط ، أما إيران الحقيقية فقد كانت تعلم أنها إسلامية فحسب ، وأن هذا السفه لايصح حتى فى سبيل هدف أسمى لا هدف مثيولوجى خيالى كالذى زينه عملاء الشاه له أو زينه هو لهم(١١٣) ، ومن هذا المنطلق : الدعاية لإيران لم تكن الإحتفالات والمؤتمرات العالمية تنتهى على مدار السنة فى إيران مهرجانات السينما العالمية والفنون الجميلة والفنون التشكيلية والآداب والندوات بحيث كان يبدو أن الشاه لم يكن يعتبر إيران بلدا بل منظمة سياحية ينبغى أن يظل إسمها على الأفواه وتظل صورها فى الصحف على أساس أنها الجنة الموجودة على الأرض ، وكان الشعب المسلم المسكين يشاهد فى شوارع شيراز إحدى الفرق الأوروبية تقدم عرضا مسرحيا عاريا (فى مهرجان الفنون السنوى فى شيراز سنة ٧٧) فيلعن هذا

المأفون الذى حول بلده إلى فراش عهر ودعارة .. وإلى جوار هذه الاحتفالات كانت الاحتفالات القومية ، وماذا تعنى ؟ تعنى أن يساق الالآف من الإيرانيين سوق النعاج إلى الاحتفالات بعيد ميلاد جلالته (كان الاحتفال بعيد ميلاد الشاه يكتب فى التقويمات الإيرانية تحت عنوان : عيد الميلاد السعيد لصاحب الحضرة الهمايونية العليا الشاهنشاه آريا مهر أى شمس الآريين أما عيد ميلاد الامام الرضا فقد كان يذكر تحت عنوان ذكرى مولد الامام الرضا) أو إلى أعياد الشكر التى تتوالى للاحتفال به وبنجاته من حادث اغتيال سنة ٦٥ أو بمناسبة عودته بعد أن طرده الشعب سنة ٥٣ .. كانت هذه الاحتفالات تفقد الإيرانيين الثقة فى أنفسهم وفى كرامتهم وفى حضارتهم وتاريخهم وشعورهم القومى وكانت تبعث اليأس فى نفوسهم ، وتقضى على الأمل فى أن حياة الناس سوف تتشكل فى يوم ما بشكل غير هذا الشكل.(١١٤)

ويعود الشاه بعد احتفالاته المخزية بعودة الامبراطورية بعدة سنوات ، وفى سنة ٧٦ يقوم بالغاء استعمال التقويم الهجرى ، ويضع مكانه تقويما غير معروف المبدأ ويسميه بالتقويم الشاهنشاهى يبدأ ببداية الشاهنشاهية فى إيران ، وكأن إيران لم توجد إلا بوجود الشاهنشاهية ، (سفاراته فى الخارج هى سفارات الشاهنشاه وسفيره هو سفير الشاهنشاه وحتى مراكزه الثقافية) ، كانت هذه الأمور مظاهر مضحكة وكان الكثيرون يتجاهلونها ، إلا أن المعنى المستتر وراءها هو الذى كان يثير حفيظة الشعب الإيرانى المتدين ، وكان السؤال الذى يطرح دائما : ترى ماهى الخطوة التالية : هل سيأتى يوم يمنع فيه الشاه الصلاة بقرار شاهنشاهى ؟(١١٥)وكأنها لم تكن قد منعت بالفعل بتحويل كل المساجد الكبرى إلى متاحف .

وبينما كان الشاه يحاول إحياء هذه الفترة الميتة من تاريخ إيران والتى تقطعت الأسباب بينها وبين الشعب الإيرانى بدخول الإسلام ، وبينما كان فى رجعيته يعود إلى آلاف السنين ، وبينما كان يحاكى فى حركاته وسكناته ومراسمه أكاسرة الفرس القدماء ، وبينما كان رئيس وزرائه يوقع له المكاتبات مذيلة بـ « أحقر العبيد » كان يطلق على الإسلام ورجال الإسلام إسم « الرجعية السوداء : ارتجاع سياه » ولم يكن يترك الفرصة تمر دون أن يصفع الدين أو رجال الدين ، وبينما كان معروفا كعميل لأمريكا وخادم لأمريكا على المستوى

العالمى كان يتهم كل من يعاديه بالعمالة ، وبينما كانت صحفه تلوث زهرة شباب إيران المناضلين بأبشع التهم الإباحية ، كان هو وكانت أسرته تفعل كل ما يندى له جبين الأخلاق من أتجار فاضح وعلنى بالمخدرات ، إلى سلوك جنسى بشع لا يذكر فى الكتب ، وهذا المسخ ذو الألف وجه هو الذى كان يدعى أنه إيران ويريد أن يرغم الإيرانيين على عبادته ، ولنا أن نتصور جراح النفس الفظيعة التى تتأتى من ذلك .

وإلى جوار ذلك ، كان الدوار الذى نتج عن رائحة النفط أكبر لطمة للأمة فى مجموعها ، وكان مما يزلزل عقائد الشباب ويحطمهم البون الشاسع بين ما يرون عليه آباءهم والمستوى الذى يشاهدونه فى الشوارع والمصايف (١١٦) ، وفى نظام يقيد الإنسان حيث الاقتصاد ليس سوى استهلاك لمنتجات الاقتصاديات المسيطرة ومتعلق بالخارج برعوس أمواله وكوادره وتكنوقراطيته لايبقى أى مجال لنشاط العقول ولا حتى مجالا عمليا قليلا للسواعد ، وعقم الثقافات الخاضعة ليس إلا نتيجة لمركزة الانتاجية على الصعيد العالمى .(١١٧)كان تدفق البترول قد أدى إلى نتيجة عكسية تماما ، فان هذه السلعة الوحيدة ومن دخلها كانت البلايين تتدفق على الخزانة الإيرانية وجدت المنظرين الذين يضعون النظريات القائلة بأنه : مادام الغرب مستعدا لتقديم كل شىء على طبق من ذهب فى سبيل البترول فلماذا نتعب أنفسنا باقامة المصانع والدخول فى مشكلات الآلة والتقاعد والتأمين وما إليه ؟ (١١٨)فضلا عما تفعله الدخول الطائلة بلا تعب لدولة ما من إحساس كاذب بالسيادة وشوفينية غربية وهذا الاحساس أمر مفهوم بالنسبة لأشباه دول انتقلت من عصر الجمل إلى عصر الكاديلاك دفعة واحدة ودون تعب يذكر ، لكنه بالنسبة لإيران ذات التراث الفكرى العظيم أمر محفوف بالمخاطر ، إن الإيرانى يحس أنه ملك كل شىء فى الوقت الذى يفقد فيه كل شىء ، ومن ثم يستطيع المطالع للأدب الفارسى المعاصر فى أعمال صادق هدايت وجمالزاده وصادق جوبك وغلامحسين ساعدى وجمال مير صادقى وبهرام مير صادقى ونادر ابراهيمى وجلال آل أحمد وغيرهم أن يشعر بأمراض مجتمع تمحى شخصيته وتوضع محلها قسرا شخصية غربية ، ويلتقى بشخصيات يدفعها الكسل إلى الغرق فى مشكلات ميتافيزيقية وأمراض سوداوية وتشاؤم مر ، والتشاؤم ظاهرة تكاد تكون اجتماعية هنا وليست

فكرية ، ففى بحبوحة البترول الذى يشترى كل شىء كان السؤال الملح الذى يطرح فى المجالس الخاصة والندوات : وماذا بعد البترول ؟ وأسرع فلاسفة الإعلام الشاهنشاهي ، فأعلنوا عن وجود كميات رهيبة من المعادن الأخرى فى أرض إيران ، وروجوا أخبارها بين الشعب ، فكأنهم أرادوا أن يلقوا به فى أحضان أحلام وردية مما كان يضاعف من تشاؤم الكتاب والمثقفين الواعين وسوداويتهم .

ونتيجة حتمية لكل ذلك سادت النزعة المادية ، وبلغت حضيضا رهيبا ، فحين تكون الصفوة مشغولة بجمع الأموال بالطرق المشروعة وغير المشروعة فحدث ولا تسل عما يحدث فى بقية الشعب خاصة وأن الأمر كما قال جلال آل أحمد « إن هناك تقليدا متبعا فى إيران وهو أن أحقر من فى جماعة ما،هم الذين يوضعون على رأس هذه الجماعة فأكثر التجار جشعا يوضع على رأس الغرفة التجارية وأسافل الناس هم أعضاء المجالس النيابية وأكثر الناس ضلالا هم علية القوم »(١١٩) .

وكان من المفجع حقا ألا يلتقى المرء بأى إنسان ذى منصب مهما كان منصبه صغيرا ولا يجده يعمل جاهدا على استغلال من حوله ، وفى الحقل الذى كنت أتعامل معه ، كانت المصيبة شاملة من المرافقين فى الرحلات إلى كبار الموظفين الثقافيين خارج إيران ، أولئك الذين كانوا يجعلون الموظفين من أهل البلد التى يعملون فيها يوقعون إيصالات مرتباتهم على بياض ، أو يستكتبون الأساتذة مقالات لا يدفعون عنها أتعابا ، أو يقربون المنافق الجاهل ويبعدون من يحسون أنه يتمتع بأى حس نقدى ، ويشوهونه بترويج الشائعات المغرضة ، إلى الطلاب الذين كانوا يأتون فى محاولات لشراء الرسائل العلمية والدرجات العلمية ولماذا الطلبة ؟ بل والأساتذة الذين كانوا يأتون فى رحلات لاستكتاب أبحاث ومقالات يعودون ويقدمونها للترقية ، وكثيرا ما جاء موظفون من إيران لأعمال ثقافية فى مصر فاستغلوا من ساعدهم وفتح لهم صدره ثم تسللوا دون دفع الأتعاب المتفق عليها ، وكان المرء يتعجب حقا عندما يسمع عن مرتباتهم الضخمة : ما الداعى لكل ما يفعلون ؟ ... إنها حمى المادة .. **إذا كانت الأميرة تتاجر فى الهيروين والامبراطور يفتتح بيوت الدعارة وأندية القمار**

فما الذى يتبقى للفرد العادى ؟ .. ومن ثم ليس من الغريب أبدا فى مثل هذا المجتمع أن يروج طبيبان كبيران ومسئولان فى وزارة الصحة مصلا فاسدا لشلل الأطفال بعد وصول شحنته إلى إيران فى سبيل رشوة قدرها ١٦ مليون دولار (١٢٠)وليس غريبا أبدا فى مثل هذا المجتمع أن يقوم مدير جامعة إقليمية تحت التأسيس بشراء أرض بناء الجامعة بسعر وكتابة فواتير بسعر آخر ، و « يضرب » الفرق فى جيبه ثم يبنى به فندقا فى جنيف ، وعندما تفوح رائحة الفضيحة ، « يكافأ » بأن ينقل مديرا لجامعة طهران ، ولم لا ؟ ألم يثبت أنه من نفس معدن الحكام ؟ ... ليس غريبا أبدا فى مثل هذا المجتمع أن يكون معلوما أن النادى الليلى الفلانى ملك لفلان الوزير أو فلان الطبيب أو فلان الأستاذ ناهيك عن فلان الأمير أو فلانة الأميرة ، ففى سوق العمل لا يهتم رجل الأعمال من أين يأتيه المال ، ليس عجيبا فى مثل هذا المجتمع أن تباع تبرعات الدول لمنكوبى الزلازل فى الأسواق كما سنرى ، ليس عجيبا أن تجر قيمة المال قيمة الجنس بل والشذوذ ، كان الشعب الإيرانى كله يهمس بفضائح شذوذ رئيس وزرائه ويعلم أسماء رفاقه الذين كانوا يصعدون سلم المجد والمال بسرعة البرق ، أليس مضحكا حقا أن عازفا بأحد النوادى الليلية يستطيع أن يشغل وزارات الإعلام ثم السياحة ثم العدل ؟ إن فضائح نظام الشاه اللا أخلاقية تستطيع أن تقدم مادة لا تنضب لكتاب الفضائح وقد صدر فى إيران أخيرا كتاب يضم هذه الفضائح اسمه المفسدون فى الأرض (١٢١).

يقول أحد الباحثين : « **لاينبغى أن نمر مرور الكرام على هذه الحقيقة المفجعة وهى أن نظام الشاه لم يأل جهدا فى إفساد كل طبقات الشعب الإيرانى وفى إصابة كل شىء بالعفن ، وهذه حقيقة ثابتة فى هذه السنوات الأخيرة والتى تبلغ ربع قرن من الزمان ، بحيث أنه ليس من قبيل المبالغة أن نذكر أنه لكى ينجو الإنسان بجلده من هذه الحمأة فى ذلك العصر كان ينبغى أن تكون لديه قدرة أولياء الله الصالحين والعارفين والقديسين ، أينما ذهبت وحيثما وضعت يدك فعفن ودنس** ، وما أكثر الذين هربوا من هذه الحمأة لكنها طاردتهم فى داخلهم فلم يجدوا بدا من القضاء على أنفسهم ، وحينما يكون نظام مسيطر فاسدا تماما من قمة الرأس إلى أخمص القدم ، يكون مريضا تستمر

حياته فقط عن طريق تغذيته بالظلم والفساد فهو مريض مدمن ،لاهو يستطيع أن يقلع عن إدمانه ولا هو يملك القدرة على ذلك ، مثل هذا المريض لا يستطيع أن يصلح نفسه أو يصح ، لأن وجوده فى المرض لا فى الصحة ، والمريض الذى يريد أن يظل مريضا يكون أول ما يفعله أن يلوث الجو المحيط به والذى يساعده على الاستمرار فى مرضه ، ومن الطبيعى أنه لا يستطيع أن يلوث كل إنسان وكل مكان ويأتى زمان يدرك فيه هذه الحقيقة المرة ، فيكون أول ما يفكر فيه هو أن يقضى على هذا العنصر الخطر على حياته »(١٢٢)وأخص ما يميز عصور الديكتاتورية رذيلة النفاق ، وكان العملة السائدة والرائجة فى نظام الشاه ، يقدم الشاه نفسه نماذج تحتذى منه ، فكثيرا ما كان ينشر صوره بملابس الإحرام ، أو وهو يصلى فى خشوع أو يلتقى بأحد آيات الله الكبار وأقام متحفا فى مسجد « سبهسالار » سماه « الشاه والدين » يظهره فى صورة أولياء الله الصالحين ، وفى نفس الوقت كان يقيم المذابح فى المساجد ويفتك فتكا ذريعا برجال الدين الذين يخرجون عن الخط المرسوم ، (١٢٣)وسوف نرى فى الفصل التالى أن هذه الشيزوفرانيا الشاهنشاهية كانت تحكم علاقته باسرائيل والعرب فى وقت واحد .

حسنا ... ماذا كانت النتيجة ؟ النتيجة هى انعدام ثقة الشاه فى كل صاحب رأى حتى ولو لم يقترب من السياسة ، وانعدام ثقة الشعب فى كل صاحب اسم حتى ولو لم يتلوث بعد ... ومن هذا البعد من أبعاد النظام الشاهنشاهى كانت الثورة شاملة وإلا فليس من المصدق أن هذه الملايين التى اشتركت فى الثورة كانت كلها تعتنق أيديولوجية واحدة توجهها فى طريق الثورة ، وسوف نلاحظ عند عرض أحداث العام الدامى أن الشاه قد جنى على نفسه عندما قضى على الرجال فى إيران ولوث كل شىء ، وعندما حم القضاء لم يجد إسما واحدا من الأسماء التى يعرفها يقبله الشعب رئيسا للوزراء وينقذ النظام الشاهنشاهى .



الفصل الخامس

العالم حول الشاه

« إن شاه إيران من أفضل أصدقائى »

جيمى كارتر

إن السياسة المضادة لحركة الشعب الإيرانى فى سبيل حقه فى الحياة وامتلاك مصادر ثروته والعيش فى مستوى البشر لم تكن حكرا على أمريكا ، كانت سياسة دولية ثابته بالرغم من كل المتناقضات الموجودة بين الدول وعلى اختلاف نظمها السياسية والاقتصادية ، سياسة ذات ماهية واحدة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، وليس من قبيل المصادفة أنه عندما رفع كارتر يد الشاه الدموية ناعتا إياه بأنه « بطل الديموقراطية » ، صفق رؤساء الاتحاد السوفيتى والصين وإنجلترا ووزير التجارة فى ألمانيا الغربية وهللوا . لماذا ؟ لأن كل القوى الكبرى فى الشرق والغرب على اختلاف مصالحها قد اتفقت أخيرا على أمر واحد هو نهب ثروات الشعوب الصغيرة المستضعفة ، وليس أيضا من المستبعد أن حلبة النهب الدولية كانت تعمل على نفس الأساس الذى كانت حلبة النهب تعمل به داخل إيران نفسها ، بل إن الحقيقة أن نظام النهب فى إيران لم يكن إلا شعبة من « الحلبة الدولية للنهب » (١٢٤)والامبريالية العالمية بشقيها الغربى والشرقى ؛ الرأسمالى والماركسى .

كان النظام فى الخمس عشرة سنة الأخيرة يشبه شركة تجارية ضخمة كما ذكرنا ، إلا أن الحكومة الإيرانية ومؤسسة پهلوى لم تكن تقوم بالأعمال

المشبوهة داخل إيران فحسب ، بل كان للاحتكارات العالمية والدول الأخرى نصيب مفروض من هذه الغنيمة الباردة ، وليس من قبيل المبالغة أن نعتبر كل الدول الكبرى والصناعية أعضاء فى هذه العصابة الدولية للنهب ، ومن البديهى أن كل المساهمين فى شركة ما مهما اختلفت أهواؤهم ومذاهبهم يجتمعون حول هدف واحد هو الكسب ، ومن باب أولى فان كل مجلس ادارة أو مدير يحقق أكبر قدر من الكسب يكون من وجهة نظر المساهمين أجدر بالادارة وأحق بها وأهلها ، ومن هنا ففى خلال هذه السنوات ، كانت كل الدول الصناعية من أمريكا وبريطانيا وألمانيا وحتى الاتحاد السوفيتى والصين واليابان على ما بينهما من خلافات عقائدية وسياسية واقتصادية تقوم بحماية نظام الشاه دون تساؤل ، وتقوم بمدح التقدم المذهل الذى حققته إيران « تحت قيادته الواعية الحكيمة » أحيانا و « المستقلة الحرة » أحيانا أخرى ، وذلك لأن الشاه كان مدير شركة ناجحا وتحت رئاسته مجلس إدارة عظيم .

ومن هنا فالى جوار وضع النفط تحت إشراف عدد من الشركات متعددة الجنسية وعدم احتكار شركة واحدة أو دولة واحدة له ، كان مجلس الادارة يضع فى مخططه استفادة كل أعضاء الشركة أو العصابة ، فاذا اشترى من أمريكا طائرات مقاتلة حرص على شراء الدبابات من بريطانيا والصواريخ من ألمانيا ، والناقلات العسكرية من الاتحاد السوفيتى والمدافع المضادة للدبابات من إسرائيل ..... وهلم جرا ، وإذا تقرر شراء المفاعلات الذرية من فرنسا ينبغى أن يوضع نصيب الصناعة الأمريكية والألمانية والانجليزية فى الحسبان ، المهم أن توزع الأسهم بعدالة ، فيأخذ الأسد نصيب الأسد والثعلب نصيب الثعلب (١٢٥)تماما كالنظام المتبع فى توزيع الأسهم بعدالة الغابة على المساهمين فى الداخل ومن حولهم من السماسرة والمقاولين ، فاذا توسط شهرام بهلوى نيا فى شراء السلاح من ألمانيا الغربية ، أخذ الجنرال أيادى وأردشير زاهدى نصيبهما العادل من مكان آخر ومن صفقة أخرى ، وعلى أى أسد ألا يضع قدمه فى منطقة أسد آخر ، وعلى أى ثعلب ألا يدخل منطقة الأسود ، الكل فى مكانه ويعرف حدوده فى نظام دقيق لا يغضب النظام ... فى مثل هذه

الشركة العظمى بكل سيطرتها على الصعيد الدولى والمحلى ، وفى هذا الجو من الرضا السامى لكافة المساهمين ، من الذى يتوقع أن يتحدث أحد المساهمين فى الاجتماع العام للجمعية العمومية للمساهمين ويرفع صوته بالحديث عن القمع أو أوضاع المسجونين السياسيين فى إيران أو الشهداء الذين يسقطون فى الشوارع ، خاصة إذا كان من المعلوم أن كل ما يحدث ، إنما يحدث لحماية الشركة ونظام الشركة ؟ وكانت العلاقة بين نظام الشاه وأمريكا علاقة معقدة ذات أبعاد استراتيجية فضلا عن أبعادها الاقتصادية التى تحدثنا عنها آنفا ، ناهيك عن البعد النفسى المتمثل فى شخص الشاه نفسه ، فالشاه أصلا من أسرة حاكمة وصلت من حضيض المجتمع إلى عرش الطاووس بمعونة الأجنبى الانجليزى ، والشاه يعلم تماما أن من يشذ عن قاعدة القوى الكبرى ويغفل عن « لعبة الأمم » يضيع ، والمثال الحى والده الذى طرد بعد دخول الحلفاء إيران لتورطه فى علاقات مع ألمانيا النازية ، ومن ثم كان الشاه يحرص تماما على رصد التيار والتعلق بأذيال القوة الكبرى ، ومن ثم عندما غربت الشمس على الامبراطورية البريطانية بعد الحرب الثانية ، لم يضيع الشاه وقتا وبدأ الاتصال بأمريكا فى أواخر الأربعينات ... ودخلت أمريكا بكل ثقلها فى السياسة الإيرانية من جميع جوانبها ، وكان عليها أن تحمى النظام المتفاهم إلى أبعد الحدود ، وأن تشترك مشاركة فعالة فى قمع الشعب الإيرانى ، وكان الأمر مشجعا بالنسبة للشاه بعد أن أثبتت أمريكا حسن نواياها بالنسبة له شخصيا وأعادته إلى عرشه بعد أيام ثلاثة من سقوطه سنة ١٩٥٣ .

وبالنسبة لأمريكا كانت هزائمها المتتالية فى آسيا تجعلها تشدد قبضتها على إيران ، فالشاه هو آخر ورقة فى آسيا لها وزنها ، يقيم على مرمى حجر من الاتحاد السوفيتى ، وقد ينفع وبالتأكيد سوف ينفع وتنفع القواعد العسكرية لأمريكا فى إيران عندما تحين ساعة الجد ، وعلى مدى المتغيرات الدولية فى السياسة العالمية من الحروب الاقليمية إلى الحرب الباردة إلى الوفاق إلى سياسة الصراع المكشوف حول منابع الطاقة كان الشاه من وجهة النظر الأمريكية نافعا تماما ، وعندما بدأ ظل الاستعمار البريطاني ينحسر عن المنطقة كانت أمريكا أسبق بالطبع فى أن تحل محله ، لكن سياسة الاستعمار العسكرى كان قد عفى

عليها الزمن ، إذن ما الحل ؟ الحل القواعد والأحلاف، أما عن القواعد العسكرية فقد أثبت الشاه أنه كان أكثر كرما مما توقعت أمريكا ، فقد زرع لها إيران قواعد قريبة من الاتحاد السوفيتي وجنوب شرق آسيا أكثر مما كانت تحلم ، أما الأحلاف فقد كان الشاه قاسما مشتركا أعظم فى كل الأحلاف التى شكلتها أمريكا فى المنطقة ، وفى مقابل هذا كانت السياسة الأمريكية تضع فى وهم الشاه أنه حامى حمى الخليج ، وهو اللفظ المهذب الذى يطلق على السيطرة ، وكان الشاه يلتقط الطعم ، فقد كان فيه وفى عنجهيته الشاهنشاهية ما يجعله يخف سراعا لبسط سيطرة معنوية بالخطب والكلمات وتزييف الخرائط ولى ذراع التاريخ واستعراضات بحرية فى مضيق هرمز ، مما جعل اللعبة تخيل على

المشايخ الذين يسيطرون على ثروات هائلة دون قوة تذكر فيحسبون لإيران و « قوتها » ألف حساب ، ويرتمون فى أحضان أمريكا على علم أو غير علم بأن أمريكا هى المحرك الأصلى وهى التى صورت هذا الرعب وأثارته عامدة فى قلوبهم لكى يرتموا فى أحضانها ... مثل سياسة التخويف من الشيوعية تماما ... ذريعة أمريكية أصبحت مكشوفة تماما لبسط سيطرتها على المناطق التى تريدها ، وزرع قواعدها العسكرية فى كل مكان.

وقد ظهرت سياسة الوفاق وسياسة « الدفاع عن حقوق الإنسان » فى وقت واحد تقريبا ، وتعد سياسة حقوق الإنسان التى صعد كارتر على أساسها إلى مقعد السلطة أكثر افتضاحا من كل السياسات الأمريكية الأخرى ، فعلى الرغم من سياسة القمع المباركة من أمريكا فى نيكارجوا وشيلى وأوغندا وجنوب أفريقيا وروديسيا وكثير من المناطق الأخرى فان فضيحة كارتر فى إيران أشد منها فى أى مكان آخر ، وسكوته على ما كان يحدث فى إيران أكثر افتضاحا من فضيحة أمريكا فى فيتنام ، فى حين أن الشاه وجد فى السياسة الجديدة المعلنة ما يهدد باقتراب امريكا من مناطق كان لايصح الاقتراب منها ، كما أن سياسة الوفاق كانت قد قربت المسافات كثيرا بين الشرق والغرب أو بين الامبريالية الرأسمالية والامبريالية الماركسية ، ولم يفطن الشاه إلى أن المقصود بسياسة الوفاق هو تنظيم توزيع الغنيمة ومناطق النفوذ بأسلوب الاقتصاديين

والشركات الاحتكارية الكبرى التى اتجهت أخيرا إلى إقامة علاقات اقتصادية مع الدول الشيوعية لتطويقها وسلبها حرية الحركة فى العالم ، وأن سياسة حقوق الإنسان لا تعدو حركة التفاف أمريكية لَلتدخل فى أمور الدول الشيوعية الداخلية عن طريق مساعدة الخارجين عن سلطانها وهو أسلوب أمريكى معروف ، وإلى جوار ذلك لاحظ الشاه سياسة التخلى الأمريكية عن الحلفاء الذين كانوا يسقطون فى جنوب شرق آسيا ، وبينما كان الشاه يقابل فى زياراته لدول الكتلة الغربية بمظاهرات الاحتجاج التى كانت تشترك فيها المنظمات العالمية للدفاع عن حقوق الإنسان ، كانت زياراته إلى دول الكتلة الشرقية والصين تقابل بكل حفاوة ، وبينما امتنع بعض قادة الدول عن المشاركة فى احتفالات الامبراطورية ، سارع إليها رؤساء الكتلة الشرقية ، لم يكن ذلك بالطبع حبا فى شخص الشاه بل كان طمعا فى جزء من الغنيمة .

وكان الاتحاد السوفيتى يتبع سياسة فيها من النفاق الصريح ما كان يسبب الحرج لكثير من الشيوعيين داخل إيران ، وبعد أن فشل السوفيت تماما فى الاستيلاء على أجزاء من إيران عن طريق الحزب الشيوعى الإيرانى ، وبعد أن فشل الحزب نفسه فى الداخل كما سنرى ، لم يعد أمام السوفيت إلا التقرب إلى « العاهل العظيم » فثروة الغاز الطبيعى فى الشمال الإيرانى والتى احتكرتها روسيا أهم من كل الأيديولوجيات الموجودة فى العالم ، وعندما كان الروس يسألون عن السبب فى تأييدهم للشاه كان فلاسفة الحزب ينبرون مدافعين عن سياسة « التصنيع » التى يقوم بها الشاه ، فعندما يتم التصنيع سوف يزداد عدد البروليتاريا ومن ثم تكون الثورة الشاملة ممكنة ، ومن هنا بالرغم من ترسانة السلاح التى كانت أمريكا تكدسها فى إيران على الحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتى ، ظل السوفيت لا يحركون ساكنا ، إذ كانت التقارير الأمريكية الصادرة من البنتاجون تؤكد على أنه حتى لو تسلحت إيران بأسلحة غير نووية حتى أسنانها لن تستطيع أن تمس شعرة من الدب الروسى ، **فكانت روسيا تمثل نسبة الخمس من حجم التجارة الخارجية الإيرانية ، كما كانت إيران تقوم بدور الوسيط فى الأسواق العالمية الأوروبية ، وذلك حتى تحتفظ روسيا بعملتها الأجنبية ولعدم احتياج السوق الأوروبية للمنتجات السوفيتية** .(١٢٦)

وكانت هناك نقطة أخرى تحكم العلاقة بين الاتحاد السوفيتى والنظام الشاهنشاهى ، فقد كانت سياسة الشاه فى قمع الإسلام والحركات الإسلامية خير ضمان لروسيا لاستقرار الأمور فى الجمهوريات الإسلامية المحتلة فى الاتحاد السوفيتى ، فالإسلام لم ينس بعد فى تلك الجمهوريات ، كما أن معدل الزيادة السكانية داخل هذه الجمهوريات يمثل قنبلة زمنية يؤقت الغرب انفجارها فى مطلع القرن القادم « أو لعلها حيلة غربية لحث السوفيت على زيادة الفتك بالإسلام داخل هذه الجمهوريات » ، ومن ناحية ثالثة تشترك هذه الجمهوريات فى الجذور الثقافية مع إيران فقد كانت منذ مائة عام أرضا إيرانية ، وإذا كان نظام الشاهنشاه هو الذى يؤجل الحركة المرتقبة داخل هذه الجمهوريات (ومن هنا نفهم لماذا عقد مؤتمر عام لمسلمى الإتحاد السوفيتى بعد نجاح الثورة الإيرانية مباشرة) .... لماذا إذن لاتتمتع العلاقة الشاهنشاهية السوفيتية بالود التام والتفاهم العميق ، ولماذا لا تسمى روسيا الشاه « العاهل العظيم » ؟

وانطلاقا من هذا الود والتفاهم العميق ، كانت الاتفاقيات التجارية قائمة على قدم وساق ، وفى سنة ٦٧ اشترت إيران ما قيمته ١١٠ مليون دولار من الأسلحة السوفيتية تلتها معاهدة اقتصادية قيمتها ٢٨٠ مليون دولار ، وسرعان ما دخل إيران حوالى ١٥٠٠ خبير سوفيتى للاشراف على المشروعات ، وتمركز هؤلاء الخبراء فى مشروعين : مشروع الحديد والصلب فى أصفهان ومشروع مد أنابيب الغاز فى الشمال . وفى سنة ٧٦ عقدت معاهدة تجارية أخرى قيمتها ثلاثة ميليارات دولار . وكان كل هذا يتم بينما كانت زوسيا تقف فى مواجهة القوات الايرانية فى ظفار وتؤيد العراق فى نزاعها مع إيران . [(١٢٧)].

هذه هى علاقة الشاهنشاه بالقطبين ، ولم يكن على الشاه أن يكتفى بهذا التوزع لأنه كان مغرما بتعدد العلاقات والاعتماد على أكثر من وجهة ، وبينما كان الأمريكيون يلعبون الدور القيادى السياسى والاقتصادى فى إيران منذ بداية الخمسينات استطاع الشاه أن يوطد علاقاته مع كل المعسكر الغربى ، **فبريطانيا ذات الدور التقليدى والقديم فى السياسة الإيرانية لم تسلم ببساطة فـ ٤٠٪**

من مجموعة الشركات التى تسيطر على البترول بريطانية الجنسية ، كما اشترك الانجليز فى تسليح إيران (١٢٨) ، وفى الجنوب كان السلاح الملكى البريطانى يستخدم مطارات إيران ، وبينما كان اليابانيون يسيطرون على البتروكيماويات كان الانجليز والألمان الغربيون يسيطرون بدورهم على إنتاج السيارات . أما نصيب الأسد فى العلاقات التجارية فقد كان بالطبع لأمريكا تليها ألمانيا الغربية وفى سنة ٧٠ / ٧١ كانت ألمانيا الغربية تمثل نسبة ٢٠٪ من حجم العلاقات التجارية مع إيران فى السلع غير الحربية فى مقابل ١٣٪ لأمريكا فى نفس السلع ، وفى سنة ٧٥ ارتفعت أمريكا إلى ٢١٪ بينما هبطت ألمانيا إلى ١٨٪ ، ونفس هذا المؤشر لاحكام أمريكا لسيطرتها من الممكن أن نجده أيضا فى المنافسة بين أمريكا وإنجلترا . (١٢٩)

وبالرغم من أن إيران لم تعترف بالصين الشعبية إلا سنة ٧١ (أى بعد اثنين وعشرين عاما من انتصار الثورة الصينية) ، وبالرغم من أن قادة الصين كانوا يصفون النظام فى إيران بالنظام « الدمية » ، وكانت الصين فى المصطلح السياسى الإيرانى تسمى بالخطر الأصفر أو الاستعمار الأصفر ، إلا أن سياسة الجفوة الصينية السوفيتية من ناحية والتقارب الأمريكى الصينى من ناحية أخرى ، كان السبب فى اعتراف إيران بالصين ، وانضمام الصين إلى قائمة « المداحين » ، وكانت الصين تساعد قوات ظفار فيما بين ٦٨ — ٧١ فانسحبت بعد اعتراف إيران بها ثم طفقت تهاجم الأطماع السوفيتية فى الخليج ، وعبر تشى بنج نو عند زيارته لإيران سنة ٧٣ وكان آنذاك وزيرا للخارجية عن ثقته فى أن أمن الخليج ضد القوى المغيرة والأجنبية لن يكون إلا على يد الدول التى تقع على الخليج ومن أهمها إيران بالطبع ، ثم توقفت صحف الصين عن الحديث عن أية مقاومة داخل إيران ، وأقلع الشاه عن أحاديثه عن الصين « المارد القابع وراء أبوابه فى الشرق الأقصى » ، ونسى أنها اعترفت بحكومة مصدق فور إعلانها ، ونسى هجومها على المؤامرة الأمريكية لاسقاط مصدق ... لقد دفن العدوان القديمان خلافاتهما للوقوف معا أمام العدو السوفيتى ، **وفى مايو ٧٥ استقبلت الأميرة أشرف بهلوى فى الصين استقبال الأبطال ، واستقبلها ماو العظيم ، ولعله تحدث معها عن حريات الشعوب**

واعتبرها بطِلة من بطلات التحرر العالمي ، بينما كان الشاه لا يزال يقمع شعبه ومنه معتنقى نظريات ماو فى الثورة ، كانت الصين قادرة على تحويل خط سياستها في الوقت المناسب فى سبيل بعض المكاسب الاقتصادية أو الاستراتيجية .

وفى ظل هذه السياسة ، كان دور إيران معلوما فى اطار عدة أوضاع : الوضع فى غرب آسيا والخليج فى الجنوب والدول العربية فى الغرب وافغانستان وباكستان والمحيط الهندى فى الشرق والجنوب الشرقى ، فظهور البترول فى الخليج والحركات الثورية فى العالم العربى وحالة التوتر فى جنوب شرق آسيا خلقت لإيران دورا سياسيا وعسكريا فى المنطقة من وجهة النظر الأمريكية . وكان الأمر بالنسبة للشاه يساوى تماما وجوده فى السلطة ، فلم يكن بالطبع ليستريح لسيادة « الناصرية » فى المنطقة العربية فى الستينات ، أو لظهور انقلابات عسكرية متتالية فى العراق أو باكستان إذ كانت فى رأيه تشجع على ظهور مثيل لها فى إيران ، ومن ثم لم تكن السياسة الأمريكية هى السبب الوحيد هنا ، ومن ناحية أخرى كان مما يثير القلق فى العالم العربى هذه الترسانة العسكرية التى يقيمها الشاه فى إيران ، وكان السؤال المطروح : لمن كل هذه الأسلحة ؟ ... كان الشاه بالطبع سعيدا بدور الحارس ، **وكثيرا ما كان يصرح بأن وجوده عامل استقرار فى المنطقة ، بينما كانت كل دول المنطقة تضع فى حسبانها إيران وقوتها العسكرية وأحلامها التوسعية مما خلق حالة من التوتر فى المنطقة كانت فى الأغلب الأعم لصالح أمريكا ، فهى من ناحية تبرر تحويل إسرائيل إلى ترسانة مسلحة فى قلب العالم العربى ، ومن ناحية أخرى تقدم المبرر للدول الضعيفة أن تلتصق بأمريكا خوفا من « الخطر الإيرانى » ، وبالرغم من أن أمريكا كانت تنكر هذا التصور دائما ، إلا أن جميع الشواهد كانت تدل على أن إيران الشاهنشاه وإسرائيل كانا يمثلان طرفى كماشة لارهاب العالم العربى .**[١٣٠]

وبينما كان الشاه يعلن عن عدم وجود أطماع له فى أية دولة من الدول المجاورة ، كانت أحلام الامبراطورية تداعبه بين الآن والآخر ، وبالرغم من

أنه صفى مشاكل الحدود مع أفغانستان والعراق وأعلن عن تخليه عن المطالبة بالبحرين دأب على التدخل بشكل أو بآخر فى العديد من دول المنطقة ، فقد تدخل ضد القوات المصرية فى حرب اليمن ، وكانت أسلحته تمر عبر السعودية ، كما درب عددا كبيرا من الملكيين داخل إيران ، وفى نوفمبر ٧١ وقبل انسحاب البريطانيين من الخليج بيوم واحد وثبت قوات الشاه على ثلاث جزر تابعة لدولة الإمارات هى جزيرة أبو موسى وتتبع إمارة الشارقة وقد أعلن شيخها أنه تنازل عنها بمحض إرادته ، وجزيرة طنب الكبرى وطنب الصغرى وتتبعان إمارة رأس الخيمة وقد قاومتا قليلا بعدد من الجنود كان يقوم بحراستها ثم استسلمتا . (١٣١)

أما الدور الإيرانى فى عمان فقد بدأ منذ سنة ٧١ ، وكان الشاه يعلن دائما أن قواته قد ذهبت الى عمان بدعوة من السلطان ، وفى سنة ٧٢ كانت قوات البحرية الإيرانية ترابط فى جزيرة أم الغنم عند مدخل الخليج لكى تحرسه بينما أرسلت عدة تشكيلات من طائرات الهليكوبتر إلى عمان ، وبين عامى ٧٣ و ٧٦ كانت القوات الإيرانية تنهمر على عمان للقتال الفعلى والمباشر ضد ثوار ظفار ولم تنسحب إلا بعد أن صفيت الجيوب الرئيسية للمقاومة ، وبالطبع منيت إيران بخسائر أكثر بكثير مما كانت تعلنها ، وكان الدور الإيرانى فى قمع ثوار ظفار فرصة للتدريب على حروب العصابات من ناحية وعلى الحرب العربية من ناحية ثانية ، وإظهار الود للسيد الأمريكى ودورها فى مقاومة الشيوعية فى الشرق الأوسط من ناحية ثالثة ، وكان من الواضح أن الشاه مستعد لدور الواجهة فى أية لعبة قذرة تقوم بها أمريكا ، وفى ظل هذا ليس مما يدعو إلى الدهشة تدخل الشاه فى زائير وكوريا الجنوبية وأندونيسيا والسعودية والبرازيل ، فلم تكن له مع هذه الدول حدود مشتركة تبرر تدخله كما تدخل إلى جوار الباكستان ضد قبائل البلوش فى إطار حماية الحدود الجنوبية الشرقية الإيرانية ، أو كما لعب بورقة الأكراد ضد العراق (٧٢ - ٧٥) ومدهم بالسلاح والرجال وهرب الصحفيون إلى معاقلهم الجبلية عن طريق موظفى الساواك ، وعندما توصل إلى اتفاق مع العراق أعلن تخليه

تماما عن الأكراد وأغلق حدوده في وجوههم ، وكان ذلك بالطبع فى مقابل أن تقلع السلطات العراقية عن مساعدة الإيرانيين المهاجرين إلى كربلاء والنجف والذين يعملون ضد الشاه . لقد كان الشاه يحلم بأن يقوم بدور ذراع أمريكا ليس فى المنطقة فحسب بل وفى أى مكان تستطيع قواته أن تصل إليه .

غير أن الشيزوفرانيا الشاهنشاهية كانت تتجلى فى أبلغ صورها وأكثرها وضوحا فى العلاقات الخاصة التى كانت تربطه باسرائيل وحتى بعد وفاة عبد الناصر وانحسار فكرة القومية العربية نسبيا ، فالعلاقة بين الشاه وإسرائيل لا ينبغى أن تبحث فى هذا الاطار ، بل ينبغى أن تبحث فى إطار « الشاه – أمريكا – إسرائيل » وهى علاقة ذات أبعاد متعددة ،

فبينما كانت إسرائيل تفتقد إلى العمق الاستراتيجى الكافى فى هذا المحيط من الكراهية حولها ، كانت إيران الشاه تقدم لها هذا العمق الكافى وما يزيد ، كما أن مظاهر هذه العلاقة قد تعددت ، فقد كانت إسرائيل تقدم التدريب للقوات الشاهنشاهية وقد تردد أن كل ضباط الجيش الشاهنشاهى العظام قد زاروا اسرائيل للتدرب ، ومن الشائع أيضا أن مستشارين عسكريين إسرائيليين قد اشتركوا فى العمليات التى قام بها جيش الشاه ضد القبائل الإيرانية والانتفاضات الشعبية ، **وفى المجال العسكرى بلغت العلاقة بين الشاه وإسرائيل حدا بحيث قيل أن الشاه عندما اشتد أوار الثورة استخدم عددا من الاسرائيليين لحمايته يتراوح عددهم بين سبعمائة وإثنى عشر ألفا .. وهذا الأمر حتى وإن كان شائعة كان ذا مغزى خاص بالنسبة للعلاقة التى كانت قائمة بين الشاه وإسرائيل أو تقدير الشعب الإيرانى لحجمها** ... وفى المقابل كان الطيارون والمظليون الإسرائيليون يتدربون فى دزفول فى إيران ، وإلى جوار التدريب كانت إسرائيل تمد الجيش الإيرانى بالسلاح ، وبعض الأسلحة التى سقطت فى أيدى إسرائيل فى كارثة ٦٧ حولت مباشرة إلى إيران ، وكانت إيران تلعب دورا كبيرا فى مد إسرائيل بالأسلحة المحظورة وخاصة الأسلحة الفرنسية والتى كانت إيران تستوردها على أنها لها ثم تحولها إلى إسرائيل ، وامتد التعاون إلى حقل

المخابرات ، فكانت السافاك الإيرانية على صلة بالموساد الإسرائيلى منذ بداية الخمسينات ، ولم يعد سرا أن كثيرا من ضباط السافاك الهاربين قد لجأوا إلى إسرائيل التى كانوا قد دربوا فيها من قبل .

أما الميدان الرئيسى للتعاون الشاهنشاهى الإسرائيلى فيتجلى فى حقل البترول ، وكانت كل طائرة وكل دبابة إسرائيلية تفتك بالعرب فى حرب ٦٧ تسير ببركة بترول الشاه ، وبعد ٦٧ قامت إسرائيل بمد خط أنابيب من إيليات على البحر الأحمر إلى عسقلان على البحر المتوسط بتمويل من إيران لنقل البترول الإيرانى إلى أوروبا خاصة ايطاليا ورومانيا ، وبعد سنة ٧٥ عندما تقرر انسحاب إسرائيل من حقول ابورديس المصرية تعهدت إيران الشاه أن تقدم لإسرائيل كل احتياجاتها المستقبلية من البترول . وفى ميدان الزراعة كانت إسرائيل شريكا فعليا للشاه داخل إيران ، وكانت إحدى المزارع التى تزرعها إسرائيل بالفعل فى عيلام تغطى مساحة شاسعة فضلا عن مزرعة فى قزوين كانت تغطى ١٢٥٠٠٠ هيكتار ، وفى سنة ٧٤ كان حجم التجارة الإسرائيلية الإيرانية ٦٣ مليون دولار .

هذا ما قدمه الشاهنشاه المسلم لإسرائيل ، فماذا قدم للعرب ؟ الواقع أن الشيزوفرانيا الشاهنشاهية تتجلى هنا فى أوضح صورها ، فهو من ناحية يقدم كل هذه المعونات لإسرائيل ومن ناحية ثانية لا يفتأ يتحدث عن الأخوة الإسلامية وعن حق الشعب الفلسطينى فى الحياة ، وقد وعد فى سنة ٧٥ بفتح مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية فى طهران لم يفتح إلا بعد مغادرته لإيران ، وكان الشاه على رأس قائمة أعداء الثورة الفلسطينية ، فلم يكتف بمد إسرائيل بالنفط والتأييد بل وشارك مشاركة فعلية بقواته فى مذابح أيلول الأسود (سنة ٧٠) ، وكانت نظرته إلى الفلسطينيين لا تختلف فى كثير أو قليل عن نظرة الإسرائيليين إليهم ، وكان يتخوف من الصلة بين المقاومة الفلسطينية والمقاومة داخل إيران ، وبينما كان يمد إسرائيل بالبترول ، كان يمد الدول العربية بمجلة « الاخاء » التى تطبع بالعربية فى إيران تتصدرها صور الممثلات الإيرانيات عاريات وتمتلىء غثاء عن فضل الفرس على الحضارة الإسلامية

وأهمية التعاون بين الشعوب الإسلامية والمعجزة الإيرانية الشاهنشاهية فى السياسة والاقتصاد .

وكانت علاقات الشاه مع الدول العربية ذات النظم المحافظة قائمة على التخوف والتعاون ، فبالرغم من أن نظام الشاه والنظام السعودى كانا يسيران فى خط واحد تقريبا ، وبالرغم من أن الشاه كان إلى جوار السعودية فى اليمن وعمان ، لم تكن السعودية تخفى تخوفها من الأطماع الإيرانية التى لا تخفى فى الخليج ومن جيش الشاه الذى لا يقهر والذى صورته الدعاية كرابع جيش فى العالم ، وكانت المخابرات السعودية تتعاون مع الساواك فى القبض على الإيرانيين الهاربين أثناءقيامهم بفريضة الحج ، بينما كان الخلاف المذهبى يحتدم فى المؤتمرات الإسلامية التى دأبت السعودية على تشكيلها أخيرا .

ومما لايثير الدهشة فى إطار العلاقات الشاهنشاهية الأمريكية خاصة ، أن عرق الأخوة الإسلامية لم يكن يتحرك عند الشاه خاصة إلا فى إطار المصلحة الأمريكية ، ولم يكن الشاه يبدأ فى التقرب إلى الدول الإسلامية إلا بعد أن تبدأ الدورانِ فى فلك السياسة الأمريكية ، وفى هذا الاطار يمكن أن نفسر التقارب المصرى الإيرانى منذ بداية السبعينات ، فقد قدم الشاه قرضا لمصر قيمته مليار دولار ، وقدم مجموعة من عربات الأتوبيس الألمانية المجمعة فى إيران ولم يكن هذا القرض لوجه مصر أو الإسلام ، لقد كان من بنوده أن يكون لإيران وجود فى ميناء بور سعيد عن طريق إقامة مصافى للبترول الإيرانى ووجود للبحرية التجارية الإيرانية فى الميناء بعد أن يستغل القرض فى إعادة تعمير الميناء ، فكأن إيران سوف تستفيد وجودا على البحر المتوسط وقناة السويس بلا مقابل تقريبا وكأرباح فقط للقرض ، أما ما لايعرفه المصريون بالنسبة لصفقة عربات الأتوبيس أنها ليست صفقة مدفوعة الثمن فحسب ، بل وفى نفس الوقت بيعت صفقة مشابهة إلى الكويت بثلثى الثمن الذى بيعت به صفقة مصر ، وذلك لأن الكويت دفعت نقدا وعدا بينما اشترت مصر بالأجل ، وبالرغم من أن الشاه كان يتقرب إلى مصر لأسباب

استراتيجية لم تكن خافية ولم تعد خافية ، إلا أنه أثناء حرب أكتوبر المجيدة أخذ على عاتقه مد الغرب بالبترول عندما قطع البترول العربى عن أوروبا فى إطار استراتيجية أكتوبر ... ومما لم يذكر على المستوى العالمى أنه بينما كانت حرب أكتوبر دائرة ، كان الإعلام الشاهنشاهى ينقل عنها أقل أخبار ممكنة ، بينما قام الشعب الإيرانى ببث إعلامه الخاص عن طريق مكبرات الصوت التى كانت تنقل الأخبار من الاذاعات العربية بينما يقوم مترجمون بترجمتها إلى الفارسية ، وكانت أجهزة الشاه تهاجم المتجمهرين فى الشوارع وتقبض عليهم ، وحتى فى قمة علاقات الصداقة بين نظام الشاه والنظام المصرى كان الطلاب المصريون الذين يوفدون إلى إيران فى زيارات صيفية لدراسة الفارسية هم الوحداء من بين طلاب العالم الذين يدفعون اشتراكات مالية ، فضلا عن التفرقة الواضحة فى المعاملة ، **ليس هذا فحسب ، بل كانت شكاوى كثير من الأصدقاء الإيرانيين لكاتب السطور أن حكومة الشاه تقيم العراقيل أمام من يرغبون فى السفر إلى مصر للسياحة ، بل وفى السنوات الأخيرة وفى عهد قمة الصداقة كان النظام يحرص أشد الحرص على ألا يحاول الحجاج الإيرانيون الذهاب إلى مصر بعد موسم الحج لأنهم ينفقون العملة الأجنبية التى تحتاجها إيران فى ملاهى مصر (هكذا بالحرف الواحد كما قرأها كاتب السطور فى خبر منشور بجريدة كيهان) .**

ولم تكن علاقات النظام على مستوى الدول فحسب ، بل لم يعد سرا أن الشاه كان على علاقة وطيدة بالهيئات الصحفية العالمية والمنظمات المشبوهة الثقافية ، وكان النظام يدفع بسخاء لكل من يمجده ويمجد الشاه ، وقد أفشى سيامك زند وهو أحد عمد النظام والساواك لجريدة الهيرالد تريبيون أسماء عدد من الصحفيين الفرنسيين والانجليز والأمريكان كانوا يتقاضون المرتبات بانتظام من النظام « فضلا عن هدايا السجاد والكافيار » للتسبيح بحمد النظام (١٣٢)وعندما ناقش كاتب هذه السطور الأمر مع مسئول الاذاعة والتليفزيون الإيرانى فى مصر أضاف : ولماذا أوربا وامريكا فقط ؟ بل وفى كل بلاد العالم ، ومن هنا نستطيع أن نفهم الضجة التى قامت على مستوى العالم بعد القبض

على هويدا ثم بعد إعدامه والحماس الشديد للصحافة العالمية فى الهجوم على الثورة ، واتضح أخيرا أن الشاه كان يمول بعض الجامعات الأمريكية والأوربية التى تحتوى على مراكز لدراسات الشرق الأوسط ، وكانت هذه المراكز ولا تزال مشهورة بميولها الصهيونية وبعدائها الشديد لكل ما يتصل بالإسلام ، وكان كبار الأساتذة فيها لا يركزون دراساتهم بتوجيه من الشاه إلا على إيران القديمة ، وبكل أسف كان بعض من يشتركون فى هذا التخريب المتعمد ينتسبون إلى الإسلام .

لقد كان هدف الشاه من هذه السياسة أن يحافظ على صورة الشاهنشاهية أمام العالم ، وآن يظفر بتأييد كل القوى لأن مسألة المتغيرات الدولية وطرد أبيه على يد الحلفاء كانت تؤرقه ، ولم يفهم من لعبة التوازن الدولى إلا إسكات كل الأطراف بالمال ، وإلا منح كل الأطراف مصالح فى إيران لتحافظ على النظام فى إطار محافظتها على مصالحها ، ومن ثم اشتركت معظم دول العالم فى الغنيمة وفى سنة ٧٤ وحدها قدمت إيران لعدد كبير من الدول قروضا عسكرية وغير عسكرية وأثمان سلع لم تكن قد سلمت بعد : فوضعت فى بنك باريس مليار دولار لحساب فرنسا كثمن مدفوع سلفا لخمس مفاعلات نووية وقدمت إلى بريطانيا مليار وعشرين مليونا من الدولارات كقروض لشركات تجهيز صناعية ، ولألمانيا الغربية ١٠٠ مليون دولار مقابل ٢٥٪ من أسهم شركات كروب و ٣ ميليارات لايطاليا من أجل مشاريع مشتركة تدرس فيما بعد وميليارين من الدولارات لأفغانستان كمساعدة عامة ، ومائتى مليون دولار لبنجلاديش كمساعدة عامة ، و ٢٥ مليون دولار للهند من أجل تطوير صناعة الحديد ، و ٥٠ مليون دولار لسوريا كمساعدة عامة وميليار دولار لمصر باسم إعادة فتح قناة السويس وتعمير ميناء بور سعيد وعشرة ملايين دولار للسنغال كمساعدة عامة ومليار دولار للبنك الدولى لمساعدة البلدان النامية و ٧٥ مليون دولار للولايات المتحدة على شكل قرض لشركة الطيران « جرومان » ومليون دولار كهبة لجامعة جورج واشنطن .(١٣٣)

هذا هو فقط ما أعلن عنه ، وهناك بالطبع هبات سرية وأوجه إنفاق أخرى لم يعلن عنها فى حينها . وهكذا فهم الشاه الوجه العالمى والدور العالمى الذى

على إيران أن تقوم به ، والسؤال الذى يطرح نفسه هنا : هل كان من الممكن أن يحدث ما حدث لو أن الشاه كان قد وجه كل هذه المبالغ إلى إصلاح بلده وإسعاد شعبه ؟ بالطبع لم يكن ليحدث ما حدث ، لكن فى إطار الفلسفة الشاهنشاهية والتجربة الشاهنشاهية لم يكن يدرك أن للشعوب دورا يذكر ، فكان يبحث عن رضا حكومات العالم وشعوبه دون أن يدرك أن فى إيران شعبا ، فتأصل صفة النفاق فيه ومرض الفصام الذى كان يزداد عنده بمرور الزمن صورا له أن الاستقبالات التى يقابل بها فى دول العالم من أجل شخصه هو ، بينما لم يكن يتحرك داخل عاصمته إلا بعد أن تخلى الشوارع ، ثم فى الهليكوبتر ، ولعله لم يكن يظن أن فى إيران شعبا ، ومن ثم صحا من غفوته على البركان .



هوامش الباب الأول

(1) Halliday (f.), Arabia Without Sultans, P.473,Lon,1957 .
(2) Ibid, 473 .

(٣) محمد رضا شاه : بسوى تمدن بزرك ص ٨٤ . تهران ٥٦ هـ .شـ .
(٤) انظر الجزء الأول ، الثورة الإيرانية الجذور والأيديولوجية .
(٥) محمد رضا شاه : بسوى تمدن بزرك ص ١١ .

(6) Halliday (F), Iran , development & Dictatorship 28 - 31 , London , 1979 .

(٧) أبو الحسن بنى صدر : إيران غربة السياسة والثروة ص ٣٠ – الترجمة العربية لدار الكلمة – بيروت ١٩٧٩ .

(8) Halliday, Iran d.d. 31 - 35 .
(9) Ibid .

(١٠) أبو الحسن بنى صدر : إيران غربة السياسة والثروة ص ٣٠ – ٣١ .
(١١) ابراهيم يزدى : بر رسى اوضاع كنونى ايران ص ٤٢ نشر مجموعة ١٧ شهريور بهمن ماه ١٣٥٧ هـ .شـ .
(١٢) المصدر السابق ص ٤٦ .
(١٣) إيران غربة السياسة والثورة ص ١٢ .
(١٤) بر رسى اوضاع كنونى إيران ص ٤٧ وانظر أيضا :. Halliday P . 47
(١٥) سنعود إلى الحركة الوطنية بالتفصيل فى الباب الثانى من هذا الكتاب .
(١٦) ببسوى تمدن بزرك ص ٨٦ .
(١٧) يزدى : بر رسى اوضاع كنونى ص ٥٢ .
(١٨) المصدر السابق : ص ٥٤ .

(19) Helmut (R) , Human Rights and dictatorship in Iran Erupts , Ed .by Ali Reza Nobari new - york 1979 . PP .104 - 106 .

(٢٠) بسوى تمدن برزك : ص ٢٠١

(21) Halliday, Iran , p.p. 47 - 48 .

(22) Torture In Iran , In Iran Erup to 144 .

(٢٣) يزدى : اوضاع كنونى : صص ٢٣ – ٢٥ .

(٢٤) جريدة پيام مجاهد شماره ٥٤ المقال الافتتاحى ١ – ٤ .

(٢٥) بسوى تمدن برزك صص ٨٧ – ٨٨ .

(٢٦) برام (سيروس) انقلاب ايران ، الترجمة الفارسية لـ.ب شيرازى صص ٥٩ – ٦١

تهران بدون تاريخ .

(٢٧) برام : انقلاب إيران ص ٦٢ .

(٢٨) بنى صدر : إيران غربة السياسة والثروة صص ٢١ – ٢٢ .

(٢٩) المصدر السابق : ص ٢٣ .

(٣٠) نفس المصدر : صص ٢٣ – ٢٥ .

(٣١) جلال آل أحمد : غرب زدگى ص ١٧٠

تهران ١٣٤١ هـ . شـ .

(٣٢) بنى صدر : غربة السياسة والثروة صص ٢٥ – ٢٦ .

(٣٣) المصدر السابق : ص ٢٨ .

(٣٤) بنى صدر : إيران غربة السياسة والثروة صص ١٥ – ٢٠ .

(٣٥) بنى صدر : آنچه بايد دانست . ص ٢١ . تهران بدون تاريخ .

(٣٦) انظر المقال المترجم عن الايكومونيست البريطانية فى أعداد ٢٠ آبان (١١ نوفمبر) و ٢٧ آبان و ٤ آذر من مجلة خواندنيها . سنة ١٣٥٧ هـ.شـ . (١٩٧٨) .

(37) Halliday, Iran , 71 - 75 .

(٣٨) پيام مجاهد شماره ٤٥ ص.٤ .

(39) Helmut (R.) , Human Rights and Dictators hip in Ivan Eropts . p. 169 .

(٤٠) پيام مجاهد ٤٥ / ٦ .

(41) Halliday , Iarn , 98 - 1oo .

(42) Ibid , 68 - 69 .

(٤٣) نوری البلا : گزارشی سازمان عفو بین المللی در باره تجاوز بحقوق بشر وشكنجه در ایران وانظ .. Halliday, Iran 19

(44) Halliday, Iran , 78 - 82 .

(45) Ibid , 81 .

(٤٦) گزارشی سازمان عفو بین المللی در بارة تجاوز بحقوق بشر وشکنجه درایران .

(٤٧) برام : انقلاب ایران ص . ١٣ .

(٤٨) خواندنیها : شمارة ١١ آذر ١٣٥٧ هـ .شـ . (٢ دیسمبر ١٩٧٨) .

(٤٩) پیام مجاهد شمارة ٤٦ ص . ٥ .

(٥٠) پیام مجاهد شمارة ٤٦ ص . ٥ .

(51) Documents of torture In Iran , In Iran Erupts

(٥٢) گزارشی سازمان عفوبین المللی ص . ١٥ .

(٥٣) نفس المصدر السابق وأيضا: Barahni (R.za) , Gods Shadow: Indiana 1976 .

(٥٤) گفتاری دربارۀ شکنجه وزندان – از مجاهدین خلق ایران – تیرماه ١٣٥١ هـ.شـ .

(55) Documents of Torture , 159 .

(56) Ibid , 147 - 178 .

(٥٧) گفتاری دربارۀ شکنجه وزندان .

(٥٨) پیام مجاهد : ٤٦ / ٦ .

(59) Halliday , Iran , 81 - 84

(٦٠) بیام مجاهد : ٤٥ / ١ – ٣ .

(٦١) بیام مجاهد : ٤٦ / ٢ .

برام : انقلاب ایران صص ١٣ – ١٧ .

(٦٣) يزدى : بررسى اوضاع كنونى ايران ص ٥٢ .

(64) Halliday, Iran , 1o5 .

(65) Ibid , 136 - 144 .

(66) Halliday, Iran , 114 - 115 .

(67) Ibid , 121 .

(٦٨) بنى صدر : إيران غربة السياسة والثروة ص ١٢٦ .

(٦٩) تعليقات على خطاب لآية الله الخمينى القاه بمناسبة ذكرى ١٥ خرداد فى ١٥ خرداد ٥٧ (٥ يونيه ٧٨) ونشرته مع تعليقات جماعة روحانيان مبارز خارج از كشور صص ٣٥ - ٣٨ .

(70) Eric Rouleau, The shah's dream of glory in Iran Erupts , P.8o .

(71) Halliday , Iran , 151 .

(72) Ibid , 153 .

(٧٣) إيران غربة السياسة والثروة ص ٨٤ .

(74) Halliday, Iran , P . 173 .

(٧٥) إيران غربة السياسة والثروة ص ٨٤ .

(٧٦) المصدر السابق : صص ١٣ - ١٣

(٧٧) زندگينامه ومدافعات مجاهد شهيد سعيد محسن صص ٢٨ - ٢٩ - نشر نهضت آزادى ايران خارج ازكشور . چاپ دوم شهر يور ١٣٥٥ .

(٧٨) غربة السياسة والثروة ص ١٢٧ .

(79) Halliday, Iran , 143

(٨٠) انظر الجزء الأول الثورة الإيرانية الجذور والأيديولوجية .

(٨١) خواندنيها عدد ١٨ آذر ٥٧ (٩ ديسمبر ٧٨) .

(٨٢) خواندنيها عدد ١٨ آذر ٥٧ - ٩ ديسمبر ٧٨ .

(83) Bani Sadr (A.H.) , Iran and multinationals in Iran Erupts , PP .27 - 28 .

(84) Halliday, Iran , PP . 42 - 43 .

(85) Ibid , 185 - 186 .

(٨٦) پيام مجاهد : شمارة ٥١ .

(٨٧) بنى صدر : غربة السياسة والثروة - صص ٣٦ - ٣٧ .

(88) Halliday , Iran , PP. 159 - 161 .

(٨٩) زندگينامه ومدافعات شهيد سعيد محسن ص ٣٠ .

(٩٠) المصدر السابق ص ٣٨ .

(91) Helmit Richards , Human Rights and Dictatorship 111 - 112 .

(92) Eric Rouleau , The shah's dream of glory . p.8o

(93) Halliday , Iran , development & Dictatorship P.13 .

(٩٤) برام : انقلاب ايران ص ١٧ .

(٩٥) بنى صدر : آنچـه بايد دانست ١٤ – ١٦ . جاب وحيد بهمن ١٣٥٧ هـ.شـ.

(٩٦) شريعتى : بازگشت به خويشتن : الترجمة العربية للمؤلف تحت الطبع .

(٩٧) د. هومان بور : دانشگاه بهلوى يا دانشگاه امريكائى فى مجلة سروش شمارة ٢٢ سال نخست صص ٢٨ – ٢٩ .

(٩٨) خواندنيها : عدد ١٨ آذر ٥٧ – ٩ ديسمبر ٧٨ .

(٩٩) جلال آل احمد : غرب زدگى ص ١٢٢ .

(١٠٠) المصدر السابق : ٩٦ – ٩٧ .

(١٠١) نفس المصدر : ٢٧ – ٢٨ .

(١٠٢) غرب زدگى : ص ٨٨ .

(١٠٣) محمد على اسلامى ندوشن : فرهنگ وشبه فرهنگ ص ٩ – تهران بهمن ١٣٥٤ هـ.شـ.

(١٠٤) المصدر السابق ص ١٢ .

(١٠٥) نفس المصدر ص ٢١ .

(١٠٦) فرهنگ وشبه فرهنگ ص ٤٥ .

(١٠٧) المصدر السابق ١٠٥ – ١١٢ .

(١٠٨) غرب زدگى ١٠٤ – ١٠٥ .

(١٠٩) شريعتى (على) : بازگشت به خويشتن ، الترجمة العربية العودة الى الذات لكاتب هذه السطور . تحت الطبع .

(١١٠) جلال آل احمد : خدمت وخيانت روشنفكران . مقال منتزع من مجلة غير معلومة ومطبوع دون تاريخ .

(١١١) شريعتى : بازگشت به خويشتن ، الترجمة العربية تحت عنوان العودة عن الذات لكاتب هذه السطور – تحت الطبع .

(١١٢) زندگينامه ومدافعات مجاهد شهيد سعيد محسن ص ٣٩ .

(١١٣) انظر أقوال الامام الخمينى بشأن هذا الاحتفال فى الجزء الأول من هذا الكتاب : الثورة الإيرانية الجذور والأيديولوجية .

(114) Helmut (R.) , The Human Rights and Dictatorship . in I.E. 113 - 114 .

(١١٥) محمد رضا حكيمى : تفسير آفتاب . ١١٦ – ١١٧ تهران ١٣٥٧ .

(١١٦) اردشير بينش آق : نتيجة شخصيت زدائى وخفقان مقال منشور فى خواندنيها عدد ٢٧ آبان ٥٧ – ٢٨ نوفمبر ٧٨ .

(١١٧) غربة السياسة والثروة ص ٥٦ .

(١١٨) غرب زدگى : ص ١٢٣ .

(١١٩) المصدر السابق : ص ١٤٢ .

(١٢٠) خواندنيها : عدد ١٨ آذر ٥٧ ٩ ديسمبر ٧٨ .

(١٢١) خواندنيها : عدد ٤ آذر ٥٧ ، وعدد ١١ آذر ٥٧ – ٢٥ نوفمبر و ٢ ديسمبر ٧٨ .

(١٢٢) برام : انقلاب ايران صص ٦٢ – ٦٣ .

(١٢٣) محمد رضا حكيمى : تفسير آفتاب ص ١١٩ .

(١٢٤) برام : انقلاب ايران ص ٤٥ .

(١٢٥) المصدر السابق صص ٤٦ – ٤٧ .

(١٢٦) بنى صدر : آنچه بايد دانست صص ٧ – ٨ .

(127) Halliday , Iran , 261 - 262

(١٢٨) بنى صدر : آنچه بايد دانست صص ٧ .

(129) Halliday , Iran , 256 - 257 .

(130) I bid , 268 .

(131) Halli day , Iran , 27o - 271 .

(١٣٢) خواندنيها عدد ١١ آذر ٥٧ – ٢ ديسمبر ٧٨ .

(١٣٣) بنى صدر : غربة السياسة والثروة . ص ٥٢ .


الباب الثانى
نضال الشعب الإيرانى
(١٩٥٣ - ١٩٧٧)

الفصل الأول

القوى الإسلامية

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم
لايفتنون »

قرآن كريم – سورة العنكبوت آية ٢

بالرغم من أن الإسلام – فى صورته الشيعية – وعلى يد علماء الدين فيه ، وبالرغم من أن المنظمات الإسلامية السياسية تحت قيادة علماء الدين المجاهدين هو المحرك الأول والأصلى لهذه الحركة العظيمة ، وبالرغم من أن قيادة الثورة كانت معقودة لأحد كبار علماء الدين ، فانه من الخطأ اعتبار هذه الثورة الشعبية الشاملة المعادية للاستعمار مجرد حركة دينية ، وفى الحقيقة إن هذا الانطباع قد شاع نتيجة للصحافة الغربية والدوائر الأمريكية التى كانت طوال العام الدامى للثورة تجاهد فى تصوير الثورة على أنها حركة تمرد أو ثورة موجهة ضد الشاه من رجال الدين « المتعصبين الرجعيين » الذين غضبوا من إصلاحات الشاه « التقدمية » والذين يريدون الوقوف ضد البرامج التى يقوم بها الشاه جاهدا لـ « تحديث » إيران على النمط الغربى ، وعلى أساس هذا التفسير ظل النظام الإيرانى المنهار يقيم دعايته ضد الثورة ، أما برنامج التحديث الذى كان الشاه يفاخر به فقد حللناه وحللنا نتائجه المشئومة فى الباب الأول من هذا الكتاب ، وأما المظاهر التى على أساسها قام النظام بتوجيه هذا الاتهام إلى الثورة من حرق للبنوك والبارات ودور السينما فسوف نتناوله بالتفصيل فى الباب الثالث من هذا الكتاب .. أما هذا الباب فسوف نخصصه للحديث عن كفاح الشعب الإيرانى فى السنوات الخمسة والعشرين الأخيرة ، وتحليل لقوى الثورة دينية وغير دينية ، ومدى الدور الذى قام به كل جناح فى حركة الشعب .

وليس يخفى على القارىء أن البحث فى هذا الموضوع أمر محفوف بالمخاطر ، فان الثورة الإيرانية قد تعرضت بعد نجاحها لما تتعرض له كل الثورات الشاملة الناجحة والتى تشترك فيها عدة أجنحة ، فان كل جناح مهما كان دوره ضئيلا يحاول أن يجنى ثمار النصر لنفسه ، ويدعى من البطولات ما يضخم الدور الذى قام به ، فضلا عن أنه لم تصدر حتى الآن دراسة موضوعية شاملة عن الثورة ، ولعل القوى الثورية تنتظر وقتا طويلا حتى تستقر الثورة وتقوم بهذه الدراسة ، وقد اعتمد كاتب هذه السطور فى هذه الدراسة على بعض المجلات والنشرات السرية التى كانت تصدر قبل الثورة وعلى بعض الدراسات المختصرة التى صدرت بعدها ، على أساس أنه لم يكن فى وسع أى جناح قبل الثورة أن يدعى ما ليس له ، فضلا عن العمل السرى كان يتم منفصلا ويكاد يكون فرديا فى أغلب الأحيان ، مما ترك المجال للمنظمات ذات الأيديولوجيات المختلفة ادعاء انتساب الشهداء لها مما كان يوقع الباحث فى حيرة شديدة فى كثير من الظروف .

وبالرغم من كل هذا ، فان النظر إلى ماضى إيران وإلى نفاذ المذهب الشيعى حتى أعماق الأعماق ، وإلى الطبيعة الثورية التى يتمتع بها هذا المذهب ، تقطع بالحقيقة القائلة أنه فى هذه الظروف التى تثير الرعب والاشمئزاز لم يكن أمام الأغلبية الصامتة من ملجأ إلا الدين ، ومن هنا فان كل المطحونين قد لجأوا إلى هذا الملجأ الأخير ، إلى المساجد والتكايا والزوايا والحسينيات وإلى كل مكان من الممكن أن يوجد فيه عالم دين ، ومن سمات الشخصية الإيرانية ، السمات العادية جدا التي تكونت فى إيران خلال آلاف السنين وجود هذا العكوف والانزواء الصوفى ، والتقوقع فى الأزمات داخل الذات ، فهذه الجموع التى لم تنضم إلى منظمة ثورية ، ولم تشكل تنظيما ، ولم تعتنق أيديولوجية ثورية هى النواة الحقيقية لثورة إيران .(١)

أما الملمح القومى للثورة أى التشكل الجماعى ، فقد كان نتيجة لتطور الاعتراض والرفض إلى حركة تدريجيا ، وكان الأمر فى البداية عن طريق التكافل

والتكاتف بين المطحونين والمظلومين ، فوضعت صناديق التكافل والتعاون فى كل مسجد وفى كل حارة وفى كل مزار سرا وجهرا من أجل أولئك الذين أصابهم سيف الظلم ، كان هذا الأمر فى حد ذاته اعتراضا على الحكومة وسحبا للثقة فيها والاعتراف بها ، وكان أساسا لتكوين بيت مال إسلامى ، وأثبت أن تجريد علماء الدين من الاشراف على الأوقاف وذلك من أجل تجريدهم من أى سلاح يستخدمونه فى الثورة ، لم يكن إلا سلاحا مضادا ، فحين يكون النظام فاسدا ، ويقوم بسلب الثقة من هيئة ما أو جماعة ما أو فرد ما ، يؤدى إلى منح هذه الهيئة أو الجماعة أو الفرد ثقة أكثر من قبل الشعب ، وإذا نظرنا إلى تكوين البنية الاجتماعية لإيران ، وأدركنا أنها بنية دينية فى الأصل علمنا كيف تكون حدة ردود الأفعال إذا كان من تعرض إلى الظلم عالم دين .

وهكذا كان أن صار الملجأ الأخير هو الركيزة الأخيرة والملمح الوحيد الغالب على الثورة ، وظهر فى الأفق عدد من علماء الدين المستنيرين الذين عانوا السجون والمعتقلات لفترات طويلة ، وبدا واضحا أن الحركة فى يد آيات الله ، كما اتضح أن للحركة مفكريها ، مفكرين استطاعوا خلال سنوات من القهر والمعاناة أن يسدوا الفجوة المصطنعة بين الفكر الدينى والحياة اليومية ، كما استطاعوا أن يقدموا الفكر الدينى للناس فى صورة عصرية ومقبولة ومنتقاة من الشوائب التى سادت الدين عبر عصور من سيطرة الأجنبى والدجل السياسى ، وأن يثبتوا قولا وفعلا أن الإسلام ليس حركة رجعية تعود بالحياة والفكر إلى الوراء ، كما ظهر مفكرون من أمثال شريعتى وأبى الحسن بنى صدر ومهدى بازرگان وحبيب الله پيمان وعلى أصغر جاجى سيد جوادى استطاعوا أن يكونوا مقبولين لدى العنصر الدينى والعنصر المدنى وأن يعتبروا همزة الوصل بين العنصرين .(٢)

ولا شك أن الوحدة الدينية بين الأكثرية العظمى للشعب الإيرانى كانت عاملا أساسيا من عوامل ثبات الوعى الدينى والوعى السياسى والوعى الاجتماعى ولقد كان هذا الملجأ الدينى هو العامل الوحيد الذى ظل جديرا بالثقة وسط الحالة العامة من فقدان الثقة بكل شيء والتى شاعت فى المجتمع الإيرانى ، كان هذا

الشعور العام بين طوائف الشعب هو الذى جمع الشعب حول شيء واحد وحول هدف واحد وحول زعيم واحد ولو لم تظهر هذه الحالة عن طريق التضحيات التى قدمها علماء الدين لانحرفت الثورة عن مسارها الصحيح . **كان الشعور الدينى والحل الدينى الذى طرح فى ظروف تاريخية واجتماعية مناسبة عاملا رئيسيا من عوامل نجاح الثورة** .(٣)

ولم يكن لهذا العامل أن يتشكل ، ولم يكن لهذا الحل أن يطرح فجأة ودون مقدمات ، فان القوى التحررية فى إيران قد عانت طيلة خمسة وعشرين عاما من عوامل اليأس والاحباط ومؤشرات الهبوط المستمرة وعوامل التصفية والتشويه وطعنات الخيانة والفرقة وصيحات الاستهزاء والسخرية والاستهانة ، مما جعلها تصل إلى الصفر وما هو دون الصفر فى بعض الأحيان ، كما كانت تبدو فى أحيان أخرى محاولات انتحارية فردية تحاول أن تقاوم مالا سبيل إلى مقاومته ، أو تنفذ من جدار صلب لا سبيل إلى النفاذ منه ، وسوف تذهلنا التضحيات الانتحارية التى سوف نقرأ عنها فى هذا الفصل ، وبالرغم من أنها تكاد تكون فردية إلا أنها إن وضعت فى إطارها تقدم تجربة حية **بأنه لا توجد قوة لا تقهر ولا يوجد نظام مهما كان متجبرا ومسيطرا غير قابل للانهيار ، وأن شعاعا خافتا يلمع فى سواد ليلة مظلمة قد ينهى معاناة قافلة يكاد يودى بها الظمأ ويكتنفها الهلاك فى صحراء شاسعة لا حدود لها .**

وفى الخمس والعشرين سنة الأخيرة نستطيع أن نميز ثلاث مراحل من مراحل نضال الشعب الإيرانى فيما بين ٥٣ - ٧٨ :

المرحلة الأولى : ما بعد مرداد ٣٢ (أغسطس ٥٣) وحتى خرداد ٤٢ (يونية ٦٣) .

المرحلة الثانية : ثورة خرداد ٤٢ (يونية ٦٣).

المرحلة الثالثة : ما بعد خرداد ٤٢ وحتى حوادث ديماه ٥٧ (يناير ٧٨) . وبالرغم من الاختناق العام فان الساحة الإيرانية لم تخل قط من الحركة ، حقيقة

أن بعض الحركات كانت فردية وتدخل فى نطاق الاطار السياسى من أطر الثورة الثلاثة : الأيديولوجى والسياسى والعسكرى ، لكنها على كل حال كانت مجرد ردود أفعال تقمع بشدة . وكان الدرس الذى تعلمته حركة الشعب الإيرانى من سقوط مصدق درسا غاليا ، فقد كانت لحركة مصدق وجهها السياسى والقومى لكنها كانت تفتقد البعد الأيديولوجى ، وليس هذا بمعنى أن مصدق لم يكن ميالا إلى انتهاج سياسة إسلامية أو أن من حوله لم يكونوا مسلمين ، بل كان الإسلام أحد ركائز حركة مصدق ، لكن الحركة لم تكن من منطلقات إسلامية ولم تكن ذات دوافع إسلامية ، ولو لم يكن ٢٨ مرداد لظلت الحركة تفتقد هذه الدوافع حتى يجدث ٢٨ مرداد ، ولو لم ينشأ هذا البعد الأيديولوجى لهزمت الحركة ، فلا بد أن تتم الأبعاد الثلاثة من أجل نجاح حركة ما : البعد الأيديولوجى والبعد السياسى والبعد العسكرى أو النضال المباشر . وعلى هذا الأساس بدأت كل المنظمات الإسلامية سواء فى داخل إيران أو خارجها ، لكنها بدأت بهدوء شديد ، فبينما كان عدد من الشباب لا يزيد عددهم عن العشرين يجتمعون فى حجرة صغيرة ويتحدثون عن الثورة الإسلامية كان حزب توده الشيوعى يعقد اللقاءات الجماهيرية التى تضم عشرات الألوف (٤).

كانت التضحيات زائدة ، فقد كان الحل الوحيد المطروح إضرابات ومظاهرات محدودة تبدو كالفقاعات أمام عتو النظام وجبروته ، وإذا قلنا أن الحركة الطلابية لم تهدأ قط فى إيران فى وقتٍ من الأوقات لما كنا مغالين ، وفى ١٦ آذرماه من نفس عام سقوط مصدق (ديسمبر ٥٣) صرع ثلاثة من الطلاب فى حركة القمع التى قام بها البوليس الإيرانى ضد المظاهرات التى اجتاحت إيران احتجاجا على زيارة ريتشارد نيكسون لإيران ، ولا يزال ١٦ آذرماه عيدا للحركة الطلابية تجدد فيه ذكرى الطلاب الثلاثة الذين استشهدوا : شريعت رضوى وقندجى وبرزگنيا (٥)وطوال السنوات الماضية كان ١٦ آذرماه يوما تحسب له السلطة ألف حساب .

وبينما كان توده كما سنرى فى الفصل التالى يصفى نفسه ، كانت منظمة فدائيان إسلام تعتبر العدو الرئيسى للنظام ، وعلى مدى عامين بعد مرداد ٣٢

كان النظام يتصيد الأعضاء الذين لم يشتركوا فى عملياتها قط ، وقد انتهت المنظمة تقريبا باعدام نواب صفوى ورفاقه سيد عبد الحسين واحدى وسيد محمد واحدى وسيد حسين إمامى وخليل طهمسبى (قاتل رزم آرا) على يد تيمور بختيار وسبهبد آزموده ٣٤ (سنة ٥٥) إلا أنها تركت المجال فيما بعد لظهور منظمة أخرى تحت عنوان « حزب ملل إسلامى » بعد ذلك بعدة سنوات .

والملاحظ أن ما يجعل الدراسة فى غاية الصعوبة هنا هو أن منظمات ما بين ٢٨ مرداد و ١٥ خرداد منظمات من ذوات العملية الواحدة ، كما أنها غير واضحة أيديولوجيا ، ومن هنا فان فرصة الخلط بين المنظمات قائمة ، لكن لا مناص من ذكرها عند رصد الحركات السرية كما أن المنشورات التى كانت تصدر عن هذه المنظمات كانت تمزق فور قراءاتها ، وكان النظام حتى بعد سقوطها يتكتم تماما على نشاطها ومن ثم فان تاريخ الحركات السرية فى السنوات الأخيرة فى إيران يبدو شديد الغموض ، فتصفية كل منظمة كان يعنى تصفية تاريخها أيضا .

وبينما كانت هذه التضحيات الفردية لا تنتهى ، كانت الحركة الفكرية تنظم نفسها وبدأت مرحلة إعادة معرفة الإسلام بكل جوانبه وتقديم تفسيرات جديدة ثورية ومتقدمة للمذهب الشيعى (٦) كانت الحركة الفكرية والحركة السياسية تتقدمان معا ، وعندما تشكلت حركة المقاومة الوطنية « نهضت مقاومت ملى » كان مركزها فى أيدى المناضلين التقليديين ، ومن ثم فبعيد ٢٨ مرداد تعرضت الحركة لهجوم عنيف من النظام لم يكن يفرق بين لون من الألوان ، وكانت جبهة مصدق « الجبهة الوطنية » لا تزال قائمة ، كان من أقطابها مهدى بازرگان وعزت الله سحابى وآية الله طالقانى ، أى أنها كانت فى أيدى أولئك الذين كانت الحركة فى أيديهم فكريا وسرعان ما انضمت إليها كل الجمعيات الطلابية الإسلامية ، وبدأ النضال عن طريق المظاهرات ، ففى ١٦ مهر (اكتوبر) من نفس عام سقوط مصدق قامت أول مظاهرات ، وفى ١٦ آذر اصطدمت

جماعات الطلبة مع عصابات شعبان المجنون « بى مخ » وهو فتوة من حى الدعارة فى إيران عبىء على رأس عصاباته يوم ٢٨ مرداد لارهاب القوى الوطنية ، كانت الحركة إبان هذه السنوات القليلة بعد ٥٣ لا تزيد عن قيام بعض المظاهرات لأسباب داخلية أو لمناسبات عالمية مثل مظاهرات تأييد مصر عند تعرضها للعدوان الثلاثى أو تأييد الشعب المجرى ضد التدخل السوفيتى وإعدام ايمرى ناجى ، وكلها لم تكن محسوسة ، بل كانت محدودة جدا ، وظلت الأمور هكذا طيلة سبع سنوات كاملة تسمى بالاختناق الكامل (٧)لم يكن يقطعها بين الآن والآخر إلا بعض الاضرابات العمالية التى كانت تقمع بقسوة ووحشية مثل إضراب عمال القمائن والمحاجر ومصانع البلاط سنة ٥٧ الذى تدخل فيه الجيش تدخلا مباشرا وسقط فيه خمسة وسبعون قتيلا (٨) وثورات عشائر القشقائى والبختيارى والبوير أحمدى والتى كانت تقوم ضد برامج التشتيت المسماة إسكان العشائر والتى كانت تتعرض للابادة ، وكان الهاربون من هذه المذابح إلى المدن ينقلون صور المذابح إلى سكانها فيحدثون بعض ردود الأفعال (٩) وبالنسبة للشعب الإيرانى لم تكن كلها أمورا كافية فلا المظاهرات المحدودة ولا الاضرابات بالتى تقنع هذا الشعب الثورى بطبعه بينما تعد عند شعوب أخرى ثورات حقيقية تكتب فى التاريخ .

لكن الظاهرة الجديدة بعد ٢٨ مرداد ، **كانت ظهور علماء الدين المناضلين « روحانيان مبارز »** ، وبعد ٢٨ مرداد كانت سياسة النظام ترمى إلى بث الفرقة بين علماء الدين وبين بقية طبقات الشعب ، وسرعان ما وجدت جماعتان فى الأوساط الدينية : جماعة عرفت باسم أصحاب الأربعاء وجماعة عرفت باسم أصحاب الخميس ، كان أصحاب الخميس يجتمعون ليلة الجمعة فى منزل آية الله بهبهانى الذى كان من المشهور أنه هو الذى كان يوزع الدولارات على الأراذل والأوباش يوم ٢٨ مرداد ، وكان من المعروف أنه يجمع علماء الدين حوله لصالح البلاط ، لكن جماعة الأربعاء كانت تضم جماعة من علماء الدين المستنيرين على رأسهم آية الله طالقانى وسيد ضياء الدين-سيد جوادى وجلال نائينى وغروى وانكجى ، وكان بعضهم أعضاء فى المجلس النيابى فى دورته

السابعة عشرة أثناء حكومة مصدق ، وكانوا يجتمعون فى منزل انكجى أو سيد جوادى أو طالقانى ، ودارت بين الجماعتين حرب غير معلنة حول الثقل الدينى أين يجب أن يكون ، كان بهبهانى وصحبه يريدون للثقل الدينى أن يكون فى صالح البلاط ، وكان هذا فى رأيهم هو الضمان الوحيد لحماية إيران من خطر الشيوعيين الذين أعطاهم مصدق حرية العمل ، أما أصحاب الأربعاء فقد كانوا يهدفون إلى ربط الدين بالمجتمع ، كما كانوا يرون أن تجربة مصدق الديمقراطية هى الوحيدة التى كانت قادرة على بيان الاتجاه الذى يريده الشعب ، وقام أصحاب الأربعاء بنشر فتاوى آية الله نائينى عن علماء الدين ذوى الصلة بالبلاط ووجوب طردهم من الهيئة الدينية ، كما أصدر آية الله البروجردى فتاوى بهذا الشأن وأعلن معارضته للشاه علنا فى قم سنة ٥٨ فى قمة الاختناق .

وفى أوائل سنة ٦٠ كان النظام قد تأكد أن سبع سنوات من القمع على يد تيمور بختيار كفيلة باخماد كل صوت ، كما كانت الظاهرة الكنيدية فى الحكم الأمريكى قد بدأت ، فتراخت قبضة الحكومة قليلا ، وأفرج عن بعض أعضاء الجبهة الوطنية الذين سرعان ما أعلنوا تشكيل الجبهة الوطنية الثانية ، ووجدت الجبهة لها من علماء الدين المناضلين بعدا فكريا ، كما وجد علماء الدين المناضلين منها قاعدة شعبية ، (ومن هنا ندرس الجبهة الوطنية فى إطار القوى الإسلامية). كانت الجبهة الوطنية الثانية التى أعلنت رسميا فى تيرماء ٣٩ (يولية ٦٠) قد جددت دماءها ووجدت طريقها إلى الشباب الجامعى والمثقف ، وقد حضر اجتماعها الأول ثمانون ألف ، وأعلنت فى بيان لها عن ظهورها على المسرح السياسى ، كان المهندس مهدى بازرگان على رأس واحد من أجنحتها القوية ، وكان معه من الأعضاء المؤسسين : آية الله سيد محمود طالقانى والدكتور يد الله سحابى والمهندس منصور عطائى وحسن نزيه وعباس سميعى ورحيم عطائى وكان واضحا من بيان التأسيس أن الحركة كانت تهدف إلى الاصلاح فى إطار النظام الشاهنشاهى ودستور ١٩٠٦ فقد ذكر البيان أن هدف الجبهة داخليا : منح الحقوق السياسية لكل أفراد الشعب الإيرانى وتنفيذ القوانين لصالح الشعب وضمان حدود مسئوليات المؤسسات الشعبية وتطبيق الشريعة الإسلامية مع مراعاة مقتضيات العصر السياسية والثقافية ، وخارجيا :

ضمان حياد إيران بين الكتلتين الشرقية والغربية وإقامة علاقات أكثر عمقا مع الدول الإسلامية (١٠) وقد ظل هذا البرنامج هو الخط الذى يلجأ النظام إليه فى أزماته ، كما عرف عن أعضاء الجبهة الوطنية وحتى العام الدامى أنهم من المعتدلين فى عدائهم للنظام ولم يكن انضمامهم إلى القوى الدينية انضماما كليا إلا فى فترة متأخرة من العام الدامى .

كان من الواضح أن الحركة الوطنية تتحسس-مواطىء أقدامها بعد أن خفت وطأة القمع قليلا ، ولم يكن هناك بالطبع مجال لاعلان العداء الكامل للنظام ككل فى هذه المرحلة من النضال ، إلا أنه لم تكن تمر فرصة دون استغلالها لأغراض سياسية ، وفى ارديبهشت سنة ٤٠ (ابريل ٦١) كانت الجبهة الوطنية بإعلانها القوى قد شجعت كل القوى فتجمعت كلها فى « حركة تحرير إيران : جنبش آزادى ايران » ، وبالرغم من أن هذا التجمع كان مظهر قوة إلا أنه كان فى الوقت نفسه نقطة ضعف ، فقد كان فرصة للنظام للدس بين كل هذه القوى التى تجمعت فى جبهة واحدة ، وكان البرنامج الرئيسى للساواك أن يبث الفرقة بين معتنقى الآراء المتعددة داخل الجبهة وأن يستعين بجماعة ضد أخرى ومن ثم بدأت المهاترات اللفظية والمعارك الكلامية تتخذ طريقها إلى الحركة فقد كانت بتجمهرها فى هذه الظروف تقدم الفرصة لضربها ، كانت مكونة من عدد من النقابات والاتحادات والجمعيات ، وكان لكل نقابة واتحاد وجمعية وهيئة اتجاهها الخاص ومطالبها الخاصة وأسلوبها الخاص ، مما أضعف القاعدة الشعبية لهذه الحركة (١١)إلا أنها على كل حال سببت إزعاجا للنظام بلغ قمته فى إضراب لنقابة المعلمين فى ٢ مايو ١٩٦١ بزعامة مهدى درخشش نقيب المعلمين ، وقد بدأ الاضراب بمطالب مهنية ، ثم تحول إلى شكل سياسى ورفعت شعارات سياسية لأول مرة تمس النظام والشاهنشاهية ، ومن ثم توسل الشاه بالسياسى القديم على أمينى وهو ذو وجه شبه شعبى وتم الاحتواء للسيد درخشش بتعيينه وزيرا للتعليم فى وزراة أمينى ، وقامت الساواك بدورها فى تصفية بقية عناصر الحركة .(١٢)

كانت الجبهة الوطنية فى الحقيقة هى هدف تجارب الشاه الديموقراطية عندما يحدث ضغط من قبل أمريكا لمنح إيران شكلا ديموقراطيا للحكم ، وكان

قادة الجبهة هم الذين يستهدفون من قبل الشاه للمباحثة وعرض السلطة ، وبالرغم من أن هذه المباحثات لم تكن تصل إلى نتيجة لأن واحداً من الطرفين لم يكن مستعدا لاقتسام سلطته مع الآخر ، إلا أنها كانت فرصة سانحة للشاه « لحرق » معارضيه أدبيا وشعبيا لمجرد كلمة مدح تقال فى شأن أحدهم أو شائعة عابرة . (١٣) ، إلا أنه تبقى للجبهة مع ذلك ريادتها للعمل السياسى فى جو الاختناق الكامل ، كما أنها لعبت دورا كبيرا فى نشر الوعى بين طوائف الشعب عن طريق نشراتها السرية : « آرمان ملت : هدف الأمة » و « پيام دانشجو : رسالة الطالب » و « خبر جبهة ملى : أخبار الجبهة الوطنية»(١٤) فى تلك المرحلة فيما بين ٦٠ و ٦٢ كانت إيران مسرحا للعديد من الاجتماعات السياسية والاستقطابات والمباحثات بين الشاه وقادة المعارضة ، كان الشاه كما هو واضح يريد أن يبدو لسادته الأمريكيين أن هناك حياة سياسية وروحا سياسية فى إيران ، بينما كان يعد لضربته الكبرى التى كانت تتشكل بسرعة لم يتصورها ، وكان الحديث عن الاصلاح الزراعى وإصلاح قانون الانتخابات أو ماسمى بالثورة البيضاء كانت الفرصة سانحة لتشويه علماء الدين الأحرار ،

وكانت خطة النظام أن ينتهز فرصة هذه الاصلاحات الظاهرية لكى يضرب الحركة الدينية الوليدة ضربة فى الصميم ، فقد كان من الواضح أنه إذا انضم الشعب إلى علماء الدين الأحرار فلن يستطيع القيام بالثورة البيضاء ، وكان أن دفع بهبهانى وأصحاب الخميس يؤيدهم بعض كبار الملاك إلى الهجوم على قوانين الاصلاح الزراعى وإعطاء المرأة حق التصويت ، كان الهدف بالطبع هو إظهار طبقة علماء الدين بأنها طبقة رجعية وضد مكاسب الشعب ودمغهم بالرجعية والتخلف ، إلا أن اللعبة انكشفت ، فقد كان أكثر المهاجمين حدة من المعروفين بأنهم من المتعاونين مع الشاه ، ولم تحمل القوى الشعبية هجومها محمل الجد ، فان الشاه قد فشل فشلا ذريعا فى استقطاب بعض علماء الدين الأحرار للانضمام إلى الحملة ، **فقد أرسل إلى آية الله البروجردى يستفتيه فى بعض بنود الثورة البيضاء ، فقد استفتاه عن رأى الإسلام فى منح حق التصويت للمرأة ، وكان رد آية الله البروجردى : أخبرنى يا جلالة الشاه ألا يزال حق**

التصويت للزجال قائما فى هذه المملكة ؟ وعندما استفتاه عن الاصلاح الزراعى أجاب : إن الدول التى طبقت الاصلاح الزراعى كانت قد قامت بتغيير النظام الحاكم أولا تغييرا جذريا ثم طبقت الاصلاح الزراعى .
وانكشفت لعبة أخرى للشاه.(١٥)

كان من الواضح أن المواجهة بين الشاه علماء الدين الأحرار المناضلين قد اقتربت ، وكان الشاه يستكشف بحذر قوة علماء الدين فقد كانت التقريرات كلها تدل على أن قوة علماء الدين بالرغم من عدم تشكلها (فهى مشكلة طبيعيا) هى أخطر القوى على حكمه ، ومن ثم كان القرار الذى نشرته جريدة كيهان شبه الرسمية فى ٢ مهرماه سنة ٤١ (سبتمبر ٦١) يعد اختيارا من قبل الشاه للقوى الدينية ، فقد أصدر رئيس الوزراء أسد الله علم قرارا فى غيبة المجلسين (النواب والشيوخ) يتناول بالتعديل لائحة المجالس المحلية ، كان القانون الجديد يقضى بأن يلغى القسم على القرآن الكريم عند الترشيح لانتخابات هذه المجالس على أن يحل محله أى كتاب سماوى آخر « معترف به » وإلغاء شرط الإسلام من المرشحين ، كما تحسس الشاه ردود الأفعال لبعض مبادىء الثورة البيضاء التى أعلنها مؤخرا باحتواء هذا القرار على حق الترشيح للنساء فى المجالس المحلية وحق التصويت لهن ، والواقع أن صدور القانون على هذه الصورة كان يدل على خبث شديد ، فان عورض قانون إلغاء القسم على المصحف فى المجالس والمحاكم ، استطاع النظام أن يصور المعارضة على أنها لقانون ترشيح النساء ثم يطبق القانونين معا .

والواقع أن التاريخ الحقيقى لظهور آية الله الخمينى على مسرح الأحداث السياسية فى إيران يبدأ من هذا التاريخ ، كما أن تصدى المركز الدينى فى قم للنظام وتصديه للمعارضة وحمله للوائها ينبغى أن يؤرخ من هذا التاريخ ، وبالرغم من أن آية الله الخمينى لم يكن الرجل الأول فى المركز الدينى فقد كانت المرجعية العظمى لا تزال معقودة لآية الله البروجردى ، إلا أن الأخير كان قد طعن فى السن ، وكان يعيش آخر أيامه ، **ومن ثم كان ظهور آية الله الخمينى كمرجع أعظم وكقائد سياسى للشعب الإيرانى فى وقت واحد تقريبا ، ومنذ ذلك التاريخ اتضحت سمات المقاومة ضد النظام الشاهنشاهى .**

ولم تكد حكومة أسد الله علم تصدر هذه القوانين وتعلنها فى الصحف حتى حدث مالم يكن يدور للشاه في خلد ، وحتى بدأ فصل من أعنف فصول المواجهة ، ليس بين شخصين كما تحاول الصحف الغربية والعميلة أن تظهر ، بل بين اتجاهين أو تيارين ظلا يتصارعان في إيران طيلة مائة سنة : السلطة علماء الدين .ومنذ ذلك الوقت المبكر بدأت مظاهر الثورة الإيرانية تبدو فى الأفق ، فلم يكد يتم نشر القوانين حتى اجتمع علماء الدين فى قم فى منزل آية الله حائرى للمشاورة ، ولم يكونوا فى حاجة إلى وقت طويل لكى يكتشفوا أن القوانين غير دستورية ، واجتمع الرأى على إرسال برقيات احتجاج إلى الشاه . كانت تلك الأيام مصادفة للاحتفال بذكرى السيدة فاطمة الزهراء ، وطبقا للعرف الإيرانى كانت احتفالات العزاء تقام فى كل مسجد وكل شارع وكل بيت ، وسرعان ما انتشرت الأنباء عن هذه القوانين فى كل أنحاء إيران ، وبعد ستة أيام كاملة كانت كفيلة بنشر اللغط فى كل أنحاء إيران وتعبئة الشعور العام ، وصل رد الشاه على برقيات آيات الله بأنه أحال الموضوع برمته إلى مجلس الوزراء .

واجتمع مجلس الآيات مرة ثانية ، وقرر أنه مادام الأمر فى يد رئيس الوزراء ينبغى أن يخاطب مجلس الوزراء مباشرة ، وأرسل آية الله الخمينى برقية شديدة اللهجة إلى رئيس الوزراء حذره فيها من مغبة مخالفة الإسلام ومخالفة الدستور ، واستبعد أن تكون هذه القرارات قد صدرت عن غفلة ولابد أنها صدرت عن عمد وقال « **وفى النهاية أحب أن أذكركم أن علماء إيران الأعلام والمراكز الدينية وسائر المسلمين لن يسكتوا عما يخالف الشرع ، ولن يعترفوا برسمية لأى أمر يخالف الإسلام بحول وقوة من الله تعالى** »(١٦) ، وتأخر رد رئيس الوزراء على البرقية شهرا كاملا ، وكان هذا الشهر كفيلا بأن تتحد كل طوائف الشعب الإيرانى خلف علماء قم وآية الله الخمينى ، وبينما كان ينتظر رد رئيس الوزراء كانت البرقيات تصله من كل أنحاء إيران ومن كافة الطبقات : من الجامعات والمصانع والقرى ، ومن الطلبة والأساتذة والتجار وكلها تعلن وقوفها خلف علماء الدين صفا واحدا ضد كل ما يراد بالإسلام والوطن ... وهكذا عندما أراد النظام أن يستكشف الشعب وجده مجرد قشرة هدوء ساكنة لكنها فى حاجة إلى من يحرك هذه القشرة ليبدو معدن الشعب الإيرانى الحقيقى ،

وعندما كان الهدف هذه المرة هو الدين ، تأكد الشاه من الجناح الحقيقى الذى يتربص بعين مفتوحة لكل ما يفعله النظام ، ولكنه لم يكن يظن (وظل على ظنه هذا حتى اللحظة الأخيرة) أنه بهذه القوة ، وأنه يمتلك كل هذه السيطرة على طبقات الشعب ، لقد كانت العرائض التى تملأ والتوقيعات التى تجمع تصل إلى أكثر من ستة امتار طولا ، وكانت تكتب عادة من صورتين : صورة إلى رئيس الوزراء وصورة إلى الشاه نفسه .

وكان هذا التأييد الذى لم يكن فى الحسبان دافعا إلى أن تتحول الحركة من مجرد صراع بين آيات الله والنظام إلى حركة شعبية شاملة ، وعقد اجتماع فى مسجد قم الأعظم حضره عشرون ألف شخص ، ومن بين الحاضرين كان هناك ممثلون عن كل الأجنحة التى تقاوم النظام ، وأعلن مرة ثانية **أن هذه القوانين مخالفة للدستور وأن اعتذار علم بأن اصدارها خضع لالتزامات دولية ليس الا أكذوبة فعندما يتعارض الدستور مع الالتزامات الدولية فالأولى أن يطبق الدستور** ، كما هوجمت الصحافة الشاهنشاهية لأنها لم تعكس أى خبر عن معارضة الشعب ، ولم تنشر أى بيان من البيانات الصادرة عن رجال الدين ، وهدد المتحدثون أن دعوة الشعب إلى الهدوء لن تستمر ، وطالبت الجماهير علماء قم أن يتوقفوا عن إلقاء الدروس كما أعلنت عن عزمها على اعلان الاضراب العام وألقى آية الله الخمينى بيانا طلب من الحاضرين أن يخبروا الدولة بألا تتعرض لعواطف الناس الدينية ، وإذا كانوا يظنون بأن ردود الأفعال فورة عاطفية سوف تزول فانهم واهمون ، فاما إلغاء هذه القوانين وإما المواجهة الشاملة التى لن تبقى ولن تذر ... كل هذا والنظام فى صمت تام : لا رد على برقيات آيات الله ولا على عرائض الناس .

ومرة ثانية قام الامام بارسال برقيتين إلى كل من الشاه وأسد الله علم ، ولأول مرة تحدث الامام عن السيطرة الأجنبية على إيران ، وندد بالرقابة على المطبوعات التى تحاول أن تتكتم على الحركة الشعبية ، واتهم أسد الله علم بأنه وقف علنا ضد الإسلام والقرآن وعواطف الأمة ، وأنه أراد أن يستبدل الأوستا (كتاب الزردشتيين) والانجيل بالقرآن الكريم وأن هذا لن يكون طالما بقى فى إيران عالم دين واحد ، وبالرغم من الرقابة الشديدة على المطبوعات

إلا أن نص البرقية قد طبع ووزع فى كل أنحاء إيران وبدأت الوفود تنهمر على منزل آية الله الخمينى فى قم ، الا أنه ظل ينصحهم بضبط النفس فكان أن استمرت البرقيات والعرائض واللقاءات العامة ، وبعد هذا الصمت الطويل بدأت الحكومة تتراجع ، لكنها فى تراجعها لم تقم بالغاء القوانين ، بل قامت بتأجيل موعد الانتخابات مما زاد فى غضب الجماهير ، وقامت بالرد على آيات الله بأنها وكلت مجلس الوزراء لمناقشة لائحة القوانين الجديدة لكنها لم تحدد القوانين التى ستقدم للمناقشة ، وكان أن ظل الناس على موقفهم ، وظل علماء الدين على موقفهم ، بل وطلبوا من الحكومة أن تحدد موقفها صراحة ، وألقى آية الله الخمينى بيانا هاجم فيه النظام صراحة : « **إننى بحكم مسئوليتى الشرعية أعلن الخطر المحدق بشعب إيران والمسلمين فى العالم ، إن القرآن الكريم والإسلام معرضان للسقوط فى قبضة الصهيونية التى ظهرت فى إيران فى صورة طائفة البهائية ، ولن يمر الكثير والمسلمون صامتون هذا الصمت المميت حتى يستولوا على كل اقتصاد هذه الأمة بمساعدة من عملائهم ، وسوف يقومون بالقضاء على الأمة الإسلامية ، إن تليفزيون إيران قاعدة جاسوسية وأداة دعاية لهم ، إن الأمة الاسلامية لن تسكت ما دامت هذه الأخطار باقية وإن سكت أحدٌ فهو مسئول أمام الواحد القهار ويعد كمن حكم على نفسه بالإعدام فى هذه الدنيا** »(١٧) .

ومن هنا فان الانتفاضة التى كانت فى البداية لسبب دينى قد تطورت وأعلنت على الشعب والجماهير كل ما كان يدور همسا ، ووجدت تناقضات النظام التى كانت إلى ذلك الوقت لا تعدو مجرد كونها شائعات قوة الحقيقة ، فليس المتحدث عالم دين عادى ، **إنه امام الأمة** ، لم تعد الانتفاضة إذن مجرد غضبة جماهيرية من جراء قانون صدر ضد الدين ، بل تحولت إلى غضبة عامة ضد كل ما كان النظام يظن أنه يجرى فى الخفاء ، ومتى ؟ بينما كان الشاه يعد لخطوته الكبرى ومجده العظيم الذى سماه بالثورة البيضاء ، وإذا كان إمام الأمة قد وضع روحه على كفه وتحدث بهذه الجرأة ، فأية روح تنفث فى الناس العاديين الذين كانوا يظنون أن ساعة الخلاص قد دنت ، وأن عار ٢٨ مرداد سوف يمحى ، وبينما كان الإعداد قائما على قدم وساق **لاعلان الاضراب العام** ، وكانت المساجد والأسواق والميادين العامة فى طهران وبقية الأقاليم

وفى قم التى أصبحت عاصمة الثورة كان الناس يفدون لكى يكونوا فى مركز المقاومة وحول الامام ، وعصر ذلك اليوم نفسه وبعد خمسين يوما من صدور القوانين اجتمع مجلس الوزراء الشاهنشاهى وألغى القوانين الثلاثة ، لكن الحركة لم تنته إذ لم ينشر بعد خبر الإلغاء ، ولم تهدأ الأمور إلا بعد أن نشر حديث لأسد الله علم أعلن فيه صراحة أن قوانين ١٦ مهرماه غير ممكنة التنفيذ .

هذه الانتفاضة التى دامت حوالى خمسين يوما لا تكاد تذكر فى أكبر الموسوعات التى كتبت عن تاريخ إيران المعاصر ، وحتى بعد الثورة كانت بعض الفصول القليلة الأشبه بالمقالات والتى كتبت عن ثورة إيران تتجاهل تماما هذه الانتفاضة وهذا بالرغم من أن هذه الفترة من تاريخ نضال الشعب الإيرانى تعتبر تجربة مصغرة أو « ماكيت » للثورة الكبرى التى حدثت بعدها بحوالى ثمانى عشرة سنة ، كان أسلوب الحركة الشعبية هو نفسه ، وكان قائدها هو نفس القائد لكن القمع العسكرى الشاهنشاهى لم يكن موجودا ، ولم يكن له أن يوجد والشاه مزمع على إعلان ثورته البيضاء ، كما أن التناقضات داخل الشعب الإيرانى لم تكن قد بلغت بعد حدا يدعو إلى التعبئة الشاملة ، وبالطبع كان تنازل الحكومة عن موقفها من القوانين التى كانت السبب فى هذه الغضبة قد أنهتها تلقائيا ، لكن الصراع فيما بعد كما سنرى كان قد بلغ مرحلة اللاعودة ، والغريب أن النظام لم يستفد شيئا من هذه التجربة وبعد أن علم كل مآخذ الشعب عليه ، وعلم مطالبه ، ووضع يده على التيار الحقيقى الذى ينبض بآماله وأهدافه ، لكنه لم يقم بعدها إلا بتحدى هذا التيار المرة تلو الأخرى .

كان النظام يريد الاستفادة من هذه التجربة لصالحه ، وكم من المقالات التى نشرت فى صحف النظام بعد ذلك تسكب الدموع على الديموقراطية ومكاسب الشعب وحقوق المرأة ... الخ التى تقف « الرجعية » فى مواجهتها ، وبدلا من أن ترضى من الغنيمة بالإياب ، ساهمت صحافة الشاه فى حشد الشعور الدينى ، وهنا يضع الامام يده على نبض الجماهير مرة ثانية ، وخلال خطبة من أهم خطب تاريخه السياسى يعلن أن النظام لم يقلع عن غيه بعد ولم يرفع يده ، وأن المؤامرات التى يحيكها للقضاء على الإسلام والمسلمين لم تنته من جعبته بعد ، وأن ما حدث من النظام لا يعد شيئا يذكر إلى جوار ما سوف

يحدث ، ويعلن أن الحركة الإسلامية لا تزال فى بداية مرحلة الكفاح ، ومن ثم فلا احتفالات بالنصر الذى تحقق على النظام ولا طبع لهذا البيان ، وفى ١٢ آذرماه ٤١ (ديسمبر ٦١) ألقى الامام خطبة أخرى من أهم خطبه ، فربط الكفاح الإسلامى بماضيه وطوال تاريخه فى كل الدول الإسلامية وأعلن أن قلعة الإسلام لاتزال قوية ولا تزال صامدة ، إن الأئمة قد ثاروا فى عدد قليل فما الذى يمنع من أن تعاد التجربة مرة أخرى ؟ ويعطف على تاريخ إيران المعاصر وعلى حركة ميرزا الشيرازى والثورة الدستورية (١٨) ويتحدث عن الدستور الإيرانى ويطالب النظام « بأن يلتزم بما ألزم به نفسه » ، ويتحدث عن الإعلام الشاهنشاهى وجلبته وضجيجه فى المناسبات الشاهنشاهية ثم صمته التام عن حركة الشعب وبيانات علماء الدين ، ويعطف على مفاسد النظام الاقتصادية ويقول للشاه بأنه يعلم والكل يعلم ما يظن الشاه أنه يحدث فى الخفاء ، ويأسف على حال إيران ، ويحذر من أن الشعب كان مستعدا لما هو فوق التظاهر ولما هو فوق الاضراب ، وهو شخصيا مستعد لحمل كفنه بين يديه لكى يتحقق للشعب استقلاله وللإسلام بقاؤه وفى النهاية ينصح الشاه : إن الشعب لا يموت ، وينبغى أن تسير الدولة على الجادة ، **وإذا لم يسمع الشاه ونظامه ، فسوف يكون من المعلوم من الذى سوف يموت** .(١٩)

هذا الخطاب الشامل الواضح ألقى فى أواخر سنة ٦١ ومع ذلك تؤرخ الحركة الخمينية بأنها بدأت بعد ذلك بسنتين ، ويقال أن الامام الخمينى لم يعترف به كزعيم للثورة إلا خلال العام الدامى ، والرد هو هذه الحركة : حركة خريف سنة ٦١ ، وهذا الخطاب الذى يعد بحق الإعلان الرسمى لحركة علماء الدين ، كما أنه يعد التجميع والتشكيل لمجموع الشعب الذين لم ينضموا إلى هيئة أو منظمة أو جبهة ، وهم فى الحقيقة الذين قاموا بثورة ٧٨ ، ومن هنا نرى أن إعلان ثورة ٧٨ قد تم فى الحقيقة فى ديسمبر ٦١ ، وأن مطالب حركة ٦١ لم تتطور إلا بمقدار ما تطور فساد النظام الشاهنشاهى ، كما أن هذا البيان هو فى الحقيقة منشور الثورة الإيرانية الذى ظل حيا وباقيا ، وانطلاقا منه طرح الحل العسكرى فيما بعد ، وحتى بعد مغادرة الخمينى لإيران منفيا ، ظلت تجربة انتفاضة الخمسين يوما نموذجا

يحتذى ، ولعل السبب فى ذلك أنها لم تطرح وسائل أكثر من الوسائل المعروفة لدى الشعب الإيرانى ، وأنها كانت حركة تلقائية لم تنظم ولم تفتعل ولم تهدأ حتى بعد النصر ، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت قم هى المركز الفعلى للثورة ، وتعد انتفاضة الخمسين يوما هى قمة النضال الإسلامى فى سنوات كان أكثر الأجنحة تطرفا لا يطالب إلا ببعض الحقوق أو التعديلات فى إطار الدستور والنظام الشاهنشاهى ، ولعل الامام الخمينى كان أول من خاطب النظام بهذا الحسم والحزم والوضوح فى تاريخ إيران المعاصر ، لقد وضع النضال الإسلامى فى الساحة .

ولم يكد يمر عام من الهدوء المترقب بين الطرفين والذى تخللته بعض محاولات الاحتواء من قبل الشاه وبعض القرارات بتحديد إقامة أقطاب الحركة الإسلامية وتشديد قبضة الساواك على مدينة قم ، حتى حدثت المواجهة الثانية الدموية هذه المرة وكان الشاه قد أعد عدته تماما ، ولم يكد يعلم مواد ثورته البيضاء ويعلن أنها سوف تقدم إلى استفتاء شعبى حتى أعلن الامام موقفه القاطع والحاسم ، ولم يعلن مقاطعته لمبادىء الثورة المفروضة من أعلى فحسب ، بل وفند بعقليته الواعية التى تستشرف المستقبل الآثار المشئومة التى سوف تترتب على هذه الثورة فى كافة الميادين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وفى النهاية لجأ إلى السلاح الوحيد الذى يملكه وهو الفتوى **فأصدر فتواه المشهورة بتحريم الاشتراك فى استفتاء الشاه** ، وبالرغم من أن عربات الجيش كانت تجمع الناس من البيوت والشوارع فى ٦ بهمن (٢٦ يناير ٦٢) ، وبالرغم من أن وكالات الأنباء الأجنبية لم تخف دهشتها من « تقاعس الشعب الإيرانى عن الاسراع لتأييد هذا البرنامج الإصلاحى العظيم » إلا أن الأرقام الفلكية التى أعلن النظام أنها قد صوتت لصالح الثورة كانت تفوق حتى عدد من لهم حق التصويت فى كل إيران ، ومن ثم كسب الشاه الجولة الأولى أو هكذا كان يظن .

كانت أعياد رأس السنة الإيرانية تقترب ، وأصدر الإمام بيانا تحت عنوان « علماء الدين لن يحتفلوا هذا العام » ، وفى البيان أعلن الإمام أن السبب فى هذا القرار إصرار النظام على تصفية علماء الدين لصالح يهود أمريكا وإسرائيل :

«إننى أعلن هذا العيد يوم حداد لمجتمع المسلمين لكى أنبه المسلمين إلى الخطر المحدق بالقرآن والإسلام ، إننى أعلن خطر جهاز الجبار ، ولا أرى حلاً إلا أن تتنحى هذه الحكومة المستبدة وتحل محلها حكومة متمسكة بتعاليم الإسلام تهتم بالأمة الإيرانية .... يا إلهى لقد أديت رسالتى ، وسوف أقوم بمسئوليتى مادمت حياً إن شاء الله تعالى».(٢٠) وسرعان ما توالت البيانات تقول للخمينى لبيك .

تأكد النظام إذن من المصدر الفعلى للخطر ، قم والمركز العلمى فى قم ، إن الإمام يعتمد على طلبته ، ويجد بينهم من يستمعون إليه ومن يؤمنون تماما بكل كلمة يقولها ، ليس هذا فحسب ، إنه يقدم القدوة لطلابه ، إن النظام قد أصبح هدفه ، ومن ثم فسوف ينشر هذه الروح فى طلاب قم ، فليصف إذن هذا المركز الدينى ، فلن يستمع أحد بعدها إلى الإمام ، كان النظام وحتى اللحظة الأخيرة يرى فى شخصية الخمينى إماماً دينياً يسيطر فحسب على الطلبة ويحتاج إلى شىء من الاحترام من قبل النظام ، وكانت الدولة طوال العام السابق على الثورة البيضاء تحاول أن تصرف الأذهان عن الإمام بل وتصرف عنه المرجعية العظمى التى انعقدت له بعد أحداث ٦١ ووفاة آية الله البروجردى ، لكن هيهات ، **إن الإمامة الشيعية لم تكن قط فى يد الدولة ، إنها نوع من الانتخاب الحر والافراز الذاتى ، إنها لاتتأتى لأحد بقرار من فوق ، بل إن مجرد اشتهار آية الله بأنه مؤيد من قبل الدولة أو النظام يصرف عنه المرجعية العظمى ، فالتقرب إلى السلطان دليل على تعلق الشيخ بالدنيا** ، ثم من كان أولى بالمرجعية العظمى إذن من هذا الشيخ الذى يحدث الناس فى أمور دنياهم وينطق بلسانهم ويضحى من أجلهم ، لم تكن الدولة ترى فى شيوخ قم إلا مجموعة من الأكلة بالمجان « مفت خور » ومن ثم ففى الثانى من فروردين (٢٢ مارس سنة ٦٣ » ، وكان يوم الاحتفال باستشهاد الإمام جعفر الصادق ، وبينما كان مجلس العزاء منعقداً فى المدرسة الفيضية حيث كان الإمام يلقى دروسه وحضر الالآف من أنحاء إيران لمشاركة الإمام فى المناسبة هجم جند الشاه المسلحون على المجتمعين ، كان الهجوم مفاجئاً فلم يكن يظن أحد أن النظام سوف يجرؤ على الهجوم على الناس فى حرم الإمام فى مناسبة دينية فهذه أماكن محرمة لاتدخلها السلطة منذ مئات السنين فى إيران ، ودارت المذبحة ،

مذبحة شاملة ومدبرة ، **وديست المصاحف بالأقدام وارتفعت صيحات جنود الشاه وهتافاتهم « فليحيا الشاه والموت للإسلام »** ، وبعد عدة أيام بلغت المهزلة أوجها عندما طرد الجرحى من المستشفيات ، وسيق الذين بقوا إلى التجنيد الإجبارى . (٢١).

وفى مساء يوم المذبحة أغلق الذين نجوا بيوتهم عليهم يفكرون فى سبيل للخلاص ، لقد هبط النظام بظله الأسود على قم ، وأعلن النظام أنه لن يهادن وأنه سوف ينفذ إرادته حتى فوق جماجم القتلى ، لكن الإمام لم يغلق منزله ، بل وحفاظاً على تقليد من تقاليد علماء الدين فى إيران بأن تظل بيوتهم مفتوحة على الدوام أمام الناس كحرم آمن لا ينبغى أن تطأه الشرطة بأقدامها ، جلس فى منزل يستقبل الناس ويواسيهم ويشد من أزرهم ، وفى نفس هذا الموقف الذى كان النظام يتوقع فيه المهادنة أو الصمت على الأقل قام فى من لجأوا إليه خطيبا: « **ينبغى أن تضعوا فى أذهانكم أن هناك مؤامرات أكثر خطورة تنتظركم ، إن النظام كلما تمادى فى جرائمه كلما فضح نفسه أكثر وهذا نصر عظيم للإسلام والمسلمين** »(٢٢)

وبينما القلوب واجفة والرقابة على أشدها والساواك بكل عنفوانه وراء علماء الدين خطوة بخطوة ، كان علماء الدين وآيات الله فى كل المدن الإيرانية يراسلون الإمام ويعلنون تأييدهم له ، وكانت ردود الإمام عليهم تطبع وتوزع على طبقات الشعب لكى يعلموا ماذا حدث فى الفيضية: « **لقد هجموا على ما يزيد عن عشرين ألف مسلم ، أغلقوا الأبواب والنوافذ أمامهم ، وألقى الطلاب بأنفسهم من فوق السطوح فشجت الرؤوس ودقت الأعناق ، فجمعوا عمائمهم وأشعلوا فيها النار ، وظفروا بغلام فى السادسة عشرة من عمره ألقى بنفسه من فوق السطح فمزقوه إرباً ، منازل الطلاب ورجال الدين محاطة الآن بالشرطة ، وهم يهددون بأنهم سوف يكررون فى كل المدارس ما حدث فى الفيضية ، لقد أمروا ألا يركب الطلاب المركبات العامة ، ووزعوا منشورات تمتلىء فحشا بالنسبة لعلماء الدين ... إننى أسأل رئيس الوزراء علم ، لماذا هاجم منذ شهرين سوق طهران وضرب التجار الذين كانوا مجتمعين بعلماء الدين ؟ وبأى مبرر يأخذ موظفو الدولة مرتباتهم من قوت الشعب ثم يدفعون الناس دفعاً إلى استفتاء**

شخصى ... إننى أعد قلبى لأسنة حراب عملائكم لكنى لست مستعداً بالمرة للتسليم أمام عتوكم وجبروتكم ».(٢٣)

وهكذا استغل الإمام حادثة الفيضية لفضح كل ما حدث من النظام فى الشهور الأخيرة ، وبينما كان النظام مشغولا فى ترميم الفيضية لإخفاء آثار جريمته ، حلت ذكرى الأربعين لشهداء الفيضية « ٢ مايو » ، وكان النظام يريد أن يمحو من الأذهان جريمته بعد أن بلغت أسماع العالم،(أرسل برتراند راسل برقية احتجاج إلى الشاه) ، وكان كل ما يخشاه النظام أن تشتعل غضبة أخرى فى ذكرى الأربعين ، وفى يوم الذكرى ألقى الإمام خطبة دعا فيها مسلمى العالم إلى الوقوف إلى جوار الشعب الإيرانى فى محنته ، ووضع الشاه لأول مرة أمام المواجهة:« **إن المسئولين من رئيس الوزراء علم إلى مسئول الشرطة يتنصلون من كل مسئولية فى ما حدث ، إنهم يقولون : إنها الأوامر المباركة ، يقولون أن كل ماحدث حدث بأمره ، فإذا كان الأمر صحيحا ينبغى أن نقرأ الفاتحة على الإسلام وعلى إيران ، وإذا لم يكن صحيحا فلماذا لايدافع عن نفسه ليعلم كل منا ماله وما عليه ؟ »**.(٢٤)

ومر مايو فى هدوء ظاهرى ، وكان يونيه يقترب ، لم يكن شهر يونيه فى تلك السنة عادياً ، فهو فى تلك السنة موافق لشهر المحرم ، وفى شهر المحرم تحل ذكرى استشهاد الحسين وآل البيت فى كربلاء ، وتتحول إيران إلى تجمعات عظيمة لا تستطيع الحكومة أن تمنعها ، فلابد أن مذبحة الفيضية قد أرهبت علماء الدين تماما ، ولم يكن النظام يتوقع أن هذا الهدوء يخفى فى داخله نذر العاصفة ولم يكن يدرى أنه خلال الشهور الثلاثة التى تلت مذبحة الفيضية كانت الحركة الإسلامية تتكتل وكانت تستقطب بقية حركات المعارضة فى إيران ، ولم يستطع النظام الإيرانى أن يتوقع أن شهر المحرم هو شهر التعبئة الشاملة ، وهو الشهر الذى خرج فيه الحسين مناديا:« **الموت بشرف خير من الحياة بذلة** » ، وبحلول أول المحرم أصدر الإمام فتواه التاريخية بتحريم التقية ، وأصدر بياناً إلى كل رجال الدين بألا يلوثوا منابرهم بالمهادنة وأن يجعلوا منها مراكز لفضح النظام:« **إن التقية حرام وإظهار الحقائق واجب مهما كانت النتيجة ، ولا ينبغى على فقهاء الإسلام استعمال التقية فى المواقف التى تجب فيها التقية على**

الآخرين ، إن التقية تتعلق بالفروع ، لكن حينما تكون كرامة الإسلام فى خطر وأصول الدين فى خطر فلا مجال للتقية والمداراة إن السكوت هذه الأيام تأييد لبطانة الجبار ومساعدة لأعداء الإسلام .. وإذا ظهرت البدع فى العالم فعلى العالم أن يظهر علمه وإلا فعليه لعنة الله »(٢٥) .

وتحولت المساجد والمجالس التى كانت تعقد للعزاء فى مثل هذا الوقت من كل عام إلى جبهات ضد النظام ، فالأيام الخمسة من سابع محرم إلى ثانى عشره عطلة رسمية فى إيران ، واستطاع الإمام أن يحيى التاريخ وأن يربط بين خروج الحسين ابن على ضد جهاز الجبار يزيد وخروج الشعب الإيرانى المسلم ضد الشاه ، لقد فات أوان الندم والبكاء على الحسين ، ومن أراد أن يلحق به فالفرصة سانحة أمامه ، أما مواكب العزاء التى كانت تطوف أنحاء إيران فى التاسع والعاشر من محرم كل عام تدق الصدور وتنوح على الحسين فقد تحولت إلى مظاهرات سياسية تضم كل القوى السياسية المناهضة للشاه ، كانت المواكب تضم مئات الألوف فى كل مدينة وعشرات الألوف فى كل قرية ، وارتفعت الشعارات بحياة الخمينى وسقوط الشاه ، وفوجىء النظام بعد استفتاء الثورة البيضاء بأقل من ستة شهور بأن المظاهرات تضم كل فئات الشعب من زراع وطلبة وعمال ومثقفين .. كيف ؟ لقد كان يظن أن الخمينى لا يسيطر إلا على قم بل وعلى المدرسة الفيضية وطلابه ولقد هدم الفيضية على رؤوس طلابه وساقهم إلى التجنيد الإجبارى فماذا حدث ؟ الذى حدث أن الخمينى كان قد أصبح رمز التحدى لنظام الشاه ، ولسيطرة الأجانب على الاقتصاد وللعلاقة الدنسة المشبوهة مع إسرائيل وللرقابة على الصحف ولسيطرة جهاز الساواك والحكم البوليسى .

وفى العاشر من محرم « ١٣ خرداد - ٣ يونيه » ألقى الإمام خطاباً شاملاً ، كان الحاضرون يزيدون عدداً عن ربع مليون ، وكان الإمام تحسباً لأى جنون من النظام فى حراسة ميليشيا مسلحة وعندما قطع التيار الكهربى كانت هناك أكثر من بطارية معدة لتشغيل مكبرات الصوت ، وفى الساعة الرابعة والنصف وبعد أن انتهت المظاهرات كان الجميع الذين سافروا إلى قم فى انتظار ما سوف يقوله « محطم الأصنام : بت شكن » وهو اللقب الذى لقب به الإمام لأنه لم يخاطب الشاه قط بلفظ « صاحب الجلالة » كما اعتاد زعماء المعارضة عند مخاطبته (٢٦) ،

وبيلاغة وعظمة فى الربط بين الماضى والحاضر ، بدأ الإمام وربط بين جهاز الجبار الجديد وجهاز الجبار القديم ، وبين شهداء كربلاء وشهداء الفيضية ، والأساس هو العداء للإسلام ، العداء الذى يريد أن يضرب الإسلام بيد إسرائيل ، لأنه الحاجز الوحيد أمام أطماعها : « **إسرائيل لا تريد أن يظل القرآن فى إيران ، لا تريد أن يكون فى إيران علماء مسلمين ، تريد أن تستولى على اقتصاد الأمة ، تريد أن تقضى على تجارة إيران وزراعتها ، ولا ترى عقبة أمام كل مخططاتها إلا الدين علماء الدين ، ولذلك تريد أن تمحوهم من طريقها** »(٢٧) ثم انتقل إلى أولئك الذين هاجموا المدرسة الفيضية وهم يصيحون: « انتهى الأكل مجاناً » وتساءل: « **هل أولئك الذين يقضون حياتهم وأجمل سنوات عمرهم فى هذه الحجرات يحصلون العلم مقابل أربعة جنيهات أو عشرة على الأكثر يأكلون مجاناً لكن أولئك الذين يسرقون بالملايين لا يأكلون مجاناً ؟ هل نحن الذين نأكل بالمجان وحين توفى الحاج الشيخ عبد الكريم (الحائرى) لم يكن فى منزله ما يكفى عشاء أهله ؟ وعندما غادر المرحوم آية الله البروجردى الدنيا كان مدينا فى ستمائة ألف تومان (ستين ألف جنيه) أنفقها على المدارس الدينية ؟** » (٢٨) وأفشى الإمام حادثة نمت إلى علمه أن جهاز الساواك حمل عدداً من شيوخ طهران إلى مقره وهددهم إن تحدثوا فى موضوعات وهى سب الشاه ومهاجمة إسرائيل والمناداة بأن الإسلام فى خطر ، وعليهم بعدها أن يتحدثوا فى كل ما يريدون ، ويتساءل : ترى ما هى العلاقة بين الشاه وإسرائيل حتى يجعلها معه فى قائمة المحظورات ؟ ويخاطب الشاه : « **ياسيادة الشاه .. يا جناب الشاه .. أيها التعس ، أيها المسكين ، خمس وأربعون سنة مرت من عمرك ، فكر قليلاً ، تدبر قليلاً ، قدر عواقب الأمور قليلاً اتعظ بوالدك** » (٢٩) .

وأثر هذا البيان اشتعلت المظاهرات مرة أخرى « ١١ محرم — ١٤ خرداد — ٤ يونيه » وفى العاصمة والأقاليم اشتعل الشارع الإيرانى وماج بالمظاهرات ، كان الثقل فى جنوب طهران وفى سوقها وفى مسجد شاه وهو مسجد داخل السوق تحول إلى خلية ثورية ، وتصدت قوات الشاه للمتظاهرين وطاردتهم داخل المساجد ، وفى منتصف الليل قبض على آية الله ، الخمينى ، ونقل إلى طهران حيث قضى فى السجن الإنفرادى فى معسكر « عشرت آباد » خمسا وعشرين ساعة . وبشروق شمس ١٢ محرم « ١٥ خرداد — ٥ يونيه ١٩٦٣ »

انتشر خبر القبض على الإمام بليل انتشار البرق ، واشتعلت المظاهرات مرة ثانية ، مظاهرات تهتف للخميني وتفضح الشاه العميل ، **ولم يجد الشاه بدا من إصدار الأمر باطلاق الرصاص على المتظاهرين ، ونزلت الدبابات والمدرعات الشوارع ، كانت تدوس فى طريقها على جثث القتلى ، وزحف المتظاهرون على الإذاعة واستولوا عليها ، وخلال دقائق انتقلت أخبار المذبحة إلى العالم ، ولأول مرة بعد عشر سنوات كاملة من القمع يرتفع الشعار الذى ارتفع بعد ذلك بخمس عشرة سنة « الموت للشاه » ، كانت الجماهير العزلاء تهاجم الدبابات بصدور عارية ، وحوصرت جامعة طهران حيث دارت مذبحة أخرى داخلها ، بينما كانت فرق أخرى من الجيش تهاجم سوق طهران ، وكان رصاص الشاه كما نقلت وكالات أنباء العالم يحصد الناس وهم يتقدمون** (٣٠) ونزلت فرق السافاك تحطم المكتبات وتضرب النساء وتتحدث إلى مندوبى وكالات الأنباء قائلين أن هذا هو هدف هذه الثورة التى أشعلها جماعة من رجال الدين الرجعيين ، كانت الجماهير قد أخذت تزحف مرة ثانية على الإذاعة والقصر الأمبراطورى فسحب الشاه كل قواته من الشوارع وركزها فى هذين الموضعين ، واستمرت المذابح ، لقد كانت حصيلة المذابح كما اعترف النظام نفسه خمسة عشر ألف قتيل ، ولا شك أنهم كانوا أكثر من ذلك ، لقد حوصرت مساجد كثيرة وأبيد من فى داخلها ، وفى الهجمة على السوق كانت الجثث تغطى كل مكان ، وداخل الجامعة سقط كثير من الطلاب ، وعلى جسر باقر آباد سقط أربعمائة قتيل من فلاحى منطقة ورامين هبوا لنصرة إمامهم والأكفان فى أيديهم فأغلق الجسر من أمامهم ومن خلفهم وحصدوا تماما ، وفى قم لم تكن المذابح تفرق بين الرجال والنساء ، **فأول شهداء قم فى ذلك اليوم الدامى كانا امرأتين وأحد الصحفيين ، وفى شيراز استمرت المظاهرات يومين متتاليين وكان الشاه وفرح يشرفان بنفسيهما على إخماد المظاهرات كما نقلت وكالات الأنباء العالمية واكتظت السجون بالمعتقلين فحولت كل الثكنات العسكرية المحيطة بطهران إلى سجون ، كما اكتظت سجون الأقاليم بالسجناء .**

كان ١٥ خرداد ثورة كاملة اشتركت فيها كل طبقات الشعب الإيرانى ، لم تكن صداماً بين علماء الدين والسلطة كما أحبت دعاية الشاه أن تصور

أو كما دأبت على ذلك طوال السنوات الأخيرة ، وكانت بداية النهاية للنظام ، وتعلم الشعب الإيرانى منها دروساً كثيرة ، كما كانت أكبر فضيحة للشاه بعد إعلان ثورته البيضاء بعدة شهور ، وكانت هذه الثورة بالنسبة للجناح الإسلامى تجربة مرة ، لكنه استفاد منها الكثير من وضوح الرؤية وتحديد الأهداف ومعرفة الأعداء ، وفوق كل ذلك عرف الشعب على من يستطيع أن يستند ، ومن هى الوجوه الحقيقية التى تتحدث باسمه والتى هى على استعداد للتضحية فى سبيله ، كانت أول حركة إسلامية شاملة على هذه الدرجه من الاتساع والجرأة والعمق .

وبعد ١٥ خرداد الدامى كان الإمام لا يزال فى السجن ، وكان النظام بكل أبواقه يحاول أن ينال من شخصيته التى انعقدت لها الإمامة الدينية والزعامة السياسية ، لكن افتراءات النظام كان تتلوها البيانات من جميع طوائف الشعب تؤيد الإمام ، وأمر النظام أوامر مشددة « ألا يذكر اسم الخمينى باحترام » فكانت النتيجة أن غطت صوره الشوارع والحارات وجدران البيوت فى إيران ، وقامت حملة اعتقال وحشية تقبض على كل من له إسم فى سجلات النظام منذ سنة ١٩٥٣ بتهمة تأييد الخمينى ، ولم تتوقف الحركة ، فكان أن لجأ النظام إلى حيلة سوف نرى لها مثيلاً فى العام الدامى ، ففكر فى عزل علم ، بينما نقل الإمام إلى بيت فى حى القيطرية فى طهران على ألا يغادره وذلك بعد شهرين كاملين قضاهما فى السجن .

لكى يهدىء الشاه الموقف حاول الشاه أن يسند الوزارة إلى أحد رجال الجبهة الوطنية الثانية ... لكن من الذى كان يستطيع أن يخاطر ويقبل الوزارة فى هذه الظروف ؟

ومن ثم لفقت التهم وزج بقادة الجبهة الوطنية الثانية كلهم فى السجن وبعد محاكمات سريعة وسرية كان دفاع المتهمين فيها فضيحة للنظام لم ينقض عام ٤٢ (٦٣/٦٤) حتى كان مهدى بازرگان وآية الله طالقانى ويد الله سحابى وعزت الله سحابى وعباس شيبانى وعباس رادنيا ومحمد بسته نگار فى السجن ، وبذلك وثق الشاه دون أن يدرى الصلة بين الجبهة والجناح الإسلامى ، فقد تأكد انتماء الجبهة إلى الأيدلوجية الإسلامية ، وانضم إلى الحركة الدينية عدد

كبير من المثقفين ، وكان ذلك خير رد على دعاية الشاه التى ما فتئت تصور الحركة على أنها غضبة من رجال الدين الذين صفيت أملاكهم فى الثورة البيضاء ناسيا أن الأوقاف كانت قد ألغيت منذ سنة ٢٩ ، **كان القبض على عدد من المثقفين بعد ثورة قيل انها حركة من رجال الدين أكبر صفعة للنظام نفسه**

لقد اعترف النظام أن ما حدث فى ١٥ خرداد كان عاراً ، وهو يقصد أن الشعب وقف فى وجه الإصلاح ، ورد الإمام « **أجل كان ما حدث فى ١٥ خرداد عاراً ، لأنهم حصلوا على البنادق والمدافع الرشاشة والدبابات من أموال هذا الشعب الفقير ثم أطلقوها عليه**» .(٣١)

وظل الإمام فى قيطرية يتوافد عليه الناس ضاربين بقرار الحكومة عرض الحائط ، بينما لم يهدأ علماء الدين ، كان الشاه يعد لانتخابات جديدة ، فأصدر علماء الدين بيانا يدعون فيه لمقاطعة الانتخابات ويفتون بعدم جوازها فى هذا الجو الملبد الذى انعدمت فيه الحرية الفردية والجماعية ويسيطر عليه جهاز الأمن ، والدليل على ذلك هو تحديد إقامة إمام البلاد فما بالك بالأفراد العاديين ، وما كانت السنة الإيرانية تنتهى حتى كانت وزارة علم قد استقالت (٩ مارس ٦٤) وحل محله حسينعلى منصور ، وفى ٥ ابريل أفرج عن الإمام وأعيد إلى قم بليل ، وأصدر الطلبة الدينيون المجتمعون فى قم فى ١٠ أبريل بياناً نادوا فيه بالافراج عن بازرگان وطالقانى ورفاقهما ، وطالبوا بتطبيق الشريعة الإسلامية وحل المجلسين ، وفى ١٥ أبريل ألقى الإمام بياناً من أطول بياناته وفند تقولات النظام على القائمين بالثورة ودمغها بالرجعية بالرغم من أن علماء الدين فى إيران هم طليعة كل حركة تحررية: «**وكيف يكون علماء الدين رجعيين وهم يعملون بما قاله الله وبما قاله رسوله ؟ ومتى كان الإسلام وهو ثورة حقيقية على الطغيان رجعياً ؟**» ثم : «إذا كان الإسلام لايعجب النظام فلماذا لايعمل بالدستور ؟ وكيف تنشر صحف النظام أن علماء الدين وافقوا على ثورة الشاه البيضاء ؟ فليذكروا اسماً واحداً .». ثم فند الإمام ما تذكره صحف النظام عن الحضارة : «أين الحضارة وقد مات الآلاف تحت الثلج ؟ فهل الذى يطالب بأن تنظر الدولة إلى أحوال الفقراء قليلاً رجعى ؟ وهل الذى يطالب الحكومة بأن تقبض يدها

عن الإنفاق فى الاحتفالات رجعي ؟ وإذا كانت الحكومة تفكر فى العامل والفلاح فلتترك قليلاً مما تستولى عليه ليصل إليهم ، ثم إن النظام يتحدث عن الحكومة الجديدة ويقول إن كثيراً من المشتركين فيها من أبناء علماء الدين ، أجل ينبغى أن ننظر إلى أعمالهم لا إلى أنسابهم ... ثم هل الأجهزة الجديدة التى دخلت إيران تعمل كما تعمل فى الدول الأخرى ، هل الإذاعة وهل التلفزيون يعملان كما ينبغى ؟ ألا يستخدمان كوسيلة لأفساد الشباب ومحو الشخصية ؟ أليست كلها فى يد الاستعمار الذى جعل شخصيتنا مبتذلة إلى هذا الحد ؟ » . ويتحدى الإمام النظام « فلتجلس الحكومة معنا ولنتحدث حديثاً منطقياً .. وأنا أسألهم كيف تجلبون الخبراء من إسرائيل ؟ وكيف ترسلون الطلاب إليها ؟ هل ضاقت الدنيا ؟ نحن أعداء إسرائيل .. هكذا أمرنا ديننا وأمرنا قرآننا ... ثم إن الجامعة الإسلامية التى أعلن الشاه عن تأسيسها تشبه تماماً قصة معاوية والقرآن على أسنة الحراب » ويختم الإمام « **إنهم يريدون قتل الخمينى ، فليقتل ، لكن الإسلام سيبقى** ... لكن أقلعوا أنتم عن رجعيتكم وبربريتكم كونوا متحضرين حقيقة وتعلموا شيئاً بدلاً من الاستعانة بالأجانب فى كل الأمور(٣٢) » .

وفى وفد طلاب جامعة طهران فضح الإمام محاولات النظام لاستمالته واستقطابه ، وكيف أن النظام أخبره أنه نقله سراً من طهران إلى قم خوفاً عليه من الناس (؟) ، وكيف تقوّل عليه النظام بأنه قال أن علماء الدين لن يتدخلوا فى السياسة: « **والحقيقة أن أحدهم جاء إلىّ وقال : سيدى إن السياسة هى الكذب والخداع والاحتيال والنصب والخلاصة أنها لعنة فاتركها لنا ، فمركزك لا يسمح ، ولم أرغب فى مناقشته فقلت له : نحن فيها من البداية وأنت تقول أننا لم نتدخل فيها وأن مركزى لا يسمح ، إنه يقول أن هذا ليس من الإسلام ، والله إن الإسلام كله سياسة ، لقد أساءوا تعريف الإسلام إن سياسة المدن تنبع كلها من الإسلام ... لست من هؤلاء الشيوخ حتى أجلس هنا وأمسك بمسبحة ، لست البابا أذهب كل أحد إلى الكنيسة فحسب ، ثم أتولى سلطانى وأدبر شئونى بقية أيام الأسبوع ... إن مركز استقلال الإسلام هنا فى قم وينبغى أن تقوم قم بتحرير المسلمين!** » كما قام الإمام بفضح السياسة اللاإسلامية للدولة ووجهها الكسروى وأكاذيبها عن

التقدم ، إنهم يتحدثون عن حضارة القرن العشرين العظمى بينما يتضور الشعب جوعاً (٣٣) وفى نفس الوقت أصدر بياناً يدين فيه سجن طالقانى ورفاقه ويدعو إلى الافراج عنهم . (٣٤)

وبالرغم من أن قم كانت قد أصبحت على رأس سجل أعمال الساواك ، لم يسكت الإمام يوماً واحداً طيلة الشهور الثمانية التى مكثها فى إيران بعد الافراج عنه من سجنه ، وفى بداية العام الدراسى ألقى خطبة من أهم خطبه (١٨ شهريور - ٩ سبتمبر ٦٤) وقد وجهها إلى الطلاب ، حيث حذر من سياسة الدول الغربية طوال القرن الأخير وكيف قضوا على الدولة العثمانية ونجحوا فى تمزيق الإسلام إلى مذاهب ثم إلى قوميات ، وتناول الغزو الفكرى بعد الغزو العسكرى وعمليات مسخ الإسلام وتصويره على أنه السبب فى تخلف المسلمين وعلى أنه أساس الرجعية ، ثم تحدث عن السيطرة اليهودية على إيران وعن اجتماع رجال الأعمال اليهود فى طهران يوم ٧ سبتمبر ، وتحدث عن الإصلاح وأنه ينبغى أن يبدأ من الثقافة ، وليس عن طريق ما تريده الحكومة من إنشاء وزارة للأوقاف تجعل علماء الدين خاضعين لها يتقاضون منها المرتبات ، وهذا ما لن يكون أبداً لأن الهيئة الدينية مستقلة وسوف تظل مستقلة ، لكنها لا تعارض دخول الآلة ، فلتدخل الطائرة ولتدخل مصانع الصلب ، ولتدخل كل الآلات التى يريدونها ، لكن لتدخل كوسيلة لخدمة البشر وليس لمسخهم ، ويتناول حزب حسنعلى منصور حزب إيران نوين ويتساءل : ما هو الفرق بينه وبين الأحزاب التى سبقته ؟ **إن كل وزارة تأتى تؤسس حزباً مع أن ألف باء السياسة أن الحزب لا يكونه أحد وهو فى السلطة ، بل على الحزب أن يؤسس أولاً ثم ينال السلطة بعد انتخابات حرة** ، لا يمكن أن يكون حزب عن طريق جمع بطاقات هوية القرويين ثم تسجيل أسمائهم فى الحزب دون علمهم .. وفى النهاية يوصى الطلاب بتكوين الجمعيات الإسلامية التى تفضح النظام وتقوم بالتوعية والدعوة . (٣٥)أكان يمكن للنظام أن يترك آية الله الخمينى فى الساحة يقوم علناً بتنظيم الشباب وتشكيل جمعيات لهم ولا يفوت فرصة دون أن يفضح النظام ويدمغه بالعمالة ؟ هل كان من الممكن أن يترك هذا الشيخ قدوة يتبعه فيها شيوخ كل مدينة فى إيران بحيث يتحدى إمام كرمان النظام علناً ويقف فى وجه تأسيس مركز للساواك فى كرمان ؟ نعم ... إنه وحيد

فى الساحة ، فقادة الجبهة الوطنية فى السجن ، والساواك يسيطر على كل مكان ، واليسار لفظ أنفاسه من زمن لكن هذا الرجل الوحيد الذى يجهر بكل ما يهمس به الناس إن ترك فسوف يكون خطره عظيماً ولابد من تصفيته والتخلص منه .

وحانت الفرصة عندما اجتمع المجلس النيابى فى أواخر أكتوبر ٦٤ وصدق على قانون قدمته حكومة حسينعلى منصور بمنح الامتيازات الأجنبية للخبراء الأمريكيين وأسرهم وعدم جواز مقاضاتهم أمام المحاكم الإيرانية ، وكانت اللطمة الشديدة فإن الامتيازات الأجنبية التى كانت قد دخلت إيران منذ قرن كانت قد ألغيت فى عهد رضاخان ، وبالرغم من خطورة القرار لم يرتفع صوت ، حتى جنرالات الجيش الذين كان القانون يزرى بهم ويجعلهم فى مرتبة أدنى من مرتبة طباخ أمريكى ، لم ينبسوا ببنت شفة ، شخص واحد فقط فى إيران لم يسكت ، إنه الإمام الخمينى الذى هب صائحاً :

« هل يعلم الشعب الإيرانى ماذا حدث هذه الأيام فى المجلس ؟ هل يعلم أية جريمة ارتكبت خفية وبدون علمه وتهريباً ؟ هل يعلم أن المجلس قد صدق بناء على توصية من الحكومة على سند عبودية الشعب الإيرانى وأبدى اعترافه بأن إيران مستعمرة ، وأعطى لأمريكا حجة اعتبار الشعب الإيرانى شعباً بدائياً وشطب بالقلم الأسود على كل أمجادنا الإسلامية والقومية ، وشطب بالقلم الأحمر على كل الفخر الأجوف لعظماء القوم طيلة عدة سنوات وجعل إيران أكثر ذلة من أشد الأمم تأخراً ، أهان جيش إيران العظيم وكبار قواده ، داس بالأقدام شرف القضاء الإيرانى ، وجعل شعب إيران تحت السيطرة الأمريكية ... إن المستشارين العسكريين الأمريكيين والأمريكيين غير العسكريين بأسرهم وخدمهم أحرار مهما ارتكبوا من جرائم ، فليس للبوليس الإيرانى حق القبض عليهم وليس للمحاكم الإيرانية حق محاكمتهم ... واليوم تكافح الدول التى ترزح تحت نير الاستعمار واحدة بعد الأخرى بشجاعة وصمود للتخلص من وطأة الاستعمار وقطع أغلال العبودية ، يقوم المجلس النيابى الايرانى المتحضر التقدمى الذى يدعى ماضيا فى الحضارة يبلغ ألفين وخمسمائة عام ويدعى المساواة مع الأمم المتمدينة بالموافقة على أكثر القرارات عاراً وذلة ».(٣٦)

ولم تكن الحكومة فى حاجة إلى أكثر من ذلك ، فأبعد الإمام بطريقة أشبه بالخطف فى إحدى ليالى شهر نوفمبر سنة ٦٤ ، ومن الغريب أن أغلب المصادر وحتى المصادر الإيرانية قد ذكرت أن الإمام نفى سنة ٦٣ فإذا كانت أحداث خرداد قد حدثت فى يونيه ٦٣ وقضى الإمام فترة بعدها فى السجن أو فى الإقامة المحددة فى قيطرية وحتى إبريل ٦٤ ، وإذا كان خطاب الامتيازات قد ألقاه فى إيران فى أكتوبر ٦٤ ، فكيف يكون قد نفى من إيران إلى تركيا ثم النجف فى سنة ٦٣ ؟

على كل حال غادر الإمام إيران إلى تركيا حيث مكث بها عاماً ثم انتقل إلى النجف الأشرف على صلة بالأحداث لا يترك فرصة تمر دون فضح للشاه ونظامه ، كانت أسطورة « الإمام المنفى » تزداد تأصلاً فى إيران ، وكان جديراً حقاً بدور أصحاب الدعوة فى المهاجر ، كان يخاطب المسلمين فى مواسم الحج والمؤتمرات بصراحة ووضوح وحسم ، وغاب عن الساحة بجسمه لكنه لم يغب عنها قط بضميره ورؤيته السياسية الشاملة الفذة .

هذا الدور البارز الذى لعبه آية الله الخمينى على مدى ثلاثة أعوام من سبتمبر ٦١ إلى نوفمبر ٦٤ فى مواجهة السلطة ، والتحدى العلنى الذى أبداه تجاه جبروتها والذى بلغ قمته فى أحداث خرداد ٤٢ (يونيه ٦٣) ، كان نقطة تحول فى تاريخ النضال الإسلامى فى إيران ، فمن ناحية كان ظهور الجناح الدينى بهذا الحجم وهذه القوة سبباً فى تمتعه بشعبية ظلت إلى السنوات الأخيرة من النظام الشاهنشاهى واتضحت فى أحداث الثورة الأخيرة ، وبعدها لم يكن يمكن لأى تيار غير التيار الإسلامى أن ينجح ، وسوف نرى ظهور كثير من المنظمات التى أعلنت أنها إسلامية بينما لا يعترف بإسلاميتها حتى الآن فى إيران ، لم يكن هذا التيار يظهر على المسرح السياسى الإيرانى لأول مرة ، لكنه كان قد اختفى خلف ركام من الحلول الوافدة خلال الخمسين سنة الأخيرة ، ولا سبب لبلوغ هذا التيار هذه القوة إلا شراسة النظام فى تصفيته هو بالذات .

ومن ناحية أخرى كانت الهجمة الشرسة التى قام بها النظام فى ١٥ خرداد سبباً فى طرح الحل العسكرى للمرة الأولى على مسرح نضال الشعب الإيرانى ،

فقد أدركت الجماهير أنها لا تواجه نظاماً سياسياً يقارع الحجة بالحجة وعنده استعداد للتفاهم والتراجع إذا لزم الأمر بل يواجه مؤسسة عسكرية محلية وعالمية « البنتاجون » ومن ثم كان ظهور المنظمات الفدائية نتيجة حتمية لمذابح ١٥ خرداد ، بينما لم يكن النشاط العسكرى موجوداً قبل ١٥ خرداد إلا من قبل القبائل والعشائر الإيرانية التى حاول الشاه انتزاع أراضيها فى إطار التحديث وتحت إسم طنان هو « إسكان العشائر » ، وقد قصفت مناطق القشقائى والبختيارى والبوير أحمدى أكثر من مرة ، كان آخرها سنة ٦٣ عندما قصفت مناطق القشقائى فاضطروا للمقاومة ، ولم يظفر النظام بزعماء القشقائى إلا عن طريق الخديعة ، فقد أرسل أسد الله علم مصحفاً ممهوراً بختمه إلى بهمن قشقائى وهذا معناه فى إيران أنه فى أمان ، وعندما سلم نفسه قتل .

وبمغادرة الخمينى إيران ، وسجن قادة الجبهة الوطنية الثانية مدداً تتراوح بين عشر سنوات وخمس عشرة سنة ، وبالهجمة الشديدة التى قام بها النظام بعد مغادرة الخمينى إيران على رجال الدين وتشتيتهم فى قرى إيران النائية أو إلقائهم فى السجون ، كانت الساحة تبدو خالية تماماً أمام النظام ، وبدأت فترة جديدة من الاختناق كانت تناسب تماماً ما تكبده النظام من أجل إخماد حركة التيار الدينى ومدى صبره عليه حتى تمت تهدئته ، وبينما كانت الساحة الداخلية قد خلت تجمع شتاتها وتلعق جراحها ، بدأ مظهر آخر من مظاهر النضال الوطنى الإيرانى وهو النضال من الخارج ، وقد يبدو النضال خارج الوطن بالنسبة لبعض النظم عديم الجدوى لكنه بالنسبة لنظام ملحق يعتمد على القوى الأجنبية يكون شديد التأثير والفعالية ، وبعد تصفية الجبهة الوطنية الثانية استمرت مجموعتان فى العمل من المنفى ، كانت كل منهما تعد نفسها استمراراً للمجموعة السابقة ، وسميت إحداهما بالجبهة الوطنية فى الشرق الأوسط ، بينما سميت الثانية : الجبهة الوطنية الثالثة ، وكان مقراهما فى فرنسا ، ولأنهما نسقتا أعمالهما مع الجناح الدينى فقد كان ذلك الجناح يمدهما بالدماء الجديدة .(٣٧)

أما آية الله الخمينى فلم ينصرف من منفاه عن الهدف الذى كرس حياته له وهو إسقاط النظام البهلوى وتحرير إيران منه ، وتثبت بياناته وخطبه أنه كان على صلة بإيران عن طريق شبكة علماء الدين المناضلين والذين كانت تعتبر

زياراتهم للبقاع المقدسة فى العراق أمرا عادياً جداً ، كما كانت السلطات العراقية التى لم تكن على وفاق مع حكومة الشاه آنذاك تغض الطرف عن اجتماعات الإمام مع رفاقه ، ومن ثم كانت التعليمات تصل أولاً بأول إلى إيران .. وفى السنوات الأخيرة بدأت الشرائط المسجلة بصوت الإمام تغمر الأسواق ، وكانت توزع تحت سمع النظام وبصره بعد تغليفها بصور المطربين والمطربات الإيرانيين المشهورين .

وفيما بين ٦٤ - ٧١ ، كانت أجنحة النضال تتجنب الدخول فى مواجهة صريحة مع النظام ، كما كان النظام بدوره يتجنب صب غضبه علناً على إحدى الشخصيات الفكرية البارزة مخافة أن يخلق منها « خمينى » آخر ، وانصرفت الحركة الشعبية مرة أخرى إلى تعميق البعد الأيديولوجى ، وإلى الاستعداد العسكرى ، وفى خلال هذه السنوات كان الشباب الإيرانى يتسلل إلى الأردن ولبنان ومصر للتدرب على السلاح « ممن دربوا فى مصر مصطفى جمران وصادق قطب زاده » ، كانت أجيال الشباب قد رأت أن المعارضة الإيرانية قد مرت بثلاث هزائم منذ سقوط رضاخان : هزيمة سنة ٤٦ وهزيمة سنة ٥٣ وهزيمة سنة ٦٣ فتحولت عن حزب توده وعن الجبهة الوطنية معاً ، وكانت ترى أن الأساليب القديمة لم تعد تجدى ، وتطلعت إلى تجارب العالم الثالث ونظريات حرب العصابات وحرب المدن التى انتشرت فى أواخر الستينات فى فيتنام والصين وكوبا وفلسطين المحتلة ، ووجدت فى ترجمات ماوتسى تونج ودوبريه وتشى جيفارا معيناً لا ينضب من التجارب ، وجرت محاولات لنقل هذه النظريات وربطها بالتراث الإيرانى الشيعى ويتجلى بعدها الإسلامى فى بعض أعمال شريعتى .

وإزاء هذا العمل السرى ، كان النظام يلجأ إلى وسائل التصفية الجسدية وقد مر بنا كيف فتك بعدد من المفكرين الإيرانيين سراً ، وأذاع أنهم ماتوا بسكتة قلبية أو حوادث عادية من قبيل الغرق أو حوادث المرور ، فقتل جلال آل أحمد وصمد بهرنكى ، وفروغ فرخزاد التى تحولت فى قصائدها الأخيرة للتبشير بظهور المخلص ، كما قتل غلامرضا تختى أحد أعضاء الجبهة الوطنية البارزين

سنة ٦٦ والدكتور حسن ارسنجانى فيلسوف الاصلاح الزراعى الذى غضب الشاه عليه وأبعده إلى روما حيث توفى « بنوبة قلبية » ، وكان القضاء على شريعتى ومصطفى الخمينى آخر الحوادث فى هذه السلسلة .

وكان الانتقام المباشر من قبل التيار الإسلامى لابعاد آية الله الخمينى هو اغتيال حسنعلى منصور رئيس الوزارة الذى تولاها فى ٩ مارس ٦٤ وأسس حزب إيران نوين ، وقد أطلق الرصاص على منصور فى ٢١ يناير ٦٥ بينما كان يصعد درجات سلم المجلس النيابى ، وقبض على القاتل فى مكان الجريمة ، واعترفت دوائر البوليس أن القاتل محمد بخارائى عضو فى منظمة إسلامية ، كما وجدت فى جيبه صورة للإمام آية الله الخمينى ، وبعد وفاة منصور فى ٢٦ يناير متأثراً بجراحه صفيت المنظمة الجديدة وقبض على أقطابها : صادق أمانى ورضا صفار هرندى ومرتضى نيك نزاد وحاجى مهدى عراقى وهاشم أمانى وحبيب الله عسكرى أولادى ، وحكم عليهم جميعاً بالإعدام ، ثم خفف الحكم على الثلاثة الأواخر بالسجن مدى الحياة . هذه المجموعة الفدائية كانت أول مجموعة تعمل داخل إيران بعد نفى آية الله الخمينى إلا أننا لا نملك عنها أية معلومات ، بل ولا تقدم المصادر الفارسية المتيسرة أية معلومات أخرى عنها ، إلا أن وجهها الإسلامى لا يخفى للناظر ، كما أن زعيم المجموعة محمد بخارائى اعترف أنه قتل حسنعلى منصور من جراء سياسته المعادية للإسلام .

ولم تكد تمر بضعة أسابيع حتى تعرض الشاه نفسه لأخطر المحاولات التى جرت لاغتياله ، ففى ١٥ أبريل سنة ٦٥ ، أطلق عليه جندى من جنود الحرس الامبراطورى الرصاص ، وبالرغم من أن الشاه ظل يرغم الشعب على الاحتفال بنجاته فى الذكرى السنوية لهذا الحادث كل عام ، إلا أن معلومات قليلة جداً أذيعت عن تفاصيل الحادث ، وظلت دوافعه مجهولة تماماً ، بل إن إسم شمس آبادى وهو الذى قام بمحاولة الأغتيال قد طواه النسيان ، لكن أسماء الحارسين اللذين قتلا والحارسين اللذين حميا الشاه بجسديهما قد بقيت على الشوارع والمدارس فى أنحاء إيران .

هذا الهدوء النسبى فى هذه السنوات كان يقطع بين الآن والآخر ببعض المظاهرات الطلابية ، التى كانت تندلع لمناسبات عديدة أو فى إحياء ذكرى ١٦ آذرماه ، وبين عامى ٦٤ و ٧٧ كانت الجامعات الإيرانية ميداناً للصراع بين النظام والطلبة ، ويشير مؤشر هذه الاضرابات والمظاهرات ومدى قوتها وضعفها إلى حالة المعارضة ، وكانت هذه الاضرابات تحتج على كثير مما يحاول النظام فرضه ، كازدياد نفوذ الساواك فى الجامعة (إضراب يناير ٦٩) أو احتجاجاً على فساد النظام التعليمى (إضرابات ٦٩) أو احتفالات ذكرى الامبراطورية (سنة ٧١) ، وكان الشعار المرفوع فيها « الشعب جائع لا نريد احتفالات » ، أو إحتجاجاً على زيارات الشاه المتكررة لأمريكا وردود أفعال للمظاهرات التى كانت تقوم فى الخارج ، أو بسبب الغلاء ، وفى السبعينات لم تكن الاضرابات المستمرة فى الجامعات الإيرانية تجعل العملية التعليمية تستمر أكثر من عدة أسابيع كل عام ، ولعل هذا فى حد ذاته كان سبباً للتضييق الذى كان يتعمده النظام فى التعليم الجامعى ، وكانت المظاهرات تقوم لأى سبب من الأسباب وسرعان ما ترتفع الشعارات السياسية ، وكان السلوك الوحشى الذى يتبعه الساواك فى مقاومة الطلبة يزيد من حدتها ، فكثيراً ما سقط صرعى وضحايا بالعشرات ، وكانت الطالبات يتعرضن لأسوأ المعاملة من الساواك ، فكانت « البيره » تصب فى أفواههن أو يتعرضن للاغتصاب علناً .

كان الجنوح نحو الحل العسكرى يتطور بسرعة شديدة ، وفى أواخر الستينات ظهر فى الأفق عدد يتراوح بين ست وأثنتى عشرة منظمة عسكرية ، غير أن منظمتين فقط استطاعتا البدء فى العمليات العسكرية ومواصلتها : الأولى « منظمة مجاهدى الشعب : سازمان مجاهدين خلق » أو المجاهدين ، وهى منظمة غير واضحة الهويةوإن كان يغلب عليها الطابع الإسلامى كما سنرى من عرضنا لأعمال مؤسسيها ، والثانية : « منظمة فدائيان خلق : منظمة فدائيى الشعب » أو الفدائيين وهى منظمة يسارية . وقد انبثقت منظمة المجاهدين وهى مجال بحثنا فى هذا الفصل من أنصار الجبهة الوطنية الذين شكلوا فى منتصف الستينات « نهضت آزادى إيران : حركة تحرير إيران » إلى جوار منظمتى « الحركة الإسلامية للشعب الإيرانى : جنبش إسلامى ملت إيران » و « حزب

ملل إيران » والواضح أن المنظمتين الأخيرتين قد انضمتا إلى المجاهدين التى ظلت قائمة بالكفاح فى إيران وتعرضت لنكسة من تدخل الجماعات اليسارية عرفت باسم « حركة المنافقين » سوف نتناولها فى الفصل التالى ، ولما نجحت حركة المنافقين فى القضاء على كوادر القيادة فى منظمة المجاهدين ، هاجرت الحركة إلى الخارج وصار عليها واجبان : مقاومة النظام الشاهنشاهى ثم فضح العناصر الدخيلة ، وكان خروج الحركة إلى الخارج ذا نتائج متعددة ، فقد أدى إلى تعويض الكوادر التى استشهدت بعدد من المنفيين الإيرانيين ، وأخذت تساعد بقايا المنظمة فى الداخل التى سرعان ما تجاوزت حركة المنافقين وانقسمت إلى قسمين : حركة المقاومة الشعبية فى الداخل ، وحركة تحرير إيران فى الخارج (ومن مؤسسيها مهدى بازرگان وآية الله طالقانى) وكان وجهها الإسلامى واضحاً منذ البداية . (٣٨)

والعمل السرى أمر محفوف بالمخاطر ، وفرصة للتشويه فضلاً عن التجاهل وكان تعدد الجماعات الفدائية واختلاف مشاربها فرصة أمام النظام لتشويهها وضربها ، والدليل على ذلك منظمة المجاهدين التى لا يخفى وجهها الإسلامى ومع ذلك تجد فى إيران نفسها من يتهمها بالماركسية .

وقد تأسست منظمة المجاهدين وهى أول منظمة فدائية إسلامية نظرياً سنة ١٩٦٥ بمجهود من الشهداء محمد حنيف نژاد وسعيد محسن وعلى أصغر بديع زادگان ومحمود عسكرى زاده وأحمد رضائى ورسول مشكين فام ، كانت المنظمة كردفعل للارهاب الشاهنشاهى عامل جذب لكثير من جموع الشعب الإيرانى ، وكان أول شهيد تقدمه المنظمة هو أحمد رضائى الذى حول احتفالات محرم سنة ٤٤ (سنة ٦٦) إلى مظاهرات سياسية ، وقد فجر نفسه وسط مهاجميه فى بهمن ٥٠ (سنة ٧١) ، ويضم سجل المجاهدين مجموعة كبيرة من الشهداء الذين استشهدوا فى قتال الشوارع أو فى السجون والمعتقلات خلال السنوات العشرة السابقة على الثورة ، ومن سير هؤلاء الشهداء نستطيع أن نستنبط بعض مبادىء المنظمة وأساليب تنظيمها فإن تاريخ المنظمات السرية الإيرانية لم يكتب حتى الآن . **ومعظم هؤلاء الشهداء من مواليد أربعينات وخمسينات هذا القرن ، أى كانوا لا يزالون أطفالاً عند سقوط مصدق ،**

ومعظمهم من خريجي الجامعات والطلاب ، كما أن معظمهم يعود فى نشأته إلى الطبقة الوسطى أو الفقيرة .

والجدير بالذكر هنا تلك العلاقة الوطيدة التى ربطت بين منظمة المجاهدين وبين المقاومة الفلسطينية ، فمن أقطاب المجاهدين الذين تدربوا مع المقاومة الفلسطينية على أصغر بديع زادگان وعلى باكرى ومحمود بازركانى ومحمود شامخى ورضا رضائى ، كما اشترك معظم هؤلاء فى القتال إلى جوار المقاومة الفلسطينية فى مذابح أيلول الأسود ، إن سير هؤلاء الشهداء تعد من أعظم ما يمكن أن يقدمه كاتب فى كتاب ، فهى تقدم أخص صورة عملية لفكرة الشهادة عند الشعب الإيرانى وكيف طبقت ، ولكننى سوف أكتفى هنا من سيرهم بما يمكن أن يقدم صورة عامة لمنظمة المجاهدين ، تلك التى كان النظام يلوثها بأبشع التهم فى صحفه .

وتقدم سيرة الشهيد محمد حنيف نزاد بعض الملامح العامة لمنظمة المجاهدين :

ولد سنة ١٩٣٨ فى وسط عمالي فقير ، وبدأ كفاحه السياسى منذ أن كان طالباً فى الجامعة ، فقد كان ممثلاً لطلاب كلية الزراعة فى الجبهة الوطنية وعضوا عاملاً فى حركة تحرير إيران ومسئولاً عن الجمعية الإسلامية فى كلية الزراعة ، وقبل إعلان الثورة البيضاء بيومين قبض عليه وقضى فى سجون النظام سبعة أشهر ، وفى السجن أعلن عدم جدوى نشاط الجبهة الوطنية ، وفى سجن قزل قلعه التقى بآية الله طالقانى ودرس علوم القرآن على يديه ، وانتهى من دراسته سنة ٦٣ ثم دخل الجيش وفيه أخذ علومه العسكرية ، وبعد ١٥ خرداد اشترك مع سعيد محسن وأحمد رضائى وبقية الأسماء المذكورة آنفاً فى تأسيس المجاهدين ، ودرس بقية المذاهب السياسية وأوصى رفاقه بدراستها حتى لا يتهموا بأنهم يعادونها عن جهل ، ويبدو فكره من كتابه « شناخت : المعرفة » الذى سوف نتعرض له فيما بعد بالتفصيل ومن خلال كفاحه أدرك حقيقة النظام الحاكم وتسلط رأس المال واستغلال الطبقة الكادحة يحرمها من تحقيق إنسانيتها ، ومن ثم وضع سياسة بناء الذات « خود سازى » لتطبيقها فى البداية ، ثم بسياسة طول النفس فى القتال ، وكان محمد حنيف نزاد مفكراً ومقاتلاً

ومشتركاً أيضاً فى برنامج التعرف على المجتمع « جامعة گردى » الذى وضع أصوله ، وكان هذا البرنامج يرى أن على المجاهد أن يقضى فترة داخل المجتمعات الإيرانية النائية والمسحوقة للتعرف عليها وجمع الحقائق عنها وتوعيتها ، وكان يرى بأن التعرف على العلاقات الانسانية لا يقل أهمية عن التعرف على العلاقات الانتاجية ، كما وضع برامج تسلق الجبال للتعود على المشاق وصارت فيما بعد رياضة عامة عند الطلاب الإيرانيين ووسيلة من وسائل الكفاح . وسقط محمد حنيف نزاد فى أسر النظام فى شهريور ٥٠ (سنة ٧١) ، ومن السجن كتب إلى رفاقه ألا يهنوا ولا يحزنوا وأن يتخذوا من هذه الهزيمة نقطة انطلاق إلى النصر ، وأعدم مع أربعة من رفاقه قبل زيارة لريتشارد نيكسون إلى إيران بيومين . (٣٩)

وتقدم أسرة رضائى خير مثال على تربية المجاهدين ، وتضم عدداً من الاخوة هم : أحمد رضائى و مهدى رضائى ورضا رضائى وأبو القاسم رضائى وصديقة رضائى ، خمسة من الأخوة فقدوا حياتهم واحداً بعد الآخر على يد نظام من أعتى النظم التى عرفها التاريخ . كان أحمد رضائى من مؤسسى المجاهدين ، وفجر نفسه وسط مهاجميه فى أواخر سنة ٧١ ، أما مهدى فقد انضم إلى المنظمة فى سن صغيرة عن طريق أخويه : أحمد ورضا وقبض عليه فى خرداد ٥١ (يونيه ٧٢) فى إحدى عمليات الشوارع واستشهد فى شهريور ٥١ (سبتمبر ٧٢) وله تفسير لخطبة الجهاد للامام على ، أما الأخ الثالث رضا فقد انضم إلى المنظمة منذ إنشائها وفى سنة ٧٠ انضم إلى المقاومة الفلسطينية حيث شارك إلى جوارها فى القتال فى مذابح أيلول الأسود ، وعاد بعدها إلى إيران حيث مارس العمل السرى تحت ستار عمله الأصلى كطالب فى كلية طب الأسنان ، وسقط فى الهجوم الشامل فى شهريور ٥٠ (سبتمبر ٧١) ثم هرب من سجنه وأخذ فى فضح الشاه ونظامه فى خطاباته المتتالية إلى أسرته وإلى الصحافة العالمية وقتل بالمصادفة فى واحد من اشتباكات الشوارع سنة ٧٣ وله كتاب عن ثورة الحسين بن على ، وعندما نقل خبر استشهاده إلى أمه وكان ثالث إبن يقتل لها فى النضال ردت : « **إننى أرى العشرات من أمثال رضا لا يزالون فى صراع مع النظام ، كان الله ظهيراً لهم وفى عونهم ،**

جاهدوا فى المحافظة على أنفسكم .. ولا تقلقوا على .. إن الأمر لايهم » وردت على عزاء آخر : « **... وماذا فى الأمر لا يزال عندى رابع** » ولم يلبث الرابع أن سقط فى قبضة الساواك ، أما صدّيقة فقد انتحرت بالسيانور عندما سقطت فى قبضة الساواك . إن أسرة رضائى ليست فى حاجة إلى اشارة فى كتاب بل فى حاجة إلى كتاب كامل ، إنها مثال حقيقى على الأسرة التى قدمت خمسة من الضحايا كان لهم فضل عظيم فى انتصار هذه الثورة ، الذى يعد البعد الأعظم فيها هو الإنسان ، الإنسان الذى قدم تضحيته ومضى . (٤٠)

والنموذج الإنسانى الآخر من نماذج شهداء منظمة المجاهدين يتمثل فى سيرة الشهيدة محبوبة متحدين ، ولدت سنة ١٩٤٠ ، كان والدها كاظم متحدين من تلاميذ محمد تقى شريعتى وشريكه فى « جمعية نشر الحقائق الإسلامية » ، جاهدت فى حركة تنقية المذهب الشيعى مما لحقه من شوائب ، ثم دخلت كلية الفنون الجميلة حيث اصطدمت بكثير من الأساتذة بسبب الجو الغربى الذى كان يسيطر على الكلية ، وظلت على كفاحها النظرى حتى حضرت دروس على شريعتى فى حسينية الارشاد فانضمت إلى المجاهدين وتزوجت من حسن آلاد بوش أحد المجاهدين على مهر عبارة عن مصحف قرآن واشتغلت مدرسة فى مدرسة ابتدائية مع المجاهدات سيمين تاج حريرى وسرور آلاد بوش ، ثم سجنت فترة هى وزوجها وتعرضا للتعذيب بتهمة توزيع بعض المنشورات ، وبالرغم من نجاحها فى إحدى المسابقات المعمارية هى وزوجها للسفر إلى الخارج إلا أنهما منعا من الخروج ، ثم انفصلا عن المجتمع وعاشا معيشة سرية ، وقبض على زوجها بعد حادثة اغتيال المستشارين الأمريكيين الثلاثة فى طهران (أغسطس ٧٦) وأعدم ، وفى بهمن ٥٥ (أول ٧٧) تعرف الساواك على مخبئها وحاصره حيث قتلها هى ورفيقة لها فى الكفاح (٤١) . هذا النموذج الرائع العظيم نتعفف هنا عن نقل بعض ما كتب عنها فى صحف النظام بعد استشهادها .

كانت منظمة المجاهدين تضم عدداً من أنبغ الشباب الذين أنجبتهم إيران ، فمن النادر أن نصادف طالباً عادياً أو موظفاً عادياً أو مهندساً عادياً ، كان بعض

المجاهدين بالرغم من انعدام خبرتهم يدوخون جهاز الساواك الذى يضم خبراء أمريكيين وإسرائيليين ، وكان للمنظمة مخابراتها الخاصة التى تتبع عملاء الساواك وتكشفهم أمام الشعب ، واستطاع محمود عسكريزاده مسئول تبريز وعضو اللجنة المركزية أن يكشف النقاب عن هوية حوالى ١٣٠٠ من عملاء الساواك ، وكان سعيد محسن يعبىء القوى فى الجنوب الإيرانى تحت سمع النظام وبصره ، أما عبد الرسول مشكين فام الذى تعلم حرب العصابات فى كردستان فقد كتب كتاباً عن تأثير قرارات الثورة البيضاء فى الريف أثبتت الأيام صحة كل ما جاء فيه ، وشارك فى وضع البرنامج الاجتماعى للمنظمة وانضم أيضاً إلى المقاومة الفلسطينية وسقط مع محمد جنيف نزاد وأعدم معه ، وكانت تحركات المجاهدين تذهل النظام ومع كل هذا التضييق والاختناق ومعاهدات تسليم المجرمين (؟) ، كان المجاهدون يتحركون بحرية ، وفى الطريق من إيران إلى فلسطين سقط محمود شامخى فى السجن فى دبى ، وعند ترحيله مع بعض رفاقه إلى إيران ، اختطفوا الطائرة وأرغموها على الهبوط فى بغداد ومنها انتقلوا إلى فلسطين المحتلة ، وبعد انتهاء تدريبه عاد وعمل فى برنامج التعرف على المجتمع ، وفى وضع برنامج بناء الذات ، وفى أواخر شهريور ٥١ (سبتمبر ٧٢) فى اشتباك مسلح واستشهد تحت التعذيب .(٤٢)

ويمكن أن نجد نموذجاً لبرنامج المجاهدين وفكرهم فى كتاب « شناخت : المعرفة » الذى وضعه محمد حنيف نزاد بالاشتراك مع عدد من المجاهدين . وتتصدر الكتاب عبارة الحسين بن على « إن الحياة عقيدة وجهاد » ، ويركز على أهمية المعرفة من أجل تحديد الاتجاه ، ومن أهم نقاط المعرفة معرفة نقاط الضعف فى الذات ونقاط الضعف فى الحركات السابقة الفاشلة (درس المجاهدون حركة الإخوان المسلمين فى مصر) ، وفى القضايا الاجتماعية ينبغى أن نصل إلى التحليل الصحيح حتى نصل إلى الحلول الصحيحة ، وينبغى أن تشخص المعايير من نتائجها فى الوصول إلى الأهداف لا من شدة نبرتها وحماسها ، والأركان الأصلية للمعرفة العلمية إدراك أن المعرفة تعد انعكاساً لما يحدث فى المجتمع فى أذهاننا ، وتكمن دينامية المعرفة فى معرفة مبادىء التغيير والحركة ، وارتباط التغيرات ببعضها (الفرد والمجتمع والشكل والمحتوى)

وعلى هذا الأساس لا يمكن لنظام غير قومي المحتوى أن يؤسس تشكيلات ومؤسسات وطنية وقومية ، ومن نفس هذا المنطلق فإن الصعوبات التى تواجه النضال هى التى توجه هذا النضال نحو نضجه ، والنتائج العملية لهذه المبادىء فى المجتمع أنه لا يوجد قوى يكون قوياً على الاطلاق مهما كانت قوته ، ولا يوجد ضعيف يكون ضعيفاً على الاطلاق مهما كان ضعفه . والدليل على ذلك النظام الموجود فهو بالرغم من قوته الظاهرة يحمل بذور ضعفه فى داخله ، والتناقضات الداخلية كما تهدد النظام تهدد أيضاً المجاهدين ، فبالرغم من التناسق الشكلى فى جماعات المجاهدين إلا أن كل فرد يحتوى على تناقضاته الداخلية ، ولا يمكن التغلب على هذه التناقضات الداخلية إلا بتربية الذات ، فلكل تناقض عكسه ، ومن هنا فالتناقضات الموجودة فى إيران لا يمكن حلها إلا بحلول موجودة فى إيران ، وينبغى أن تحدد مسيرة الجهاد على أساس من تحليل علمى للظروف العينية والتاريخية لمجتمع إيران ، أما القضايا الخاصة فينبغى حلها بعد بحث الظروف الفردية التى لا يمكن إغفالها ، وإلا سقطنا فى الدوجماتية التى تضع الحلول على الورق ثم تجاهد فى تنفيذها.

بل ينبغى هنا اللجوء إلى الحل الإسلامى مع مراعاة لمبدأ الاجتهاد ، وهو المبدأ الذى يمكن أن يواجه الحالات الفردية الناشئة ، وعدم رعاية الإسلام فى زماننا نابع من إهمال هذا المبدأ . وفكرة التناقض والتضاد هنا فسرها البعض على أساس أنها الجدلية الماركسية فى حين أن الفكرة إسلامية وردت فى أعمال صدر الدين الشيرازى من فلاسفة القرن الحادى عشر الهجرى الذى قال : لولا التضاد ما صح حدوث الحادث . وكل أفكار المجاهدين التى حاول البعض تفسيرها على أساس ماركسى ومن ثم اتهموا المجاهدين بأنها منظمة إسلامية ذات جذور ماركسية نابعة عندهم من الكتاب والسنة ونصوص من نهج البلاغة وردت بنصها فى هوامش كتاب المعرفة .

ومن مبادىء المعرفة الحقيقية : ترك التغييرات الكمية إلى التغييرات الكيفية ، فالتغييرات تحدث فى البداية بالكم ثم تنضج فى المجتمع بعد ذلك وتتحول إلى تغييرات كيفية ، أى أن التغيير يحدث أولا فى الشكل ، ثم يؤدى إلى ظهور تناقض جديد ولا يؤدى إلى ظهور ظاهرة جديدة إلا بعد التغيير الكيفى . وعلى

أساس هذه القاعدة ينبغي أن توضع مراحل النضال الإيرانى موضع البحث ، فلا نتحدث عن وجود مرحلة جديدة إلا إذا كنا قد توصلنا إلى ظهور ظاهرة جديدة ، ذلك أننا إذا أردنا أن نحول الفرد إلى ثورى فى يوم وليلة فلن نصل إلى نتيجة إلا الإحباط الكامل ، ولاتتأتى النجرآة فى العمل دفعة واحدة ، والحروب الثورية تبدأ من الصفر ، ولايمكن بالطبع تحويل الرؤية الذهنية عند الفرد دفعة واحدة ، ولم تكن توبة الحر بن يزيد نتيجة ليوم عاشوراء فقط ولابد أن صراعا نفسيا قد أحتدم فى نفسه قبل عاشوراء بعدة شهور ، وينبغى مواصلة التغييرات الكمية حتى لانغفل عن التغييرات الكيفية . والظواهر تتغير كما ثم كيفا فى حالة إلغاء ثم إلغاء أى إلغاء الشكل القديم للظاهرة أولا وتحويلها إلى شكل جديد ثم تتحول بعدها إلى ظاهرة جديدة ، وعندما يدخل فرد ما إحدى المنظمات يثق فى تشكيلاتها وبعد فترة تقل ثقته نتيجة لمشاهدة مظاهر تبدو له غير صحيحة ، ثم يحل الشك محل الثقة وهذا الشك فى حد ذاته يدفعه إلى مزيد من البحث والتقصى ، وبعد فترة تبدأ الثقة تحل نفسه من جديد ، الفرق أن ثقته فى منظمته هذه المرة تختلف عن ثقته فى المرة الأولى ، وتكون أكثر منطقية وأكثر وعياً .

وتتحقق المعرفة الدينامية فى عدة مراحل : فهى فى البداية حسية (عن طريق العمل) ثم تأخذ صورة عقلية (النظرية) ثم تتحقق صحة هذه المعرفة العقلية أو سقمها فى العمل والتجربة ، وفى المرحلة الرابعة تتحول المعرفة إلى قانون ، ولا تتحقق هذه المعرفة إلا بالاحتكاك بالعالم الخارجى ، ولكل فرد نبوغ خاص على منظمته أن تنميه فيه حتى لا يكون وسيلة للغرور ، ولادراك قوانين أى شىء ينبغى دراسته والحياة فيه ، ولادراك قوانين النضال ينبغى أن يبدأ النضال ، وعلى كل فرد أن يحدد صلاحياته ، ففاقد الشىء لا يعطيه ، وفى الأحكام لا ينبغى أن نستند على رأى فرد واحد فمن الممكن للفرد أن يخطىء . كما أن الثقة الزائدة عن الحد فى الوقوف عند مرحلة المعرفة الحسية يؤدى إلى مخاطر كثيرة ، ويزيد من المغرورين فى عداد المجاهدين ، وسوف يتوقع المغرور أن كل من يقابله مستعد لتنفيذ ما يطلب منه ، ومن هنا تأتى المعرفة العقلية بعد المعرفة التجريبية ومن كثرة التجارب نستطيع أن نخرج بتصور كلى وهو المعرفة العقلية ، ومن هنا ينبغى علينا جمع أكبر قدر من المعلومات الممكنة عن أى

موضوع نواجهه فهو حصيلة التجارب ، وهى أيضاً مجموعة التصورات العقلية ، ومسيرة النضال التى تجمع نتيجة لمعلومات خاطئة ليس لها من نتيجة إلا الهزيمة ، وما يبث الفرقة داخل منظمة ما هو أن يقوم أعضاؤها بالحكم كل على الآخر بشكل ذهنى ولا يصبر فى حكمه عليه ، فيكون الحكم الخطأ وتكون الفرقة . وتفسيرات كل فرد التى تنعكس فى داخله هى التى تحدد نظرته إلى الأمور ، **ومن ثم فإن الطهارة الثورية تعني تحديد الهدف والصدق فى الهدف وتناسق الظاهر مع الباطن تناسقاً تاماً . (٤٣) والقضايا التى أثيرت ونوقشت فى هذا الكتاب وغيره من الكتب التى صدرت عن المجاهدين مثل التوحيد وأبعاده والعدالة والإمامة والقيامة من وجهة النظر الشمولية التوحيدية ودروس من نهج البلاغة والعديد من تفاسير سور القرآن الكريم والنهضة الحسينية وغيرها قضايا أثيرت بين المنظمات الفدائية كثيرا ، لكن الجديد هنا هو ربطها بالإسلام ربطاً محكماً ، فلا تكاد توجد فكرة واحدة لم توثق بآية قرآنية أو حديث نبوى أو قول للإمام على أو بقية الأئمة ، ومن ثم كان التنظيم والأيديولوجية يسيران جنباً إلى جنب ، وكما رأينا كان معظم كبار أعضاء منظمة المجاهدين من مؤلفى الكتب .**

ويحتوى دفاع الشهيد سعيد محسن أمام المحكمة العسكرية التى شكلت لمحاكمته على كثير من مبادىء المجاهدين وآرائهم فى السياسة والأقتصاد ، ومن أهم النقاط التى وردت فى هذا الكتاب « مشروعية الكفاح المسلح » ، ويرى سعيد محسن أن هذه المشروعية واردة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفا » ، إن النظام هو الذى توسل بالسلاح أولاً ، وفتح النار على عمال القمائن والمحاجر ، ثم على المتظاهرين العزل فى ١٥ خرداد ثم على عمال منطقة الكرج ، وإذا كانت الحكومة قد بدأت بالضرب والفتك فالواجب على كل مسلم أن يحاربها مصداقا لقوله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » ، ثم يطعن الشهيد فى صلاحية المحكمة العسكرية ، فإذا كان هناك قانون بالفعل يحكم الدولة فلماذا المحاكم العسكرية ذات الأبواب المغلقة ،

وإذا كان النظام على حق فلماذا غلق الأبواب ؟ ويحلل الشهيد عدم مشروعية النظام ، إنه نظام غير شرعي وثب على الحكم على أسنة حراب الأجانب ، ويعتمد فى بقائه على قوة الأجانب ، ويسأل هذا السؤال : لماذا نؤمن بشرعية الثورة المسلحة ؟ ويجيب : إن للثورة المسلحة هدفين : القضاء على النظام الاستبدادى وإقامة نظام جديد يحقق للأمة المساواة فى الحقوق والعدالة الاجتماعية ، ويتناول تاريخ النظام وقمعه للأمة فى جميع المراحل ، ثم يتحدث عن مفاسده الاقتصادية وكيف أنه يسر للأجانب فرصة امتصاص دماء الشعب الإيرانى ويقدم أسس تجريم النظام خارجياً وداخلياً . ومن أهمها العلاقة المريبة للنظام مع إسرائيل وكيف أن النظام اشترك بطائراته فى حرب ٦٧ ضد العرب وفى مذابح أيلول الأسود ضد الفلسطينيين

وينقل صوراً من البيئات الدنيا التى عايشها والواقع الأليم الذى تعيشه نتيجة لما سمى بالثورة البيضاء ، ويروى قصصاً مدعمة بمصادر النظام نفسه عن مدى سيطرة الأمريكيين الذين كانوا يمنعون حتى الوزراء من تنفيذ أوامر الشاه إلا بتصديق من المستشارين الأمريكيين ، ويسأل الحكومة متهكماً : إذا كان نظامكم متحضراً فلماذا الخوف من دعوة الناس إلى الثورة المسلحة ؟ ولماذا يقدم الناس على الثورة المسلحة على ما فيها من مخاطر ؟ ويجيب : ... **أجل إن حمل السلاح هو من أجل الدفاع عن شرف الإنسان ، إن العامل يحمل السلاح عندما تتهدد حياته ويتهدد شرفه .. وهل يمكن أن يجد النظام فرداً واحداً من الجماعة التى تضم مائة وخمسة وسبعين فرداً يستطيع أن يسند إليه تهمة واحدة تمس حياته العملية والشخصية ؟** ثم : من أحق بالمحاكمة ؟ أهم أولئك الذين يفتحون النار على العزل أم أولئك الذين يدافعون عن الناس ويعبئون الناس من أجل مصلحة الناس لا من أجل خدمة طبقة معينة ؟ هل الذين يحملون البنادق للدفاع عن أنفسهم وعن ذويهم أحق بالمحاكمة أم أولئك الذين يوجهون أسلحة البنتاجون إلى صدور الشعب ؟ ثم : هل منحت الحكومة فرصة لحل آخر ؟ هل حاولت الجلوس مع الخارجين عليها ومناقشتهم ومقارعتهم الحجة بالحجة ؟ أبداً ... ويقول : **إن خلاصة القضية أنكم المجرمون الحقيقيون لسنا نحن ، ثم إن النظام المتعفن قد قضى مدته وعصره التاريخى ونحن مسئولون عن التعجيل بنهايته** وذلك عن طريق تغيير ما بالإنسان ثم تعبئة البشر ضد النظام ،

إن النظام هو المسئول ، هو الذى دفع الناس إلى الثورة بعد أن أفقرهم فالفقر هو المسئول عن الثورة ... « **قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون** » .. الخلاصة أن الطبقات المطحونة قد وصلت إلى مرحلة الكفاح المسلح لثلاثة أسباب : إن ظواهر التاريخ وتحليل الماضى فى أذهان الناس أبدت عدم جدوى المقاومة التقليدية كما أن تجربة فلسطين وفيتنام قد أكدت للناس هذا الأمر ، ثانياً : أنه عندما يجد الكادح أنه عندما يطالب سلميا بحقوقه يواجه برصاص الرشاشات الأمريكية تنطلق فى صدره من الجيش والبوليس والساواك فإنه لا يجد بدا من الدفاع عن نفسه **ومن ثم فإن النظام هو المسئول عن تحويل الصمت والمقاومة السلبية إلى استعداد وتعبئة** ، ثالثاً : عندما ينظر المرء إلى فقره الشديد ، وإلى ما يسمى بالمنزل مجازا ثم ينظر إلى حياة الآخرين وإلى متعهم ولهوهم ويحس أن فقره الشديد هو السبب فى غناهم فلن تكون أمامه فرصة إلا أن يجاهد لأخذ حقه والحق معه فى أن يتوسل بالوسيلة التى يجدها مناسبة لمواجهة النظام الذى يخرج عليه . ويختم دفاعه : **أجل ... من أجل هذا ثرنا ، ثرنا لنخلق عالماً تنعدم فيه كل مظاهر استغلال الإنسان للإنسان ، وهذا الهدف لا يعرف مكاناً ولا يعرف زماناً ، إيران أو فلسطين أو فيتنام أو أمريكا اللاتينية أو أفريقيا أو حيثما يكون ، اليوم أو غداً وأنى وحيثما تراق دماؤنا على الأرض فسوف تثمر آمالنا ، سواء علينا أن نموت إلى جوار فدائيى فلسطين أو مقاتلى فيتنام أو الأخوة فى سياهكل أو ميدان الإعدام فى سبيل تحقيق هذا الهدف فنحن فى مجتمعنا نواجه عدوا يظهر فى سحنة الإمبريالية الطبقة الحاكمة للرأسمالية العالمية والنظام البوليسى العسكرى للشاهنشاه ، ونحن مضطرون إلى اللجوء إلى أسلحتنا للقضاء على هذا النظام . . وأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال** » (٤٤) .

أما استراتيجية المجاهدين فى المقاومة العسكرية فنستطيع أن نتعرف عليها من خلال النشرة التى أصدرها المجاهدون تحت عنوان : « المقاومة الشاملة : مقاومت همه جانبه » ، ولأن إيران فى نظر المجاهدين تحت

الاحتلال فان هذه النشرات تصدر فى الأصل لرفع مستوى المعرفة العسكرية عند عموم الشعب ، لأن مسئولية كل فرد هى الوقوف فى وجه هذا الاحتلال والقضاء عليه ، ويقدم الكتاب خلاصة لتجارب حروب العصابات والمدن ابتداء من الثورة الفرنسية الكبرى إلى الحركات الشعبية فى العصر الحديث أثناء الحرب العالمية الثانية والكفاح ضد النازى وحركة الجيش الجمهورى الأيرلندى والماوماو فى كينيا ، والكتاب وضعه أصلاً جنرال سويسرى فى الحرب العالمية الثانية ثم أعيد طبعه مزيداً سنة ١٩٥٨ . وهو يتناول كل ما يتعلق بحرب العصابات بحيث يقدم قائمة بالأهداف التى ينبغى أن يتجه الهجوم إليها ، وخصوصيات التسليح وتشكيلات وحدات حرب العصابات ، والاستفادة من تجارب الأفراد العاديين الذين لايستطيعون حمل السلاح ، واختيار قادة الوحدات العسكرية والتجهيزات والاستعدادات والتموين والطعام والخدمات الطبية والاتصال بالناس وعبور الطرق وتوصيل الرسائل وإغلاق الطرق أمام العدو والعمليات التخريبية فى الطرق ووسائل تعطيل وسائل النقل وترصدها والهجوم المفاجىء والتخلص من الحراس والهجوم على المخافر ونقط الحراسة وتخريب ووسائل الاتصال والشبكات التليفونية ووسائل الوقود والطاقة والطرق الحديدية والجسور ، ووسائل الهجوم على قاعدة جوية . أما القسم الثانى وهو أهم ما فى الكتاب فيتناول كيفية اشتراك كل الناس فى المقاومة عن طريق تعليمهم كيف يقاومون حيل البوليس السرى والمخابرات وطريقة نشر الأخبار التى يحاول النظام أخفاءها والتكتم عليها ، وطريقة الطبع السرى وتوزيع المنشورات وكيفية كتابة المنشورات بحيث تكون سهلة الفهم ومؤثرة وكيفية كتابة الشعارات على الجدران والطريقة المثلى لذلك وكيفية تمييز أماكن المجاهدين وكيفية توصيل الأخبار ونقلها ، وكيفية مقاومة شبكة معلومات العدو وحسن التصرف عند التفتيش ، والسلوك فى السجن والتعامل مع الحارس . ثم يقدم الكتاب صورة شاملة للمقاومة السلبية ضد عملاء النظام والساواك وكيفية نبذهم وعدم التعامل معهم أو إيذائهم عند الإجبار على التعامل ، ويقدم لكل فئات الشعب على اختلاف أعمالهم الطريقة المثلى لايذاء هذه الفئة . (٤٥)

أما الصورة الإيرانية للمقاومة فنستطيع أن نجد نموذجا لها فى كتيب جلال الدين الفارسى « القوة التنفيذية للمستضعفين : قدرت اجرائى حكومت مستضعفين » ويقدم فى البداية نمط النظام وأسلوبه فى قمع الحركة ووسائل مقاومتها ، فقد لجأ النظام فى المرحلة الأخيرة لتصفية كوادر القيادة فى المنظمات المناضلة ، والوسيلة الجادة لمقاومة هذا الأسلوب هى نشر إرادة الجهاد على أوسع نطاق وذلك عن طريق نشر التراث الإسلامى فى هذا المجال على كافة المستويات بحيث يتمتع كل فرد برؤية إسلامية مهما كان مستواه التعليمى أو الفكرى ، وعلى المجاهدين أن يقرأوا « الفقه السياسى » ، وعليهم فى نفس الوقت أن يدرسوا التجارب الثورية للبشرية ، وهذه هى الوسيلة الوحيدة لمقاومة النظام الطاغوتى فكرياً . (٤٦)

هذا من ناحية ، أما من الناحية العسكرية ، وهى أهم لأن نظام الشاه جاوز كل حد فى القمع العسكرى ، فعلى المجاهدين أن يتجهزوا بالسلاح الخفيف وعليهم ألا يكتفوا بسياسة الدفاع بل عليهم أن ينتقلوا إلى سياسة الهجوم ، لكن عليهم أن يدركوا أن قوى النظام والساواك التى تهاجم الشعب تتكون من أخس الناس وأحقرهم وهم عموماً يتصفون بالجبن والسياسة المثلى مع هؤلاء هى الإعدام الفورى ، أما الشرطة والجيش فبالرغم من أنهما ينفذان أوامر الشاه فهما يحتويان أيضاً على عناصر وطنية وشريفة ومن ثم ينبغى التمييز بين أهل البغى منهم وبين الشرفاء ، وعلى المجاهدين أن يعلموا أن الجيش فى أغلبه من الشعب ، وإن كان قد تحول إلى سلاح للقمع فهذا من فعل الشاه وكبار ضباطه وقادته ، ومن هنا ينبغى الحفاظ على رابطة الأخوة التى تربط بين الجيش والشعب ، أما كبار القادة والضباط الفلبينيين والإسرائيليين والجنود العمانيين الذين يرتدون الزى العسكرى الإيرانى ويهاجمون الشعب ، أو الإيرانيين البهائيين فعلى الشعب أن يقمعهم ويصفيهم . (٤٧)

ويلخص جلال الدين الفارسى وسائل مواجهة النظام فيما يلى : (**وسوف نرى أنها طبقت بحذافيرها فى أحداث العام الدامى**) : توسيع نطاق المظاهرات السياسية فى المدن لكن إلى الحد الذى لا يعرض أرواح المواطنين للخطر وتشجيع الاضرابات خاصة فى الميادين التى تخل بنظام النهب ، وزيادة

عدد الوحدات المسلحة وتسليحها بالأسلحة الخفيفة والمضادة للدبابات ، ثم (وهذا ما لم يتم) تسليح العشائر والقبائل الوطنية التى عانت خلال الحكم البهلوى واستغلال حركات الكرد وعشائر فارس لتوسيع نطاق الثورة . وبهذه الخطة يمكن تحويل الشعب إلى شعب مسلح بحيث يحرج الجيش وينصرف عن دوره فى العمالة للشاه والأجانب ، وبتسليح العشائر والقبائل والفلاحين ، سوف يضطر الخبراء الأمريكيون إلى توزيع وحدات الجيش على مناطق إيران وهذه فرصة لانضمام الشرفاء منهم إلى الشعب ، كما ينبغى توزيع كتيبات حروب العصابات وطريقة صنع الأسلحة الخفيفة على الشعب فى المدن وتعليمه صنع الفخاخ للأفراد والشاحنات . (٤٨)

هذه هى الخطوط العامة لأيديولوجية منظمة المجاهدين وإنجازاتهم فى مجالى التوعية العسكرية والفكرية ... فما هى أهم إنجازاتهم العملية ؟ الواقع أن المنظمة كانت تعانى على الدوام من نقص فى العناصر البشرية ، كما كانت العمليات السرية يتكتم عليها من قبل النظام ومن قبل المجاهدين أنفسهم ، وأغلب هذه العمليات كانت مباغتة وتستهدف تفجيراً للقنابل فى مناطق غير آهلة بالسكان أو هجمات على البنوك أو مخافر الشرطة أو عمليات اغتيال لعملاء الساواك وكبار ضباطه والخبراء الأمريكيين خاصة فى الميدانين العسكرى والأمنى . وقد بدأ النشاط العسكرى فى ٨ فبراير سنة ١٩٧١ بالعملية التى سميت عملية سياهكل وهى إسم القرية التى يقع فيها مخفر الشرطة الذى هوجم فى شمال إيران ، ولا تزال الهوية الفكرية للمجموعة التى قامت بالعملية محل أخذ ورد ، فبينما يرى المجاهدون أنها أولى عملياتهم ينازعهم الفدائيون أى الجناح اليسارى هذا الشرف ، وهذا النزاع لم يظهر إلا بعد نجاح الثورة وغلبة الوجه الإسلامى .. ولا نستطيع فى هذا المجال أن نجزم برأى . وفى ربيع ١٩٧١ تمت عملية مشابهة أى هجمة على مخفر البوليس فى « قلهك » بالقرب من طهران ، ويجزم هوليداى وهو من اليسار الجديد أن العمليتين من فعل الفدائيين ، وكان من نتيجة العمليتين أن استقدمت الحكومة خبيراً أمريكياً فى المخابرات هو ريتشارد هيلمز نظم حملة ضد الفدائيين كشف فيها معظم الخلايا التابعة للمجاهدين أيضاً (٤٩) ، وكان من الواضح أن التعاون كان وثيقاً بين المنظمتين فى هذه المرحلة ، واتضح أخيراً أن الفدائيين كانوا يوقعون

بالمجاهدين فداء لهم وتجلت هذه السياسة فى انقلاب المنافقين وسوف نتناوله بالتفصيل فى الفصل التالى .

وبالرغم من التنظيم الجيد للمجاهدين إلا أن العمليات التى قاموا بها جد قليلة ، فضلاً عن أنها فى مجموعها لم تكن ناجحة تماماً ، بمعنى أن الانسحاب بعد التنفيذ لم يكن يتم على الوجه الأكمل دائماً ، بل غالباً ما كان يسقط ضحايا ، وبالرغم من التعذيب الشديد الذى كان الأسرى يتعرضون له ، لم يكن أحد يعترف بأسماء رفاقه ، ومع ذلك لم تكن تمر بضعة أيام حتى يسقط كل أفراد الخلية ، وكان المجاهدون يردون هذا الأمر إلى أسباب داخلية منها ما يتعلق بأفراد يتسللون دون أن يكون عندهم إيمان بنفس الأفكار ، أو الانهيار الذى يصيب الناس بمجرد رؤيتهم لعملاء الساواك يدخلون أحد الأحياء للبحث عن مجاهد مختبىء ، **هذا إلى جوار أن جهاز الساواك كان يقوم بالتصفية الجسدية الفورية ، ومعظم الشهداء سقطوا فى الشوارع** بينما كان يمكن إصابتهم فى أقدامهم ومنعهم من الهرب ومعظم الذين سقطوا أحياء فى أيدى الساواك ولم يسعدهم الحظ بالانتحار كانوا فى حالة أقرب إلى الموت ، ومن ثم كانوا ينتهون فى السجون ، وحتى أولئك الذين كانوا يصمدون ، كان التعذيب يفقدهم البقية الباقية من وجودهم ، فإذا نجا أحدهم من كل هذه المراحل ، كان يعدم ثم يقال انه قتل أثناء الهرب .

والظاهرة التى تثير الحيرة أن المجاهدين لم يكونوا يسقطون فرادى بل كانوا عادة يسقطون فى مجموعات كبيرة ، ولا بد أن للخلل التنظيمى أو التسلل دخلاً فى هذا الأمر ، ففى هجمة قبيل احتفالات الامبراطورية سقط فيها حوالى خمسون عضواً ولم تكن تمر مناسبة دون هجمة من هذا القبيل ، فقد سقط ثلاثون فى هجمة واحدة سنة ١٩٧٢ وفى سنة ٧٥ قبض على عشرة دفعة واحدة أعدم سبعة منهم .

وقبل أية زيارة لمسئول أمريكى كان الفتك بالمجاهدين يزداد ، وكان عادة ما يسبقه مسئولو الأمن الأمريكيون يقومون بتمشيط إيران والقبض على المجاهدين ، وبعد اغتيال المستشارين الأمريكيين الثلاثة فى أغسطس ٧٦ قامت

هجمة أخرى وفيها قبض على حسن آلاد بوش وهو من كبار مؤسسى المجاهدين وعلى بعض رفاقه وأعدموا ، كما قتلت أخته سرور آلاد بوش وزوجته محبوبه متحدين فى هجمة أخرى .. وفى صيف ١٩٧٥ قبض على جماعة فى مشهد اتهمت بالهجوم على مركز للبوليس وقتل ٥٥ فرداً وتراوحت الأحكام عليهم بين الإعدام والسجن المؤبد ، وأفاضت الصحف (كنت فى ايران آنذاك) فى الحديث عن هؤلاء الماركسيين الإسلاميين – وهو اللفظ الذى أطلقه الشاه عليهم ليجمع المعارضة كلها فى تعبير واحد – وعن الحياة الإباحية التى كانوا يعيشونها ، وحتى الجماعات الأخرى لم تنكر أن فتك النظام بالمجاهدين كان أشد من فتكه بكل الجماعات الأخرى (٥٠) والواقع المر أن كل قيادات المجاهدين كانت قد سقطت بعد الخلاف الذى اشتعل بينها فى أواخر عام ٥٤ (أوائل عام ٧٦) وبعد محاولة الجناح الماركسى للمنظمة جرها كلها إلى الأيديولوجية الماركسية وهو موضوع شديد الغموض سنتناوله فى الفصل التالى .

هذه الإزدواجية فى منظمة المجاهدين بين كوادر القيادة والقاعدة العريضة وكثرة الخلافات فى داخلها كانت السبب الرئيسى فى خسائرها المتتالية وفى نقص القوى البشرية فيها ، كما كانت سبباً فى انفصال جماعات صغيرة عنها وعملها مستقلة فى أنحاء إيران ، ومن ثم كانت هدفاً لتصفيات وحشية من قبل النظام ، ويرجع فشلها إلى قلة التجربة فى حروب العصابات وعدم تطبيق التجارب المكتسبة مع المرحلة الفعلية للثورة وقلة المعرفة بأحوال إيران وعدم تحديد المرحلة الثورية بدقة وعدم وجود اتحاد نضالى بين الجماعات ونقص الأسلحة ، وأهم من كل هذا العجلة فى تنفيذ العمليات دون استعداد كاف ، والحماس الشديد ، والخوف الذى كان ينتاب الناس فلا يمدون إليهم يد المساعدة .

من الجماعات الإسلامية الصغيرة : جماعة أبى ذر وقد شكلت فى نهاوند وقامت ببعض العمليات منها حرق سينما تاج والمنظمة النسائية فى نهاوند وحرق عربة للبوليس وهيئة الإصلاح الزراعى والهجوم على بنك صادرات والإستيلاء على أمواله والهجوم على قسمى شرطة والإستيلاء على أسلحتهما ، وسقط

مؤسسوها : عباد الله بهمن خدا رحمي وحجة الله عبدلي وروح الله وماشاء الله وولى الله سيف وولى الله كشفي ومحمود طالبيان وحجة الله آذرماني وعلى رضا كرمي ولم يعترف منهم أحد تحت التعذيب وأعلن النظام عن إعدامهم في بهمن ٥٢ (فبراير ٧٤) .

ومنها أيضاً جماعة الفجر ، وقامت بأعمال فدائية مشابهة لعمليات جماعة أبي ذر ، وجرح أبرز أفرادها وسقط في يد الشرطة ، وكان لها مركز في الشمال الإيراني ، وعندما حوصرت كل طرق الشمال عادوا إلى طهران سيراً على الأقدام ، وكان مركزهم في طهران مراقباً فقبض عليهم جميعاً وأعدموا في بهمن ٥٤ (فبراير ٧٦) .

ومنها جماعة المهدويين وكان مركز نشاطها في خراسان ومشهد ، كما كانت مسئولة عن التعبئة الشعبية في مواسم زيارة الإمام الرضا في مشهد ، وانضمت فيما بعد إلى المجاهدين ، وليس بين أيدينا معلومات أخرى عن تشكيلاتها أو العمليات التي قامت بها ، كما أن هناك جماعات لا نعرف منها إلا الاسم مثل جماعة فلسطين التي أسسها شكر الله باك نزاد وجماعة إيران الإسلامية وكلتاهما صفيتا في وقت مبكر .

إلى جوار كل هذه الجماعات كانت هناك جماعة أخرى أقوى تشكيلاً وتنظيماً وتأثيراً فهي جماعة علماء الدين المناضلين « روحانيان مبارز » ، وقد تأسست من بين علماء الدين المؤمنين بآية الله الخميني ، وكان معظمهم ممن تتلمذوا عليه في المدرسة الفيضية في قم التي اعتبرت فيما بين ٦٣ و ٧٨ مدرسة لتخريج الثوار والفدائيين (٥١) ، وكان من الواضح أن المركز الرئيسي للجماعة في قم ، كما كانت على صلة مباشرة بآية الله الخميني في منفاه ، وكان نشاطها الرئيسي مركزاً في الدعوة الدينية والترصد للنظام الذي كان يظن أن الساحة قد خلت بابعاد آية الله الخميني ، كما كانت هذه الجماعة تقوم بتعميق أصول الفقه السياسي داخل الوطن ، وكان النظام يفاجأ بين الحين والآخر بصوت يعلو من قم عند أي إجراء يظن أنه سيمر مر الكرام ، وعلى هذا النسق اعترض آية الله سعيدي على هجوم رأس المال الأجنبي على إيران ، **ولم تكن كل الاعتراضات لأسباب دينية كما روج النظام** ، وسجن آية الله سعيدي وعذب

حتى الموت ، وبعد مغادرة الإمام الخمينى لإيران كانت هناك أكثر من شخصية دينية تقف للنظام بالمرصاد ولا تألو جهداً فى فضح مساوئه ، وكان آية الله الطالقانى من أبرز هذه الشخصيات وكان من المشهور أنه موضع ثقة من كل عناصر الثورة حتى اليسار ، ومن ثم كان عامل اتحاد عندما كان النظام يحاول أن يضرب الجماعات المناضلة ببعضها ومن هذه الشخصيات آية الله منتظرى الذى قضى سنين طويلة فى سجون النظام ، وآية الله بهشتى وحجة الإسلام الدكتور محمد مفتح ، كل هؤلاء أدركوا أن الثورة ليست بالخطابة والكتابة فقط ، بل جاهد كل منهم بلسانه وقلمه وسلاحه ، وفى أواسط السبعينات أدرك النظام المنبع الحقيقى للثورة ، فكانت القوائم التى تنشرها نشرات المجاهدين بأسماء علماء الدين الذين يتعرضون للإبعاد إلى قرى إيران النائية أو يلقى بهم فى السجون أو يمنعون من المنابر تزداد يوماً بعد يوم ، (٥٢) وكان النظام لا يكتفى بالإبعاد أو السجن بل وفى اليوم التالى تماماً كان يغلق المسجد أو الحسينية التى كان الشيخ المنفى يخطب فيها ، وفى رمضان ١٣٩٧ (صيف ٧٧) كان طالقانى وبازركان وعدد آخر من أقطاب الحركة الوطنية يخطبون كل ليلة فى مسجد قباء .. وفجأة أغلق المسجد وحوصر بالجند ، وفى أواخر نفس العام قبض على أكثر من خمسين من علماء الدين كانوا قد عقدوا اجتماعاً لمناقشة الأوضاع . (٥٣)

بالرغم من أن نضال علماء الدين كان سلميا فى مجموعه إلا أنه كان يقدم التكئة المذهبية لجماعات المجاهدين ، وفى بعض الأحيان لم يكن علماء الدين يبخلون على اليسار بالعون والرعاية ، فإذا أضفنا إلى هذا نفوذهم الروحى على مجموع الشعب وأستاذيتهم لآلاف الطلاب إلى جوار حسن التنظيم والتشكيل فلا تخلو قرية فى إيران من شيخ مرتبط بقم ولاتخلو عاصمة إقليم من إمام يرتبط بمجلس الأئمة فى قم ، علمنا أن التشكيل الحقيقى الطبيعى الذى لايمكن لنظام أن يضربه كان موجوداً حقيقة فى علماء الدين ، فإذا أضفنا إلى هذا أن كبار المشايخ والآيات قد خرجوا من القرى والمدن الإقليمية إذ لايقوى على حياة الطلبة الدينيين الخشنة أبناء الطبقة المرفهة ، وفوق كل هذا القيادة الحازمة التى تمثلت فى آية الله الخمينى ، أدركنا لماذا استمرت الحركة بالرغم من شدة

الفتك ، ذلك أن جناح علماء الدين كان قد بقى داخل إيران وخارجها ، ولم يكن النظام ليستطيع أن **يقضى عليه كما فعل بالمجاهدين والفدائيين إلا بخلخلة البنية الدينية فى إيران من أساسها وهذا ما لم يقدم عليه وما لم يكن يستطيعه** ، وعندما أراد الاقتراب منه ، كانت الثورة التى اقتلعته من جذوره ، أجل : كان جناح علماء الدين بتشكيله الطبيعى المنبث فى أنحاء إيران وتراثه الذى يمتد إلى أكثر من ألف عام هو الضمان الوحيد لمسير الثورة بعد أن قام النظامُ بكل وحشية بتصفية جناح المجاهدين ، أما الجناح اليسارى فقد كان له تاريخ آخر ودور آخر ومصير آخر نتناوله فى الفصل التالى .



الفصل الثانى

اليسار الإيرانى

« لنعترف أيضاً بأن للإتحاد السوفيتى
مصالح فى إيران تتعلق بأمنه »

احسان طبرى
أحد أقطاب حزب توده

يعد دور الجناح اليسارى فى نضال الشعب الإيرانى والتمهيد للثورة دوراً يتسم بالغموض الشديد ، وعلينا ألا ننسى فى هذا المجال أن الثورة التى انتصرت بالفعل ذات وجه إسلامى ، وعادة ما يحاول الجناح الغالب أن « يتكتم » على أدوار بقية القوى والأجنحة أو يقلل من حجم دورها ما أمكن ، وبينما نجد هجوماً شديداً من الجناح الإسلامى على بعض أجنحة اليسار الإيرانى ، واتهاماً لها بالخيانة نجد بعض « التفاهم » مع أجنحة أخرى من هذا اليسار لا شك أنه تفاهم « مرحلى » عند كلا الطرفين . **لكن ينبغى فى البداية أن نذكر حقيقة هامة وهى أن الجناح اليسارى فى إيران بكل فروعه يعد « كما » نسبة لا تذكر فى مجموع الشعب الإيرانى ، وأغلب المصادر حتى الأوروبية اليسارية لا تكاد تصل بتعداد المنضمين إلى حزب توده الممثل التقليدى لليسار الإيرانى فى قمة مده « أى منتصف الأربعينات » إلى نصف المليون ، وهو الرقم الذى يقدمه حزب توده نفسه ، ولا شك أن مجموعة كبيرة جداً ممن حسبهم الحزب ضمن أعضائه كانوا من المثقفين الليبراليين ومن أعضاء النقابات العمالية الذين يتفقون مع توده فى الهدف دون اتفاق معه فى المبدأ** ، كما أن عدد النواب الذين دخلوا المجلس عن حزب توده بعد انتخابات سنة ١٩٤٥

وهى من أكثر الانتخابات حرية فى تاريخ إيران « حرية نسبية بالطبع » لا يزيدون عن ثمانية أعضاء ، هذا وقوات الجيش الأحمر متمركزة فى الشمال الإيرانى(٥٤) .

وقبيل الثورة كانت الشعارات التى تغطى إيران وتنادى بمحاربة الامبريالية ورأس المال الأجنبى والاستعمار توحى للمراقبين عديمى الخبرة والجهلة بواقع إيران أن الثورة ذات وجه يسارى بالفعل ، وهذا خطأ بشع إذ أن أمثال هذه الشعارات لم تعد حكراً على اليسار ، كما يخطىء الكثيرون الذين يصورون أن العداء الشديد للثورة الإيرانية تجاه أمريكا يؤكد أن الثورة منجذبة نحو الكتلة الشرقية ، وهذه نظرة أمريكية لا تتصور ولا تستطيع أن تتصور أن تظهر فى هذا العالم الذى تسيطر عليه قوتان كبيرتان قوة ما تعادى القوتين معاً .

ويتفق الباحثون الإيرانيون (حتى الإسلاميون منهم) أن حزب توده ، كان فى وقت من الأوقات أقوى الأحزاب السياسية فى إيران ، بل واحتكر أكبر الاستعدادات الموجودة فى الوطن.. ولسنا هنا بصدد مناقشة قضية خيانة « توده » فهى قضية أكبر من أن تناقش حالياً ، خاصة وأن جناح اليسار يكاد يلتزم الصمت تجاه الاتهامات التى تنهال عليه من كل جانب ، إلا أننا لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من مناقشة « الفشل » الذى منى به حزب توده ، فهذا الفشل واضح للعيان ، وهو فشل مزدوج بدأ بالتكتيك الذى بدأ به الحزب وانتهى إلى السياسة العامة ، ثم سقط فيما بعد سقوطاً ذريعاً مع سقوط حركة مصدق ، وكثر المنشقون عن الحزب الذين كانوا أكثر عداء له من كل الأجنحة المضادة مجتمعة فى السنوات الأخيرة حيث فوجئت الساحة الإيرانية بكثير من الأعضاء المشاهير جداً فى توده يعقدون حلفا مع الشيطان لتصفية الحركة الإسلامية ، ولنفصل القول :

أما فيما يختص بالتكتيك وأسلوب العمل فقد فصل الدكتور على شريعتى الحديث عنه فى كتابه « العودة إلى الذات » ، وأنا حريص هنا على نقل هذا النص بالرغم من طوله خاصة وأن على شريعتى لم يسلم من بعض ماركسيى

المكاتب والمناقشات الذين صنفوه فى الجناح اليسارى (٥٥) يقول : « .... أجل كان أفراد هذا الجناح الثورى التقدمى الطليعى مفكرين مستنيرين بالفعل ، وكانوا يعلمون أن لعبة العصرية والرقى غير صناعة الحضارة ، وأن التحضر يعنى موت الاستعمار فى كل صوره العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية ، أما العصرية فتعنى لحما جديدا لذئب الرأسمالية الأوربية ، كانوا يعلمون أن المتفرنج يعنى شبه الأوربى ويعنى أيضاً شبه الإنسان الذى أخلى الأوربى باطنه من المحتوى الإنسانى والفكرى والشخصية الخلاقة حتى يصير من قمة رأسه إلى أخمص قدمه معدة مفتوحة وحلقاً مفتوحاً للمنتجات الصناعية الحديثة فى أوربا ... كان أعضاء هذا الجناح يعلمون أن طريق فلاح هذا الشعب وخلاصه ليس فى البدء باقامة التكايا أو إنشاد الروضة أو التعزية أو القيام بالتمثيليات التى تصور مصائب آل البيت كما يقول - أشباه المتدينين السلفيين - ولا بمتابعة الألاعيب الأوربية والمظاهر التى يقوم بها - أشباه المتحضرين العصريين - وكانوا على وعى من أنه ينبغى أن يجتث الفساد من جذوره ، وأنه ينبغى أن يسلك طريقا واقعيا للنجاة والتحرر ، وأنه ينبغى تحديد الهدف الحقيقى من الرقى الاجتماعى ، حسنا : ماذا كان هدف هجومهم ؟ كان الهدف هو الاستعمار الأجنبى والاستبداد السياسى والاستغلال الداخلى وبمعنى أكثر وضوحاً : النفط والشركة الإنجليزية والخانات والملكيات الكبرى والاقطاع المتعفن المتحجر الظالم ، أما مجال الخطاب عندهم فيتمثل فى الفلاحين والعمال وجماعات البروليتاريا وما دون البروليتاريا ... لكنى لا أدرى لماذا قام هؤلاء بالرغم من كل هذا الذكاء والنضج والمعرفة والتجارب التى استمرت مائة سنة بدخول البيوت من غير أبوابها ، أو بالتعبير الشعبى : لماذا أكلوا من خلف أقفيتهم ؟ كانوا يحملون اللقمة جيداً لكن وبجهد ومشقة كانوا يديرونها من أقفيتهم إلى الطرف الآخر من وجوههم ويوصلونها إلى أفواههم ، رأينا إذن أنهم حملوا اللقمة جيداً ، وخلافاً لكل الجماعات الأخرى كانوا يرون أنه ينبغى عليهم وضعها فى أفواههم ، لكن هذا الأسلوب فى التناول المعكوس أو المقلوب أو من اليسار ، تسبب فى أنهم بذلوا كل هذا المجهود وعرقوا وضغطوا على أنفسهم بصورة تهد القوى ولم يبخلوا بأى جهد أو عمل متواصل

وبينما كانت اللقمة اللينة الدسمة الحاضرة لهم ، كانوا يديرونها من خلف رءوسهم ليوصلوها إلى أفواههم من الطرف الآخر ، وكان هناك قط أسود يسير فى ظلمة الليل ويترصد لهم فقفز من الخلف وظفر باللقمة وأكلها وانصرف ... ومن هنا سموا باليسار لكن ليس بمعناه المعهود بل بالمعنى الفارسى « أى معكوس ومقلوب» لا بمعناه فى المصطلح الفرنسى فهؤلاء اليساريون المعادون للاستعمار والامبريالية والاستغلال الطبقى وغيره عندما بدأوا النضال لدعوة الناس ضد الخانات ، كان أول ما فعلوا أن أمسكوا بخناق الله ، واقتصرت دعوتهم على إثبات عدم وجود الله ، ثم وعلى الفور أمسكوا بخناق الروح على أساس أن العلم اليوم لا يعترف بالروح ، وبعدها أمسكوا بتلابيب الرسول والإمام والقرآن وعلى والحسين ثم القومية والأخلاق ، فالدين جاهلية قومية وهو نتيجة جهل البشر بالعلل المادية ، والعلم صعد إلى السماء ولم يجد الله ، وعلم الكيمياء صنع المادة الإلهية ومن ثم لا روح هناك ، والفلسفة العلمية الجديدة ترى أن الدين باطل والإسلام والقيامة ضلال والصوم والصلاة باطلان والرسول والإمام عبث ، والإسلام من صنع العرب والتشيع من تفسير الإيرانيين ، وكله كلام فارغ ، فالأخلاق والشرف والتقوى والعرض والحمية والعفة والحلال والحرام ... الخ كلها مجموعة من التقاليد الاجتماعية وهى نسبية واعتبارية ووليدة المصالح والظروف الطبيعية ، ومقولات الخير والضمير والمقدسات والقيم الروحية والخصائص الإنسانية كلها خرافة ، ولا يوجد شيء مقدس ، وكل الأشياء متغيرة واعتبارية ، أو بتحليل أعمق اقتصادية ومالية .

والخلاصة فان كل ماقدمه أعضاء هذا الجناح اليسارى الطليعى التقدمى أبحاث فلسفية وكلامية من هذا النمط ، وكلها موجهة إلى الفلاح القروى والعامل السوقى فى مشهد وتبريز وأصفهان وقرى إيران ، أنظروا إلى كتبهم التى أرادوا بها للوهلة الأولى إثبات رسالتهم الاجتماعية وقاعدتهم الثورية لشعبنا المسلم ذى الروح الاجتماعية الدينية والحديث إليهم عن طريقها : المادية الجدلية ، العرفان وأصول المادية ، الروح أيضاً مادية ، المدارس الفلسفية فى اليونان القديمة ، الماركسية فى علم اللغة من تأليف الرفيق ستالين ، جدلية التاريخ ، مقدمة فى أصول الفلسفة ... وأمثال هذه المقولات ، والنتيجة ؟ أن

الحكم العام الذى أطلقه قومنا على هذه الجماعة اعتماداً على أعمالها وأفكارها : هؤلاء أناس بلا دين ، أعداء لله والوطن والدين والأخلاق والقيم الروحية وكل المقدسات وكل المفاخر وكل التقاليد ومخربون ويعادون كل المفاخر وكل التقاليد وكل هدفهم أن يأخذوا منا ديننا ويأتون لنا بالالحاد من الخارج عوضاً عنه .. هكذا ، وبناء على تفسير ذلك الخبيث المهذار الذى يفهم العامة جيداً ، وكان أكثر علماً من كل أتباع علم الاجتماع ودعاة الأيديولوجية الشعبية ومدعى الشعبية بنفسية هذا الشعب ولغته ، والذى بلغ به الحال أن فسر كلمة (كمو) بأنها تعنى الله ، ومن ثم فإن كمونيست أى شيوعى بالفارسية تعنى : لا اله ... لاشك أنكم سوف تضحكون من هذا التفسير العامى ، أجل لكم حق ، لكن : أليست الأرضية الأساسية لعملهم والمخاطب الأساسى عندهم هم أولئك العوام ؟ والعوام تعنى الشعب ، تعنى دمو تعنى الفلاح والعامل والأجير والجماعات المتفرقة التى لا رأس لها من قدم ولا نظام فيها ولا تحديد لها ، فضلاً عن أنهم عوام الإيرانيين ، وفى تلك الأيام كان تسعون فى المائة منهم من الفلاحين القرويين ، لا عوام الألمان وتسعون فى المائة منهم من البروليتاريا التى تسكن المدينة ، وهم عوام عصر الاقطاع لا عوام الرأسمالية الصناعية بعد قرنين من عصر النهضة وبعد قرن من الثورة الفرنسية الكبرى وبعد ثلاثة قرون من إحياء الروح القومية وعزل الكنيسة وانزواء الدين من المجتمع ؟ أين أنت أيها المفكر الملتبس عليه ؟ اليسار ؟

ومن هنا فإن ما كان يجرى : أنك عندما كنت تذهب إلى قرية (مؤمن آباد) وترى عيون الشرطى والخان غافلة عنك وتظفر بالفلاحين وهم إلى جوار أكوام محصولاتهم – وإلى هنا وسيرك صحيح – وبعد بضع عبارات تظهر بها معلوماتك الفلسفية وموضوعاتك الفكرية العلمية الأيديولوجية العالية لكى يدركوا أوضاعهم تقوم بتحريضهم وتعبئتهم ، إلا أننا نرى بالفعل أن فلاحيك قد حملوا مناجلهم ومطارقهم وبجلبة وغضب واستنفار أسرعوا خارج مزارعهم ، إنهم يسرعون خلفك وأنت تسرع أمامهم ، وكنا نراك تهرع إلى مخفر الشرطة ، لكن بعد لحظة نتنبه إلى الأمر ، لا ... ان الأمر مقلوب ومعكوس ، إنهم قد تعقبوك ، وأنك خوفاً من أن تمزق إرباً مثل النقانق تحت

ضربات فئوس حميتهم قد ألقيت بنفسك فى المخفر حتى تبقى فى أمان (الأمن) من غضب (الفلاح) ، فمتى وجدت الفرصة لكى تقول لهم إنك عدو الخان وانك عدو الشرطة ؟ ومتى وجد الفلاح الفرصة ليفهم أن إلحادك غير إلحاد إبن الخان العائد من أوربا والذى يغافل أجراء والده ليسكر ويعربد بحرية ؟ هل يمكن فى مجتمع تقليدى وزراعى وشرقى وإسلامى أنك إن بدأت بالله يمكن أن تمنح الفرصة أو تجد المجال لكى تتناول الخان بعد موضوع الله ؟

وهكذا كان من أمر هؤلاء أنهم أضاعوا سنوات الحرب وما بعد الحرب فى وضع الفلسفات والاحتجاجات الكلامية والمجادلات المنطقية والمنازعات العلمية والصراعات السوفسطائية ، جاهدوا فى إزاحة الله من القلوب ولم تكن لديهم الفرصة لإزاحة الخان من القرية ، وقد خدش إيمان الفلاح عندنا فيما يختص بالقرآن والصلاة وعلى ، لكنه لم يع شيئاً عن حقيقة الاستعمار ومعنى الاستغلال وفلسفة فقره وعبوديته ، حقيقة كتب الكتاب وترجم المترجمون المقالات والكتب عن المادية والجدلية وعلم اللغة وحركة التاريخ ودحض نظرية بركلي وخرافة المثالية ونهاية الروح والله وأصول الأخلاق ، لكن من بين مائة ألف أو يزيد من أنواع المجلات التى نشروها هنا باسم الشعب بالفارسية ، لا نشاهد ترجمة لكتاب رأس المال ، ومن هنا لم يبق فى أذهان العوام عنهم إلا ذكرى لحفنة من الملحدين أعداء الله ، ولا يزال مفكرونا على اختلافهم يجترون نفس تلك المقولات التى كانت قد هلعت وهربت منذ عشرين عاماً ويستغلونها فحسب لاظهار العلم ، وقد صكت مسامعهم أشياء مبعثرة وغير مترابطة بل ومهترئة وغامضة وكلها مجردة وغريبة عنهم وملتبسة عليهم تماماً عن أمور تتصل بشكل أو بآخر بالجدلية والمادية ودلائل دحض الدين ومبدأية الاقتصاد والبنية التحتية والبنية الفوقية الاجتماعية وغيرها ، أما فيما يختص بالقضايا الأساسية والمباشرة من قبيل كيفية إقامة المجتمع اللاطبقى والفرق بين الاشتراكية ورأسمالية الدولة والفرق بين النقابية والاشتراكية والطرق الممكنة للوصول إلى الاشتراكية والأسلوب الخاص للانتاج الآسيوى والاغتراب فى نظام الرأسمالية الصناعية ومسخ البورجوازية فكلها أمور لا يعلمون عنها شيئاً ، وربما لم يسمعوا بأسماء بعضها ، ولا يعلمون هنا أن هذه المقولات مطروحة ، بحيث

أننى كنت أتحدث ذات يوم عن الإنسان الكامل ، وقام أحد هؤلاء المتعصبين بجهل للماركسية ونفرت عروق رقبته استعداداً للجدل وأخذ يتشنج ويسوق أدلة عديدة في دحض هذه النظرية ، وعندما طرحت قضية الاغتراب ، كان أغلب الماركسيين المحليين وثوريى أماكن التجمع يستقبلونها برفض وعناد ، وكانوا يظنون أننى طرحت قضية دينية وصوفية ، وأخيراً بعد أن أيدت من قبل المراجع العليا خلوا ما بينى وما أقول» .(٥٦)

وتشير العبارة الأخيرة فى هذا النص المطول الذى نقلته عن شريعتى إلى أن الفشل الفكرى الذى منى به اليسار الإيرانى لم يكن لخطأ فى الأسلوب فحسب ، بل كان هناك خطأ فى التشكيل من البداية مرده الارتباط الوثيق لليسار الإيرانى بجهات خارجية تتمثل فى الاتحاد السوفيتى ، وفى هذه الحالة يظل الشك قائماً حتى وإن كان الحزب يعمل لصالح الشعب من وجهة نظره بالطبع ، وبدايات توده كما سوف نرى لم تكن مما يشجع فقمة مجده التاريخى حركة انفصالية وسقوطه النهائى السياسى كان بعد الانقلاب الذى أسقط مصدق ، وهذا الخلل التاريخى كان من أهم أسباب نمو الحركة الإسلامية كما سوف نرى .

لقد رأينا فى الجزء الأول من هذا الكتاب كيف أن الحركة اليسارية الإيرانية لم تعمل منفردة قط ، وحاولت أن تركب حركات دينية وتحولها عن مسارها وتجلى هذا الملمح فى ثورتى كوچك خان ومحمد خيابانى ، وكان واضحاً من خلال تجارب اليسار الإيرانى أنه لا يمكن أن يظهر على الساحة الإيرانية بمبادئه الحقيقية ، ومن ثم لم يظهر حزب توده فى الساحة السياسية الإيرانية كحزب يسارى يتبع الشيوعية الدولية **بل حاول بقدر الامكان أن يبدو فى صورة تجمع للقوى الوطنية والتقدمية وكانت أهدافه المعلنة لا تتعدى كثيراً الأهداف التى تسعى كل القوى السياسية إلى تحقيقها مثل تطبيق الدستور والعدالة الاجتماعية والاصلاح الاقتصادى ، وحرصت جريدة « رهبر : القائد أو الزعيم » الجريدة الناطقة باسم الحزب أن تبين أن معظم الأعضاء المؤسسين للحزب مسلمون من أبناء مسلمين يحترمون الشريعة الإسلامية ويقدسونها ، أما بالنسبة للسياسة الخارجية فلم يعلن الحزب بالطبع تبعيته للسوفيت بل أعلن احترامه لكل القوى**

فى حدود مصالح إيران ، وفى البداية لم ينعم الحزب بتأييد السوفيت فحسب بل نعم أيضاً بتأييد الإنجليز الذين رأوا فى الحزب جبهة تصدى للمخططات الألمانية التى كانت لا تزال تعمل فى قبائل الجنوب فى إيران ، إذ لم تكن الحرب قد انتهت بعد ، وحرص الحزب بالطبع على الإعلان على أن وسيلة التغيير فى المجتمع هى الكفاح السياسى والبرلمانى (٥٧) . هذه هى الخطوط العامة المعلنة للحزب فلنر إذن إلى أى مدى أثبتت الأحداث أن هذا الإعلان كان مجرد حبر على ورق أو مناورة تكتيكية .

واتضح من البداية أن الحزب لا يستطيع الصمود وحده ، فلم يكد يمر عام على إنشائه وفى مرداد ٢٢ (سنة ٤٣) دعا الحزب إلى تكوين جبهة تحرير شاملة ، وكان الدور الأكبر فيها لقادة توده بيشه ورى وايرج اسكندرى ودادمنش ، وسرعان ما استقطبت كل القوى التحررية فى إيران (٥٨) ، وفى ظل هذه الجبهة دخل الحزب الانتخابات التى جرت بعد ذلك بشهر واحد ونجح فى إدخال عدد من مرشحيه المجلس النيابى ، وفى مرداد ٢٣ (سنة ٤٤) عقد المؤتمر الأول للحزب ، وفى هذا المؤتمر حرص الحزب على تأكيد وجهه الوطنى والتزامه بالدستور **وعدم عدائه للرأسمالية ، كما أكد على عدم منح امتيازات بترولية لأية دولة ، وحرصه على أن يوضع النفط الإيرانى فى أيدى إيرانية** (٥٩) ، **وعاد فأكد على أنه حزب الفلاحين والكادحين والمثقفين الأحرار ، وكان نسيانه البورجوازية الوطنية عن عمد على أساس أنها اشتركت وتشترك فى استغلال الفلاحين** (٦٠) ، وبالرغم من أن الحرب كانت لاتزال دائرة لم يصبر الحزب حتى تسفر المعركة الدائرة بين الديموقراطية والفاشية عن نتيجة ، وبدأ فى مازندارا ن واصفهان بتحريض العمال مما أدى إلى حدوث بعض الاضرابات ، وكان ذلك سبباً فى تشديد الهجوم عليه ، فإن الحزب الذى أعلن أنه سوف يغير بالوسائل السلمية والبرلمانية وفى حدود القانون عاد وأعلن أن النظام كله فاسد ولا يمكن إصلاحه ، وبدأ نشاطه الطبيعى المعهود داخل العمال ، وكان هذا سبباً كافياً لتأليب كل القوى على توده وتكتلها ضده ، **وساهم هذا التكتل الذى اقترن ببعض المظاهر الإيرانية التقليدية من جمع للأراذل والأوباش وهجوم على مقار الحزب ونواديه**

وأماكن تجمعه ، ساهم كل هذا في إعطاء الحزب حجماً أكبر من حجمه الحقيقى وفى خلق أسطورة توده ، فقد كانت هذه الأسطورة ورقة رابحة كما سنرى فى أيدى القوى الرجعية والغربية والعميلة لإنجلترا أولا ثم لأمريكا فيما بعد في ضرب الحركات الوطنية ، في حين أن توده كان يقدم على الدوام الذريعة لخلق جو من الفوضى وهجوم على القوى التحررية كلما أمكن ، ومن ثم فبعد هذه الصدمات الأولى كان توده يخرج أكثر نشاطاً وتوسعاً وأعظم قوة .

وسرعان ما واجه الحزب امتحاناً حقيقياً عندما طرحت قضية منح امتياز نفط الشمال الإيرانى للاتحاد السوفيتى ، وبالرغم من سياسة الحزب المعلنة التى تقف ضد منح امتياز البترول لأية دولة أجنبية ، بل ووقف وقفة شجاعة ضد منح امتيازات جديدة للإنجليز والأمريكيين ، إلا أنه غير رأيه بمجرد أن سلم السوفيت طلبهم وعن طريق وضع النظريات الجديدة والتبريرات الأيديولوجية وهو أسلوب لم يقلع عنه حتى فى أشد الأوقات سواداً إذا **بفلاسفة توده ينبرون مدافعين عن حق إعطاء امتياز النفط للروس ، منكرين أشد الانكار أنهم كانوا ضد إعطاء الامتياز للأجانب ، قائلين أنهم إنما كانوا يتحدثون عن الظروف والملابسات ، معلنين أن البترول لا يمكن أن يكون فى أيدى إيرانية فى ظل هذه الحكومات الفاسدة اللاقومية ، وفى ظل وجود القوت السوفيتية عقدوا لقاء جماهيرياً هاجموا فيه الحكومة لرفضها إعطاء امتياز النفط للروس ، وبينما كان طلب أمريكا لامتياز النفط يعامل عند نقاد الحزب وفلاسفته كوسيلة مستترة لبسط النفوذ السياسى كما عبر إحسان طبرى أحد عظماء الرفاق ، إذا بنفس الرفيق عندما أصبح الأمر يختص بالروس يقول : كما أننا نعترف للإنجليز بمصالح فى إيران ولا نهاجمها ، لنعترف أيضاً بأن للإتحاد السوفيتى مصالح تتعلق بأمنه فى إيران ، بل إن الإتحاد السوفيتى لا يمكن أن يكون دولة استعمارية ، وإذا كانت حكومة « ساعد » تظن أنها سوف تستطيع مواصلة سياسة العداء ضد السوفيت فإنها تكون قد وقعت فى خطأ شديد ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد فخلافاً لسياسة توده المعلنة من اعتماده على**

الشعب ، إذا به يعلن أن الشعب لا يستطيع فى ظل حكومة غير وطنية أن يقوم «بسفلتة» عدة شوارع ، ولن يستطيع بالطبع أن يتحمل مسئولية صناعة البترول ، ويفسر إعطاء الامتياز للروس بأنه ديموقراطية كاملة فما دام للإنجليز نصيب وللأمريكان مثله فلماذا السوفيت بالذات ؟ ، وبينما كان توده فى بيانه المعلن يعتمد على قوة الشعب فى التصدى لقيام ديكتاتور جديد بعد انتهاء الحرب وانسحاب الحلفاء ، إذا به يتساءل : **إذا ابتعد السوفيت عن الساحة فما الذى يضمن عدم قيام ديكتاتور جديد بعد الحرب وانسحاب الحلفاء ؟** ومن ثم فعند أول امتحان حقيقى نسف توده رصيدة الشعبى وبقية ثقة القوى الوطنية فيه ، وأعطى ذريعة جديدة للرجعية للهجوم عليه (٦١) .

ولم يلبث توده أن دخل الامتحان التالى عندما أثيرت قضية إخلاء إيران من جنود الحلفاء بعد انتهاء الحرب ، فإذا بتوده الذى أخذ على عاتقه حماية الجماهير وضرورة التعمير والتغيير ، وأعلن أكثر من مرة أنه سيرد الكلام بالكلام والقبضة بالقبضة يعلن أنه يشترط لجلاء الحلفاء شروطاً من أهمها القضاء على العناصر الرجعية فى إيران أولاً وتسليم الحكم للعشب والعناصر الحرة وإلا فلا داعى ولا لزوم للاخلاء (؟) **وفسر الدكتور كيانورى أحد أقطاب الحزب الأمر بأن هناك جيشاً غريباً ثالثاً فى إيران غير الروس والانجليز كله من الإيرانيين ولا رداء رسمى لجنوده ، وعلى الحلفاء إخلاء إيران من هذا الجيش أولاً ثم الانسحاب وذلك – فى رأى الرفيق كيانورى – ضماناً لعدم سقوط إيران مرة ثانية فى أيدى قوى مضادة « للحلفاء بالطبع »** ، **وينبرى منظر آخر هو إحسان طبرى فيعلن : ... إن الشرط الأساسى لانسحاب الحلفاء من إيران هو الاطمئنان على مصالحهم أولا »**(٦٢) ، وهكذا كان حزب توده الوطنى التقدمى الطليعى يرى مصالح إيران فى إطار مصالح الأجانب وليس العكس .

ولم تكد تمر شهور فى هذه السنوات المليئة بالأحداث التى كان توده فارس الميدان خلالها حتى اتضح تماماً أن سياسة توده بشأن الانسحاب كان لها ما يبررها ، وذلك لأن الجناح اليسارى الوطنى التقدمى كان يخطط من زمن لاستغلال التناقضات الموجودة فى منطقة آذربيجان ، واستغلال الاضطهاد الذى تعرضت له المنطقة طوال عهد رضاخان ، والفقر والجوع والمرض والمسخ

الثقافى الضارب بأطنابه فى الولاية التى كانت تضم آنذاك سبعة ملايين محرومين من أدنى مستويات العيش بل ومن استعمال لغتهم (٦٣) ، كان يخطط لاستغلال كل هذه الظروف لفصل المنطقة تمهيداً لالحاقها بآذربيجان السوفيتية ، ومن ثم فإن المظاهرات واللقاءات الجماهيرية التى مهدت لأحداث آذربيجان كانت كلها تحت إشراف حزب توده ، وبعد لقاء جعفر بيشه ورى بجعفر باقر اوف رئيس جمهورية آذربيجان السوفيتية فى باكو ، أعلن قيام جماعة الديموقراطيين الآذريين ، **وبالرغم من أن الحزب قد أعلن أن هذا قد تم بغير علمه ، فإنه سمح لكثير من الأعضاء الآذريين فى الحزب بالإنضمام إلى جماعة الديموقراطيين للقيام بالثورة القومية ضارباً عرض الحائط بما كان قد أعلنه من قبل بأن وسيلته فى التغيير هى النضال السلمى** (٦٤) ، وبالرغم من الوجه الإنفصالى للحركة منذ بدايتها إلا أنها أعلنت أنها قامت لتحرر كل إيران وتخلصها من السيطرة الأجنبية ، وبينما كان برنامج الإصلاح المعلن كله موجها إلى آذربيجان وتأكيد قوميتها ، كان الديموقراطيون يعلنون مراراً أن المقصود ببرنامج الإصلاح هو كل إيران ، وبالرغم من شعار الحركة كان « **آذربيجان للآذريين** » إلا أن توده الوطنى لم يكن يألو جهداً فى الترويج للحركة فى إيران كلها ، هذا وبرغم بعض الخلاف الظاهرى الذى دب بين الفريقين حول بعض النقاط النظرية فى البرنامج الذى أعلنه بيشه ورى ، **كانت صحف توده تروج داخل إيران أن ماحدث فى آذربيجان ينبغى أن يحدث فى كل أنحاء إيران ، ولم تنقطع الصلة بين الرفاق فى آذربيجان وبقيتهم فى إيران لحظة واحدة** .

وبينما كان رئيس الوزراء أحمد قوام السلطنة يتباحث فى موسكو من أجل حل مشكلة آذربيجان حلاً سلمياً ، **كان توده داخل إيران يستغل ماضى أحمد قوام السياسى الأسود لمهاجمة الإخلاء الذى كان قوام يتباحث فى سبيله على أساس أنه لا توجد فى إيران حكومة وطنية ولا ينبغى للروس أن يتركوا إيران للرجعية** (٦٥) ، وبينما كان قوام يلوح بورقة امتياز نفط الشمال ، كان الأمريكان يسعون سعياً حثيثاً لعرقلة كل المفاوضات بوسائلهم الخاصة ، وفى ٢١ مارس ٤٦ وجه ترومان إنذاراً إلى الروس لإجلاء قواتهم عن إيران ، كما ابتلع

الروس الطعم الذى قدمه قوام ، فعقدت معاهدة امتياز نفط الشمال على ألا تكون سارية المفعول إلا بعد موافقة المجلس النيابى عليها بعد انعقاده ، وفى نفس الوقت وعد قوام الأمريكيين بامتياز نفط بلوشستان (٦٦) وأتم قوام سياسة الخديعة فنفذ بعض مطالب الحركة الآذرية على أن تبقى آذربيجان جزءاً من إيران ، ثم شكل وزارة ائتلافية .

وبالرغم من أن البرنامج المعلن لحزب توده يحرم الإشتراك فى أى وزارة إلا إذا كان هناك حكم وطنى ديموقراطى فقد اشترك توده فى وزارة قوام السلطنة الائتلافية بثلاثة وزراء هم الدكتور يزدى والدكتور كشاورز وايرج اسكندرى ، ثم لم يجد تبريراً واحداً لهذا النكوص إلا أن يمدح حكومة قوام السلطنة لأنها تهتم بمشاكل الجماهير ولأنها حلت مشكلة آذربيجان حلاً سلميا وبذلك قدم توده صكاً جديداً من صكوك سقوطه فلا يوجد فى تاريخ إيران المعاصر سياسى يدانى أحمد قوام السلطنه فى رجعيته وعمالته وعدائه للشعب ، **وأصبح توده الذى كان يتباكى دائماً على عدم استقرار إيران** يرى أن الأمور قد هدأت فى ظل حكومة قوام وأن فرصة الإصلاح موجودة **وهكذا استطاع السياسى الداهية فى وزارة يشترك فيها ثلاثة من أعضاء حزب توده أن يصفى الحركة العمالية بل ويستخدم الطريقة الإيرانية (تحريض الأراذل والأوباش) فى الهجوم على مقار الحزب ونواديه بينما كان « الرفاق الوزراء » يطلبون من جماهيرهم الهدوء والسكون** (٦٧) وفى ظل الوزارة الإئتلافية عمد السياسى الداهية إلى التمهيد لحل مشكلة آذربيجان حلاً عسكرياً وإلى تأليب العشائر فى الجنوب ضد حزب توده فهاجموا أصفهان وحطموا مقار الحزب وشنقوا رؤساءه (٦٨) — وطالبوا بإخراج وزراء توده من الوزارة ولم يجد قوام بدا من الرضوخ للإرادة الشعبية ، وسقط الإئتلاف بعد أن نجح فى خلال خمسة وسبعين يوماً فقط من تحقيق كل المطلوب منه ومن تعرية توده جماهيرياً وتصفيته تنظيمياً والاستعداد للهجوم العسكرى الشامل على آذربيجان ، وكانت هذه هى النتائج التى خرج بها توده من اشتراكه فى الوزارة التى تهتم بالجماهير والتى نجحت فى حل مشكلة آذربيجان سلمياً .

وبينما كان الحزب يراجع حساباته ويضمد جراحه حدث الهجوم الوحشى على حكومة آذربيجان الوليدة ، وكان الرفاق السوفيت قد سحبوا قواتهم من تبريز بعد توقيع اتفاقية النفط ، وليس المجال مجال الحديث عن الفظائع التى ارتكبها النظام فى زنجان ثم فى تبريز ، وكان النظام **قد أعد عدته بحيث يبدو ما يحدث لبيشه ورى وجماعته غضبة شعبية من أهل تبريز ، ومن ثم هربت فرق الديموقراطيين المسلحة إلى آذربيجان السوفيتية ، تاركين الفلاحين والعمال وجماهير الفقراء يتعرضون لعمليات تصفية دموية من قبل النظام ،** وأخذ كبار الرفاق من الهيئة التأسيسية لفرقة الديموقراطيين يتنصلون تباعاً ويرسلون البرقيات لأولى الأمر يطلبون الرحمة والعفو من صاحب الجلالة (محمد بى ريا ودكتور جاويد وشبسترى) ، وتركت جماهير آذربيجان للمشانق ، والنتيجة : **كما فشلت سياسة حزب توده على المستوى القومى فشل الديموقراطيون على المستوى المحلى ، ذلك لأن الحركة وثقت فى السياسة السوفيتية ثقة عمياء وتركت الركيزة الجماهيرية التى أعلنت عنها من البداية وحصرت نفسها فى آذربيجان بناء على أهداف السياسة السوفيتية وبعد عقد اتفاقية النفط لم تعد آذربيجان تهم السوفيت فى شىء ، ولم يهمها أبداً سقوط عشرين ألف شهيد آذرى قرباناً لسياستها ، أما تفسير توده الذى قدمه لما حدث فى آذربيجان وتفسيره لهروب الفرق العسكرية المنظمة والرفاق العظام وعدم مقاومتهم لقوات الحكومة فهو عجيب حقاً وجدير بالذكر : فإن آذربيجان لم تقاوم لأنها بمقاومتها كان يمكن أن تعطى فرصة للقوى الأجنبية للتدخل فى إيران ، وفى هذه الحالة كان يمكن أن تجر الحرب إلى الحدود السوفيتية وتعرض الحركة الشيوعية الدولية للخطر** ومن ثم شمر الرفاق عن ساعد الجد لوضع النظريات والتبريرات فدخول القوات المركزية آذربيجان عمل يقره الدستور تم بناء على طلب الهيئة الحاكمة للولاية ، وأن قضية آذربيجان كانت ستعرض السلام العالمى للخطر ومن هنا تقبل الرفاق الهزيمة فداء للسلام العالمى.(٧٠)

وكالعادة ، دخل الحزب فى مرحلة جديدة من مراحل إعادة البناء فاعترف أنه قد توسع فوق ما ينبغى نتيجة لانضمام كثيرين من ذوى الأهداف والمشارب

المختلفة إليه ، وأعلن عن تأسيس الهيئة التنفيذية للحزب لتعيد البناء وتعد للمؤتمر الثانى وقد تأسست من : فريدون كشاورز ومرتضى يزدى ومحمد بهرامى وعبد الحسين نوشين وإحسان طبرى وأحمد قاسمى ونور الدين كيانورى وغلا محسين فروتن ومحمود بقراطى وخليل ملكى ، وقامت الهيئة التنفيذية الجديدة بإصدار بيان تبدى فيه رغبتها فى الإهتمام بالكيف دون الكم ، كما طلبت من فروع الحزب فى الأقاليم الإمتناع عن القيام بأى نشاط وذلك لغموض الموقف فى البلاد ، وفى مذكرة تفسيرية أخرى اعترف الحزب بأنه ملىء بالعناصر الفاسدة والإنتهازية ، كما اعترف بأنه لم ينجح فى بيان أهدافه للجماهير ، **ولم ينس الحزب التأكيد على أنه ليس ضد الملكية والرأسمالية ، كما أكد مرة ثانية على وجهه الإسلامى ودعا علماء الدين الأحرار إلى تأييده ، وبالرغم من التجارب السالفة أكد على رغبته فى الوصول إلى أهدافه بالوسائل والطرق السلمية** .. وفى خضم هذا النقد الذاتى والإعتراف الكنسى الماركسى أصدرت جماعة أخرى تحت رئاسة الدكتور ابريم كتيباً مليئاً بالنقد الجارح للحزب ولسياسته ، فهو يفتقد إلى نظرية سياسية حية كما يفتقد إلى التشكيل القوى (إذن ماذا تبقى له ؟) ومن ثم لا حل إلا تشكيل جبهة شعبية (ثانى ؟) تأخذ زمام القيادة فيها جماعة طليعية لا يهم أن تتبع الحزب مباشرة ، ولم يكن هذا الاقتراح يعنى بالطبع إلا تصفية الحزب .. وبالطبع لم تكن هناك نتيجة لهذا النقد الذاتى إلا زيادة التكتلات فى الحزب ، وطفت التكتلات داخل المؤتمر الثانى للحزب الذى عقد فى تيرماه ٢٦ (يوليه ٤٧) فقد ظفر تكتل خليل ملكى بأغلب مقاعد الهيئة التنفيذية فى طهران ، فما كان من مناهضيهم إلا أن أعلنوا انشقاقهم عن الحزب وكونوا « الجمعية الاشتراكية لجماهير إيران » وأعلنوا أنفسهم جناحاً تقدمياً يعد استمراراً لحزب توده كما أعلنوا الاشتراكية العلمية كأيديولوجية لهم ، وبعد بضعة شهور من المفاوضات والتهديدات والمهاترات بين الحزب والجناح المنشق ، أعلن راديو موسكو عدم رضاه عن الإنشقاق ، فانحل على الفور وعادت للحزب وحدته (٧١) وكانت الصفعة التالية لتوده عدم موافقة المجلس النيابى الذى افتتح فى تلك الآونة التصديق على معاهدة النفط التى كان قوام السلطنة قد وقعها مع السوفيت ومن ثم نجح

قوام السلطنه فى خداع السوفيت بمعونة من الإنجليز والأمريكان ، وبالرغم من هذا كان لابد أن يتنحى فقد كان مصدر خوف لمحمد رضا شاه شخصياً ، وكان محمد رضا شاه فى سبيله إلى دخول الحلبة السياسية مؤيداً من الأمريكان مما كان يحفظ الإنجليز وفى هذا المجال استفاد الإنجليز من حزب توده فى حملتهم ضد جنوح الشاه إلى الأمريكان ، وبينما قام توده باستعراض للقوة فى مؤتمره الذى عقده فى ارديبهشت سنة ٢٧ (ابريل ٤٨) ، كانت العناصر الرجعية مؤيدة من القوى الأجنبية تعد مسرحية جديدة لتصفية المعارضة والصعود بالشاه إلى السلطة الفعلية والانتقال به من مراقبة الأحداث إلى المشاركة فيها ، ومن ثم كانت حادثة ١٥ بهمن ٢٧ (فبراير ٤٩) .

فى ١٥ بهمن سنة ٢٧ ، وبينما كان الشاه ينزل من عربته فى مواجهة كلية الحقوق ، أطلق عليه الرصاص شاب يسمى ناصر فخر آرائى ، وتعرض الضارب على الفور لرصاصة فى قدمه جعلته يفرغ رصاصه على الأرض ، وبالرغم من أن الشاه أمر بالقبض على القاتل حياً لم يمهله حرس الشاه وأردوه قتيلاً على الفور . وفى نفس اليوم أعلنت الأحكام العرفية ومنعت الاجتماعات وقبض على زعماء حزب توده ، وبعد كل ذلك أعلن فى اليوم التالى أن الضارب عضو فى حزب توده ، وكان من الواضح أن محاولة الاغتيال لم تكن إلا تمثيلية دبرها العسكريون المحيطون بالشاه وعلى رأسهم رزم آرا واتضح معنى العبارة التى قالها القاتل عندما أطلقت عليه أول رصاصة وهى « **إننا لم نتفق على هذا** » (٧٢) واستفاد الشاه جيداً من هذه الحادثة ، فأعلن حل حزب توده ، وقبض على أعضائه وصودرت أمواله ، وقدم الشاه اقتراحات بتعديل الدستور وطالب بإعطائه سلطة حل المجلس النيابى وسلطات أخرى ، كما استرد الأراضى التى كانت قد ضمت إلى الدولة من أملاك أبيه المطرود .

وتحول توده إلى الكفاح السرى ، وبالرغم من أن ستة أعضاء من هيئته التنفيذية (أحمد قاسمى والدكتور كيانورى والدكتور جودت والدكتور يزدى والمهندس علوى ومحمود بقراطى) قد قبض عليهم وفر ثلاثة آخرون إلى الخارج (دكتور دادمنش ودكتور كشاورز واحسان طبرى) كما تلاشى الكثير من منظماته الحزبية ، إلا أنه استطاع أن يواصل نشاطه الحزبى كما استطاع أيضاً أن يواصل إصدار صحيفته « مردم » .

وفى أواخر سنة ٤٩ أعلن قيام الجبهة الوطنية بعد اجتماع فى منزل الدكتور مصدق ، وكان من المتوقع بالطبع أن يبادر توده المضيق عليه والذى يرى نفسه المحتكر الوحيد لكفاح الشعب الإيرانى ونضاله إلى عقد أواصر التعاون مع القوة الوطنية الجديدة ، إلا أنه ولسبب غير مفهوم كان سيىء الظن بنشاط الجبهة الوطنية ، ولعله فوجىء بظهورها فى الأفق وفوجىء بأن عليه أن يواجه قوى وطنية حقيقية لأناس لم تشب ماضيهم السياسى شبهة واحدة بدلاً من القوى الرجعية وثيقة الصلة بالأمريكان والإنجليز ، ومن ثم فبينما كانت الجبهة الوطنية تكتسب أنصاراً يوماً بعد يوم ، كان توده يشترك مع الجبهة المضادة فى الهجوم عليها وتشويهها والغض من شأنها ، وبدأ فصل جديد من نشاط حزب توده ، لا تكاد تبدو فيه بادرة من العمل الوطنى أو تبنى القضايا الحقيقية للشعب الذى يدعى أنه المناضل الوحيد عنه والمحتكر الوحيد لأمانيه ومثله .

وعند أول انتخابات فى تهران فاز مرشحو الجبهة الوطنية بأغلب الأصوات ، **وبدأت معركة تأميم البترول** ، ووضع الشاه رجله القوى « على رزم آرا » على كرسى رئاسة الوزارة ليأخذ على عاتقه دور المدافع عن مصالح الشركات الإنجليزية التى تحتكر نفط الجنوب ، وكانت أمريكا تحاول بكل قواها أن تنفذ إلى داخل إيران وقبل أن يصل رزم آرا إلى غرضه فى القضاء على أنصار التأميم نهائياً اغتيل على يد جمعية فدائيان إسلام ، وبعد عدة شهور قضاها حسين علاء فى رئاسة الوزارة اختير الدكتور مصدق لرئاسة الوزارة (فبراير ٥١) ، وبدأت المواجهة الساخنة بين توده وبين الجبهة الوطنية ، وكان توده فى نشاطه السرى أكثر فعالية منه وهو فى نشاطه العلنى وأكثر جذباً للأعضاء ، وبالرغم من أنه كان حزباً منحلاً فى نظر الحكومة إلا أنه كان الحزب الوحيد الذى له وجود والذى يمكن أن يطلق عليه اسم الحزب السياسى (٧٣) وكان يصدر مجلتيه « مردم » و « رزم » كما أضاف إليهما مجلته « بسوى آينده » التى كانت تصدر بصورة شبه علنية ومنظمة ، وكان الحزب قد تمكن من إخراج زعمائه من السجن بعد أن نجح نواب الجبهة من نقلهم من سجونهم البعيدة إلى سجن القصر فى طهران .

وبدلاً من أن يضع توده يده فى يد الجبهة الوطنية فى هذه المعركة المصيرية معركة تأميم البترول ، واصل وجهة نظره الأولى فى الجبهة وهى أنها جبهة تتعلق بالبورجوازيين والملاك الليبراليين الذين يعتمدون على السياسة الأمريكية ويعملون فى خدمة أهداف أمريكا كما أنهم من النمط الذى يخدع العوام وتقوم سياستهم على ذلك (٧٤) ومن هنا واعتماداً على هذا الرأى وقف حزب توده فى صفوف المعارضين لكفاح الجبهة الوطنية من أجل تأميم البترول ، وتحاول المصادر الإيرانية أن ترجع هذا الموقف من حزب توده إلى انعدام الرؤية الواقعية وتحلله على أنه خطأ فحسب ، فى حين أن توده لم يكن غائباً عن الساحة لكى يخطىء هذا الخطأ البشع **بل من المنطقى أن نحلل وقوف الحزب ضد الجبهة الوطنية فى قضية التأميم أنه كان نتيجة للسياسة التى كان يتبعها الحزب من البداية وهى العمل على المحافظة على مصالح السوفيت فى إيران ، كما أنه كان يرى قضية التأميم على أنها قضية الجبهة وأنها إن نجحت فى هذه المعركة فلن يبقىَ دور لتوده يقوم به بعد ، فكأنه خسر قاعدته الخارجية وركيزته الداخلية فى وقت واحد .**

وهكذا فبينما كان مصدق وجبهته فى قلب المعركة ، كانت بيانات توده ونظرياته وتبريراته الفلسفية تنهمر ، وفى البداية حاول أن يهون من شأن مطالب الجبهة وأنها لن تؤدى إلا إلى تثبيت وضع الإنجليز فى الجنوب ، أما الحل الواقعى الوحيد الذى رآه توده لحل مشكلة النفط فهو أن تأتى حكومة وطنية لا تكون فى فلك الغرب وتدافع عن الجناح الإشتراكى وبعدها يمكن لهذه الحكومة أن تظفر لإيران بحقها فى نفطها ، وهذا جانب آخر من جوانب عجز توده فبينما كانت القوى الوطنية تدخل المعارك تلو المعارك ولا يهمها أن تخسرها ، كانت المعركة التى تشغل توده هى الوصول إلى السلطة وبعدها يحل كل شىء ، أما ما يقوم به مصدق وجبهته فهو فى رأيهم ليس « أكثر من ضحك على الذقون » فالنضال ضد الإمبريالية هو أولاً وقبل كل شىء قطع دابر الحكومة ، أما ما يقوم به مصدق وجبهته فهو ليس أكثر من تمثيلية قامت بتدبيرها شركة النفط ، وبينما كان الشعب كله خلف مصدق ، كان جزاء مصدق الذى ترك توده يعمل فى العلن بينما لم يكن قد صدر قانون بعد يعيد

إليه صفة الشرعية ، وهو أن أصبح توده فى هذه المعركة أكثر رجعية من كل الأحزاب ذات الإنتماءات المعلومة ، وأخذت صحفه تدعو الناس إلى الهدوء .

وحتى بعد أن اكتشف توده أن الأمر جد لاهزل فيه بعد أن رد المجلس النيابى لائحة تجديد عقد نفط الجنوب ، واصل نفس السياسة ونفس هذا الأسلوب الملتوى الذى لا يمكن – كما تذكر المصادر الإيرانية – أن يكون ناتجاً عن سوء الفهم ، فعندما رفض المجلس اللائحة ، أعلن توده أن الشعب هو الذى رفض وليس نواب الأغلبية وهو أسلوب سوف نراه فيما بعد فى عدة مواقف ، لم يكن توده يعترف قط بدور فى الحركة الوطنية لحزب سواه أو قوة سواه ، فإذا انهزم جناح من الأجنحة الوطنية فهذا دليل عمالة وخيانة ورجعية .... الخ ، وإذا انتصر فلا اعتراف بل الشعب هو الذى انتصر ، وفى **هذه المرة رأى توده أن يطرح حلاً جديداً ، فماذا طرح ؟ فى مقابل تأميم صناعة النفط فى طول إيران وعرضها ، طرح « فسخ عقد الامتياز مع شركة الجنوب » ، ففى رأى توده أن تأميم شركة فى أيدى أجانب ليس بالأمر الممكن ، وبالرغم من أن توده طليعة القوى التحررية والوطنية لم يفهم أن التأميم فى هذا المجال أبدى من مجرد فسخ العقد ، ولم يترك سبة فى قاموس الأممية الدولية لم يلحقها بالجبهة إلا أنه لم يلبث أن دعا إلى ائتلاف معها ،** وكأنه كان يريد أن يسفر عن وجهه كطالب للسلطة ليس أكثر ، فكيف يدعو إلى الإئتلاف مع الخونة باعة القضية عملاء أمريكا فى الوقت الذى يهاجمهم فيه ؟ ولا أدرى كيف فات المؤرخون الإيرانيون أن تركيز توده على المطالبة بفسخ عقد شركة الجنوب دون تأميم الصناعة فى أنحاء البلاد على زعم أنه لا توجد صناعة بترول إلا فى الجنوب لا يهدف إلى شيء إلا إلى ترك الباب مفتوحاً للسوفيت للسيطرة على صناعة البترول فى الشمال ؟ وعندما عم الطوفان كل القوى الوطنية بعد سقوط مصدق ، أصدر توده بياناً من المنفى يقر فيه بخطئه فى سياسة تأميم البترول وعدم منطقية الشعار الذى طرحه فى مواجهة شعار التأميم ، ولكن متى ؟ بعد خراب البصرة ، وبعد أن ضيع سنوات الكفاح فى الهجوم على مصدق وتفتيت الجبهة الوطنية بل ووضع العراقيل أمام مصدق فى الشهور التى حكمها مما يضع مسئولية ضياع الحركة الوطنية وعدم جدواها

على عاتق حزب توده الذى كان يعتبر نفسه المدافع الوحيد عن الشعب الايرانى ، وأليس من العجيب أن يكون الموقف الوحيد الذى وقفه توده طوال تاريخه وناقض فيه موقف السوفيت هو موقفه من مصدق ومن الجبهة الوطنية ؟ أجل ، فبينما كان الإتحاد السوفيتى يوافق تماماً على سياسة تأميم النفط ويؤيد كفاح الشعب الإيرانى ضد السيطرة الاقتصادية الاستعمارية ، كان توده يعتبر هذه القضية خيانة ، ومن هذا المنطلق كانت سياسته خلال الشهور المليئة بالقلاقل التى حكمها مصدق . (٧٥)

خلال الشهور الثمانية والعشرين التى حكمها مصدق (من أبريل ٥١ إلى أغسطس ٥٣) كان توده واحداً من عمد الهجوم عليه ، ومن ثم بات الرجل هدفاً لكل السهام حتى سهام جبهته الوطنية فى وقت من الأوقات ، وصادف يوم ذكرى شهداء تيرماه ٢٥ (اضرابات عمال النفط سنة ٤٦) وصول افريل هاريمان مبعوث الرئيس الأمريكى ترومان إلى إيران ، وبينما كان توده يحتفل بالذكرى عن طريق المظاهرات ، وجدها أيضاً فرصة لتشديد الهجوم على مصدق واتهمه بأنه يريد أن ينهى الأمر تماماً ويجعل خيانته على الملأ ، وبالرغم من أن إحباط المظاهرات قد تم دون علم مصدق بدليل أنه عزل قائد الشرطة فى اليوم التالى ، إلا أن حزب توده أصدر منشوراً هاجم فيه حكومة مصدق ووصفها بأنها ضد الدستور وضد الديموقراطية وضد الشعب ومستعدة لقتل الشعب وقمعه فى سبيل مساندة أمريكا ، **وهكذا كان توده يقوم عملياً بعرقلة النضال عن طريق خلق جو من الفوضى يمكن للرجعية فيه أن تضرب ضربتها ، فى حين أن الدكتور مصدق كان يتحلى بنوع من ضبط النفس تجاههم ، وسوف تكون هذه السمة عند الدكتور مصدق، وسياسة ضبط النفس والمسامحة التى اتبعها مع كل أعدائه، حتى بعد ضبطه إياهم متلبسين بالخيانة وبمحاولة قتله سبباً فى القضاء على حركته فيما بعد** ، وبالرغم من أن اتصالات مصدق بالأمريكيين لم تكن أكثر من مباحثات ، إلا أن مواصلتها فى ظل جو الإرهاب الذى كان يهيئه توده كان ضرباً من العبث فكان عند كل إجتماع يتم يشدد من حملته على رئيس الوزراء الذى لم يكن يدرى من أين تأتيه

السهام ، وعندما كان مصدق يقطع المفاوضات لأنه لم يصل إلى نتيجة مع الإنجليز ، ولم يخف الأمريكيون لنجدته وتخفيف حدة التوتر ومنح الحكومة المساعدات المادية التى تحتاجها ، كان توده يفسر الأمر بأنه رضوخ للإرادة الشعبية وبينما كان توده المحظور قانوناً يهاجم ، كان مصدق مجالاً لهجوم آخر من نواب الدولة والنظام والإنجليز ، **ومن ثم اتحد هدف توده طليعة النضال الثورى مع هدف الرجعية وهو إسقاط مصدق .** (٧٦)

وبعد بضعة شهور من مظاهرات تيرماه ، وفى آذرماه (نوفمبر ٥١) دبر الحزب مظاهرات أخرى فى أوساط الطلاب هذه المرة ، كما لم ينس الحزب تدبير مظاهرات مضادة على الطريقة الإيرانية من الأراذل والأوباش والفتوات تهاجم مظاهرات الطلاب وتهتف بحياة مصدق وسقوط توده محطمة كل ما تصادفه فى طريقها ، ولم يكن الهدف بالطبع إلا تلويث حكومة مصدق التى كان توده يعتبرها عدوته الأولى واستطاع بذلك أن يدفع مصدق إلى عداوته وإلى توجيه سياسة حكومته الداخلية ضده ، ومن ثم تحول العداء فى مرحلة من مراحله إلى عداء شبه شخصى فلا مصدق كان يرى لتوده أى نفع أو دور فى الحركة الوطنية ، ولا توده كان يرى لمصدق أية جدارة بزعامة الأمة أو أى حسن نية فيما كان يقوم به وكانت النتيجة وبالاً على الحركة الوطنية بشكل عام فمصدق كان أول رئيس وزراء إيرانى فى القرن العشرين وربما طوال تاريخ إيران يضع مصلحة الشعب الإيرانى نصب عينيه ، وتوده بالرغم من قياداته المهترئة كان يضم عدداً كبيراً من النقابات والتنظيمات وكان يسيطر على جزء كبير من الرأى العام ، وهذا العداء المتبادل لم يبعد توده عن الساحة فحسب ، بل ومنعه من الاشتراك فى عدد من المشروعات الوطنية النافعة التى طرحها مصدق ، وعندما امتنعت أمريكا عن تقديم مساعدة اقتصادية لحكومة مصدق طرح قرضاً وطنياً ، وتحالف توده مع الرجعية فى دعوة الشعب إلى عدم الإكتتاب . (٧٧)

كانت الشهور التى حكمها مصدق سلسلة من المؤامرات من قبل الشاه والرجعية للقضاء عليه وعزله بما يشبه الانقلاب العسكرى ، ومن الغريب أن توده وإن لم يشترك اشتراكاً فعلياً فى هذه المؤامرات إلا أنه لم يكن يخفى

شماتته ، وفى أواخر يوليه ٥٢ أصدر الشاه أوامره بتعيين قوام السلطنة رئيساً للوزارة ونزل الجيش إلى الشوارع وحاصر المجلس النيابى لإجبار مصدق على الاستقالة بل وساوت صحفها بين مصدق وقوام صاحب التاريخ العريق فى الخيانة والإجرام وفى قمع توده نفسه لكن توده عندما رأى أن الشعب قد تحرك فى مظاهرات دامية لتأييد مصدق سارع ودخل الحلبة مطالباً بعودة مصدق ، ولم يجد الشاه بدا من عزل قوام وإعادته لكن المؤامرات لاسقاطه لم تنته طوال العام الذى مكثه بعد الثورة الشعبية التى قامت لإعادته .

وكان الشاه اعتماداً على جناحيه الرجعى والعسكرى (حجازى وآريانا وأنصارى وزاهدى ونصيرى وغيرهم) ومدعماً بالإنجليز والأمريكان يسعى سعياً حثيثاً فى إسقاط مصدق ، **والغريب أن أخبار هذه المؤامرات بتفاصيلها كانت موجودة عند حزب توده وكانت صحف توده لاتفتأ تكرر أن انقلابا ضد مصدق قادم فى الطريق** فأحبط انقلاب آخر ضد مصدق فى سبتمبر من نفس العام بعد أن خاطب مصدق الشعب عن طريق الإذاعة مما أدى إلى قطع العلاقات مع إنجلترا ، وكان هذا القرار والانقسامات داخل المجلس سبباً فى تفتت الجبهة الوطنية بل وفى عداء بعض أنصار مصدق « مثل آية الله الكاشانى » علنياً له ، أما توده الذى لم يكن له من هم إلا إسقاط مصدق ، فقد كان يعانى من أمر آخر .

كان الحزب فى ذلك الوقت قد أصبح أكبر قوة داخل إيران ، لكنه من الناحية التشكيلية كان قد سقط فى تعدد التكتلات « الشللية » أما من الناحية الفكرية فقد أصيب بالجمود ، وبالرغم من أن الحزب فى أصوله التنظيمية كان ينادى بالديموقراطية واللامركزية ، كانت جهود قادة الحزب منصرفة إلى قتل كل نبوغ فكرى أو حرية أو استقلال فى الشخصية عند الأعضاء ، ويشير تاريخ الحزب أن عدد الأعضاء الذين انتقدوا قراراته واتجاهاته لم يكن قليلاً ، لكن قادة الحزب كانوا يقومون بقمعهم وتصفيتهم بأحط الوسائل وأنذلها كما اعترف الحزب نفسه فى نشرة أصدرها بعد الطوفان « سقوط مصدق » ، والأهم من

ذلك أن الحزب لم يكن منظمة واحدة ذات وحدة وكيان ، ومنذ أن حرم الحزب من العمل القانونى وسحبت منه شرعيته ، كان المهندس نادر شرمينى السكرتير الأول لمنظمة الشباب التابعة للحزب يرى نفسه حزباً وحده ، لكن جماعة كيانورى وقاسمى والهيئة التنفيذية للحزب كانت تقف فى طريقه ، وكان هو المسئول عن مظاهرات مارس ٥٢ دون علم الحزب ، ولما عزله الحزب عن منظمة الشباب لم تأبه بخلفه « خود متقى » ، وكانت تصدر القرارات فى جلسات خاصة يعقدها شرمينى ، وبعد أن سافر ثلاثة من أعضاء الهيئة التنفيذية وهم قاسمى وفروتن وبقراطى إلى موسكو للاشتراك فى مؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى ممثلين لتوده ، زادت التكتلات قبحاً وانقسمت الهيئة التنفيذية على نفسها فكيانورى فى ناحية وبهرامى وجودت ويزدى فى ناحية أخرى وفى خصم هذه التكتلات أقدم شرمينى على تحويل منظمة الشباب إلى حزب داخل الحزب ، فضلاً عن أن الزعماء أخذوا ينعمون بعضهم على البعض بسيل الاتهامات والكليشيهات المعروفة من قبيل خائن للطبقة العاملة وتروتسكوى ومهترىء وبورجوازى متعفن ..... الخ وانقلب الأمر من جهاد فى سبيل الشعب إلى صراع حول الزعامات . (٧٨)

وحتى بعد الثورة الشعبية فى أواخر يوليه ٥٢ والتى قامت لتأييد مصدق ، وبرغم ادعاء الحزب أنه غير من سياسته تجاه مصدق ، ظلت صحفه تنعم على مصدق بنفس الألقاب السابقة ، وفى خريف ٥٢ عقد الحزب مؤتمراً لإعادة النظر فى برامجه ، وفى هذا المؤتمر وبعد حوالى تسع سنوات من مؤتمره الأول أعلن أنه حزب للعمال وأنه ذو رؤية ماركسية لينينية وهدفه القضاء على النظام الشاهنشاهى والإقطاع والملاك وكبار الرأسماليين الملحقين بالإمبريالية « أخيراً ؟ » فهل ياترى غير توده سياسته بعد كل هذه المراجعات ؟ أبداً . وبينما كان توده مشغولاً بتعديل نظرياته أو بمعنى أصح إعلان ما كان مخبوءاً ، كان الشاه يتوسل لإزاحة مصدق حتى بمؤامرات الإغتيال ، وكان يستقطب أعوانه « حتى الكاشانى » الذى اشترك فى إحدى محاولات الإغتيال ، (٧٩) كان النظام يعبىء كل قواه لإسقاط مصدق : البلاط « الشاه وأشرف » والجنرال

شوارتسكوف من المخابرات المركزية الأمريكية والسفير الأمريكي هندرسن ، **وكان توده يعلم بما يجرى فى الخفاء بالتفصيل ففى الثانى والعشرين من مرداد (١٣ أغسطس) كانت صحف توده تهيب بالشعب أن يهب لاحباط المؤامرة وفى اليوم التالى نشرت صحيفة « بسوى آينده » نداء للتعبئة والاستعداد ، ولم يكن توده وهو الحزب الوحيد المنظم والذى يحتوى على تشكيلات وشبكة مخابرات وميليشيا مسلحة وقاعدة شعبية لا بأس بها يعرف كيف وبأية وسيلة سوف يحبط المؤامرة ، وبالرغم من أن تنفيذ الإنقلاب قد أحبط يوم ١٦ أغسطس إلا أن مصدق لم يتخذ أى إجراء وقائى بعد هروب الشاه ، وكان أن تم الانقلاب بعدها بثلاثة أيام على النحو الذى سبق ذكره فى الجزء الأول من هذا الكتاب .**

وتجمع المصادر الإيرانية على أن توده كان ضليعاً فى محاولة إسقاط مصدق وأنه كان يعلم الأمر بالتفصيل لكنه ظل ساكناً واكتفى بالجهاد الكلامى ، وبينما كان يعبىء الشعب بالألفاظ ترك جماهير الرعاع التى عبأتها السفارة الأمريكية تفتك بالجماهير دون أن يحرك ساكناً ، بل وكلما كان أعضاء الحزب يتصلون بقادتهم فى ذلك اليوم العصيب فى تاريخ الحركة الوطنية الإيرانية ، كانوا يردّون عليهم : **« هنوز دستور از بالا نرسيده است » أى لم تصل الأوامر بعد من فوق** (٨٠) ليس هذا فحسب بل وبعد الكارثة أخذ القادة العظام فى وضع التبريرات والنظريات ، فقالوا إن هذه المرحلة من مراحل الثورة كانت على أكتاف البورجوازية ومن ثم تتحمل البورجوازية مسئوليتها ، واتضح فيما بعد أن كيانورى فقط من بين أعضاء الهيئة التنفيذية هو الذى كان يريد أن يحرك الجماهير يوم الإنقلاب وبذلك استحق الدكتور يزدى مثلا العفو الشاهنشاهى فيما بعد (٨١) وبعد ذلك بعامين أصدر القادة الباقون نشرة فاعترفوا بأنهم أخطئوا فى تقييم الموقف ولم يكونوا يتوقعون أن يحدث انقلاب حقيقى بهذه السرعة ، ولم ينس أقطاب توده الشعب الإيرانى ككل من بعض « وحلهم » ، فإن الشعب عند الإنقلاب كان لا يزال فى المرحلة الأولى من مراحل الثورة الثلاث التى حددها الرفيق الأعظم ستالين (هكذا) بينما كانوا من سنوات يرون

أن الشعب قد نضج وأصبح فى المرحلة الثانية على الأقل ، فكيف يبدأ الشعب بالمرحلة الثانية وبعدها بسنوات يرتد للمرحلة الأولى ؟ علمه عند ربى وعند أقطاب الحزب العظام كبار التبريريين وصناع النظريات . كان الواقع يقول خلاف ذلك ، فقد كان أقطاب توده يظنون أنه بإزاحة مصدق سوف يخلو لهم الجو ولثورتهم الشاملة ، وكانوا يظنون أن سقوط مصدق لن يؤدى إلا إلى تغيير وزارى عادى جداً وأنه سوف تحفظ لهم مواقفهم التى لم تتغير من مصدق ... لكن الأمر كله كان على خلاف ما يتصورون .

فما أن استقرت حكومة الجنرال زاهدى العسكرية حتى بدأ الفتك بحزب توده ، ولم يصمد الحزب التقدمى الطليعى أقل صمود ، فقد استفادت الحكومة كثيراً من تساهل قادة الحزب واستخفافهم بالموقف وغفلتهم ، وكان أحد الأساليب المضحكة للحاكم العسكرى لطهران هو أخذ تعهد أخلاقى من المعتقلين من حزب توده ، وفى البداية كانت الهيئة التنفيذية للحزب تنعت الذين يوقعون هذه التعهدات وخطابات البراءة بأبشع النعوت ، وكان هذا فى حد ذاته ورقة فى يد النظام ساعدت فى سرعة تصفية حزب توده ، فعن طريق هذا التعهد استطاع أن يميز بين من انضموا إلى الحزب عن عقيدة ممن انضموا إليه بوازع عاطفى أو نفعى أو أى وازع آخر ، كان هذا التعهد هو الجانب الكوميدى الوحيد فى هذه التراجيديا السوداء المريرة فكثير من أعضاء الحزب غير المسلمين مثل « آشور كوجارياناس » أبدوا تبرؤهم من الحزب لأنه يخالف الشريعة الإسلامية . (٨٢)

وكان سقوط الشبكة العسكرية للحزب بعد الإنقلاب بعام (أغسطس ٥٤) خير دليل على تسيب الحزب وعدم تقديره للأمور ، وكان اعتقال النقيب عباسى الذى كان تحت المراقبة سبباً فى سقوط الشبكة العسكرية للحزب التى كانت تضم ستمائة ضابط وإلى إعدام ٢٧ ضابطاً منهم قابلوا الموت بشجاعة وشرف وظلت الكلمات التى قالوها قبل إعدامهم مباشرة نقطة بيضاء ناصعة فى سجل توده الأسود الذى لم تكن قيادته فى يوم من الأيام فى مستوى أعضائه العاديين وكانت كلمات الرائد الجوى منوجهر مختارى گلبايگانى الأخير « على عظامنا

سوف تسير أمة سعيدة » أما الرائد ارسطو سروشيان فقد بشر بالنصر وأوصى بالاتحاد . (٨٣)

هكذا كان الأعضاء ، أما السادة القادة العظام فمثالهم الدكتور بهرامى السكرتير العام للحزب فقد رضى لنفسه العار والذل وكتب خطاباً مشهوراً للشاه إعترف فيه بأنه غرر به أثناء دراسته فى ألمانيا فصار أحد مؤسسى الحزب العميل وأنه اشترك فى كل ماقام به الحزب وما ارتكبه من خيانات لكنه أقل أعضائه ذنباً ، وبصفته سكرتيراً عاماً للحزب وجه نداء إلى الأعضاء القلائل الباقين الذين لم يقبض عليهم بعد بأن يسلموا أنفسهم ووثائقهم ، ليس هذا فحسب بل واعترف بأنه قاد الشرطة بنفسه إلى منزل رفيقه المهندس علوى ، وأوصى المنازل التى تأوى الهاربين بتسليمهم والكوادر الثالثة والأفراد العاديين بأن يسلم كل منهم نفسه وأن يعود إلى عمله ، وأيد وصية أحمد سميعى آخر سكرتير لمنظمة الشباب بأن تحل المنظمة نفسها وفى النهاية توسل إلى الحضرة الشاهنشاهية وهو فى غاية الخجل والندم أن تعفو عنه معاهداً إياه بأن يتعيش من مهنة الطب التى درسها كما طلب العفو من السلطات العسكرية على أن يطيع ماعاش أوامر « الشاهنشاه المعظم ».(٨٤)

وبالقبض على خسرو روزبه انتهت تماماً منظمات حزب توده ، لكن الخطاب الرائع الذى ألقاه خسرو روزبه فى المحكمة خفف قليلاً من تأثير الخطاب الخانع الذى وجهه الدكتور بهرامى : « ... إذا كنت أدافع بصراحة بالغة عن معتقداتى وأفكارى السياسية والاجتماعية فليس لأننى أعتبر الموت شراباً سائغاً ، إن الموت أمر سيىء خاصة بالنسبة لأصحاب العقيدة وأولئك الذين تمتلىء قلوبهم أملاً بالنسبة للمستقبل لكن الحياة بأى ثمن وتحت أى ظروف أمر غير خليق بالإنسان فلا ينبغى أبداً أن تقضى الوسيلة على الغاية .. ولكل إنسان مسئولية تاريخية خاصة ، كانت مسئولية عباسى أن يموت ولا يتكلم ... لكن مسئوليتى أن أتكلم وأموت .. وعندما ألقى القبض علىّ لم يكن هناك سر قد تبقى ، لقد قال أمثال بهرامى وقريشى كل شىء من الألف إلى الياء ، حتى السر الذى كان بين اثنين شاع ، وحجم معلومات النظام الآن عشرة أضعاف

حجم معلوماتى ، لقد بقيت فى إيران لأنجز بعض المهام رغم الخطر ، أمور لم يقم بها أمثال يزدى وبهرامى وقريشى وشرمينى .. فالموت فى ميدان القتال خير من الهرب بنذالة ».(٨٥)

هذا هو حزب توده فى قمة مجده . كان بالفعل أعظم منظمة سياسية فى إيران ، عرف الناس أصول التفكير العلمى وعلمهم أصول التشكيل والنشاط الجماعى وأساليب النضال العلنى والسرى لكنه افتقد القيادة وحسن الفهم فساق آلافاً من صفوة أبناء الشعب إلى المذبحة ، ثم فر القادة أو رضوا ثياب المذلة ، وقام قادة الحزب بأخطائهم واعوجاجهم وتنابذهم وقصر نظرهم وعدم جدارتهم بدفع الحزب إلى التدهور والاضمحلال ، ولم يغفر لهم شعب إيران دماء أعظم أبنائه ، وبكل أسف ، قام من تبقى من « جهاز القيادة العظيم » وهرب إلى الخارج باغتصاب إسم توده وادعاء قيادة الشعب الإيرانى ، والنتيجة أنهم لم يستطيعوا حتى هداية القلة القليلة الباقية من أعضاء الحزب القدماء إلى الطريق القويم ، وعلى مدى إثنين وعشرين عاماً كما سنرى ، قام هؤلاء – الذى لا يدرى أحد أى توده قد انتخبهم – بمواصلة نفس الطرق الملتوية وقصر النظر ، فاما أنهم أضلوا من اتبعوهم أو أسلموهم إلى الشرطة (٨٦) ليس هذا فحسب بل كانت تجربة توده تدمغ أى تيار يسارى يظهر فى إيران ، وكان من حسنات هذا السقوط المريع نمو التيار الإسلامى وطرح الحل الإسلامى ، **ومنذ انقلاب ٥٣ وحتى انفجار الثورة ٧٨ لم يحفل السجل اليسارى فى إيران إلا بالخيانة ولعل هذا الأمر يعد مفاجأة لأولئك الذين كانوا يشقشقون بأن ثورة إيران ثورة يسارية ، ورداً على أولئك الذين يخوفون الآن من انحراف مسار الثورة إلى اليسار**.(٨٧)

كان هذا الفشل الذريع لتوده سبباً فى كثرة الإنقسامات داخل ما تبقى من صفوفه من ناحية ، ومن ناحية ثانية فى محاولة فلول الحزب الإندماج فى حركات وتيارات أخرى ، وفى هذا المجال كان يتجه إلى الحركات الإقليمية الإنفصالية ، وكان هذا فى حد ذاته ضغثاً على إباله ، فإن وحدة أرض إيران لم تكن فى يوم من الأيام مجال مناقشة أو مساومة ، وبعد سقوط الجناح

العسكرى للحزب على النحو الذى أسلفناه لم يعد له أدنى مقدرة على الصمود ، فكما كان الإقبال الجماهيرى على الحزب عظيماً ، كان الإنفضاض عنه أعظم وذلك أن الموقف الذى اتخذه من انقلاب ٥٣ قد أدى إلى نتائج أفدح بكثير مما كانت تتوقعه الجماهير ، وبينما كان الحزب قد أسقط أى دور للبورجوازية من برنامجه فى عهد ما قبل انقلاب ٥٣ ، كان كل ما يصبو إليه مفكروه ومنظروه من أمثال كيانورى الذى ظل يعتبر نفسه المنظر الوحيد للحزب فى الخارج هو محاولة إقامة جسر أو اتحاد بين كل طوائف الشعب بما فيها البورجوازية الوطنية ، والتى كانت بدورها قد فقدت الثقة فى توده تماماً ، ولم يكن أمام فلول الحزب إلا الانضمام إلى تنظيمات ذات سمات إقليمية إنفصالية .

وبعد انقلاب أغسطس ٥٣ مباشرة ، خرج إلى الوجود تنظيمان يعدان استمراراً لتنظيمين آخرين كان لهما فى المقام الأول أهداف انفصالية عن إيران ، كان التنظيم الأول يضم بعض بقايا جماعة الديموقراطيين « جماعة بيشه ورى الانفصالية فى آذربيجان » وضم من أعضاء توده الدكتور بنى طرفه وإسماعيل سراجى وعلى مدنى وحميد نام نريمان وأمين نويد وآقا زاده ، أما التنظيم الثانى فكان يحمل الاسم الحركى لمنظمة استقلال كردستان « كومله » وكان يضم عزيز يوسفى وغنى بلوريان وجليل كاوانى والدكتور مولوى ، وكان سقوط التنظيمين فى وقت واحد تقريباً (فى أوائل ٥٩) ، وبالرغم من أن بعض الأعضاء أبدى شجاعة فائقة فى مواجهة التعذيب سقط آخرون بمجرد تهديدهم بالتعذيب أو تحريك المشاعر العائلية فيهم . (٨٨)

وفى الفترة ما بين سنة ٦٠ وسنة ٧٠ كان حزب توده يعانى من أزمة هبوط فى الشعبية بلغت مرحلة الصفر ، وعندما أعلنت الجبهة الوطنية الثانية انضم إليها الحزب لكنه صفى أثناء تصفية الجبهة سنة ٦٣ . وكانت الركيزة الخارجية للحزب المتمثلة فى الإتحاد السوفيتى تبتعد بالتدريج عن مساندته تبعاً لتطور العلاقات الودية بين النظام الشاهنشاهى والإتحاد السوفيتى ، وكانت الصحافة السوفيتية تمتدح نظام الشاه والتقدم الاقتصادى المذهل فى إيران بينما كان الشاه يقوم بتصفياته الدموية بين اليساريين ، ومن ثم بينما كان اليساريون يمتدحون

مساهمة الإتحاد السوفيتى فى تصنيع إيران وتقدمها ، كان يبدو أن الإتحاد السوفيتى قد أسقط من حساباته محاولة النفاذ إلى إيران عن طريق اليساريين الإيرانيين ، وبلغت الملهاة قمتها عندما وقع اتفاق عسكرى بين إيران والإتحاد السوفيتى سنة ٦٧ ومعنى ذلك أن السلاح السوفيتى سوف يوجه إلى الإخوة فى العقيدة ، وكان النظام قد انتهى لتوه من الفتك بعدد من اليساريين الإيرانيين على رأسهم برويز حكمت جو وعلى خاور (أواخر ٦٦) وربما كانت هذه آخر مرة يحاكم فيها عدد من أعضاء توده فى إيران ، وكانت العلاقات النامية والمتزايدة بين النظام الشاهنشاهى والكتلة الشرقية ذات تأثير كبير على نمو اليسار الإيرانى فقد كانت هناك محطة إذاعة فارسية يديرها كيانورى من بلغاريا تبث برامجها ضد النظام الشاهنشاهى تحت إسم « بيك إيران : رسول إيران » أغلقت فيما بعد بعد توقيع الإتفاقية التجارية بين إيران وبلغاريا .(٨٩)

ومن ناحية أخرى كان للنزاع الصينى السوفيتى وتصاعده تأثير عكسى فى ازدياد حركات الانشقاق داخل اليسار الإيرانى ، ففى أواخر ٦٥ انشق ثلاثة من أعضاء اللجنة المركزية السابقين هم أحمد قاسمى وغلامحسين فروتن وعباس سقايى وكونوا تنظيماً جديداً سموه « سازمان انقلابى : المنظمة الثورية » ، وكان التنظيم ينادى بالثورة الدموية على الفور ويندد بسياسة الوفاق السوفيتى الإيرانى كما يشجب كل ما ورد فى تحليلات توده بعد كارثة ٥٣ ، ومن المنظمة خرج انشقاق جديد يحمل اسم « الطوفان » ، وكانت المنظمة والطوفان اللتان تناديان بثورة دموية فورية (؟) تعملان فى المنفى ، وفى إيران ظهرت منظمتان جديدتان فى أواخر الستينات هما : « ستار سرخ : النجم الأحمر » و « بسوى انقلاب : نحو الثورة » وكانا يعدان لبعض العمليات حين صفاهما الساواك عام ٧١ . (٨٠)

ولعل الدليل على اهتراء الجناح اليسارى وارتجاله فى إيران وافتقاره إلى أدنى درجات التنظيم هو ما تردد عن سيطرة الساواك على فرعى حزب توده فى طهران وخوزستان (وهما من أهم مناطق تواجده) ، وعن طريق هذه السيطرة اكتشفت عشرات الخلايا التى تكونت من شباب لم يشهد كارثة ٥٣ وكان

هدفه تقليد الثائر تشى جيفارا ، وسرعان ما شاع أن عباس على شهريارى رئيس الفرعين ليس فى الحقيقة إلا عميل للساواك (وقد اغتالته المنظمات الفدائية فيما بعد سنة ٧٥) وكان مجرد الكشف عن هذه الحقيقة سبباً فى تشويه توده فوق ما كان مشوهاً بالفعل . وكانت الحادثة الثانية ضغثاً على إبالة وهى تتعلق بالجنرال تيمور بختيار أول رئيس للساواك والذى طرده الشاه سنة ٦١ ثم نفاه ، وبالرغم من أن الجنرال بختيار كان مشهوراً فى الخمسينات بلقب « جلاد توده » إلا أن الخطأ الفظيع الذى سقط فيه الرفاق هو أنهم حاولوا الإتصال ببختيار فى منفاه فى لبنان والعراق والتنسيق معه لمعارضة ضد الشاه ، وكان هذا الحادث تعرية جديدة لحزب توده أمام الشعب الإيرانى وسبباً فى فقدان الثقة به إلى الأبد (٩١) وحتى المنظمات اليسارية التى ظهرت بعد ذلك كانت تعتبر توده حزباً للخونة وأنه مارس طوال تاريخه سياسة معادية للشعب ولا تعمل إلا لصالح الإتحاد السوفيتى الذى طعنه فى الظهر فى سبيل المصالحة الاقتصادية مع نظام الشاه ، ولم يكد مؤسسوه يتجهون إلى بكين حتى سقطت بكين فى حبال المصالح الاقتصادية مع نظام الشاه .

وانبثاقاً من سقوط توده شعبياً ، وانضماماً إلى الحركة الشعبية الهائلة وطرح أسلوب الصراع المسلح ، وتأسيساً ليسار وطنى ظهرت سازمان فدائيان خلق : منظمة فدائيى الشعب والتى سنتحدث عنها تحت إسم الفدائيين ، وينتمى مؤسسوها الستة إلى منظمة الشباب فى حزب توده وزعيمهم بيزن (تنطق بيجن بتعطيش الجيم) جازانى . وكان جازانى قد سجن مرة بعد إنقلاب ٥٣ ، ثم مرة أخرى بفضل جهود شهر يارى عميل الساواك داخل المنظمات اليسارية (وهذا يدل على أنها كانت تعمل أيضاً بتنسيق من توده) ، وبقى بعض الأعضاء المؤسسين ومنهم على أكبر فراهانى ومحمد آشتيانى أحراراً حيث فرا من إيران وانضما لمدة عامين إلى المنظمات الفلسطينية ، وظل الثلاثة الآخرون يعملون سراً فى إيران تحت زعامة حميد أشرف (وكان بطل جامعة طهران فى تسلق الجبال) وفى عام ٧٠ عاد فراهانى وآشتيانى إلى إيران حيث انضم إليهمااثنان وعشرون عضواً لم تعلم أيديولوجيتهم ، وهذه المجموعة هى التى قامت بعملية سياهكل والتى يدعى المجاهدون اشتراكهم فيها ، وفى خلال عدة أيام بعد العملية فتك الساواك بخمسة عشر عضواً من المجموعة .

وفى نفس تلك الفترة تقريباً تشكلت مجموعة جديدة من الفدائيين تحت زعامة مسعود أحمد زاده (وهو ابن طاهر أحمد زاده أحد المجاهدين الإسلاميين) وهى التى هاجمت فى ربيع ٧١ نقطة الشرطة فى قلهك ، بينما استطاعت مجموعة حميد أشرف بالرغم من الضربات التى منيت بها إغتيال المدعى العام العسكرى ، وفى أعقاب هذه الحادثة اتحدت المجموعتان : مجموعة حميد أشرف ومجموعة مسعود أحمد زاده وكونتا : سازمان چريكهاى فدائيان خلق : أى منظمة فدائيي حروب عصابات الشعب والتى عرفت باسم منظمة الفدائيين . (٩٢)

والملاحظ أنه فى الفترة ما بين ٧١ و ٧٥ كان التنسيق كاملاً بين المنظمتين الكبريين : المجاهدين والفدائيين بحيث أن العمليات التى تمت فى هذه الفترة لا تنسب إلى واحدة من الجماعتين وحدها فإلى جوار اغتيال المدعى العام العسكرى (ابريل ٧١) تم اغتيال مصطفى فاتح وهو أحد رجال الصناعة قتل عدداً من العمال فى إضراب ٧١ (أغسطس ٧٤) وفى مارس ٧٥ اغتيل رئيس نقطة البوليس فى جامعة آريامهر كما اغتيل الجنرال طاهرى أحد كبار مسئولى الساواك فى وقت سابق ، وضمت قائمة الاغتيال عدداً كبيراً من العاملين الأمريكيين فى إيران على رأسهم لويس هوكينز من السفارة الأمريكية (يونية ٧٣) واثنين من ضباط السلاح الأمريكى وعدداً آخر من المستشارين الأمريكيين . (٩٣) .

وشهد أواخر سنة ٧٥ وبداية ٧٦ حرباً أهلية بالمعنى الحقيقى بين المنظمات الثورية ، وبينما يرى بعض الباحثين أن السبب فى هذه الحرب محاولة الجناح الماركسى فى منظمة المجاهدين السيطرة على المنظمة (٩٤) يرى البعض الآخر أن منظمة المجاهدين قد ارتدت عن ايديولوجيتها الإسلامية وأعلنت اعتناقها للماركسية اللينينية (٩٥) ويكذب هذا الإدعاء النشرات التى أصدرتها المنظمة بعد سنة ٧٥ وكلها تنبثق من فكر إسلامى ، والأقرب إلى الصواب أن عدداً من الماركسيين قد تسللوا إلى منظمة المجاهدين بهدف تصفيتها وهم فى هذا كانوا يلتقون مع النظام الذى كان متخوفاً من النمو السريع للحركة الإسلامية .

وفى أوائل **٧٦ حدث ما سمي بانقلاب المنافقين** ، وبعد إعلان بعض الأعضاء من الذين كانوا يتظاهرون بأنهم من المجاهدين اعتناقهم الماركسية حدث انشقاق استمر طوال صيف ٧٥ ، ولعل الساواك لعب فى هذا الأمر لعبة ما بالجناح اليسارى (ليست بين أيدينا معلومات مؤكدة) ، فإن عدم قبول الماركسية كان يضع كبار مؤسسى المجاهدين الذين أرادوا المحافظة على وجههم الإسلامى فى صف واحد مع أعداء الشعب فى نظر الماركسيين ، ومن ثم قام الماركسيون باغتيال عدد كبير من زعماء المجاهدين منهم مجيد شريف واقفى كما أنهم فى محاولة لاغتيال مرتضى صمديه لباف أوقعوه فى يد الساواك (٩٦) ، كان معظم مؤسسى منظمة الفدائيين قد قتلوا فى ذلك الوقت (قتل فراهانى بعد القبض عليه فى عملية سياهكل وقتل بويان فى طهران ٧١ وأحمد زاده ٧١ وجازانى فى مستهل ٧٥) ، **وكان بقية الفدائيين يريدون السيطرة على منظمة المجاهدين بشروطهم ، ولما لم يفلح بيان الإنضمام إلى الماركسية وأحدث ضجة فى الأقاليم وفى الجماعات الصغيرة المنبثة هناك والتى كان أغلب أعضائها من المسلمين الحقيقيين وإن كانت قياداتها من الماركسيين** (٩٧) حدث الصراع العلنى بين الجناحين ، وتكاد الصورة تتضح الآن : إن الإفلاس الذى منيت به الماركسية فى إيران من جراء أخطاء توده أوعز إلى بعض زعمائها الظهور بمظهر إسلامى والتسلل بين صفوف المجاهدين كمسلمين ومعتنقى إيديولوجية إسلامية ، ولما أحسوا ببعض القوة حاولوا مركسة المنظمة ، ولما لم يفلحوا عمدوا إلى تخريب المنظمة من الداخل واغتالوا حوالى عشرين من أعضائها البارزين ، وسرعان ما التقط الساواك الخيط ، فدس بين جماعات اليساريين من ألقى فى روعهم أن المنظمة الإسلامية سوف تثأر لقتلاها لا محالة وسوف تقدم من تعرفهم من الماركسيين إلى الساواك ، وقام الساواك باعتقال عدد كبير من اليساريين لتأكيد هذه الدسيسة ، وفى الليلة الأولى للاعتقال اعترف محسن خاموشى ووحيد افراختة بكل أسرار المنظمة ، ولكى يحبك الساواك المؤامرة واجه بين محسن خاموشى وآية الله الطالقانى فى السجن ، وعندما قام آية الله الطالقانى بتوجيه اللوم إلى محسن خاموشى على خيانته كان رد محسن خاموشى : لقد تركتمونا وحدناً.(٩٨) ومن هنا يتضح ما ذهبنا إليه .

كان المستفيد بالطبع من هذه العمالة للماركسية والخوف من الجناح الإسلامى هو النظام ، وكان يدس كثيراً من الماركسيين فى السجون على المجاهدين كجامعى معلومات ولبث الفرقة بين السجناء واغتيال من تراهم الدولة من الخطرين داخل السجن ثم تصوير الحادث كخلاف ايديولوجى أوعادى داخل السجن ، وكان الهدف من كل ذلك وضع الإسلاميين فى مواجهة مع الماركسيين تصرفهما عن العدو الحقيقى (٩٩) **ومن ثم كان الاسم الذى يطلقه الإسلاميون على الماركسيين فى السجن هو « الكامونيين » نسبة إلى عربة النقل فكل واحد** من الشيوعيين كان يقبض عليه كان يجر خلفه عربة نقل من المجاهدين المسلمين الذين أفشى أسرارهم ودل عليهم (١٠٠) وكان النظام يستفيد كثيراً من إندساس الشيوعيين فى أوساط المسلمين فى تأكيد دعايته التى كانت تقوم على أن كل المجاهدين « ماركسيون مسلمون » ، وكثيراً ما ادعى اليسار عضوية كثير من الشهداء فأشاع عن حسن آلاد بوش أنه كان ماركسياً ولم يكتشف الأمر إلا بعد استشهاده بسنوات ثلاث عندما وجدت وصيته كما أشاع عن مجتبى طالقانى نفس الأشاعة ، (١٠١)وحلا للإعلام الغربى كثيراً أن يصور آية الله سيد محمود طالقانى الفقيه العظيم والمجاهد الإسلامى الكبير بأنه « الشيخ الأحمر » ، وكان هذا يثير كثيراً من البلبلة كان النظام يستغلها فى ضرب الحركة الإسلامية .

وفى أواخر آذرماه ٥٥ (ديسمبر ٧٦) ، وفى هجوم للنظام على جماعة من منظمة تحرير شعوب إيران : « سازمان آزاديبخش خلقهاى إيران » الماركسية قتل ثمانية أشخاص وقبض على أحد عشر شخصاً ، وقام المقبوض عليهم بالإدلاء للساواك بمعلومات واسعة عن الهيئة الثورية لبعض الأحزاب والمنظمات ومنها حزب توده وبعض المنظمات الإسلامية ، ونشرت المعلومات فى صحف النظام كما حوكم هؤلاء محاكمة علنية بثها التليفزيون على غير العادة فأقر المتهمون بجهلهم وأبدوا ندمهم ، وكان أغلب أعضاء هذه الجماعة ممن تلقوا تعليمهم فى الصين ، وسقطت بعد أن أفشى سرها سيروس نهاوندى الذى كان زعيماً للمنظمة وعميلاً للساواك فى الوقت نفسه ، وعندما اكتشفت الجماعة الأمر حاولت الإنسحاب من المنظمة دون ضجة لكن سيروس نهاوندى سارع إلى الفتك بها . كان سيروس نهاوندى قد شكل منظمته سنة ٦٩

كانشقاق عن حزب توده ، وبعد أن قامت المنظمة بعمليتين هما الهجوم على البنك الإنجليزى الإيرانى ومحاولة خطف السفير الأمريكى فى إيران ، قبض على سيروس نهاوندى وعدد من جماعته ، وفى السجن تم الإتفاق بينه وبين الساواك حيث نقل إلى المستشفى وتم تهريبه وكتب عدة كتيبات عن « بطولاته » أثناء هربه وزعتها اللجنة المركزية لحزب توده ، وبمعونة من الساواك شكل سيروس نهاوندى تشكيلاً متعاوناً يسمى الساكا (اختصار سازمان إنقلابى كميونيست هاى ايران : المنظمة الثورية للشيوعيين الإيرانيين) والمعروف أن الضربات الأخيرة التى كيلت لمنظمة الفدائيين بعد الحرب بين المنظمات وطوال سنة ٧٦ كانت من طرف منظمة الساكا . (١٠٢) .

والواقع أن عام ٧٦ كان عام تصفية الحركات السرية فى إيران ، فمن ناحية لم تسترد منظمة المجاهدين مستواها بعد تصفيات ٧٥ / ٧٦ ، أما الجناح اليسارى فلم يبق منه إلا بقايا منظمة الفدائيين ، وكان من الواضح أن الجناح اليسارى ككل دخل فى مرحلة تفاهم مع النظام.

وفى تقرير لالفريد أثرتون مساعد وزير الخارجية الأمريكى لشئون الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا أمام اللجنة الفرعية للمنظمات الدولية التابعة للجنة العلاقات الدولية فى مجلس النواب الأمريكى قدم سنة ٧٦ : أن ٩٠٪ من الذين ألقى القبض عليهم بعد كارثة ٥٣ هم الآن من مؤيدى النظام الحاكم وأن عدداً من الأعضاء السابقين فى حزب توده يحتلون الآن مراكز مؤثرة داخل الجهاز الحكومى فى هيئة التخطيط وفى الساواك كما يعملون كشراح مرخص لهم لعرض إيديولوجية يسارية تثير البلبلة ، كما ضمت إحدى الحكومات الإيرانية التى شكلت مؤخراً وزيرين من أعضاء الحزب القدماء (١٠٣) .

كان هذا السقوط المريع لليسار الإيرانى فى صالح الحركة الإسلامية ، فقد كان **هؤلاء الماركسيون الشاهنشاهيون بتعبير الجماعات الإسلامية أو الماركسيون الأمريكيون بتعبير الفدائيين آخر حلقة فى سلسلة الخيانة الماركسية فى إيران ، وكان ظهور أمثال نيكخواه ولاشائى وميلانى**

ونوشيروان بور وفقيه دزفولي وقاسمي وغيرهم في صفوف نظام الطاغية علنا ضربة قاصمة ليس للحركة الإسلامية كما كان متوقعاً بل لليسار الإيرانى نفسه الذى كان قد اتضح أنه أفلس أيديولوجياً كما أفلس بشرياً من قبل ، فلم يعد أمام محتكرى الدفاع عن مصالح الشعب الإيرانى إلا التحالف مع الشيطان ، وكان هذا ضربة لليسار الوطنى الممثل فى منظمة الفدائيين ، فالشكوى المستمرة هى النقص فى العنصر البشرى وهو نقص خطير فى حروب العصابات ، ومن ثم فإن الضحايا المخلصين الذين قدمهم اليسار من أمثال أشرف دهقاني وغيرها عادة ما كانوا يحسبون من المجاهدين (إلى هذا الحد) ومن نافلة القول أن نذكر أن هذا السقوط المريع لليسار الإيرانى وتحالفه مع النظام الشاهنشاهي فى مرحلة من أدق مراحل النضال لم يكن له من سبب إلا انصراف الشعب الإيرانى عنه وكشفه إياه ، ووجوده فى مواجهة جماهير ساخطة ونظام لا يقبل المهادنة ، ومن ثم كان اختياره للنظام بديلاً عن التصفية النهائية ، ولعله فعلها كحل تكتيكى مرحلى لتصفية الحركة الإسلامية ثم الوثوب على السلطة ، لكن الحركة الإسلامية لم تمهله أو تعطه الفرصة .

وتجلى هذا الموقف المخزى فى عام الثورة فبينما نظمت الحركة الإسلامية وتبعتها جماهير الشعب تحت قيادة جناح علماء الدين المناضلين ، وحتى بعد أن تحددت أهداف الحركة تماماً كان اليسار الإيرانى لا يزال فى شكوكه وجدله واعوجاجه ، فقام توده من تحت التراب يجرجر أكفانه ويدبج النظريات الموافقة لمقتضى الحال بقلم كيانورى ، ولم يتصد له الجناح الإسلامى بل تصدت له منظمة الفدائيين اليسارية ، وبينما كان الفدائيون يعترفون بأن منظمتهم « جزء من الطليعة المسلحة للشعب » (١٠٤) وصفوا توده بأنه : يتمثل فى معالجة أولئك الساسة التقليديين المكبوتين الذين اختفوا فى مخابئهم الدافئة خلال السنوات الشتوية الباردة للحركة ، والذين كانوايصدرون الأوامر وبرامج العمل مكررين طلباتهم الديموقراطية المضحكة من النظام الفاشيستى . **وهؤلاء الناس لم يتعلموا شيئاً من تجاربهم السابقة وليسوا بصدد التعلم منها بعد فهم يتعدون عن الجماهير ونضالاتها يوماً بعد آخر فاقدين سبل المواجهة الخلاقة والمخلصة لمشاكل الحرية فهم مصابون بالفهم الخاطىء والإنحراف النظرى.**(١٠٥)

وبينما كانت الثورة في معمعتها إذا بالمنظرين أتباع الحركة الطفرية والإنقلاب الدموى الثورى يريدون على حد قول **لينين أن يساوموا الحكم القيصرى بالأسلوب المرن وبأساليب إصلاحية وعن طريق الغفران والتسامح** (١٠٦) ويتعلل الجناح الطليعي الثورى بأن المعركة غير متكافئة ، ويطلقون هذه الصيحات الإنهزامية في قلب ميدان المعركة ، فمتى كانت المعركة متكافئة ؟ إنهم يقولون : طالما لا يوجد الظرف الموضوعي لا يجوز خوض المعركة .. لا بد من العمل السرى السياسي البحت والعمل التنظيمي ، كي يمكن دفع كافة القوى في معركة متكافئة ، وترد الجماعة الماركسية على مبتدعي الماركسية ومؤسسيها في إيران : لكن : ما هي مكتسباتكم التنظيمية الثورية وما هي حصيلة نشاطاتكم السرية خلال ما يقرب من عقدين ؟ وما هي القوى التي نظمتموها وجندتموها ؟ (١٠٧) ، ومن هنا بينما كان النصر قاب قوسين أو أدنى أخذ توده يمارس هوايته العظيمة في وضع النظريات وتهدئة المعركة ، إلى درجة جعلت من يتصدى له هذه المرة جناح ماركسي آخر كان أكثر وعياً بطبيعة المرحلة وألصق بالجماهير وأكثر فهماً لآمالها .

وبتقدم الحركة كانت قيادات توده تصر على تقديم الحلول والإقتراحات المتناسبة بالطبع مع حجم تطور الحركة فبينما كان الفدائيون يصرون على : **أنه لا بد من أن يخرج النضال الأيديولوجي عن إطار النقاشات العصبوية والتجريد الخاص بالمثقفين المنعزل عن الممارسة الفعالة ، ويلتحم بالممارسة الثورية وبنضال الجماهير ليصبح موضوعية ديناميكية ثورية للوحدة داخل الحركة الثورية**.(١٠٨)

وبصرف النظر عن هذا الأسلوب المتقعر الذى يصر اليسار على استخدامه ، فهو يريد ببساطة أن يلتحم اليسار بالجماهير ، خرج توده والثورة على أشدها يطالب بإقامة الجمهورية البورجوازية : « **إن الهدف الإستراتيجي للحركة الثورية هو إقامة دولة من النوع الوطني الديموقراطي مما يعني الدولة التي تتبنى سلطة الشعب بقيادة الطبقة العاملة ممهدة الطريق لتحقيق الإشتراكية ، ولتحقيق هذا الهدف لا بد من إسقاط النظام البوليسي للشاه وإقامة دولة من النوع الجمهورى البورجوازى ، لأنه في الظرف الراهن على بلادنا أن تمر**

أولا بمراحل معينة من النضال المعادى للإمبريالية والرجعية والذى يتميز فى ظروفنا بشعار الدفاع عن الديموقراطية البورجوازية أيضاً ... ولتحقيق هذا الهدف لا بد من إقامة جبهة واسعة من كافة القوى المعارضة للنظام ، وهذه الجبهة لا تمثل القوى الشعبية من عمال وفلاحين وبورجوازية صغيرة وبورجوازية وطنية فحسب ، بل - وانتبهوا قليلاً - يوجد من بين الطبقات الإيرانية الحاكمة عناصر تدافع عن هذا الموقف التقدمى أو ذاك وعن هذا الشعار المعادى للإمبريالية أو ذاك وعن هذا المطلب الديموقراطى أو ذاك (١٠٩) كان هذا هو كل ماوصل إليه توده بعد كفاح أربعين عاماً ، التنازل والنظر بعين الرعاية إلى البورجوازية الصغيرة التى كانت موجودة بالفعل فى خضم العمل الوطنى منذ ما يزيد عن مائة سنة ممثلة فى السوق الإيرانى التقليدى وشريحة عظيمة من المثقفين وإلى ماذا كان يهدف توده من هذا التنازل العظيم ؟ يقول : **نحن نعتقد بأن هناك قوى وعناصر لا بأس من أن نمنحها انتباهنا داخل الطبقات الحاكمة الموجودة ، وكل منها بدوافعها الخاصة تعارض استمرار النظام الراهن وهى مستعدة للتعاون فيما لو وجد منظور ملحوظ تعلق عليه آمالها ...**

وأخيراً من الطبيعى أن يفضل حزب توده كونه حزب الطبقة العاملة الإيرانية أن يتسلم زمام الحكم التيار الأسلم والواقعى فى الهيئة الحاكمة بدلاً من هذه الشريحة الفاسدة الميالة إلى الفاشية التى تعرض مصالح الوطن العليا للخطر فى رأينا ، وإن هذه المسألة لجديرة بالأهمية البالغة حيث يمكننا هذا النوع من نقل القوة بمثابة الشعار التكتيكى المتلائم مع المرحلة . (١١٠)

أجل : هذا هو ماكان يحاول توده تقديمه فى هذه المرحلة الفعالة : تكوين جبهة لا بأس من أن تضم بعض العناصر الحاكمة ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه القوى الإسلامية قد رفضت أى شكل من أشكال التفاهم مع النظام أو اللقاء معه فى منتصف الطريق ، جاء توده وحاول أن يكبل الأمانى الشعبية ، ويعود إلى أنصاف الحلول وأرباع الحلول واللاحلول فى سبيل عملية نقل القوى ، ويصر بسخف ما بعده سخف على أنه الممثل الوحيد للشعب الإيراني ثم : ألا يشتم فى هذه الدعوة إلى إدخال بعض عناصر الهيئة الحاكمة فى الجبهة

التى سوف تجاهد للقضاء على الهيئة الحاكمة رائحة الخيانة ؟ ثم أليس من الغباء المطلق وانعدام الرؤية السياسية أن يدعو توده إلى مراعاة الظروف والأحوال والوعى بمرحلة الكفاح فى وقت كانت مرحلة الكفاح قد تشكلت فيه تشكلاً تاماً واتضحت الأهداف والقيادات ؟ وأليس من المهين للحركة الوطنية أن يدافع توده عن بعض الموجودين داخل الهيئة الحاكمة فى حين أن الشعب كله كان قد قام ضد هذه الهيئة الحاكمة بأكملها ؟ إن لم تكن هذه خيانة فماذا يمكن أن تكون ؟

وحتى الفدائيين بالرغم من ثورتهم على توده ، لم تخل هى الأخرى من وجه ساخر مضحك فى هذه الكوميديا السوداء التى لعبها اليسار الإيرانى على مر تاريخه ، ففى بداية خريف ٧٨ والثورة الإيرانية على أشدها والمظاهرات والمسيرات والإضرابات محتدمة ، كان الفدائيون لا يزالون يحلمون بالعمل السرى وبتكوين الخلايا فى النقابات وبين الطلاب وفى أجهزة الإعلام (١١١) وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أنهم لم يكونوا على وعى بالمرحلة التى تمر بها الثورة ، فبينما كانت تقترب من مرحلة الذروة والنصر كان الفدائيون لا يزالون يعتبرونها فى حاجة إلى إعداد ، ومن يدرى ؟ لعلهم كانوا يقصدون ثورتهم هم ، لعلهم كانوا يقصدون الإعداد للثورة الشيوعية التى تمهد لديكتاتورية الطبقة العاملة فى إيران ، وفى الوقت الذى كان الشعب الإيرانى فى صراع مباشر وعلنى مع السلطة ، كان الرفاق يصدرون البيانات العسكرية التى تمجد اغتيال ضابط من ضباط السافاك (العقيد زمانى بور) فى حين أن النظام كله كان يتعرض لأشد الضربات على يد جماهير الشعب الإيرانى (١١٢) .

هذا هو دور اليسار الإيرانى فى مراحل النضال المختلفة وفى مرحلة الثورة وعلى مدى أربعين عاماً ، **والواقع أن هذا الدور قد ضخم كثيراً وأعطى حجماً أضعاف حجمه الحقيقى ، ولم يكن ذلك بالطبع إلا للغض من شأن الوجه الإسلامى للثورة الإيرانية ، وليس غريباً – كما قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى – أن يكون الإعلام الغربى سبباً فى تضخيم الصورة إلى هذا الحد ، ففى وقت من الأوقات لم يكن هناك من شغل للإعلام الغربى إلا التهويل**

من حجم اليسار الإيرانى ، والسبب في ذلك واضح بالطبع ، وشاركت الكتب التى صدرت فى أوربا بعيد انتصار الثورة فى تأكيد هذا الإنطباع ، وأليس من الغريب حين تقترح البدائل عن نظام الشاه ألا يطرح الحل الإسلامى فى صحف الغرب وكتبه ؟ (هوليداى مثلاً الذى حلل اليسار تحليلاً وافياً وذكر آية الله الخمينى فى عبارة واحدة كزعيم من زعماء السوق (١١٣) واعتبر المجاهدين منظمة ماركسية وخصص فصل المعارضة فى كتابه للماركسية وتجاهل تماماً الحركة الإسلامية وأعمالها الفكرية ..) ومن الممكن أن نفسر هذا الموقف على أنه تجاهل وليس جهلاً ، أو ربما كانت تلك أمانيهم يصبونها فى كتبهم التى ينقاد إليها الشرق (الإسلامى) خبط عشواء ، وربما عن وعى.

وإذا كان من الثابت أن المقاومة المسلحة بشقيها الإسلامى واليسارى قد تعرضت لتصفيات دموية قبيل اشتعال الثورة (١١٤) وأن الثورة الإيرانية كانت من بناء أجيال النضال ومن تنفيذ رجل الشارع والرجل العادى الذى لم ينضم إلى منظمة أو تشكيل ، فعلينا أن نبحث السبب فى هذه الشمولية فى وجود رجل واحد على رأس هذه الثورة ، أجل رجل واحد ، وقد يبدو هذا غريباً ، لكن دور آية الله الخمينى ، وهو دور لم يدرس حتى الآن دراسة خاصة فى حاجة منا إلى فصل مستقل .



الفصل الثالث

الروح والمثال والمحرك
آية الله الخمينى

« إن الخمينى هو المرآة التى
ينعكس فيها المجتمع »

أبو الحسن بنى صدر

هكذا كان حال الجماعات المسلحة والمعارضة المنظمة ، إما أنها صفيت فى الداخل عن طريق الخيانة والإنقسامات الداخلية ، وإما أنها كانت تقوم بعملها فى الخارج عن طريق تنظيم المظاهرات أو حضور المؤتمرات أو نشر الإعلانات والاحتجاجات .. فكيف حدث أن ثارت كل إيران ؟ كيف حدث أن كانت المظاهرات فى عام الثورة تضم مئات الآلاف والمسيرات تضم الملايين ؟ كيف حدث أن كل قرية صغيرة لا يكاد يرى لها إسم على خريطة إيران غير ذات الكثافة السكانية إلا فى المدن قد هبت وساهمت بجزء ولو قليل من ضريبة الدم ؟ كيف حدث أن عبىء شعب بأكمله ضد نظام كان يفخر بأنه قد أحكم سيطرته وأنه باق إلى ألف عام ؟ الجواب فى عبارة بسيطة :وجود آية الله الخمينى على رأس الثورة .

وبالرغم من بساطة الجواب إلا أنه يثير كثيراً من الأسئلة : كيف يمكن أن يعزى نجاح ثورة إلى وجود فرد مهما كان هذا الفرد ؟ كنت بعد نجاح الثورة

أكبر أن يكون نجاحها قد قام على أكتاف فرد ، إلا أن دراستى للمعارضة الإيرانية وحجمها قبيل الثورة واكتشافى أن المعارضة الجماعية للشعب لم تكن منظمة ولم تمتلك حزباً قوياً أو جبهة تحرير قوية ، قد طرح على الفور أهمية دراسة دور آية الله الخمينى فى نجاح الثورة ، فمهما كان اهتراء نظام أو فساده إلا أن النظم المهترئة لا تسقط وحدها ولا تنهار دون أن يساعد عامل أو عدة عوامل فى انهيارها ، وكانت كل العوامل موجودة داخل إيران ، داخل البنية الإجتماعية والاقتصادية والسياسية وكانت مكبوتة فى قلوب الجماهير الصامدة الصابرة ، وكان الذى نقلها من القوة إلى الفعل ومن القلوب إلى المجتمع هو آية الله الخمينى .

هذا هو البعد العظيم ، البعد الإنسانى من أبعاد الثورة الإيرانية ، فليس الحديث هنا عن آية الله الخمينى إلا لأنه هو الذى جلا هذا البعد الإنسانى فى أروع صوره ، وعن طريق سيطرته الروحية على الملايين استطاع أن يحركها ، وبتوجيهه استطاعت أن تقضى على النظام الشاهنشاهى بعد ألفين وخمسمائة عام ، ولو كان الإمام الخمينى سياسياً عظيماً محترفاً أو قائداً عسكرياً قوياً أو ثورياً نارياً محترفاً فلا مجال هناك للعجب العجيب فى الأمر أنه رجل دين وشيخ كبير هدته السنون أخذ يقاتل وحيداً أعظم الحكومات وأكثرها عنجهية وغلظة وتسلطاً طيلة خمس عشرة سنة دون أن تلين له قناة وعن طريق الكلمة ، ولم تكن كلماته بالبليغة أو النارية لكنه نفث فيها من روحه العظيمة ، وألقاها فى قلوب الآلاف ثم الملايين من شعبه وبعث فيهم الأمل فكأنه إسرافيل نفخ فى الصور فإذا بأبناء شعبه من الأجداث قد قاموا سراعا ينسلون . (١١٥)

فى القرن الحالى عصر المؤسسات العسكرية العظمى حيث لا أمل فى تغيير إلا عن طريق الجيش ، يوجد فقط ثلاثة من الزعماء قادوا ثورات شعوبهم من المنفى حتى النصر : لينين وديجول وكاسترو ، لكن هؤلاء الزعماء لم يبقوا خارج ديارهم أكثر من خمس سنوات ، وكان كل منهم مستنداً على تشكيلات سياسية وعسكرية داخل وطنه ، فى حين أنه لم يكن هناك أى تنسيق بين الخمينى وبين الجماعات العسكرية داخل وطنه وحتى مرحلة من مراحل الصدام

الفعلى كان يعمل وحيداً ، هذا إلى جوار أن انتصار ديجول كان مرهوناً بانتصار الحلفاء ، وأن لينين وكاسترو لم يعودا إلى وطنيهما إلا بعد الإنتصار الفعلى للثورة ، وإلى جوار ذلك كان كل واحد من هؤلاء خطيباً مفوهاً .

أما العامل الذى يميز شخصية الإمام الخمينى من بين زعماء العالم فهو صموده ونقاؤه وحسمه فى مواجهة الظلم دون أى نوع من التراجع والمهادنة والتفاهم وبقدر من التحمل الشديد للشدائد والمظالم والمصائب والآلام التى تصل إلى حد الاستعداد للشهادة وبذل الروح ومن هنا لقب فى إيران بالشهيد الحى ، لم يهن عزمه يوماً أو ساعة أو لحظة من خلال المواقف العديدة التى وقفها فى مراحل كفاحه ، كان يدرك أنه إن وهن لحظة أو تفاهم أو تقهقر خطوة فسوف يفقد الظهير القوى : التأييد الشعبى أو على حد تعبيره هو نفسه : يكون قد أنزل الأيدى الممتدة عالياً وارتكب الخيانة العظمى . ومن هنا صار عالم الدين المنفى فى فترة تقل عن أربعة شهور مثالاً للصمود ومظهراً للنضال والمقاومة ثم الزعيم الشمولى السياسى والدينى للثورة بلا منازع . (١١٦)

وساهم النظام الإيرانى بجبروته وجهله وغبائه فى تحويل آية الله الخمينى إلى زعيم عالمى ، فكان التضييق عليه فى العراق ، وعدم قبوله لاجئاً فى الكويت وهجرته مجبراً إلى فرنسا خطأً كبيراً ، لأن هذه السياسة هى التى حولت الزعيم الدينى المغمور والمعروف فحسب على الصعيد الشيعى فى إيران والعراق ، والذى كانت علاقاته بأتباعه تقتصر فحسب على الشرائط المسجلة والخطابات والمنشورات إلى زعيم سياسى عالمى جهزت مجموعة العمل التى لحقته فى المنفى بأحدث الوسائل ، ولم يعد يمر يوم دون أن يسرع إليه المراسلون والصحفيون من كل أنحاء العالم يستمعون إليه وينشرون آراءه ، وعلى الصعيد الداخلى ، كانت مطاردة هذا الشيخ بهذا العنف الزائد تثير مشاعر التعاطف عند شعب مشهور بحدة عواطفه وعمق انفعالاته ، ومن ثم فقد نقل الإمام الثورة إلى العالمية ، وجمع حوله القلوب دون مجهود يذكر.(١١٧)

ومن أهم أبعاد شخصية الإمام أنه عالم دين ومرجع تقليد أى واجب الطاعة والإقتداء ، ومن ثم ففتاويه وتوجيهاته أوامر ، وتصرفاته مجال تأسى واقتداء ،

والبنية التحتية للشعب الإيرانى لا تزال دينية ، وأن يكون عالم دين على رأس الثورة أمر ليس بالهين فى المجتمع الإيرانى ، فالإمام لم يكن فى يوم من الأيام قابعاً فى مقره الدينى ، بل كان من أوائل الشيوخ فى العصر الحديث الذين استطاعوا أن يكشفوا النقاب عن الوجه السياسى التقدمى للإسلام ، وجعل قضايا الدين المطروحة من القضايا التى تهم الفرد العادى فى حياته اليومية ، فمؤلفاته عن العبادات قليلة وميدان عمله الرئيسى التشريع ، ولا شك أن هذا التنسيق العظيم بين الزعامة السياسية والزعامة الدينية وجمعهما فى شخصية واحدة كان له أقوى الأثر فى نجاح الثورة الإيرانية ، فإن وجه الإسلام الذى قدمته الثورة يعد من أهم إنجازاتها . (١١٨)

من أين استطاع الإمام الدينى أن يجمع فى يده كل ما حدث فى وطنه ؟ من أين استطاع أن يضع يده على الداء العضال ؟ إن من أهم ما يميز شخصية الإمام كزعيم بلا منازع للثورة الإيرانية **وضوح الرؤية عنده بالنسبة للعوامل المتشابكة التى أدت إلى تخلف الشعب الإيرانى ، ونفاذه إلى أساس هذا التخلف أى العلاقة الوثيقة التى تربط بين النظام والإمبريالية الأمريكية** ، لقد أدرك بهذه البصيرة النفاذة أن كلاً منهما يعتمد على الآخر وأنه ينبغى محاربتهما معاً ، وفوق ذلك كان الإمام يعى تماماً مصائب سياسة الوفاق بين الدول الكبرى وأن الشعوب الضعيفة هى كبش الفداء فيها ، كان يدرك بعمق نظرته النفاذة أخطر النتائج التى تكمن خلف أقل القرارات أهمية فى نظر أولئك الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ضالعين فى السياسة أو أولئك الذين قضوا أعمارهم فى المجالس النيابية أو اللجان العليا للأحزاب أو فوق كراسى رئاسة الوزارة ، وكان مما يثير الدهشة لدى الكثيرين فى إيران ممن يعتبرون أنفسهم على علم ببواطن الأمور ويمسكون فى أيديهم بأساس « اللعبة » أن هذا الشيخ أقوى بصيرة منهم جميعاً ، وأنه كان يقرأ فى كتاب الغيب ما يكمن خلف بريق القرارات وضجة الدعاية الشاهنشاهية التى كانت تخلط بين الألوان وتقوم بشعوذة لا يستطيع أولئك السياسيون المحترفون تبين ما يكمن خلفها . لماذا ؟ **لأن الإمام استطاع أن يعبر عما يدور فى خوالد الناس العاديين المطحونين ، وأن يطرح التساؤلات التى كانت تدور بينهم همساً ، وبذلك استطاع أن يبدل الإحساس**

الدينى إلى رؤية دينية للأمور فنجا بحركته من مجرد الوقوف عند الأحاسيس والعواطف التى تفور فى فترة من الزمن ثم تقمع لانعدام التنظيم وعدم وضوح الأيديولوجية ، واستطاع أن ينقل إلى أدنى الجموع ثقافة فى إيران أن الدين ليس صوماً وصلاة وعبادة فقط ، وأن المصلي والصائم والمتعبد إن سكت على الظلم فلا صلاة له ولا صوم له ولا عبادة له .

ولعل مما يجلى هذه السمة من سمات شخصية الإمام ذلك الترابط بين مفهومى الدين والوطن عنده ، والذى يلحظه الباحث فى أعماله العلمية ، وتبدو كتبه فى هذا المجال محاولة للربط بين أدق المسائل الدينية وبين المجتمع وتقريب الدين إلى أفهام العامة ، لم يفهم المرجعية العظمى على أنها غوص فى كتب الدين وخوض فى المسائل الدينية « العليا » بلغة كهنوتية ، بل كان كل همه أن ينقل الدين إلى تيار المجتمع ، وكان يدرك أن الدجل الدينى توءم للدجل السياسى ، وأن سياسة خداع الجماهير من الممكن أن تتم من فوق كرسى الوزارة أو المجلس النيابى لكنها أبعد أثراً إن تمت من فوق المنبر ، ومن هنا حاول أن ينقى المنبر ومركز الإفتاء من هذه الشبهة، وبذلك أعاد للدين مركزه فى القلوب ودوره الحقيقى فى المجتمع ، واهتم أكثر بما يمكن أن يخدع العامة فيما يتعلق بالدين (١١٩) .

ومن هنا فإن ما يحسب للإمام أنه فتح باب الفتوى المغلق على المسائل الدينية أمام كل القضايا السياسية والإجتماعية والثورية ، ونشاط الناس فى إيران وتصرفاتهم الجدية خاصة فيما يتعلق ببذل المال أو الروح متعلق بالفتوى ، ومن هنا استطاع أن ينفذ إلى قلوب الجماهير ، لقد أعاد للشخصية الدينية كرامتها ، وهو فى هذا المجال ليس فى حاجة إلى وساطة بينه وبين الناس ، فالإمام فى إيران صاحب منزل لا تغلق أبوابه ، وليس له مكتب ومدير مكتب وسكرتير وحجاب وحرس ، كما أنه لا يعين من قبل الحكومة ولا يتقاضى منها المرتبات ولا يقسم أمامها اليمين ولا يشترك فى اجتماعات الوزراء أو استقبالات المطارات ، ولا يتشاجر من أجل موقعه فى المراسم ومن ثم فهو منفصل عن السلطة السياسية تماماً لا توجد بينهما أدنى علاقة ،

وبقدر ما هو مبتعد عن الهيئة السياسية يكون التصاقه بالشعب ، بجماهير المؤمنين ، ومن هنا فإن انتخاب الإمام الخمينى للزعامة وخضوع الجماهير له كل هذا الخضوع أمور تثير الدهشة فحسب عند أولئك الذين لايعلمون شيئاً عن إيران أو تاريخ إيران أو مذهب إيران ، لقد خضعت الجماهير للإمام سياسياً بنفس السهولة واليسر التى خضعت بهما له دينياً كمجتهد ثم كمرجع تقليد ، هو انتخاب فى النظام الدينى فى إيران يتم فى الهيئة الدينية عن طريق الإفراز الذاتى ، لا توجد فيه صناديق انتخاب أو لجان أو دعاية انتخابية ، ورجل الدين فى إيران لا يصعد السلم الدينى عن طريق التعيين بل بقدر علمه وبقدر الفتاوى التى تصدر عنه وبقدر تعامله مع المسائل المستحدثة أى ما يجد من مشاكل دينية لا يوجد فيها نص أو قياس ، **ومنصب الإمام فى إيران لا يقيد بمكان فإمام تبريز فى قم وإمام شيراز فى مشهد فما الضرر فى أن يكون إمام الأئمة موجوداً فى العراق أو فر نسا ؟ وويل للإمام إن شوهد على باب السلطان هنا تسقط إمامته بانفضاض الناس من حوله ، ومن هنا بقيت إمامة الخمينى على مدى أعوام النفى ، فهو إمام مادام أتباعه يرون أن طاعته واجبة لعلمه وعقله وصلاحهم الدينى والدنيوى والأخروى وهو نظام كما نرى ينأى بالهيئة الدينية تماماً عن الهيئة السياسية** . ومن هنا يمكن أن نقول أن الثورة الإيرانية بالرغم من دعامتها المذهبية العينية لا يمكن أن تكون ثورة دينية فحسب لأن القاعدة الجماهيرية التى اختارت الإمام الخمينى للزعامة بعد أن اختارته للإمامة جماهير تضم كل فئات الشعب وليست قاصرة على علماء الدين ، ومن هنا لا يمكن أن نعتبرها ثورة ذات أهداف دينية فقط ، فإن الإمام الخمينى لم يكن طالب إصلاح دينى فحسب كما فهمه شاهبور بختيار وهو لا يزال على كرسى رئاسة الوزارة فاقترح أن تقوم حكومة دينية « أو على حد تعبيره الجاهل فاتيكان إسلامى » فى قم لينصرف علماء الدين إلى اصلاحاتهم الدينية ويتركوا السياسة لأهلها ، فإن الإمام الخمينى – وهى نقطة تحسب له أيضاً – لم يرد فى وقت من الأوقات أن يحصر الثورة فى إطار ثورة اصلاح دينى ، لقد أدرك أن كل اولئك الذين اختاروه مرجع تقليد ثم اختاروه زعيماً لا يعانون من مشكلة عذاب الآخرة قدر معاناتهم لحظة بلحظة من الحياة على الأرض وأنه لم تعد

لهم قدرة بعد على التحمل . (١٢٠) **وهذا فى حد ذاته بعد آخر من أبعاد عبقرية الإمام الخمينى ، أنه أعطى الحركة « الشمولية » التى تحتاج ، فلا كان طالب إصلاح دينى ولا ثار ضد مبدأ بعينه أو فى سبيل شىء بعينه ، بحيث يمكن إن استسلمت الحكومة أو تراجعت أن يتصالح ويتفاهم ، كانت ثورته قائمة على مبدأ التغيير الكلى والشامل والجذرى لم تكن مثل ثورة امتياز الدخان أو ثورة المطالبة بالدستور أو حركة تأميم النفط** (١٢١) **، بل كان الإمام أول من طرح مبدأ تغيير النظام ككل فى وقت كان أشد الناس ثورية يطالب أقصى ما يطالب بملكية دستورية يملك فيها الشاه ولا يحكم .**

وكان وجود الإمام على رأس الثورة من أهم عوامل نجاحها فقد أعطى الثورة طابعاً مقدساً ومنطقية وأساساً عن طريق فتاويه ، ومن هنا يسر لها سبيل الإنتشار فى أنحاء إيران وبلغ بصوت الثورة الجبال والقرى والصحارى والغابات فشتت النظام تماماً ، فالإمام على رأس الحركة يعنى أن كل فرد مستعد لسماع التعليمات وتنفيذها ، ومن ثم فطوال ثمانى عشرة سنة (٦١ - ٧٩) كان الإمام يمهد للثورة بفتاويه ، أحيا الفقه السياسى ، وأطلق الصيحة الإسلامية العظيمة التى نسيت عندما نسى الإسلام « لا سمع ولا طاعة » ، وحتى أصول المذهب الشيعى مثل التقية لم يدعها تقوم حجر عثرة أمام المقاومة فأصدر فتواه الشهيرة فى تحريم التقية ، ليس هذا فحسب ، بل اتسعت فتاوى الإمام وعاد لهذا السلاح العظيم مجده ومضاؤه مرة أخرى ، لم تكن غريبة فى محتواها فحسب ، بل وفى صياغتها ولنقدم نماذج من هذه الفتاوى :

مسألة ٢٧٩٣ : إذا حدثت بدعة فى الإسلام مثل المنكرات التى ترتكبها الحكومة باسم دين الإسلام القويم ، فالواجب خصوصاً على علماء الإسلام اظهار الحق وإنكار الباطل ولما كان سكوت العلماء الأعلام يوجب هتك حرمة العلم وإساءة الظن بعلماء الإسلام فالواجب إظهار الحق بأى نحو ممكن حتى ولو كانوا يعلمون أنه لا يؤثر .

مسألة ٢٧٩٤ : لما كان سكوت العلماء من المحتمل أن يجعل المنكر معروفاً

والمعروف منكراً فالواجب على العلماء إظهار الحق وليس السكوت جائزاً .
مسألة ٢٧٩٥ : إذا كان سكوت العلماء يسبب تقوية الظالم أو جرأته على سائر المحرمات فمن الواجب إظهار الحق **حتى ولو لم يكن لإظهاره تأثير فعلي** .
مسألة ٢٧٩٦ : لما كان سكوت علماء الإسلام يمكن أن يدفع الناس إلى إساءة الظن بهم واتهامهم بممالأة جهاز الجبار ، فمن الواجب إظهار الحق وإنكار الباطل حتى وإن علموا أن هذا لا يقف فى وجه الظلم ، وأن موقفهم لن يؤثر فى القضاء على الظلم .

مسألة ٢٧٩٧ : إذا كان دخول بعض العلماء الأعلام فى معية الظلمة يسبب دفعهم إلى الوقوف ضد المفاسد والمنكرات فلهم ذلك إلا إذا كان فى الأمر مفسدة أخرى أهم مثل تزلزل عقائد الناس أو انعدام ثقتهم فى العلماء فلا يجوز لهم فى هذه الحالة الدخول فى معية الظلمة .

مسألة ٢٧٩٨ : لايجوز للعلماء والأئمة إدارة المدارس الدينية من طرف الدولة وإدارة الأوقاف ، لأنهم فى هذه الحالة يتقاضون مرتباتهم ويتقاضى طلاب العلوم الدينية مرتباتهم إما من الناس أو من الأوقاف أو من الحكومة ، حتى ولو كان الوقف مدرسة ، لأن تدخل الدولة فى هذه الأمور وأمثالها مقدمة لهدم أساس الإسلام ، وقد نفذ هذا فى كل الدول الإسلامية أو هى بسبيلها إلى تنفيذه .
مسألة ٢٧٩٩ : لايجوز لطلاب العلوم الدينية دخول المؤسسات الحكومية التى أسست تحت إسم مدارس دينية والتى تتدخل فيها الدولة وأخذتها من القائمين بها أو جعلت القائمين بها تحت سلطانها ، وما تعطيهم إياه من إدارة الأوقاف أو بموافقتها حرام .

مسألة ٢٨٠٠ : لا يجوز لطلاب العلوم الدينية دخول المدارس التى يديرها بعض المعممين والأئمة من قبل الحكومة أو بإشارة منها ، لأن البرامج الدراسية فيها إما أنها من طرف الحكومة أو من طرف هذا الصنف من المديرين الذين أجازهم عمال الدولة ، ففى هذه البرامج وضعت خطة لمحو آثار الإسلام وأحكام القرآن الكريم .

مسألة ٢٨٠١ : ينبغى على المسلمين والمتدينين الإعراض عن أولئك الذين دخلوا فى كسوة أهل العلم ثم التحقوا بهذه المؤسسات التى أسست بتدبير من الحكومة وعليهم ألا يختلطوا بهم ، وأن يصموهم بعدم العدل ، ولا تجوز صلاة الجماعة خلفهم ، كما أن الطلاق فى حضورهم باطل ، ولا ينبغى أن يعطى لهم سهم الإمام وسهم آل البيت ، فإذا حدث لا يسقط من ذمتهم ، وإذا كانوا من الوعاظ لا ينغى أن يدعوا للوعظ ، وعلى الناس ألا يشتركوا فى مجالس تقيمها الدولة لهؤلاء من أجل ترويج الباطل وشرح برامج تخالف الإسلام .

مسألة ٢٨٠٢ : فى تصدى هذا الصنف من المعممين وهم عمال الظلمة مفاسد عظيمة سوف تتضح نتائجها بالتدريج ، ولهذا لا ينبغى على المسلمين أن يهتموا بالأعذار التى يقدمونها لتبرير اشتراكهم ، وعلى العلماء الأعلام أن يخرجوهم من مراكزهم الدينية وألا يختلطوا بهم ، وعلى كافة العلماء الأعلام وطلاب العلوم الدينية والخطباء المحترمين وسائر الطبقات المطلعة على دسائس الأجانب أن يبصروا الأمة بهؤلاء الفاسقين وأن يحذروا الناس من شرورهم . (١٢٢)

هذا الجزء من الفتاوى يتصل بموضوع انتبه إليه الإمام جيداً ، وهى أنه من الممكن أن تتوسل الدولة فى مقاومة الحركة الدينية ببعض رجال الدين من أتباعهم ، ومن ثم كان عليه أن يصفى الجبهة ويحدد للناس الجانب الذى ينبغى عليهم طاعته وهى نقطة فى غاية الأهمية ، فبعض الحركات السابقة التى كان على رأسها علماء دين قد صفيت على أيدى رجال دين استطاعت السلطة شراءهم .

وهناك جانب آخر من فتاوى الإمام لا يقل أهمية عن هذا الجانب وهو يتعلق بتحديد مراحل مقاومة النظام ، وهى تتدرج من تحريم قوانين النظام إلى مرحلة المقاومة السلبية ، إلى مرحلة المقاومة الفعالة المسلحة على النحو التالى :

مسألة ٢٨٣٥ : إن القوانين التى صدق عليها ويصدق عليها المجلسان بأمر عملاء الأجانب خذلهم الله تعالى والتى تخالف صراحة القرآن الكريم وسنة الرسول هى قوانين ملغاة من وجهة نظر الإسلام ولا قيمة لها قانونياً ، وعلى

المسلمين الإعراض عن الآمر بها والمصدق عليها بكل طريقة ممكنة ، وعليهم ألا يعاملوهم أو يختلطوا بهم فهم مجرمون والعامل بآرائهم عاصى وفاسق .

مسألة ٢٨٣٦ : إن القانون الذى صدق عليه المجلسان أخيراً بأمر من عملاء الأجانب باسم قانون الأسرة من أجل هدم أحكام الإسلام وإفساد أسس الأسرة المسلمة غير قانونى وغير شرعى ومخالف لأحكام الإسلام ومن أمر به أو صوت عليه مجرم فى نظر الإسلام ، والنساء اللائى طلقن من قبل المحكمة طلاقهن باطل ، والنساء المتزوجات اللائى يتزوجن مرة ثانية زانيات ، ومن يتزوج بهن عن علم زانى ويستوجب الحد الشرعى وأولادهن أولاد غير شرعيين لا يرثون ، وتجرى عليهم كل أحكام أولاد الزنا ، لأن المحكمة هى التى تطلق مباشرة أو تأمر الزوج بالتطليق .

مسألة ٢٨٣٧ : على العلماء الأعلام أيدهم الله تعالى أن يعترضوا بشدة على أمثال هذه القوانين التى لا قيمة لها فى نظر الإسلام والقانون ، لا أن يستعطفوا المجرمين الأصليين ويتظلموا من المكلفين بتنفيذ أوامر أعداء الإسلام لأن هذا النحو من الطلب والتظلم وتوجيه الجرم إلى الموظفين الصغار يسبب تطهير المجرم الأصلى وتبرئته وجرأته على هدم الأحكام الالهية ، وعلى كافة المسلمين أن يقاوموا هذه القوانين التى تهدد دينهم ودنياهم وأسرهم وتأخذ بناتهم إلى التجنيد وتضيع جهود الأنبياء العظام والأولياء الكرام صلوات الله عليهم هدرا ، عليهم أن يظهروا كراهتهم لهذه القوانين وألا يعملوا بها وعليهم الدفاع عن أحكام الإسلام بكل وسيلة ممكنة حتى لا يبتلوا – لا قدر الله – بالمستقبل الأسود المخيف الذى يهدف إليه عملاء الاستعمار – خذلهم الله تعالى – للإسلام والمسلمين (١٢٣) .

وفى باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أدخل الإمام سلاح الفتوى حلبة المقاومة على النحو التالى :

مسألة ٢٨٠٤ : للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مراتب ، ولا يجوز العمل بالمراتب الأعلى إذا صح احتمال بلوغ الهدف بالمراتب الأدنى .

مسألة ٢٨٠٨ : إذا صح الإحتمال عند العلماء الأعلام أن الإعراض عن الظلمة

والسلاطين الجائرين يصير سبباً فى تخفيف ظلمهم ، فمن الواجب أن يعرضوا عنهم ، وعليهم أن يفهموا المسلمين لماذا أعرضوا عنهم .

مسألة ٢٨١٢ : على المسلمين أن يقوموا بنهي الأشخاص الذين يقومون بترويج مقاصد الظلمة ومساعدتهم على معاصيهم واحتفالاتهم من قبيل بعض التجار والكسبة ، فإن لم يرتدعوا عليهم أن يعرضوا عنهم ولا يخالطوهم أو يعاملوهم .

مسألة ٢٨١٦ : لا يجوز مقاومة المعصية بارتكاب معصية كالفحش والكذب والتحقير ، اللهم إلا إذا كانت المعصية مجال اهتمام الشارع المقدس ولا يرضى عنها بوجه من الوجوه مثل قتل النفس المحرمة ، ففى هذه الحالة تجب المقاومة على أى نحو ممكن .

مسألة ٢٨١٨ : المرتبة الثالثة هى التوسل بالقوة والإجبار ، فإن صح العلم أنه لم يترك ما هو فيه من منكر وأنه لن يعود عما هو فيه إلا بالقوة والإجبار ، فالقوة والإجبار لازمان دون تعدى واعتداء.(١٢٤)

وعلينا أن ننظر إلى هذه الفتاوى باعتبارها قد وردت في كتاب من كتب الفقه دون أن تكون دخيلة عليه كما قد يتبادر إلى الذهن فكلها وردت فى باب من أبواب الفقه الإسلامى هو باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى لا يزال فقهاؤنا يصرون على أنها تعنى فقط تارك الصلاة وشارب الخمر ، ويتغاضون تماماً عن نهى الحاكم الظالم الذى يعد من أعلى مراتب الجهاد .

وبنفس هذه القدرة والفهم العميق لرسالة الإسلام الشمولية ، أصدر الإمام فتاويه الشهيرة بالجهاد ضد الأجانب والمستعمرين وضد اسرائيل على النحو التالى :

مسألة ٢٨٢٦ : إذا هجم العدو على بلاد المسلمين ، فمن واجب كل المسلمين الدفاع عنها بكل وسيلة ممكنة من بذل للروح والمال ، ولا حاجة هناك لإذن من حاكم الشرع فى هذا الأمر .

مسألة ٢٨٢٧ : إذا خاف المسلمون أن يكون الأجانب قد رسموا خطة للاستيلاء على بلادهم سواء عن طريق مباشر أو عن طريق عملائهم فى الداخل والخارج فمن الواجب عليهم الدفاع عن بلادهم بأى وسيلة ممكنة .

مسألة ٢٨٢٨ : إذا رسمت خطة ما داخل بلد إسلامى تهدف بسط سيطرة الأجانب عليه فعلى المسلمين العمل لإحباطها بكل الطرق الممكنة .
مسألة ٢٨٢٩ : إذا كان يخشى سيطرة الأجانب على بلاد إسلامية عن طريق توسيع نفوذهم السياسى أو الاقتصادى فمن الواجب على المسلمين الدفاع بكل وسيلة ممكنة لقطع أيدى الأجانب سواء مباشرة أو من قبل عملائهم فى الداخل أو الخارج .
مسألة ٢٨٣٠ : إذا كان يخشى أن يسيطر الأجانب سيطرة سياسية أو اقتصادية عن طريق العلاقات السياسية بين دولهم والدول الإسلامية ، فعلى المسلمين أن يظهروا عداءهم لذلك بأية طريقة ممكنة وعليهم أن يلزموا الدول الإسلامية بقطع هذه العلاقات .

مسألة ٢٨٣١ : إذا خشى على سوق المسلمين من لطمة اقتصادية عن طريق العلاقات التجارية مع الأجانب ويمكن أن تؤدى إلى الإستعمار التجارى أو الاقتصادى فمن الواجب قطع كل صنف من هذه العلاقات وتحريم هذا النوع من التجارة .
مسألة ٢٨٣٢ : إذا كانت اقامة أية علاقة سواء سياسية أو تجارية بين إحدى الدول الإسلامية والأجانب مخالفة لمصلحة الإسلام والمسلمين ، فمثل هذا النوع من العلاقات ليس جائزاً ، وإذا أقدمت عليها دولة ما ، فعلى سائر الدول الإسلامية أن تلزمها قطع هذه العلاقات .

مسألة ٢٨٣٣ : إذا كان بعض رؤساء الدول الإسلامية أو بعض النواب فى المجلسين سبباً فى بسط نفوذ الأجانب سياسياً أو اقتصادياً أو عسكرياً بما يخالف مصالح الإسلام والمسلمين ، فهو معزول لهذه الخيانة من المنصب الذى هو فيه مهما كان هذا المنصب ، ولو فرض أنه نصب فى هذا المنصب عن طريق شرعى ، وعلى المسلمين عقابه بأية طريقة ممكنة .
مسألة ٢٨٣٤ : لا تجوز إقامة علاقات تجارية وسياسية مع بعض الدول التى هى أداة فى يد الاستعمار مثل إسرائيل ، وعلى المسلمين الإعتراض على هذا النمط من العلاقات على أى شكل ممكن ، والتجار الذين يتعاملون مع إسرائيل وعملاء اسرائيل خونة للإسلام والمسلمين وأداة لهدم أحكام الإسلام ، وعلى

المسلمين أن يقطعوا علاقاتهم مع هؤلاء الخونة سواء فى شكل دولة أو تجار وعليهم الزامهم بالتوبة وقطع علاقاتهم مع هذا الصنف من الدول . (١٢٥)

هذه هى فتاوى الإمام المعلم الذى حاول الإعلام الغربى وأذنابه تصويره بأنه مجرد مهيج دينى أو رجعى يحاول الوقوف ضد حركة التحديث التى يقوم بها الشاه التقدمى ، وإذا علمنا أن من أهم أسباب فشل حركات عديدة فى الماضى هو انعدام اللغة المشتركة بين الزعامة والجماهير أدركنا إلى أى حد كانت صياغة الإمام الخمينى لأفكاره فى صورة فتاوى تأثيراً عظيماً جداً فى نشر هذه الأفكار من ناحية وفى توفر عنصر الإلزام لها من ناحية أخرى وهو ما غاب عن أذهان الكثيرين فلم يعترفوا بأن للإمام دوراً فكرياً فى الثورة فى حين أن معظم الأفكار التى تناولها مفكرو الثورة كانت تنبع من هذه الفتاوى ومن الخطب العديدة التى ألقاها الإمام ، ومن ثم فإن العنصر الهام من عناصر نجاح الثورة الإيرانية هو تكتل الجماهير من خلف زعيم واجب الطاعة يتحدث بلسان الجماعة وكانت ظروف البنية الدينية فى إيران والتشكيل الطبيعى لعلماء الدين بل ووضعهم الطبقى فى إيران سبباً فى انتشار هذا الفكر ليس هذا فحسب بل وفى منح الشعب الإيرانى والناس العاديين تشكلاً لا يمكن قمعه ، فهو تشكل ليس فى خلايا أو منظمات أو جمعيات سرية بل خلية واحدة تجتمع فى المسجد وتستمع إلى زعيم واحد يحدثها بلسان تفهمه .. وماذا تكون الثورة إلا جماهير متكتلة خلف زعيم مفهوم ذى فكر يجد صدى عندها وليس غريباً عليها ؟

ومن هنا فالإمام الخمينى فحسب هو الذى حرك الثورة وبسط نداءها فى إيران ، هو الذى جعل القوى الثورية بهذا الحجم ، وعلى مدى تاريخ الحركة الوطنية كانت حركة مدن فى المقام الأول ، كما كان الفلاحون مجبرين بسبب الإصلاح الزراعى على افراغ القرى والتكدس فى المدن وقد وجدوا أنفسهم فى خندق واحد مع بقية طبقات الشعب من عمال وتجار ، ولأنهم حافظوا على علاقاتهم بعائلاتهم فقد حملوا إلى قراهم أيديولوجية نضال ، وهكذا فببركة شبكة رجال الدين التى كانت تتلقى أوامرها من الإمام مباشرة انتقلت الثورة

إلى أكثر المناطق فى إيران نأيا ، وإذا نظرنا إلى شبكة المعلومات والتنظيم المتوفرة لدى علماء الدين لوجدناها نظاماً متطوراً ومتشعباً جداً فعلماء الدين البالغ عددهم مائة وخمسين ألفاً على مختلف المستويات هم الوحداء الذين يمكنهم الانتقال إلى القرى والاتصال بالشعب دون خوف من القمع ، وهم ينقلون بواسطة شبكاتهم المعلومات إلى كل الأحياء الشعبية والقرى والبلاد ، وفى المقابل يتلقون من المؤمنين الكثير من المعلومات.(١٢٦)

وكان من نتاج حركة ٦١ – ٦٤ (١٢٧)أن أصبح المركز الدينى فى قم مركزاً عملياً لتفريخ الثوار ، فقد كان الطلاب يضعون آذانهم على خطب إمامهم فى المنفى وعلى تعليماته ، فى حين أن النظام كان ينظر إلى كل مجتهد كمشروع لخميني جديد ، ومن ثم فإن الضغط الذى تعرضت له المراكز الدينية من ناحية ، وشعور هذه المراكز بأنها تتعرض للقمع كان يدفعها إلى التكتل والتشكل ، كما كانت فرصة هؤلاء فى الاتصال بالجماهير ميسرة ، **ومن ناحية أخرى كان الإمام الذى تحدى النظام فى قمة عتوه ثم نفى ولم يلن أو يهن قدوة أمام أعينهم تحيي ذكرى الشخصيات التاريخية ، فهو الشهيد الحى الأكثر حضوراً من كل الحاضرين وهو فى المنفى ومن ثم كان كل واحد من طلاب المدارس الدينية وصغار المجتهدين والمشايخ قنبلة زمنية تنتظر النظام ، فإذا وضعنا فى الاعتبار أن معظم هؤلاء قد خرجوا من القرى والطبقات الوسطى والدنيا فى المدن لأن حياة الطلبة فى المركز العلمى لا تقوى عليها الطبقات المرفهة أدركنا كيف أن تعبئة هؤلاء كانت فعالة جداً فى نشر الثورة والوعى الدينى والسياسى فى أنحاء إيران .**

ولم يكن دور الإمام هو نشر الوعى السياسى والدينى وتقديم القدوة فحسب ، بل استطاع أن يحول العناصر المخدرة فى التقاليد والإحتفالات الشيعية إلى عناصر ثورية وبناءة فإن مجموع الإحتفالات التى تقام لآل البيت فى إيران فى أوقات مختلفة وأماكن مختلفة يربو على الآلاف فذكرى الميلاد والشهادة والموت والأربعين واحتفالات المحرم و صفر و رمضان والعشرة الفاطمية فى جمادى الثانية وليالى الجمعة وأعصار الجمعة وليالى الأربعاء إلى جوار أن المسلمين يلتقون عدة مرات فى اليوم وبعد صلاة الجماعة بالوعاظ ،

كانت هذه الإجتماعات فيما مضى مجرد اجتماعات دينية يلتقى فيها المؤمنون ثم ينفضون ، **لكن الإمام أعطاها البعد السياسى** ، والمناسبة للحديث فى السياسة ميسرة تماماً فآل البيت قاموا ضد الظلم والطغيان واستشهدوا فى معارك ضد الظلم والطغيان ، وتكمن عظمتهم فى تفضيل الشهادة على حياة الذل والعار ، وكل من يحارب الظلم والطغيان فقد سار على درب الحسين عليه السلام ، **فإذا وضعنا فى الإعتبار أن الوعاظ كانوا يتحدثون إلى الناس باللغة التى يفهمونها ويعلمون أدق خصائص حياة الناس أدركنا مدى قوة التفاهم والارتباط بينهم وهذه خصيصة يفتقدها السياسيون المحترفون والمفكرون ، ومن هنا فإن أية حركة ذات صبغة إسلامية تطرح فى إيران كانت تنتشر بسرعة البرق** ، وعندما انتقلت مبادىء الإمام الخمينى إلى هذه الفئة ، لم تكن هناك حاجة إلى إذاعة أو منشورات أو ما إلى ذلك من الوسائل التى تحتاج إليها كل حركة ويكون من السهل تصفيتها والقضاء عليها ، **فقد أصبح على النظام لكى يقضى على الخمينى أن يقضى أولاً على تقاليد مئات السنين وأن يمنع الاحتفالات الدينية وهو مالم يكن فى استطاعة أى نظام مهما بلغ من عتو وطغيان وبغى** (١٢٨) ، **هذه الحالة فى رأى لبنى صدر تشكل قاعدة منظمة نابعة من الشعب مبنية على أساس الواقع الإيرانى الفعلى بينما ما يأتى من الغرب أو بقية البلدان المتقدمة لاينطبق تماماً على المجتمع الإيرانى** (١٢٩) .

فى ظل هذه الظروف كان الخمينى هو التعبير عن الوحدة الشعبية ، ليس لأنه زعيم دينى أو لأنه يمثل تياراً أكثر جذرية من غيره ، وإنما لأن الشعب كان فى حاجة لوحدة عمل للتحرر من النظام الجائر فالخمينى يدعو إلى هذه الوحدة .. وفوق ذلك لا يوجد من يخاف من إمكانية حصول مساومة بين الخمينى والسلطة فالشعب يعارض النظام من خلال الخمينى ، هذا هو التفسير السوسيولوجى الذى قدمه بنى صدر لزعامة الخمينى (١٣٠) ولأن الشعب الإيرانى شعب من الشباب فـ ٨٠٪ منه تحت سن الأربعين و ٦٥٪ منه تحت سن الثلاثين ، كان الشعب فى حاجة إلى رمز حى ، وقد تمثل هذا الرمز فى آية الله الخمينى .

لقد ظلت التيارات المعارضة تراقب طيلة خمس عشرة سنة الصراع العلنى بين السلطة وبين الخمينى ، فلا السلطة تريد أن ترفع يدها عن الشيخ المنفى أو تمتنع عن تحريض صحافتها وأجهزة إعلامها على تشويهه ولا كان الخمينى يغمض عينيه لحظة واحدة عن فضائح النظام أو يترك فرصة واحدة تمر دون أن يفضح الشاه ونظامه فى مواسم الحج وفى المؤتمرات الإسلامية وفى المناسبات الدينية أو احتفالات الشاه ، كانت بيانات الخمينى وخطبه أكثر حضوراً من كل التيارات الموجودة فى إيران ، ولم يكن الرجل يهاجم قط أى تيار من تيارات المعارضة ، كان يرى أن كل معارضة للشاه مهما كانت ضئيلة تعد معولاً من معاول هدم النظام ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على الرؤية الاستشرافية التى يتمتع بها الإمام ، فقد كان أول ما يهدف إليه هو توحيد إيران ، ولا يهم أن تكون هذه الوحدة تحت قيادته ، فهو لم يطالب بالقيادة يوماً واحداً ، وهذه السمة جزء من عبقريته ، فقد حل اليوم الذى لم يعد فيه اثنان فى إيران يختلفان على زعامة الخمينى ، فاتفقت على زعامته كل قوى المعارضة : نقابات المحامين والكتاب والمهنيين والصحفيين وحتى الجماعات اليسارية . **إن ظاهرة الخمينى قد منحت أملاً للشعوب المستضعفة ، فعندما يشتد الظلام ويسرع كل إنسان إلى جحره يحمد الله على عافية وقتية ، ويسود التسيب والتواكل والضعف والفردية أمة ما ، يمكن أن يحركها رمز ، أجل مجرد رمز ، وأى رمز أبلغ فى أمة اسلامية من إمام دينى يقف وحيداً فى وجه الطوفان ، يتعرض للسجن والنفى والتهديد وفقد الولد فى ظروف مريبة ، ثم لا تلين قناته ولا يحنى هامته ، كانت مجرد وقفته صامداً كالجبل الأشم لوما وتعذيباً وفضحاً للخائفين الذين يأكلون خبزهم بالمذلة ، وكان قادراً على تقبل كل التيارات وعلى الصفح حتى على من تعاونوا مع النظام فى مرحلة من المراحل فى سبيل الهدف الأسمى والأعظم الذى كرس له حياته وهو إعادة إيران إلى حظيرة الإسلام .**

وطالما سئل الإمام الخمينى هذا السؤال الذى حير الشرق والغرب : كيف تخرج الملايين إلى الشوارع بأمر منه ؟ ولم يكن التفسير الذى قدمه يخرج

عن قوله بأن السبب الوحيد هو أنه يطرح المشاكل التى تدور فى أذهان الناس والتى تغلى بها قلوبهم أو على حد تعبيره : **يطرح مشاكل ظلت سنوات كامنة فى أعماق الأمة** (١٣١) أو بتعبير أبسط : **لأننى أتحدث بلسان الناس** (١٣٢) .

ويمثل البعد الأخلاقى جانباً عظيماً من جوانب شخصية الإمام ، وهو أمر فى غاية الأهمية بالنسبة لزعامة من الزعامات من ناحية ، كما تشهد أهميته بالنسبة للشعب الإيرانى الذى شهد على طول تاريخه سقوط زعامات وقيام زعامات أخرى ، والذى يتميز ككل بنوع من الروح الصوفية والإهتمام بالباطن . كان الإمام فى بداية حياته العملية مدرساً لعلم الأخلاق وتهذيب الباطن ، ورسالته « الجهاد الأكبر » خير مثال على ذلك وهو يخاطب الشباب فيها قائلاً :

مر عام من عمرنا وأنتم أيها الشباب تتجهون إلى سن الشيخوخة ، ونحن الشيوخ نتقدم نحو الموت .. وفى هذا العام الدراسى وقفتم على ما سمحت به حدود دراساتكم وتحصيلكم العلمى وتعلمون كم حصلتم وإلى أى مدى رفعتم مستواكم العلمى . لكن فيما يتعلق بتهذيب الأخلاق ودراسة الآداب الشرعية والمعارف الالهية وتزكية النفس ... ماذا فعلتم ؟ وأى خطوة إيجابية اتخذتم ؟ ألم تفكروا فى تهذيب أنفسكم وإصلاحها ؟ وهل لديكم برامج فى هذا الأمر ؟ .. إن المراكز العلمية فى حاجة إلى تعليم المسائل الأخلاقية والعلوم المعنوية فى نفس الوقت الذى تدرس فيه المسائل العلمية . هى فى حاجة إلى مرشد أخلاقى ومرب للقوى الروحانية وحلقات النصح والموعظة ، وينبغى أن تنتشر البرامج الأخلاقية والإصلاحية ، وفصول التربية والتهذيب وتعليم المعارف الالهية وهى الهدف الأصلى لبعثة الأنبياء عليهم السلام ، ينبغى إذن أن تنتشر هذه العلوم فى المراكز العلمية وأن تكون رسمية ، إذ انه من أسف أن هذه العلوم اللازمة الضرورية لا تظفر بأى اهتمام ، إن العلوم المعنوية والروحية تتدهور ، وأخشى ألا تستطيع المراكز العلمية فى المستقبل تخريج علماء أخلاق ومربين وقائمين بالتهذيب ورجال الهيين ، ولا يترك البحث فى المسائل الثانوية مجالاً للبحث فى المسائل الأصلية والأساسية التى هى مجال اهتمام فى القرآن الكريم وعند النبى الأعظم وسائر الأنبياء والأولياء

عليهم السلام ... على الطلاب فى المراكز الدينية أن يجاهدوا فى كسب الملكات الفاضلة وتهذيب النفس وأن يهتموا بالمهام الجسام والمسئوليات الخطيرة الملقاة على عواتقهم .. أنتم اليوم تتعلمون هنا ، وغداً سوف تتحملون مسئولية قيادة المجتمع وهدايته ولا تظنوا أن مهمتكم فحسب هى تعلم بعض المصطلحات ، إن أمامكم مسئوليات أخرى .. عليكم أن تربوا أنفسكم وتصنعوا ذواتكم فى المراكز العلمية بحيث أنكم عندما تذهبون إلى مدينة أو قرية فيما بعد تقومون بتهذيب أهلها وتربيتهم . (١٣٣)

ولأن الإمام كان يعرف هدفه تماماً ، كان حسمه الواضح للعيان ، وكان يعلم أن مقاومة الجبابرة هى رسالة الأنبياء ، انتقلت من بعد الأنبياء إلى الأئمة ، ومن بعدهم إلى العلماء الذين يفهمون رسالة العلم حقاً ، ووضوح الهدف هو الذى كان يؤدى إلى وضوح التعبير عن هذا الهدف ، وهو الذى يهب الثبات والحزم والحسم وهو أيضاً ما كانت تفتقر إليه الحركات السياسية السابقة ، هذا الحسم هو السمة البارزة فى قائد الثورة وينبىء عن نقاء ثورى نادر المثال فى عصرنا الحديث ، ومن هنا كانت الألقاب التى لقب بها الإمام فى إيران : المناضل الصامد فى سبيل الحرية ، القائد الذى لا يهادن والإمام الذى لا يلين ، يقول على أصغر حاجى سيد جوادى : إن أهل إيران الآن فى سبيلهم إلى وحدة تاريخية لا سابقة لها ، هى فى عقائدنا الدينية تبدأ بـ « لا » (**إشارة إلى اللفظ الأول من الشهادة**) ، جواب بالرفض لكل الأكاذيب وكل الحيل .. والخط الحاسم الذكى المفعم بإخلاص القيادة يبدأ من إنسان يكون أول حديثه فى مواجهة القوة والنهب والتزوير « لا » .

إن الإمام الخمينى لم يحن رأسه قط أمام الظلم ، لم يخش قط من سيطرة الجبار ، لم يضح بكلمة الحق قط أمام سلطان جائر ، ولم يطأطىء رأسه مستسلماً فى مقبرة الصامتين والخائفين والمحافظين ونهازى الفرص والمتفاهمين وأمام جاذبية المال والسلطة ، ولم يرد قط أن يغير ، ركناً فى سجن طهران أو حجرة من الطين فى النجف وفى حرارة تلك الديار التى تفل الطاقة وخبزه وزباديه وسفرته الخالية، بقصر نياوران وخدمه وحشمه. لم يرغب فى أن يجعل

سفرة أبنائه وأهله أكثر غنى من مال المسلمين ، أو يضع على أبواب منازلهم السيارات الأمريكية الفخمة .. هذا الموقف فى مجتمع كانت الهيئة الدينية فيه منكوبة من قبل النظام ، وكل صاحب رأى راض بجيفة من النظام ، هذا الموقف فى نظام كان معيار الترقى والرفاهية فيه هو الملق والنفاق وانتهاز الفرص أو على الأقل السكوت والرضا والتسليم للسلطة وللقمع ، هذا الموقف هو أكثر المواقف الإنسانية ازدهاراً ومجداً وعظمة فى التاريخ الإيرانى المعاصر .. وعلى هذا النسق فإن رنين هذه الـ « لا » المدهش والرفض لكل القيم المهترئة والفاسدة لسادة القوة والقمع والنهب ، قد رَنّ فى جنبات فضاء وطننا وحول هذا الموقف الشجاع والذكى للقيادة المعنوية والروحانية ينبغى أن توجد قوة ذات طاقة مولدة من أجل استمرار النضال بحسم وبمعرفة عميقة للمشاكل التكتيكية والاستراتيجية فى إيران . (١٣٤)

ولعل من الأمور المضحكة أن يحسب حسم الرجل عليه ولا يحسب له ، وهذا أمر مفهوم من العالم الغربى ومن الإعلام الغربى ، **لكن ظهور مثل هذا الرجل فى هذا الوقت وفى هذا المكان من العالم كان أمراً شديد الوطأة على الكثيرين ، لقد دخل درويش حقيقى على جماعة من مدعيى الفقر الصوفى ففضحهم وعراهم ، أجل لقد فضحهم الخمينى وعراهم بمجرد وجوده دون أن يشير إليهم ودون أن يتحدث عنهم صراحة أو إيماء ، إن وصف الرجل بأنه لا يلين فى مجال الذم لا مجال المدح ، وتقييم شخصيته منتزعة من تاريخه ومن مجتمعه أمر مضحك** ، فلا شك أن الذى يوجه هذا الاتهام لا يعلم ما الذى أدى إليه اللين والتساهل خلال الخمسين سنة الأخيرة فى إيران ، فإن النظام كان لا يترك فجوة أو هفوة أو غفلة يجدها فى شخصية سياسى ما حتى ينفذ من هذه الفجوة ويقوم بتوسيعها حتى يقضى على ذلك السياسى تماماً ، وكانت عمليات الإحتواء طوال ما يقرب من ثلاثين سنة بعد سقوط مصدق تفتك بالزعماء واحداً بعد الآخر ، وكان احتواء الزعيم يؤدى إلى فجوة رهيبة داخل القاعدة الشعبية التى يمثلها الزعيم .. وكانت التجربة الحية أمام الإمام أنه إن قدم للنظام ثمرة فسوف يطمع فى الشجرة ، وإن اقترب منه شبراً فسوف يقضى عليه تماماً ، وفى عام الثورة ، والثورة قاب قوسين أو

أدنى من انتصارها النهائى كان يمكن إن تراجع الإمام خطوة واحدة أن تنتكس الثورة نكسة خطيرة ، وكان قبوله حلاً من الحلول التى طرحت وتحفظ له كرامته شخصياً كفيلاً بأن يؤدى إلى كارثة ، لكن الكرامة الشخصية لم تكن فى الميزان أو الحسبان وهو موضوع سوف نناقشه ، بل إن الشخصيات التى نسيت الماضى وقامت بالوساطة بين الشاه والإمام فقدت تأثيرها الجماهيرى ولم تلبث أن سقطت ، بل إن مأساة شاهبور بختيار بالرغم من ماضيه الحافل تكمن فى أنه لم يقدر هذه النقطة حق قدرها وقبل الوزارة من الشاه حيث كان ينبغى ألا يقبلها ، فالمسئول عن حسم الإمام وصموده ليس طبعاً شخصياً فى الإمام بقدر تقديره لعواقب اللين ، وما يمكن أن يؤدى إليه من نتائج ، **فقد كان يحس بالتزام معين تجاه الشعب ، وكان يعلم أن الشعب لن يغفر له إن أخل بهذا الالتزام .**

ومن ثم فإن هذا الحسم وهذا الصمود كان سبباً رئيسياً من أسباب نجاح الثورة إذ كان يقدم القدوة فى زمن عزت فيه القدوة لملايين المطحونين والخائفين والغافلين والنائمين ، ومن ناحية أخرى كان هذا الموقف من الإمام يبعث على الأمل فى أن الثورة منتصرة لا محالة ، وأن انتصارها حتمى وأن النظام لم يعد يملك إلا أن يرحل ، ثم إن هذا الحسم كان خير دليل على أصالة الثورة واستقامتها وطهرها ووضوح هدفها ، كما أنه دليل على وضوح حس القيادة عند الإمام وهو ما تحتاجه الشعوب المغلوبة على أمرها ، ويدل أيضاً على أن هذه الشعوب غالباً ما تكون فى حاجة إلى فرد ، أجل مجرد إنسان ، على شرط أن يكون هذا الفرد ممثلاً لتاريخ أمته ودينها وتراثها ، يحمل ثقل تاريخه فوق أكتافه وهموم أمته فى قلبه غير منتسب إلى فكر وافد وغير مدافع عن مصالح قوة ما من القوى العالمية ، ويجب فوق ذلك أن يكون صاحب سجل ناصع ونظيف يثبت أنه لم يلن يوماً ولم يستسلم يوماً .

إن الذى يفهم الروح الإسلامية حق فهمها يستطيع أن يفهم أبعاد شخصية آية الله الخمينى ومكوناتها الثقافية ، إن الذى عرف سعيد بن جبير وأبا حنيفة وابن حنبل والعز بن عبد السلام والأفغانى والشيخ عليش وميرزا الشيرازى وعبد الكريم الحائرى وسيد حسن مدرسى وميرزا نائينى وعشرات غيرهم على

مدى تاريخ الإسلام يمكن أن يفهم أبعاد شخصية آية الله الخمينى ، والذى قرأ تاريخ التشيع كمبدأ مطرود ومرفوض يحيا حياة سرية (١٣٥) يستطيع أن يفهم هذه الشخصية الفذة ، أما الذى لم يتعرف إلا على شخصيات دينية من أمثال آل بورجيا وبابوات روما قديماً وحديثاً ، أو ينظر إلى وعاظ السلاطين وعمال الظلمة والأئمة « بقرار جمهورى » ويظن أن الدين هو هذا فقد يبدو له الخمينى شخصية غريبة متهوسة كما يحلو لصحافة الغرب وأذنابها فى الشرق وصفه ، فإن طراز علماء الدين المجاهدين والفقهاء الثوار والذين وقفوا ضد الخلفاء والسلاطين وهم فى عنفوان جبروتهم « وفتوحاتهم أيضاً » لايفهمه إلا مسلم حقيقى قرأ تراث الإسلام الحقيقى ، الذى أخفى عمداً عن العيون والأفهام ، ورعاه وامتزج هذا التراث بدمه قبل أن يتسلل إليه ماكيافيللى وماركس وأمثالهما ..

هذا هو البعد التاريخى فى شخصية الإمام ، وعلينا كمسلمين أن نفخر بأن الإسلام لا يزال خصباً معطاء يستطيع أن يربى مثل هذه الشخصية متعددة الأبعاد ، **فهو الرجل الذى أعاد « للسياسة الإسلامية » كرامتها فى هذا العصر الذى ديست فيه بالأقدام** ، ومما يوجه للرجل من مناقد أنه ليس سياسياً ، ولعل هذا الاتهام صحيح إلى حد كبير بالمفهوم الرائج عن السياسة والذى لم يعد له معنى فى عالمنا المعاصر إلا التسلق والتلون وانتهاز الفرص وقبول أنصاف الحلول أو الحلول الظاهرية والتسليم أمام القوى الكبرى واستبدال سيد منها بسيد آخر ، والتسليم أمام الأمر الواقع وغير ذلك مما يوصف بالحكمة والشجاعة وما إليها من الألقاب التى يسبغها العالم الغربى على أولئك الذين يخدمونهم ويخدمون أهدافهم ، **لكننا إذا وضعنا المفهوم الحقيقى للسياسة فى الحسبان والذى يعنى شعور الفرد بالإنتماء إلى جماعة ونطقه بلسانها والتعبير عنها والذود عن مصالحها الحقيقية باستقلال وإرادة ، فيكاد الإمام الخمينى أن يكون السياسى الحقيقى الوحيد فى الشرق** ، ذلك أن آراءه السياسية قد تناسقت مع أفعاله ونضاله ومراحل كفاحه تناسقاً تاماً ، لم يتغير ولم يتلون ، ولم يوصف قط بأن بين أفعاله وأقواله تلك الفجوة الموجودة على الدوام بين

أقوال « الساسة الحكماء » وأفعالهم ، وأى سياسة أبلغ وأعظم من معرفة الهدف والعمل على بلوغ هذا الهدف دون أن يحيد المرء عن الطريق قيد أنملة ؟

أجل ، التعبير عن الجماعة ، فلم يكن بين الخمينى والشاه ثأر شخصى كما يحلو لبعضهم تفسير ثورة إيران ، هذا التفسير المضحك الذى ساد الإعلام الغربى يدل تماماً على العقلية الصحفية التى تميل إلى التسطيح والتى تجد عليها لزاماً أن تلوث كل هدف أسمى وكل إنجاز عظيم لا ترضى عنه ، فقد استشهد والد الإمام وهو لا يزال رضيعاً بعد فى إحدى ثورات الفلاحين ، ومع ذلك عاش حياته كلها فى إيران حتى وصوله إلى مرتبة المرجعية العظمى دون أن يتحرك أو يعترض إلا إذا أحس أن شراً يراد بالإسلام ، واستشهد إبنه الأكبر وهو فى المنفى فكان فى كل بياناته لا يشير إلى مصيبته الشخصية بقدر ما يشير إلى مصيبته فى وطنه ومصيبة هذا الوطن فى دينه ، ثم إن العداء الشخصى لا يمكن أن يقوم بين نمطين من البشر بينهما كل هذا الإختلاف فى المنحى والشخصية ، فكما أن الأمر لم يكن عداء شخصياً ، لم يكن أيضاً تنازعاً على السلطة ، فلا يمكن لمن يملك سلطة المرجعية العظمى فى إيران أن يبحث عن سلطة أخرى ، وفى نفس الوقت لا يمكن أن نعتبر الإمام عالم دين يطالب بإصلاح ما أو يدافع عن مصلحة جماعة ما هى جماعة علماء الدين وعن سلطاتهم فى مواجهة عصرية الشاه ورقى وتحديث إيران ، **فليس الخمينى رجل دين بالمعنى الذى نفهمه « نقلاً عن الغرب الذى أصبح يعلمنا كل شىء حتى ديننا »** يتحدث حديثاً جافاً عن الأخلاقيات ويتخذ سحنة الواعظ الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر الذى يعيش فى الدنيا ويتحدث عن الآخرة ، ولم تكن انتقاداته للنظام من قبيل الوعظ المعروف بل تنبىء عن نظرة نفاذة فى كل مناحى الحياة (١٣٦) ، وطوال عام الثورة كان الإمام – كما سنرى – فى صموده لحيل النظام وتكتيكاته مثالاً حياً وعظيماً للرؤية الشاملة والوعى الذى يصل إلى مرحلة الالهام ثم : هل الذى يفكر ويصدر فتوى والثورة على وشك الانتصار يوصى فيها الفلاحين بأن يقوموا بزراعة أكبر قدر ممكن من القمح خشية أن يفتعل النظام قحطاً ، هل الذى يفعل ذلك إنسان يفكر فقط فى نطاق الدين وغير ذى برنامج ؟ هل الذى يأمر التجار بعدم رفع الأسعار والناس

مشغولون فى الجهاد يفكر فقط فى نطاق الدين وغير ذى برنامج ؟ وعشرات من المواقف سوف نلتقى بها أثناء الحديث عن أحداث الثورة (١٣٧) .

إن الذى يكتفى بأن يقول « الخمينى رجل دين » ثم يلصق به كل ما فى تصوره وما فى موروثه عن رجل الدين يدل على جهله بعالم الدين الحقيقى فى الإسلام ، وقيمة عالم الدين فى الإسلام وما ينبغى أن يكون عليه عالم الدين فى الإسلام .

وعلى الذى يريد أن يدرك « صوفية الثورة » أن يبحث عن نمط حياة الإمام بعد انتصار الثورة ... فإن الرجل الذى قاوم طيلة خمس عشرة سنة حتى انتصر لا يزال يعيش فى منزله المتواضع الذى كان يعيش فيه قبل المنفى ، يجلس على الأرض ، ويحيى الملايين التى تأتى لتحيته من فوق سطح المنزل ويأكل طعاماً أقل فى مستواه بمراحل مما تأكله أدنى الطبقات فى إيران ، **وقد حدثنى أحد الذين اختلطوا به كثيراً فى مرحلة الاعداد للثورة ومرحلة الثورة أن انساناً واحداً على وجه الأرض لا يستطيع أن يتحمل الحياة التى يحياها الإمام لثلاثة أيام متتالية ، وكيف أنه – أى الراوى –وهو شاب كان يحس بعد مشاركة الإمام هذه الحياة لعدة أيام بأنه لا يقوى على الوقوف** ، ولا بد أنه صادق ، فالإمام واحد من القلائل الذين لم تجد وكالات المخابرات العالمية ثغرة واحدة تستطيع أن تلوث شخصيته من خلالها ، ولم لا ؟ ألم يرب فى مدرسة الإسلام العظيمة ؟ أليس الوريث الثقافى لعلى وأبى ذر ؟ وعلى الذى يريد أن يدرك أعماق البعد الإنسانى من شخصية الإمام أن يقرأ خطبة واحدة كاملة من خطبه ليجد كيف تمتزج الرحمة بالبشر عند الحديث عن الشهداء والثكالى ، ثم يرى الوعى العلمى الأصيل وهو يربط بين أحداث الماضى والحاضر والدين والدنيا وتاريخ الحركة الوطنية فى إيران ، ثم البعد الأخلاقى وهو لا يسب النظام ولا يفحش ، وإنما يقارعه الحجة بالحجة ، ثم البعد التاريخى وهو يرى الحركة الإسلامية لا بد وأن تنتصر ، ثم وفوق ذلك يدرك قوة الروح والنظرة الشمولية العظيمة لإمام إسلامى من طراز الأئمة الأوائل المجاهدين والصديقين فى زمن عز فيه الرجال .

والإمام الخمينى فوق ذلك هو الذى حفظ للثورة الإيرانية وجهها الإسلامى ،ومما يثبت أن الرجل لم يكن رجل سياسة بمعناها المفهوم ولم يكن رجل فرص ، إصراره على بقاء الوجه الإسلامى للثورة نقياً لا تشوبه شائبة ، كان يعلم **أنه يواجه أمريكا بكل عنفوانها لكنه لم يحاول قط أن يتقرب إلى السوفيت فيستبدل سيداً بسيد وطاغوتاً بطاغوت** ، وكان يحلو للإعلام الغربى والثورة على أشدها أن يصورها كثورة ماركسية ، ثم غير لهجته وأخذ يبدو « خشيته » عليها من التحول إلى الماركسية أو بمعنى أصح سرقة الماركسيين للثورة كما حدث مراراً فى التاريخ القريب ، وكان الإمام عندما يبدى له الصحفيون مخاوفهم المصطنعة ذات الأهداف المعلومة يرد بهدوئه المعهود الذى لم يفقده قط فى أكثر خطبه حماساً وثورية وفى أشد أوقات القهر وسيطرة الجبار ، فينفى عن الثورة هذه الصفة ، ولا يعترف لها إلا بوجهها الإسلامى ولا ينكر أن الجناح الماركسى فى إيران قد اشترك فيها لكن بنسبة لا تذكر ونفى أكثر من مرة التفاهم المزعوم الذى زعمته الصحافة الغربية بين الجناح الماركسى والجناح الإسلامى (١٣٨) ، ولا يساوم ولا يجامل فيقول : « لا .... لن نستطيع أن نقبل الماركسيين ، إن خطرهم على الوطن أشد من خطر الشاه »(١٣٩) .

أتراني قد وفيت الرجل حقه بهذه الأوراق ؟ لا اخالنى فعلت ... ففى ذلك العام الدامى كان الخمينى هو الذى جمع كل القوى وضمن وحدتها ووجهها وأرشدها ووسع من نطاق الثورة وجنبها مصيبة الصراع على الزعامة ، فأحيا أمة .. ومن هنا لا يمكن أن يتجاهل أثره كقوة عظمى من قوى الثورة التى آن الأوان للحديث عن أحداثها .

هوامش الباب الثانى

(١) سيروس برام : انقلاب إيران ص ١٨ .
(٢) أنظر : الثورة الإيرانية ، الجزء الأول الجذور والأيديولوجية .
(٣) سيروس برام : انقلاب إيران ص ٧ وانظر الجزء الأول .
(٤) يزدى (إبراهيم) : بررسى جنبش هاى اسلامى ص ٦١ . بدون تاريخ أو مكان طبع .
(٥) مجلة قدس سال جهارم شمارة ٢٠ .
(٦) انظر الجزء الأول من الثورة الإيرانية .
(٧) يزدى : جنبش هاى اسلامى ص ٦٣ .
(8) Ahmed Faroughy , The internal opposition against the shah , in Iran Erupts P. 69 .
(9) Halliday (F) , Iran,, dictatorship and development P.zl7 .
(١٠) مهدى بازرگان : مدافعات ، ملحق ص . سه .
(١١) أبو الحسن بنى صدر : آنچه بايد دانست صص ٢٦ - ٢٧ .
(12) Avry (r.) , Modern Iran , p. 492 . london 1965 .
(13) Ahmed Faroughy , The internal opposition against The shah and Foreign .domination .7l .
(14) Ibid , p. 64 .
(15) Ali quli qarai , The 15 fh of kahordad , in The message of peace , vol.i N.2 P.22 .
(١٦) زندگى نامه إمام خمينى جـ١ ص٦٨ - انتشارات بانزدهم خرداد ١٣٩٤ - ١٩٧٤ .

(١٧) المصدر السابق صص ٨٢ – ٨٣ .
(١٨) انظر الجزء الأول من كتابى الثورة الإيرانية .
(١٩) زندگينامه إمام خمينى ج١ ٩٤ – ١٠٤ .
(٢٠) المصدر السابق ٠ ص ١٥٨ .
(٢١) نفس المصدر صص ١٦٤ – ١٦٨ .
(٢٢) زندگينامه امام خمينى ص ١٧٣ .
(٢٣) المصدر السابق صص ١٨١ – ١٨٢ .
(٢٤) نفس المصدر صص ١٨٩ – ١٩٠ .
(٢٥) زندگينامه إمام خمينى ج٢ صص ١٤ – ١٥ .
(٢٦) المصدر السابق : ٣١ .
(٢٧) نفس المصدر : ص ٣٧ .
(٢٨) زندكينامه ج٢ ص ٣٦ .
(٢٩) زندگى نامه إمام خمينى ج٢ ص ٣٧ .
(٣٠) المصدر السابق صص ٥٢ – ٥٨ .
(٣١) نفس المصدر ص ١١٠ .
(٣٢) زندگينامه إمام خمينى صص ١٣٥ – ١٤١ .
(٣٣) المصدر السابق صص ١٣٥ – ١٤١ .
(٣٤) نفس المصدر : صص ١٤٣ – ١٤٥ .
(٣٥) زندكينامه إمام خمينى صص ١٤٨ – ١٧٣ .
(٣٦) محمد رضا حكيمى : تفسير آفتاب صص ١٦٠ – ١٦١ .
(37) Halliday (F.) , Iran Dic. and dev. pp. zz5 - zz7 .
(٣٨) بيام مجاهد شماره ٤٧ / ١ – ٢ .
(٣٩) آنهاكه شهادت برگزيدند : صص ٥٠ – ٥٥ . از انتشارات مجاهدين خلق بدون تاريخ .
(٤٠) المصدر السابق : صص ٦٧ – ٨٠ .
(٤١) بيام مجاهد شماره ٥٢ .
(٤٢) آنهاكه شهادت برگزيدند صص ٤٥ – ٤٨ .
(٤٣) تلخيص عن كتاب شناخت از مجاهدين خلق إيران – انتشارات ابوذر.

١٣٥٥ هـ.ش.

(٤٤) زندگينامه ومدافعات مجاهد شهيد سعيد محسن از انتشارات نهضت آزادى إيران خارج از كشور . شهريورماه ١٣٥٥ هـ.ش.

(٤٥) مقاومت همه جانبه – از مجاهدين خلق إيران . از انتشارات نهضت آزادى إيران خارج از كشور ارديبهشت ١٣٥٥ هـ.ش.

(٤٦) جلال الدين فارسى : قدرت اجرائى حكومت مستضعفين . بدون تاريخ أو مكان طبع ص ٩ .

(٤٧) المصدر السابق : صص ١١ – ١٢ .

(٤٨) نفس المصدر : صص ١٤ – ١٥ .

(49) Halliday (F.) , Iran Dic. and dev . z37 .

(٥٠) إبراهيم يزدى : بررسى جنبش هاى اسلامى ص ٧٠ .

(٥١) بيام مجاهد : شماره ٥١ ص ٧ – ٨ – ١٠ .

(٥٢) نشرة ١٣٥٢ / ٧٣ – ٧٤ من جنگل وهى نشرة المجاهدين تحتوى وحدها على خمسة وعشرين إسماً منهم آية الله خلخالى وآية الله منتظرى وآية الله ربانى شيرازى وعلى حجتى كرمانى . صص ٤٢ – ٤٣ .

(٥٣) جلال الدين فارسى : قدرت اجرائى حكومت مستضعفين : ص ٨ .

(٥٤) انظر الجزء الأول الثورة الإيرانية الجذور والأيدلوجية .

(٥٥) على شريعتى : بازگشت : الترجمة العربية لكاتب هذه السطور تحت الطبع .

(٥٦) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٥٧) گذشته چراغ راه آينده است صص ١٣٥ – ١٣٧ . نشر جبهة آزادى مردم إيران . وأحب أن أنوه أن هذا الكتاب كتاب وثائقى نشرته جبهة تحرير إيران ويعتمد اعتماداً كلياً على وثائق التيارات المختلفة فى الحركة الوطنية الايرنية ومنها الصحف ومن هنا اعتمدت عليه اعتماداً كلياً فى التأريخ لليسار فى إيران حتى سقوط مصدق ، وكل المعلومات الواردة فيه فى هذا المجال منقولة من صحف حزب توده ومضابط المجلس النيابى . و المصادر التى كتبها أعضاء حزب توده أنفسهم .

(٥٨) گذشته : ١٧١ - ١٧٢ .
(٥٩) گذشته ١٧٩ .
(٦٠) گذشته ١٨٢ .
(٦١) گذشته صص ١٩٧ - ٢٠٤ .
(٦٢) گذشته : صص ٢٢٦ - ٢٣٠ .
(٦٣) سوف يأتى الحديث بالتفصيل عن مشكلة الأقليات فى الجزء الثالث من هذا الكتاب .
(٦٤) گذشته : ٢٤٧ .
(٦٥) گذشته : ٣٧٧ .
(٦٦) گذشته : ٣٥٥ .
(٦٧) گذشته : ٣٨٠ - ٣٨١ .
(٦٨) گذشته : ٣٨٥ .
(٦٩) گذشته : ٤٢٥ .
(٧٠) گذشته : ٤٣٤ .
(٧١) گذشته : ٤٣٣ - ٤٤٤ .
(٧٢) گذشته : ٤٨٣ .
(٧٣) گذشته : ٥٢٢ .
(٧٤) گذشته : ٥٢٣ - ٥٢٤ .
(٧٥) گذشته : ٥٢٣ - ٥٣٧ .
(٧٦) گذشته : ٥٥٢ - ٥٥٣ .
(٧٧) گذشته : ٥٧١ .
(٧٨) گذشته : ٥٨٩ - ٥٩١ .
(٧٩) گذشته : ٥٩٥ .
(٨٠) گذشته : ٦٢٩ .
(٨١) گذشته : ٦٢٧ .
(٨٢) گذشته : ٦٣٥ .
(٨٣) گذشته : ٦٤٣ .
(٨٤) گذشته : ٦٤٤ - ٦٤٥ .

(٨٥) گذشته : ٦٤٧ - ٦٤٨ .

(٨٦) گذشته : ٦٤٥ .

(٨٧) عندما صدر الجزء الأول من هذا الكتاب ، هال بعض مدعيي اليسار المصريين ما كتبته عن دور اليسار فى تاريخ الكفاح القومى الإيرانى وانهالت على كليشاتهم المحفوظة من اتهام بالرجعية والغرض وانعدام الموضوعية والجهل ... الخ ومن هنا حرصت فى هذا الفصل على تفصيل دور توده منذ نشأته بالرغم من أن الموضوع خارج الاطار الزمنى لهذا الجزء .

(٨٨) گفتارى درباره شكنجه وزندان در ايران ص ١٥ .

(89) Halliday (F.) , Iran Dict. and dev. pp. zz9 - z3z .

(90) Ibid, z31 .

(91) Ibid, z31 - z32 .

(92) Halliday (F.), Iran Dict and dev . pp. z36 - z37 .

(93) Ibid, p. z38 .

(٩٤) يزدى : جنبش هاى اسلامى ٢٩ .

(95) Halliday, Iran, p. z39 .

(٩٦) إبراهيم يزدى : جنبش هاى اسلامى ص ٥٢ .

(٩٧) بيام مجاهد شماره ٥١ ص ٧ .

(٩٨) بيام مجاهد شماره ٥١ ص ٧ .

(٩٩) انظر بيان طلاب جامعة طهران الصادر فى فروردين ٥٦ والوارد فى بيام مجاهد شماره ٤٦ صص ١ - ٥ .

(١٠٠) بيام مجاهد ٥١ / ٥ .

(١٠١) بيام مجاهد ٥٢ / ٨ .

(١٠٢) بيام مجاهد شماره ٥ / ٦ .

(103) Halliday (f.), Iran, p. zz9 .

(١٠٤) حركة الشعب والانتهازيون فى إيران : من منشورات فدائيى الشعب ص ٧ - بدون تاريخ وبدون مكان طبع .

(١٠٥) حركة الشعب : ص ٩ .

(١٠٦) حركة الشعب ص ١٣ .
(١٠٧) حركة الشعب ص ١٩ .
(١٠٨) حركة الشعب ص ٢٢ .
(١٠٩) حركة الشعب ص ٢٣ .
(١١٠) حركة الشعب ص ٢٤ .
(١١١) حركة الشعب ص ٦٣ .
(١١٢) بيان صادر فى ٢٩ سبتمبر سنة ٧٨ وورد فى كتيب حركة الشعب صص ٨٤ - ٩٢ .

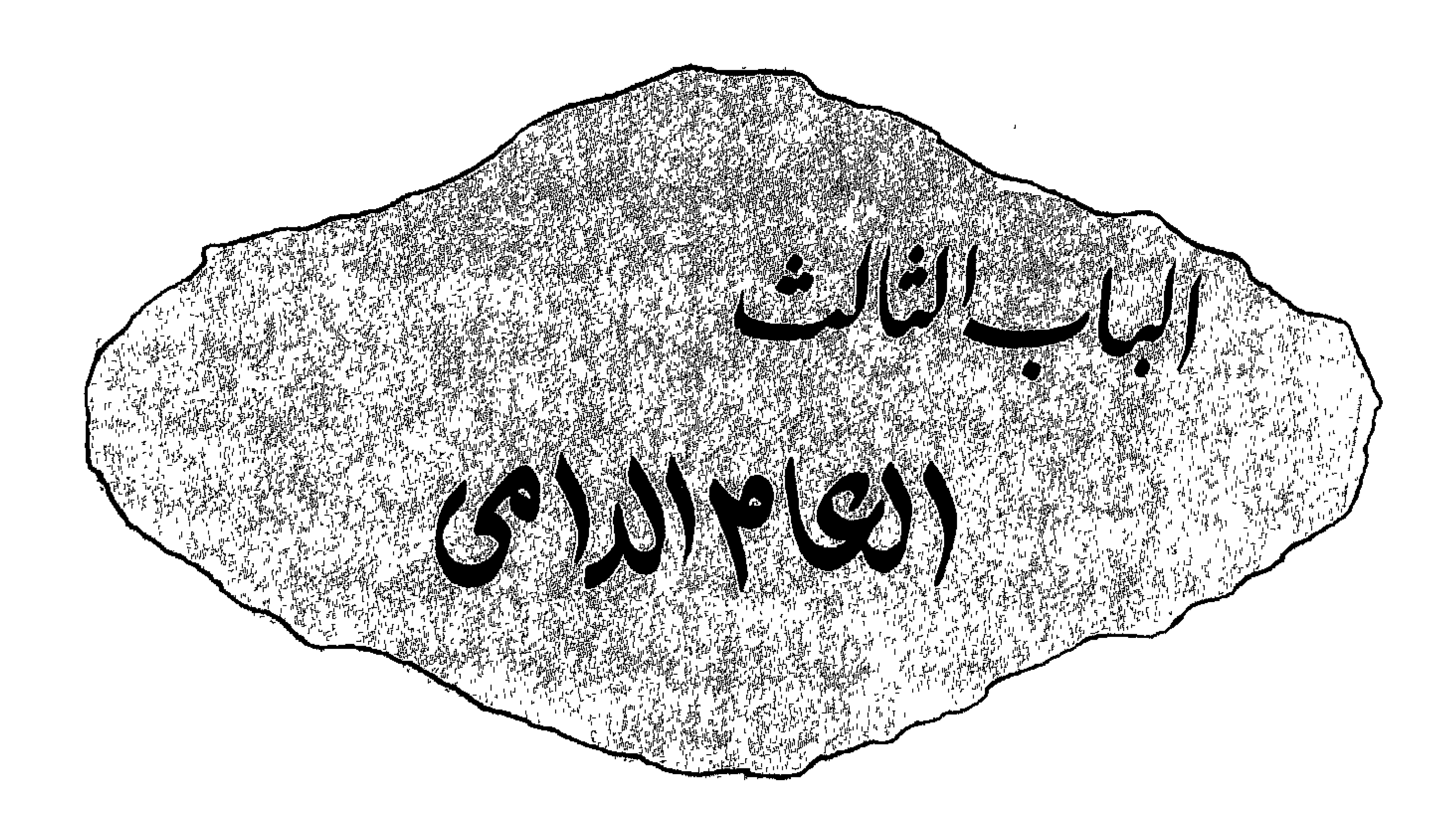
(113) Halliday, Iran Dict and dev . p. z33

(114) Helmut pichard, Human rights and dictatorship in .EE. 113 .

(١١٥) سيروس برام : إنقلاب ايران ص ٦٥ .
(١١٦) المصدر السابق : ص ٦٦ .
(١١٧) نفس المصدر : صص ٦٥ - ٦٧ .
(١١٨) انظر الجزء الأول .
(١١٩) آية الله الخمينى : كشف الأسرار ص ٧ وص ٥٩ وما بعدها . بدون تاريخ أو مكان طبع .
(١٢٠) سيروس برام : انقلاب ايران ص ٧٩ .
(١٢١) أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب .
(١٢٢) آية الله الخمينى : توضيح المسائل صص ٥٧٥ - ٥٧٧ . بدون تاريخ أو مكان طبع .
(١٢٣) المصدر السابق صص ٥٨٣ - ٥٨٤ .
(١٢٤) نفس المصدر صص ٥٧٧ - ٥٨٠ .
(١٢٥) توضيح المسائل صص ٥٧٧ - ٥٨٠ .
(١٢٦) أبو الحسن بني صدر : إيران غربة السياسة والثروة ص ١٣٠ .
(١٢٧) انظر الفصل الأول من هذا الباب .
(١٢٨) محمد رضا حكيمى : تفسير آفتاب صص ١٨٤ - ١٨٦ .
(١٢٩) أبو الحسن بنى صدر : ايران غربة السياسة والثروة ص ١٣٠ .

(١٣٠) المصدر السابق ١٣٤ .
(١٣١) من حديث إلى هيئة مراسلي الإذاعة والتلفزيون الفرنسي في سبتمبر ٧٨ . ورد في : مجموعة مصاحبه هاى إمام خمينى جلد ١ ص ٥ بدون تاريخ أو مكان طبع .
(١٣٢) من حديث إلى مجلة در اشبيجل في ٧ نوفمبر ٧٨ ورد في مجموعة مصاحبه هاص ٢٣ .
(١٣٣) آية الله الخميني : الجهاد الأكبر صفحات متفرقة .
(١٣٤) محمد رضا حكيمي : تفسير آفتاب صص ١٦٨ - ١٧٠ .
(١٣٥) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب .
(١٣٦) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب .
(١٣٧) تفسير آفتاب ص ٢٠٧ .
(١٣٨) من حديث لمجلة در اشبيجل في ٧ نوفمبر ٧٨ ورد في : مجموعة مصاحبة هاى إمام خمينى جلد ١ ص ٢٦ .
(١٣٩) من حديث لإحدى صحف الخليج ورد ص ٥٨ من المصدر السابق .




الباب الثالث
العام الدامى

مقدمة : نذر العاصفة

تميز صيف سنة ١٩٧٧ فى إيران بارتفاع بشع فى درجة الحرارة وكأن الطبيعة بدورها كانت تمهد للثورة ، كانت طهران ترقد صامتة مقهورة تسفح عليها الجبال المحيطة لهيب الجحيم بينما كانت قمة دماوند تطل من عل وتبدو لأول مرة وهى تكاد تخلو من الثلوج ، كانت شوارع المدينة تبدو أغلب ساعات النهار خالية من الناس ، وعندما كان المساء يقترب كان نوع من الغبار الأصفر الرقيق يحيط بطبقات الجو ويغلف المدينة الحزينة المقهورة ، وفى الليل كانت المدينة كعادتها تبدو خالية تماماً وهى سمة من سماتها فقد كانت قوانين إغلاق المحلات العامة فى ساعة مبكرة من الليل تطبق بكل حسم ... كان الشغل الشاغل للصحف هو الحديث عن أزمة الطاقة الكهربية وترشيد استهلاك الكهرباء ، وهذا فى حد ذاته كان يمثل أكبر فضيحة للنظام الذى كان لا يفتأ يتشدق بعدد السدود التى بناها والطاقة الكهربية التى وفرها ، وكان أمراً مثيراً للسخرية حقا فى دولة تعد من أكبر الدول المصدرة للطاقة ، وكانت الخطوات التى اتخذتها الحكومة أكثر بعثاً على الضحك والسخرية ، فلم تجد وسيلة لترشيد استهلاك الكهرباء فى ذلك الصيف الملتهب إلا أن تقوم بقطع التيار الكهربى عن أحياء طهران بالتناوب ، ولنا أن نتصور نتيجة تعطل أجهزة التبريد والتهوية فى درجة حرارة تقترب من ٤٥ درجة ... **وأصبح الحديث عن الخراب الوشيك يدور همساً بين أناس كان المرء يظنهم للوهلة الأولى من عمد النظام .**

وكان النظام يجاهد جهاد المستميت فى أن يبدى ثباته واستقراره دون سبب واضح لكنه كان يتخبط ، فمن ناحية تكثر الاحتفالات الباذخة ، ثم يليها ارتفاع بشع فى الأسعار ، ولم يكن يمر يوم فى ذلك الصيف الساخن البشع دون أن ترتفع أسعار المواد الغذائية والضرورية أو تفرض ضرائب جديدة أو ترتفع أسعار الخدمات العامة أو .... يقام احتفال باذخ لمناسبة قومية (وكل المناسبات الشاهنشاهية قومية) ... كان من الواضح حتى لمن لا يعلم ما يجرى فى الخفاء أن سفينة النظام قد بدأت تميل ، وفى هذه الأزمة الطاحنة الواضحة للعيان ، كان جشع عصابة النهب يزداد حدة ، فكان معظم الدخل القومى ينصب على

البنوك الأجنبية ، وازداد ميليارديرات النظام من أمثال يزدانى وياسينى ورضائى عتواً ولكى يدارى النظام عجزه أخذ يجبى الاتاوات من عصابة النهب خارج الأسرة البهلوية ، فيقبض على يزدانى ويفرج عنه بكفالة (١٦ مليون دولار) فلا يفعل أكثر من فضح يزدانى وفضح نفسه .

وكان الشاه هو أول من يحس أن الأرض تميد من تحت قدميه ، فكان وكأنه بالتعبير الإيرانى قد ابتلع لسان عصفور لا يمل من الشقشقة فى وسائل الإعلام عن أنه رجل مقاومة « مقاومة من ؟ » وأنه لن يتخلى عن العرش « ومن طلب منه ذلك ؟ » وأخذت الشائعات تنتشر فى أنحاء إيران ، شائعات فحواها أن أمريكا فى سبيلها إلى التخلى عن خادمها وعميلها المخلص ، ثم شائعات عن إصابة الشاه بمرض خطير وقرب تنحيه ، وأخذ الشاه يهاجم النظام الجمهورى (هل كان قد طرح بالفعل ؟) ، ثم شائعات أخرى أن أمريكا تخطط بالفعل لانقلاب عسكرى ضد النظام البهلوى لكنها لم تجد متطوعاً بعد وكيف كان يمكن لها أن تجد وكبار قواد الجيش وجنرالاته قد ترهلوا من أنصبتهم فى عملية النهب ؟

وكانت رحلة الشاه إلى بولندا وتشيكوسلوفاكيا عميقة المغزى ، وقد أثارت أسئلة عديدة : هل يتجه الشاه إلى المعسكر الآخر ؟ وكان الذين يطرحون هذا السؤال لا يعلمون أن المعسكر الآخر قد وازن علاقته مع نظام الشاه على أساس المنفعة ، بينما كان الشعب الإيرانى لا يرى فى هذا التخبط من الشاه إلا دليلاً على الإفلاس ، كما كان يدرك أن الشيوعية الدولية لا تقل عن الرأسمالية الدولية عتواً وطلباً للفرص ، ولم يكن أحد يستطيع أن يخمن أن رحلات الشاه والشهبانو إلى الدول الشيوعية لم يكن لها من سبب إلا استحالة الرحيل إلى دولة غربية فقد كان هذا يزيد من فضح النظام ، ففى الدول الشيوعية فقط يمكن أن يحشر الناس كالخراف لاعداد استقبال شعبى حافل لأية شخصية من الشخصيات مهما كانت مجرمة وملوثة بالدم .

ترى ماذا كان يحدث ولا ينشر ؟ **إن من أهم سمات الحكم الديكتاتورى أن الحقائق لا توضع أمام الشعوب أبداً ولا تنشر الأحداث إلا عندما يريد**

الفرد الجبار ذلك ، وغالباً ما يطرحها من وجهة نظره هو ، ومن ثم تدرك الشعوب أن هناك شيئاً ما وراء مواقف حكوماتها الديكتاتورية دون أن تدرك بالضبط ماهية هذه الأشياء فموقف الحكومة يقدم افتراضات وتخمينات عديدة قد لا يكون واحد منها صحيحاً ... وهكذا ففى خضم هذه الشائعات والافتراضات والاحتمالات سقطت وزارة هويدا التى استمرت ثلاث عشرة سنة متتالية ، ولم يكن تغيير الحكومة المعمرة واحتفاظ هويدا بمنصب وزير البلاط وإدخال عدد من الوزراء المعروفين بكراهيتهم للشعب فى حكومة جمشيد آموزگار التى قدر لها أن تتلقى الضربات الأولى فى الثورة إلا نوعاً من التغيير المضحك المثير للغثيان ، إنه نوع من تغيير قطع الشطرنج لكن داخل الرقعة ، نوع من تغيير المواضع والكراسى ، فقد كان كل شىء يدل على أن النظام مصصم على مواصلة سياسته القمعية اللاقومية ، بينما كانت الوزارة الجديدة فى وضع لا تحسد عليه وتستحق التعزية لا التهنئة ، **ففى تقرير لوزير التجارة فى وزارة هويدا سلمه للوزير الجديد أنه إن لم تقم الحكومة بشراء المواد الغذائية من الخارج لمدة يوم واحد فسوف تواجه مجاعة حقيقية .**

وبينما كانت صحف النظام تروج لجمشيد آموزگار ، و « تحليه » فى أعين الشعب ناعتة إياه بالعبقرية الاقتصادية والرجل الحديدى فى « الأوبك » وتشير من طرف خفى إلى أنه ينتسب إلى أسرة من علماء الدين ، كان الشعب كله يعلم أن آموزگار ليس أكثر من « سمسار » لشركات البترول العالمية ، وكان يعلم أن دليل الغباء وقلة الحيلة عند النظام أن يسند رئاسة الوزارة إلى مثل هذا السمسار المفتضح ، وأن يظل نصيرى جلاد وزارة هويدا على رأس جهاز الساواك وأن تظل الوجوه المعلومة وأصحاب السوابق فى مقاعدهم ، ولكى تزيد السخرية حدة ، أطلقت الوزارة على نفسها إسم « حكومة الوحدة الوطنية : دولت اتحاد ملى » ، وحدة بين من ومن ؟ وألم يكن الشعب قد توحد فى ظل حزب رستاخيز كما أعلن الشاه أكثر من مرة ؟ الله أعلم . (١)

وأخذت حكومة الوحدة الوطنية تبشر عن طريق أجهزة الإعلام بالعهد الجديد **والانفتاح السياسى** وحرية الفكر وحرية الكتابة والإفراج عن بعض المسجونين

السياسيين ، أكان المقصود هو تخفيف حلقة الحركة الشعبية التى كانت قد بدأت تضيق حول الشاه ؟ **وإذا كنا نعلم أن الأحاديث الصحفية التى يتفضل الطغاة بالإدلاء بها هم الذين يبادرون إليها أى أنهم يدعون الصحفيين وغالباً ما تكون مقصودة ، وغالباً ما تكون الإسئلة التى توجه فيها من وضع المتحدث نفسه ، فإننا نستطيع أن نستنتج من الحديث الصحفى الذى أجراه رئيس تحرير جريدة كيهان مع الشاه بدعوة منه دليلاً على ما كان يدور فى خلد الشاه فى تلك الآونة (سبتمبر ١٩٧٧) .**

تحدث الشاه فأعلن بدء المرحلة الثانية من الثورة البيضاء ، وأرجع المشاكل التى تعانى منها الدولة إلى أن الارتفاع فى دخل الدولة يزيد عن قدرة « الهضم » مما أدى إلى التضخم ، ومع هذا فقد ناقض الشاه نفسه عندما أوصى بأنه ينبغى توخى « التواضع » فى وضع البرامج الإقتصادية وبرامج التنمية فى الدولة ، وبالطبع وضع كل أمله فى حكومة آموزگار « الوطنية » ، ثم عرج على التاريخ فاتهم مصدق بالعمالة للانجليز (!!) واتهم كل المدافعين عن حقوق الإنسان بالعمالة للروس (!!!) ، وقال أن المشاكل الموجودة فى إيران والتى تكتب عنها الأقلام فى الخارج (!!) ليست موجودة إلا فى مخيلة من يكتبونها وكلها بالطبع نتيجة للحقد على إيران ، فهم يريدون أن يمتنع الناس (أى ناس ؟ !) عن التمتع بحياتهم بدعوى الحد من الاستهلاك ، ثم تحدث الشاه عن حزب رستاخيز وعن وجوب انضمام كل الناس إليه فالذى لا يقبل مبادىء الحزب الثلاثة ومواد الثورة البيضاء التسع عشرة إما أن فى عقله قصوراً أو يريد العمالة للأجانب ومن هنا ينبغى شرح مبادىء الحزب للجميع عن طريق إنشاء جامعة حزبية (!!!) وسئل الشاه بالطبع عن نشاط الجماعات الإرهابية فى إيران ، فأجاب أنه لا يوجد فى إيران كلها أكثر من مائة أو مائة وعشرين « إرهابياً » فى حين أنه يوجد فى ألمانيا مثلاً ١٦٠٠ إرهابى ، أما السبب فى انعدام النشاط فى رأى جناب الشاه فهو أنه قد وصلتهم الأوامر من الخارج بالكف عن النشاط الإرهابى والاستعاضة عنه بنشر الشائعات وتوزيع المنشورات وهذا بالطبع ما لن يكون له مجال عندما تكتب الصحافة بحرية عن كل شىء ، وهو نفسه

يطالب الصحافة بأن تكتب عن كل شيء بحرية ، أما عن حركة الشباب الإيرانى خارج إيران ، فكل الشباب شيوعيون تعرضوا لعمليات غسيل مخ ، **وعلى كل حال فهم « شرذمة » من المنحرفين لا يأبه بهم ، ثم يتحدث عن نفسه وكأنه إيران : إننى لا أريد أن أتصور أن يكون هناك إيرانى ليس قلبه مع إيران ، وعندما سئل الشاه عن فساد الإدارة وعن الرشوة المتفشية ، لا يجد جواباً إلا أن يقول إنها كلها شائعات وأكاذيب مغرضة ، لكنه سوف يطالب المسئولين « أى مسئولين ؟ » بتقديم إقرارات عن ثرواتهم ، ثم يتفضل الشاهنشاه فيقدم تحليلات شاهنشاهية عن أسباب فساد الإقتصاد وتدهور الزراعة والتضخم فى إيران** ، ثم يفسر زيارته إلى اوربا الشرقية بأنها خير دليل على السياسة المستقلة التى تنتهجها حكومته ، أما عن العلاقة مع أمريكا فهى حسنة جداً ولا يمكن الا أن تكون حسنة أما ما يثار غير ذلك فهو مجرد شائعات ولا يمكن أن تكون حقيقة ، ويختم الشاه حديثه بحكمته المكررة المعادة بأن استمرار النظام الشاهنشاهى هو الضمان لكل تقدم فى إيران ... أما عن الأحزاب وتعدد الرأى ، فالجواب : ليس بعد بل فى سنة ١٩٩٠ عندما يتعلم الشعب وينضج ويعلم كيف يستخدم حرية الرأى وتعدده (!!!) والشاه بالطبع سوف يعمل من أجل هذا فهو كما وصف نفسه **رجل نضال ولا يتعب أبداً** . (٢)

وبينما كانت السياسة المعلنة من الحكومة الجديدة والشاه تبشر بالحرية ، كان من الواضح أن الأمر لا يزيد عن نفاق شاهنشاهى (حافظ عليه الشاه حتى آخر لحظة) وبينما كان الإعلام كله يتشدق بالتغييرات التى تزمع الحكومة الجديدة القيام بها ، كان جهاز الساواك أشد فتكاً وعتواً ، فالشاه يعلن عن رحلة جديدة إلى أمريكا « ربما ليخرس الشائعات » والسجون قد ازدحمت بمن فيها وأخذت طوابقها تعلو ، ووسائل التعذيب تستورد خصيصاً من الخارج على أنها أجهزة رياضية ثم تكتشف فى المطار ، وشاب يقتل علناً فى محل لبيع الأحذية فى وسط طهران لأن كرامته أبت أن تتهمه السيدة ثابتى « زوجة برويز ثابتى ضابط الساواك الكبير » بسرقة كيس نقودها ، ولا يتحرك القانون حتى بعد أن اكتشفت السيدة كيس نقودها فى المنزل ، وصحف الشاه تنشر أن جناب الشاهنشاه سوف يطلب من الأمم المتحدة القيام بحملة عالمية تشترك إيران فى

تمويلها ضد تعذيب المعتقلين فى السجون وإهدار حقوق الإنسان وهو يعلم تماماً أن نظامه على رأس قائمة « المطلوبين » ، وتنشر الصحف الشاهنشاهية فى نفس اليوم (٢٦ اكتوبر) أن هناك ستمائة كاتب يعيشون فى سجون العالم ، وينبرى فلاسفة الشاه للدفاع عن حرية الإنسان وحرية الفكر وحق الكاتب فى التعبير عن رأيه فيقدمون أبلغ دليل على نفاق النظام الذى يدافع عن كاتب أجنبى وينسى أمثال طالقانى ومنتظرى وبازرگان وهاشمى رفسنجانى وعشرات من الكتاب الذين يعذبون داخل سجون إيران ، وينسى عشرات الكتاب الذين يمنعون من النشر ويجازون بعقوبة لا توجد فى مكان فى العالم إلا فى إيران وهى المنع من الكتابة (**ويعبر عنها فى إيران بأن فلاناً ممنوع القلم**) والمنع من ذكر اسم الكاتب فى أية وسيلة من وسائل الاعلام (ويعبر عنها بأن فلاناً ممنوع الاسم) (٣) وينسى دم شريعتى الذى لم يكن قد جف بعد ودم مصطفى الخمينى الذى لم يكن قد مر على مقتله أكثر من ثلاثة أيام .

نعم ، كان النظام يحس أنه فى سبيله إلى مواجهة أزمة جديدة ، وكان هناك بالفعل ما هو جدير بحديث الشاه عن المقاومة ، ومنذ بداية ٧٧ كانت نذر العاصفة تتجمع فى الأفق ، وبعد فترة من الصمت بدأت مصادمات الشوارع بين الساواك والمجاهدين من جديد ، وشهد شهر يناير واحدة من أهم هذه المصادمات ، إذ تصدى البوليس والساواك لخلية كانت تحت قيادة الشهيد پرويز واعظ زاده ، **كانت الخلية تضم تسعة عشر عضواً من الرجال والنساء وعندما أحيط بهم ، كون الرجال دائرة حول النساء ، وتبادلوا اطلاق الرصاص مع قوات الحكومة بينما عمد النساء داخل الدائرة الانتحار بقطع شرايين أيديهن ، ونجح الرجال فى القضاء على عدد من عملاء الساواك ، واستشهد ثمانية بينما قبض على أحد عشر عضواً** ، ولم تكد تمضى عدة أيام حتى أحاط البوليس بمخبأ الشهيدتين ليلاً زمرديان ومحبوبة متحدين ومحمد قائمى وقتلهم ، **وكانت الحادثتان من العنف والوحشية بحيث انعقد فى هولندا مؤتمر لإدانة انتهاك حقوق الإنسان فى إيران** . (٤)

إلا أن الظاهرة الجديدة فى المقاومة كانت انضمام المثقفين بكل ثقلهم ،

وشهد مستهل عام ٧٧ عدداً من المثقفين يقومون بنقد النظام علناً والدعوة إلى تطبيق الدستور والتحذير من الصعوبات الإقتصادية التى تواجهها إيران وكانت وسيلة الاعتراض هى توجيه خطابات مفتوحة مطولة إلى الشاه ، فقد وجهت إليه خطابات مطولة من ثلاثة من مؤسسى الجبهة الوطنية هم كريم سنجابى وداريوش فروهر وشاهبور بختيار ،كما وجه إليه كل من إبراهيم خواجه نورى وهو مؤرخ وعلى أصغر حاجى سيد جوادى خطابات شديدة اللهجة ، وهناك أيضاً احتجاج وجهه ستة وخمسون عضواً فى اتحاد الكتاب ، واحتجاج وجهه أربعة وخمسون من القضاة ، وثالث من أربعة وأربعين ومائة من المحامين ، وبالرغم من أن هذه الاحتجاجات والخطابات المفتوحة كانت تقدم بعض المطالب وتقترح بعض الحلول فى إطار النظام ، إلا أنها فى مجموعها كانت تحاول ضرب النظام فى مقتل وتجريده من أساليب القمع الذى كان مرتكزاً عليها فى الأصل ، إذ كانت تطالب بالحياة الحزبية الحرة وإغلاق السجون والمعتقلات والإفراج عن المسجونين السياسيين وكف يد الساواك عن كل المؤسسات الإقتصادية والثقافية وإلغاء القضاء العسكرى وأن تكون المحاكمات علنية إلا فى حالات الضرورة القصوى ... فإذا نفذت هذه المطالب ، ما الذى كان يمكن أن يتبقى للنظام إذن ؟ وحتى نهاية العام ، **كانت حركة المثقفين قد تمخضت عن تكوين جمعية الدفاع عن حقوق الإنسان فى إيران على يد ثلاثين من المثقفين الإيرانيين يمثلون تيارات المعارضة المختلفة** ، وقام ثلاثة من أعضاء الجبهة الوطنية والحزب الإيرانى الوطنى وحزب إيران وجمعية الاشتراكيين الإيرانيين بإعلان قيام جبهة جديدة لتحرير إيران (٥) **إلا أن الملمح البارز والذى حرص المؤلفون الغربيون على إغفاله هو انتشار الجمعيات الإسلامية فى كل هيئة ومؤسسة ، وبدأت تظهر فى الأفق إضرابات ومظاهرات ومنشورات من قبل الجمعيات الإسلامية فى نقابات المهندسين والمحامين الشبان والعمال والتجار وأرباب المهن ، ولم تعد هناك قرية فى إيران لا تضم جمعية إسلامية كانت على صلة مباشرة بالجمعيات المشابهة للمنفيين فى الخارج ، ناهيك عن الجمعيات الإسلامية التى كانت قد تشكلت فى كل الجامعات الإيرانية منذ فترة طويلة .**

هذه الجمعيات الإسلامية أخذت على عاتقها تنظيم الإضرابات التى اجتاحت الجامعات الإيرانية طيلة العام الدراسى ٧٦ / ٧٧ كما كانت تضم عدداً من الأساتذة كافحوا جنباً إلى جنب مع الطلاب ، وبلغت الاضرابات أوجها فى مستهل سنة ٧٧ باضراب كلية العلم والصناعة « دانشكدهٔ علم وصنعت » الذى استمر شهرين واشتعل إثر اعتقال خمسة من الأساتذة احتجوا على السيطرة الأمريكية على إيران وعلى تفشى السافاك فى أجهزة الجامعة وعلى مطاردة البوليس للطلبة داخل الكليات ، واستمر إضراب الجامعة التكنيكية فترة أطول كما أضربت مدرسة التجارة العليا بمناسبة ذكرى ١٦ آذر ، أما الجمعية الإسلامية فى جامعة آريامهر « التى سميت فيما بعد باسم جامعة شريف واقفى » فقد أخذت على عاتقها تنظيم عدد من المظاهرات كانت تتميز بالعنف وباشتراك أغلب الأساتذة فيها ، ولم تنقطع المظاهرات والإضرابات فى بعض الجامعات الإقليمية خاصة أصفهان طوال تلك السنة ، وكانت المظاهرات تواجه بالشدة والعنف والقمع وعزل المدن الإقليمية بحجة أن الثلج قد قطع الطريق ، وكثيراً ما سقط قتلى وجرحى ، كما كانت الانتهاكات التى تتم فى هذه الصدامات من ضرب للطلاب والأساتذة وإهانات للطالبات تتردد بعد ذلك عن طريق المنشورات السرية فى طول إيران وعرضها مما كان يكسب النظام أعداء جدداً كل يوم (٦) .

وفى ٢٩ خرداد (١٩ يونية) عثر على الشهيد الدكتور على شريعتى جثة هامدة فى شقته فى لندن ، وكان قد اضطر إلى مغادرة إيران بعد الإفراج عنه من السجن (٧) وبالرغم من أن التقرير الذى نشر عن الحادث قد شخص الوفاة بأنها نتيجة لسكتة قلبية ، إلا أن أتباع الشهيد وأنصاره وتلاميذه فى إيران كانوا يعلمون أنها سكتة قلبية من « السكتات » التى يدبرها النظام والتى ترجع خبرته فيها إلى عهد رضاخان حيث كان هناك متخصصون فى إحداث السكتات القلبية وهو أمر غير مفهوم ، كان وضع الشقة والجثة التى وجدت بين الأوراق يثير الريب والشكوك ، وأدان النظام نفسه عندما لم يسمح بدخول جثة شريعتى إلى إيران ليدفن فيها فنقل إلى دمشق فى ٤ يوليه حيث دفن فى الحرم الزينبى ، ولم يكتف النظام بما فعل ، بل عمدت الصحف إلى إشعال حملة لتشويه المفكر

العظيم ، فاشترك رجال الدين المنضمون إلى السلطة والماركسية الشاهنشاهية فى تدبيج المقالات المأجورة التى تهاجم الشهيد ودمه لم يجف بعد ، وجدد رجال الدين المنضمون إلى السلطة فتواهم المشهورة بتكفير الشهيد الذى يعد أهم بناة النهضة الفكرية للثورة الإيرانية ، وكان من الطبيعى أن يتصدى علماء الدين المناضلون لهذه المحاولات التى تحاول النيل من « أبى ذر » العصر و« الشهيدالخامس » ، فعقدت الندوات برغم أنف السلطة عن فكر الشهيد وصدرت البيانات التى تعترف بأثر فكره فى النهضة الإسلامية وفى ربط الجناح

الدينى بالجناح المدنى وفي تقديم صورة عظيمة عصرية عن الدين ومحاولات جدية فى تنقية المذهب الشيعى مما لحق به عبر القرون ، وبالطبع كان الصدام الذى حدث حول شريعتى بين النظام وعناصر المقاومة فرصة لفضح النظام وعملائه ومهاجمة إجراءات النظام القمعية التى لا تترك الشهداء حتى بعد تصفيتهم جسدياً .

ولم يكد أكتوبر يبدأ ، حتى كانت سحب العاصفة قد تجمعت فى سماء إيران ، وأصبحت إرهاصات الثورة واضحة للعيان ، فبالرغم من البشارات التى صحبت تولى حكومة آموزگار ، لم تكن قوى المعارضة ترى بادرة تحسن فى الأفق ، ومن ثم شهد شهر أكتوبر مظاهرات عظيمة داخل إيران وخارجها تطالب بوضع حد لحرب الشوارع التى كان الساواك يشنها بشراسة كما تطالب بالإفراج عن طالقانى وسحابى ومنتظرى وميثمى وبحرية الصحافة ، أما الفضيحة الحقيقية للنظام فقد تمثلت فى المظاهرات التى قامت بها الجمعيات الإسلامية فى الخارج ، وخاصة الإضراب عن الطعام فى باريس الذى لفت أنظار جمعيات حقوق الإنسان لما يحدث فى إيران ، فقامت تحتج على القوانين الجديدة التى وضعت للمحاكم العسكرية فى إيران بينما شاع أن وليم سوليفان السفير الأمريكى فى إيران قد اشترك شخصياً فى صياغتها . (٨)

وكان رد النظام على كل هذه الفضائح العالمية أن لجأ إلى وسيلة قديمة وحقيرة ، ولأنه كان يعلم أن الجناح الدينى الممثل فى آية الله الخمينى قد أصبح يمسك بزمام المبادرة ، روعت إيران بخبر مصرع مصطفى الخمينى الإبن الأكبر للإمام فى منفاه فى النجف فى ٢٣ أكتوبر ، وبالطبع كان الأمر فى ظاهره سكتة

قلبية ، إلا أن الأخبار سرعان ما خرجت من النجف بأن الفقيد كان ليلة اكتشاف جثته في أتم صحة ، وأن مجهولين قد قاموا بزيارته في الليلة السابقة على الصباح الذى وجد فيه ميتاً ، كان مصطفى الخمينى محبوباً من الشعب الإيرانى فهو رفيق والده فى الكفاح ، كما كان قد فقد اثنين من أبنائه فى مذابح خرداد ٤٢ (يونيه ٦٣) ، وكان عالماً فاضلاً ومناضلاً كريماً شهيراً بورعه وزهده وكان أشد وطأة على عموم الشعب أن يموت مصطفى الخمينى بينما يعيش أمثال شهرام وعبد الرضا وبقية أمراء الأسرة المالكة يعيثون فى الأرض فساداً ، وبات واضحاً للشعب أن أحداً لن يستطيع أن ينجو من بطش النظام مهما كانت مكانته ، وأن النظام لن يتغير ولن يرحم أحداً ، وكان التماسك الشديد والجلد والصبر الذى أبداه الإمام يزيد من غضب الشعب ، فقد كان يرد على برقيات معزيه : **« نحن نعيش أياماً عصيبة ومصائب أفظع وعلينا ألا نذكر مصائبنا وآلامنا الشخصية »** كما رد على برقية ياسر عرفات قائلاً « هذه المصيبة لا تعد شيئاً يذكر إلى جوار المصائب والآلام التى توجه إلى الإسلام والمسلمين فى إيران » (٩) .

ولم تكن هذه الحادثة المريعة لتفوت على القوى الدينية التحررية فى قم ، فقد استمرت حفلات التأبين ومجالس العزاء التى تقام عادة فى إيران لفترة طويلة ، كانت فرصة لتحدى النظام ، وكما سوف يحدث طوال عام الثورة انقلبت المناسبات الدينية إلى مناسبات سياسية ، وإلى جوار البيانات والبرقيات العديدة التى أرسلت إلى الإمام فى منفاه ، أقيمت حفلات التأبين العلنية ، وبالرغم من أن أربعين الشهيد كان فى أوائل نوفمبر ، إلا أن احتفالات الأربعين استمرت إلى نهاية العام ، وكان أعظم الإجتماعات أو المجالس بالتعبير الإيرانى التى أقيمت لتكريم الفقيد وتجليله وتأبينه فى ١٢ آذر (٣٠ ديسمبر) ، كان مجلساً عاماً عقد فى قم وحضره ممثلون عن الحركة الإسلامية فى كل أنحاء إيران ، **وكانت أشد الانتقادات التى وجهت إلى النظام وأكثرها جرأة فى الخطبة التى ألقاها آية الله خلخالى فى هذا الجمع الحافل ، فتحدث عن كل ما نهى النظام عن الخوض فيه : الاستبداد وانعدام الحريات والسيطرة الإسرائيلية والقضية الفلسطينية** ، وفى النهاية أصدر المؤتمر بياناً يحتوى على

عشرة نقاط من أهمها عودة الخمينى من منفاه وإعادة فتح المدرسة الفيضية وحل حزب رستاخيز ... ولم يجد النظام سوى رده المعروف أى حملة اعتقالات جديدة ، كما قام بنفى أربعة من كبار المشتركين فى المؤتمر إلى مناطق وقرى نائية داخل إيران وهم : آية الله خلخالى وآية الله ربانى الشيرازى وآية الله معاديخواه ومحمد جواد حجتى الكرمانى . (١٠)

وبينما كانت هذه الأحداث تجرى داخل إيران ، كان فصل آخر من فصول المقاومة يدور خارج إيران أثناء زيارة الشاه إلى أمريكا فى ١٥ نوفمبر ، كانت الجماعات الإسلامية هناك قد أعدت للشاه استقبالاً حافلاً جديراً حقاً بجلالته ، وقبل وصوله بخمسة أيام بدأ إضراب عن الطعام لفت أنظار وسائل الإعلام الأمريكية ، وتقاطر الطلاب الإيرانيون من كل أنحاء الولايات المتحدة وتجمعوا أمام البيت الأبيض ، **وبمجرد دخول الشاه حديقة البيت الأبيض روع بجموع الطلاب الذين يغطون وجوههم بالجوارب « النيلون » قد أخذوا يهاجمونه ، ترى هل روع الشاه وظن أن أشباح ضحايا الأسرة البهلوية قد هبت من مراقدها وبعثت تقاضيه الحساب ؟** واضطر البوليس الأمريكى إلى إلقاء القنابل المسيلة للدموع ، وعلى شاشة التلفزيون الأمريكى ظهر جلالة الشاه وظهر رئيس أعظم دولة فى العالم وكأنهما يبكيان ، واستمر الصدام بين الطلاب المتظاهرين وعناصر من الساواك اصطحبها الشاه معه لتنظيم مظاهرات تأييد له أمام « السادة » ليومى ١٥ و ١٦ نوفمبر على التوالى ، واشتعلت الصحافة الأمريكية بحملة شعواء ضارية على الشاه **« المجنون الذى لم يعد أهلا للثقة »** .

وفى ٢٢ نوفمبر ، وبعد عدة أعوام من الاختناق التام حدث حادث له مغزاه ، إذ ظهرت جماعة أطلقت على نفسها اسم « اتحاد قوى الجبهة الوطنية » تحت زعامة داريوش فروهر بدعوة قوى الشعب إلى الاجتماع فى عطلة عيد الأضحى فى حديقة مغلقة فى « كاروانسراى سنگى » فى طريق الكرج ، إلا أن الإجتماع فوجىء بهجوم بعض القوات حملت من طهران فى عربات نقل تحمل صور الشاه وهو يرتدى ملابس الإحرام ، وكانت هذه القوات ترتدى الملابس المدنية ، وحينما حاول فروهر الدفاع عن ضيوفه تعرض للضرب الشديد مما استدعى ست عشرة غرزة وخمسة أيام فى المستشفى ، وأعلن حزب رستاخيز

أن القوات المهاجمة أعضاء فى الحزب قاموا بهذا الهجوم تأييداً للشاه ، وأسفر الهجوم عن جرح ما لا يقل عن ثلاثمائة شخص ، وثبت فيما بعد أن القوى المهاجمة من الساواك المتنكرين فى الملابس المدنية ، وكأن النظام كان يريد أن يحمى الشاه بنفس الوسيلة التى أسقط بها مصدق ، أى برعاع حى الدعارة فى إيران وحثالته الذين يقومون فى الوقت المناسب لإعداد دفاع « شعبى وقومى » عن الشاه (١١) .

وفى أول يناير ٧٨ قام كارتر بزيارة لإيران ، وقبل أن ينزل السيد « بيلوفره » يقابل التابع فى كامل أبهته ، تمت حركة اعتقالات واسعة فى إيران ، كان من الواضح أن سبب الزيارة هو التآمر على الحركة الإسلامية التى أثبتت فى الشهور الأخيرة أنها تتمسك بزعامة الخميني بزمام الحركة ، كانت السحب قد تجمعت بما فيه الكفاية والعاصفة فى حاجة إلى رياح ، أكان يمكن للنظام أو لسادته أن يمنعوا العاصفة من أن تهب ؟ لا نظن ، فإن مثل هذه النظم لا يمكن لها أن تعالج الأمور قبل وقوعها ، إنها تعالجها بعد أن تقع وبالوسيلة الوحيدة التى تعرفها وهى القمع .. كانت العاصفة على وشك أن تهب ، وكان النظام جهلاً أو غباء أو ربما عمداً هو الذى قدم لها الريح المناسبة التى ساعدتها على الهبوب كما سنرى بالتفصيل فى الفصل التالى .

الفصل الأول

العاصفة

« كل من يمسح هذا الدم أسال الله الدم
من عنقه »

كتبها أحد شهداء قم على الجدار
بدمه بعد مذابح النظام الأولى

في يوم السبت ١٧ ديماه الموافق ٢٧ محرم ٩٨ و ٧ يناير ٧٨ ، نشرت جريدة اطلاعات في صفحتها السابعة مقالاً تحت عنوان « إيران والإستعمار الأحمر والاستعمار الأسود » بقلم أحمد رشيدى مطلق « ولعله اسم مستعار لأحد كتاب الساواك وأعلن فيما بعد أن كاتبه هو داريوش همايون رئيس تحرير « آيند كان » . وأشار الكاتب في مقاله إلى إصلاحات الشاه العظيمة التي يقف الشعب كله مؤيداً لها اللهم إلا آية الله الخميني وهو وحده الذى يعارض إصلاحات الشاه بتحريض من كبار الملاك وذلك لأنه « رومانسي حالم » ، أما بقية علماء الدين فهم يؤيدون الشاه ومن ثم فمقامهم محفوظ ، ثم وتوقعا أن يطيش هذا السهم الأهوج ، ألقى بسهم ثان فسخر من حفلات التأبين التي أقيمت بمناسبة استشهاد مصطفى الخميني ، ثم بلغت وقاحته قمتها فطالب بأن يواصل النظام الإيراني مسيرته نحو التقدم والرقي وألا يلقى بالاً إلى الأصوات المنفردة التي تحاول أن تعرقل المسيرة ، وما هي علامات التقدم في رأى الكاتب الهمام ؟ إصدار قانون يبيح الإجهاض دون قيد أو شرط ، وتقنين السفور وتشديد العقوبات على من تتحدى التقدم وترتدى الحجاب ولعله كان يشير إلى المظاهرة التي خرجت من نساء محجبات في ذكرى فرض السفور بالقوة (١٢) .

كان هذا المقال الذى انتشر عصر ٧ يناير « صحف إيران كلها كانت تصدر عصراً » بمثابة النار التى انطلقت فى الهشيم ، وقبل أن نتناول ردود أفعال هذا المقال نتوقف قليلاً لنطرح سؤالاً محيراً : **هل كان هذا المقال الذى أشعل النار التى لم تنطفىء إلا بعد أن أتت على النظام الشاهنشاهى – كان بتوجيه من هويدا وزير البلاط آنذاك وإيعاز منه ؟ وهل كان من الممكن أن تنشر صحف الحكومة مقالاً لا ترضى عن فحواه ؟ وحتى إذا كان الجواب بالنفى ، نطرح سؤالاً آخر وهو : هل كان نشر هذا المقال خطأ أو سهواً من أخطاء النظام التى لا تعد ولا تحصى ؟ إطلاقاً .. لم يكن النظام ليرتكب مثل هذا الخطأ فيتحدى الشعور الدينى ويهاجم « المرجعية العظمى » ، ويسخر من الموتى ، وينادى بتطبيق قوانين يعلم تماماً أن علماء الدين لا يمكن أن يوافقوا عليها وهذا كله على سبيل الخطأ والسهو ، ومن ثم أميل إلى الشك فى أن النظام لا بد وأنه كان يقصد شيئاً آخر وأن النظام قد نشر المقال عامداً متعمداً فى انتظار ردود الأفعال لسبر أغوار الحركة الدينية التى كانت همهماتها قد إرتفعت فوق ما يجب ، ولإخراجها عن شعورها ، ثم إخراجها من مكامنها وانتهاز الفرصة لتصفيتها وقمعها قبل أن تستعد وتتجمع وتبدأ الهجوم ، فتستطيع بذلك أن تعيد جو الإختناق الكامل ولكى تتخلص الحكومة من ضغط حليفتها أمريكا بمنح مزيد من الحريات وتطبيق قوانين حقوق الإنسان فى إيران** ... كانت الحكومة تريد أن تثبت أن الشعب غير جدير بالحرية والديموقراطية ومن ثم فهو لا يستحقهما ، ومن خلال ذلك تقدم للغرب تحذيرات بأن أولئك الذين قاموا ضد حكومة الشاه ، والذين يريدون إثارة القلاقل فى « جزيرة الأمان » ليسوا أكثر من حفنة من المشايخ المتعصبين الرجعيين وأن منح الحريات فى مثل هذه الظروف لن يؤدى إلا إلى الهرج والمرج وانفلات العنان وغيبة القانون مما سوف يعرض منابع البترول للخطر ، وأن الشيوعية تقف هى الأخرى كل مرصد للقضاء على النظام الموالى للغرب وعلى جزيرة الأمان فى الشرق الأوسط .

ومن هنا فإن النظام – كما سنرى – قد لجأ إلى أحقر الوسائل وأبشعها من أجل تشويه الحركة الشعبية .. وحفر قبراً للشعب فسقط هو فيه ، وكانت كل تدابيره كما سنرى ترتد إلى نحره .. **كان يريد إسقاط الخمينى وتشويهه دون**

أن يدرى أن الخميني يمثل الأمل الوحيد الباقي للشعب وهو الدين ، وكان الشعب يدرك تماماً أنه إن لم ينتبه فالدين هو ميدان المعركة وسوف ينتهى ، وأن ۲۸ مرداد « أغسطس ٥٣ » من الممكن أن يتكرر ، لكن المقصود هذه المرة ليس النفط وليس مصدق ، بل الدين والخمينى ، وإن سقطا فلا أمل بعدها لعدة مئات من السنين . (١٣)

لم تكد المقالة تنتشر ، حتى نقلت على الفور في منشور علق على جدران عواصم إيران ، وسرعان ما بلغت الأنباء قم ، وخرج آية الله شريعتمدارى الرجل الثانى فى الهيئة الدينية بعد الإمام إلى شوارع قم عارى الرأس حافى القدم **وذلك تعبيراً عن شدة المصيبة** والكارثة ، وفى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأحد ١٨ ديماه (٨ يناير) اجتمع طلاب المدارس الدينية فى قم أمام منزل آية الله گلبايگانى ، فخطب فيهم ودعاهم إلى الإتحاد أمام العدو الأجنبى المسيطر على إيران ، وأعلن أنه لا يوجد واحد من علماء الدين يوافق على سياسة النظام وأنهم يكذبون ، وانتقل الطلبة إلى منزل آية الله شريعتمدارى مرددين الهتاف الذى استمر بعد ذلك طيلة العام فى إيران : درود برخمينى : سلاما على الخمينى ، وتعرضت الشرطة للمتجمهرين فردوا عليها بالحجارة ، فأخلى لهم الطريق إلى منزل شريعتمدارى على ألا يرددوا الهتافات ، وبعد أن خطب فيهم شريعتمدارى ، تفرقوا على أن يجتمعوا أمام منزل آية الله مرعشى عصراً ، وهناك خطب فيهم منددأ بالتجرؤ على مقام المرجعية العظمى وطالبهم بمواصلة مظاهراتهم السلمية ، ومن منزل المرعشى توجهوا إلى منزل آية الله روحانى حيث خطب فيهم مذكراً أن ما يفعله النظام ليس إلا استمراراً لأخطائه البشعة ومذابحه الأخرى فى المدرسة الفيضية والمدرسة الحجتية ، ومن منزل آية الله روحانى اتجهوا إلى منزل آية الله حائرى الذى طلب منهم أن يتجهوا إلى المسجد الكبير .. حسناً : **ماذا كان هدف الناس من الإنتقالات بين منازل « آيات الله » ؟ بصرف النظر عن أن هذا تقليد شائع فى إيران وهو أن الناس يذهبون إلى منازل كبار المشايخ عندما تنزل بهم نازلة وذلك ليستفتوهم فى أمرهم ، كان لهم فى ذلك اليوم هدف محدد وهو أن يعرفوا : هل حقيقة أن آيات الله قد تخلوا عن الإمام ؟ أحقيقة أنهم أصبحوا يؤيدون النظام ؟**

وخلال كل هذه التحركات كانت الشرطة تراقب المتجمهرين عن كثب ، لكن : كان من الواضح أنه أرسل فى طلب تعزيزات من طهران ليستطيع أن يقضى تماماً على المركز الدينى فى قم .. وبعد ظهر نفس اليوم حلقت إحدى الطائرات على ارتفاع منخفض فى سماء قم ، لعلها كانت ترقب المتظاهرين أو لعلها كانت ترسم ميدان المعركة التى كانت تعد للقيام بها فى اليوم التالى وترى ما هو المكان المناسب لتصيد المتجمهرين الذين كانوا آنذاك يستمعون إلى الخطباء فى المسجد الكبير ، وعند خروجهم رددوا الهتافات ضد الحكومة اليزيدية « أى التى تشبه حكومة يزيد بن معاويه » وعند ذلك تعرضت لهم الشرطة بالهراوات ، وظل الإشتباك حتى الساعة التاسعة مساء وظفر المتظاهرون ببعض عملاء الساواك فأوسعوهم ضرباً كما دمروا الواجهات الزجاجية لبعض المبانى التى تمثل النظام وخاصة البنوك .

وفى صباح الإثنين ١٩ ديماه (٩ يناير) ، تجمع المتظاهرون فى الساعة الثامنة والنصف صباحاً ليكملوا مرورهم على منازل آيات الله والعلماء ، كانت السوق معطلة والمحلات مغلقة ، وكان تعداد المتظاهرين يزداد بل كان من الواضح أن الكثيرين كانوا يفدون من العاصمة ومن بقية العواصم ، واتجه المتظاهرون إلى منزل السيد آملى فخطب فيهم مثنياً على شخصية الإمام الخمينى وندد بصحافة الشاه « القذرة » ثم اتجهوا إلى منزل السيد طباطبائى الذى أناب السيد يزدى فى الحديث عنه وكان من بين ما قاله : **لقد أراد ذلك الكاتب الساواكى العميل أن يفصل آية الله الخمينى عن علماء الدين ... فياله من خطأ بشع وتصور ساذج .. وهل يمكن أن يفصل «روح الله» عن بدن خلق الله ؟** (١٤) ومن منزل العلامة طباطبائى انتقلت الجماهير إلى منزل السيد مكارم الذي خطب فيهم قائلاً : **إن آية الله العظمى الإمام الخمينى ليس فقط المرجع الأعظم وكبير علماء الدين وكبير الأمة لكنه رجل عالمى وتوجيه الإهانة إليه معناه أن أحداً فى هذه الحكومة لا يهتم بكرامته وكرامة الجميع الآن فى خطر ، وإذا كان من المفروض أن نموت فتعالوا إذن ولتشتبك أيدينا ولنمت معاً ، وإذا كان لنا أن نعيش فلنعش معاً »** (١٥) .

ومن مدرسة مكارم اتجه الجميع إلى منزل السيد وحيد خراسانى ومنه إلى منزل السيد نورى ... كانت قوات الشرطة قد اتخذت مواقعها فى مفترقات الطرق وفى الميادين وعلى رءوس الجسور ، وكانت ترقب هذه المظاهرات السلمية دون أن تتدخل ، ومن الواضح أنها كانت تسوق جموع المتظاهرين نحو أماكن معينة عن طريق منعهم من الذهاب والمرور من بعض الأماكن .. **كان من الواضح أنهم يريدون تجميع المتظاهرين الذين كانوا قد بلغوا حوالى اثنى عشر ألفاً فى مكان واحد ليسهل ضربهم دون إنذار أو تحذير أو استخدام الوسائل التى أصبحت معروفة فى كل مكان فى العالم لتفريق المظاهرات ، وحوالى الساعة الرابعة عصراً كان سيل الجماهير يتجمع فى ميدان بيمارستان فاطمى « الذى سمى منذ ذلك الوقت بميدان ١٩ ديماه » ، وكانت الشرطة تنتظر هذا التجمع فسرعان ما سدت عرباته كل منافذ الميدان وأصبح المتظاهرون العزل من السلاح الذين لم يكونوا قد طلبوا من الحكومة شيئاً بعد « وماذا كان يمكن أن يطلبوا ؟ كان أقصى ما يمكن أن يطلب فى هذه الحالة تقديم اعتذار فى نفس الصحيفة التى نشرت الإهانة » أصبح المتظاهرون العزل محصورين فى مرمى الرصاص من جميع النواحى ، وكانت الإشارة المتفق عليها أن يقوم عميلان من عملاء الساواك بتحطيم زجاج أحد المبانى ، وبلا إنذار أو تحذير أو مطالبة بالتفرق بدأ إطلاق الرصاص ، كان أول الشهداء صبياً فى مدرسة الرسالة سرعان ما حملته الجماهير مخترقة حصار الشرطة هاتفة : الله أكبر .. الله أكبر .. حى على خير العمل ، وأخذت قوات الشرطة تطارد المتظاهرين فى الحوارى والشوارع وداخل المدارس حول الحرم وداخل مدرسة خان قتل ثلاثة من علماء الدين** ، واضطر المتظاهرون للدفاع عن أنفسهم .. لكن بماذا يدافعون ؟ العصى والحجارة،واشتركت النسوة من فوق سطوح المنازل فتصيدهن الرصاص .. وكتب أحد الشهداء على جدار المنزل الذى سقط إلى جواره : **كل من يمسح هذا الدم أسال الله الدم من عنقه** .. واستمرت المطاردات وإطلاق الرصاص وسقوط القتلى حتى التاسعة مساء .. وانقضى أول يوم من أيام الثورة الإيرانية الكبرى وحصيلته مائة شهيد وحوالى ستمائة من الجرحى ترك معظمهم ينزفون حتى الموت وآلاف أرسلوا

بعيداً إلى معتقلات الشاه ، وفى اليومين التاليين للمذبحة (٢٠ – ٢١ ديماه / ١٠ – ١١ يناير) ظلت الشرطة تقوم بعملين متناقضين تماماً : تعقب الفارين وقتلهم على الفور أو القبض عليهم وغسل الشوارع والميادين من الدم ، **ولم تسلم جثث الشهداء إلى ذويهم وشاع بين الناس (وهى شائعة أيدتها التقارير فيما بعد) أن الحكومة اشترطت أن يدفع أهل كل شهيد مبلغاً يتراوح بين خمسمائة تومان وخمسة آلاف تومان (من ٥٠ إلى ٥٠٠ جنيه مصرى) ثمن الرصاص (!!!!) كما اشترطت أن يتم الدفن فى جبانة « بهشت زهرا » (ومعناها جنة الزهراء) فى طهران وألا يقام أى مجلس للعزاء ، كما شاع أن الجرحى كانوا يحقنون بحقن الهواء فى المستشفيات ....**

بمثل هذا العنف والإجرام خاض نظام الشاه أولى معاركه المظفرة ضد الشعب الأعزل من السلاح ، وفى اليومين التاليين للمذبحة خيم صمتَ مريب على قم ، كانت الضربة شديدة وغير متوقعة ، وكانت عربات الجيش لا تزال فى مفترقات الطرق ، ولم يكن الناس يدرون ماذا يفعلون ، فلا هم يستطيعون الحركة ولا هم يستطيعون الإتصال بكبار المشايخ ، وأخذ السيد يزدى يمر على المشايخ وعاد إلى الناس ببيان ورد فيه : **اعلموا أن العدو أكثر توحشاً من أى وحش مفترس ، ولا ينبغى علينا بالفعل أن نجتمع فى الشوارع فليس هناك قانون يحكم هذا البلد ولو كان هناك قانون يحكم هذا البلد لكان هذا الرجل قد شنق حتى الآن مائة مرة ... إذا كانوا يظنون أنهم بهذا سوف يفصلوننا عن آية الله الخمينى فقد وقعوا فى خطأ بشع ، لقد رأت قم من هذه الألاعيب الكثير ، وليعلم العدو أننا سوف ندافع عن المركز العلمى والإسلامى حتى آخر قطرة من دمائنا .. على كل حال حاولوا بقدر الإمكان ألا تتجمهروا وينبغى أن تغلق المدارس الدينية بالفعل .. أما التجار فهم يعلمون ما عليهم من مسئولية .** (١٦)

كانت عربات الجيش لا تزال تتصيد الجرحى والمارين العزل ، بينما كانت المنشورات التى تدعو إلى الصمود تغطى كل قم ، ولم يكتف النظام بالقمع بل أراد أن يضم إليه الإذلال وأن تضيف إلى هذه الصورة القاتمة لمسة مضحكة

مخزية ، فجمعت الشرطة التلاميذ الصغار من المدارس وأجبرتهم على القيام بمظاهرات لصالح النظام وبينما كان التلاميذ المساكين يساقون بالهراوات للهتاف بحياة الشاه كانوا يهتفون باكين : **زوركي ، زوركي أي بالعافية بالعافية** ، وأكثر سخرية من هذه المظاهرات كانت المظاهرات التي نظمت بعدها بيومين فقد كان أغلب المتظاهرين قد حملوا إلى قم من طهران وساوه وأراك وأصفهان في عربات أتوبيس تتبع شركة نقل واحدة ، ووقفت العربات كلها في مكان واحد هو جسر الصفائية في ظاهرقم ، وسيق أهل قم من منازلهم لشهود مظاهرة هامة ، وعندما اصطفت الجماهير المؤيدة للشاه هتف أحد المنظمين : جاويد شاه : أي الشاه إلى الأبد ، فإذا بكل الجماهير التي نقلت إلى قم تهتف معاً مع أهل قم : سلاماً على الخميني ، الخميني إلى الأبد ، وفر المتظاهرون يتعقبهم الشرطة إلى داخل المدارس.(١٧)

وقامت الحكومة بالقبض على كبار المشايخ في قم وأبعدتهم إلى قرى نائية داخل إيران فأبعد محمد حجتي كرماني إلى سقز ومكارم إلى چهاربار ونوري إلى خلخال ويزدي إلى بندر لنگه وعلي خامنه آى إلى إيرانشهر وعلي تهراني إلى جهاربار ورباني إلى شهربابك وخلخالي إلى رفسنجان ورباني الشيرازي إلى كاشمر ومعاديخواه إلى سيرجان . وبذلك ظن الشاه أنه صفى علماء الدين وأدب قم ، لكن فصولاً أخرى كانت تجري في أماكن مختلفة من إيران .

إن المتفحص لأحداث العام الدامي للثورة الإيرانية سوف يلاحظ أنه مجموعة من الأفعال وردود الأفعال ، أو مجموعة من المجازر تأتي احتفالات الأربعين لها فتقمعها الحكومة بمجازر أخرى وهلم جرا ، وبالرغم من أن الإعلام الشاهنشاهي لم يذكر شيئاً عن مذبحة قم بل حاول أن يخفي أخبارها عن العالم كان رد فعل الفاجعة في أنحاء إيران شديداً فأغلقت أسواق أصفهان من ٢٢ ديماه إلى ٢٧ ديماه (١٣ - ١٧ يناير) وحدثت فيها مصادمات مع الشرطة وأضربت نجف آباد من ٢٤ ديماه إلى ٢٦ ديماه (١٤ - ١٦ يناير) وأصدر علماء الدين في طهران بياناً يحتجون فيه على قمع علماء الدين في قم وقعه مائة وعشرون عالماً من علماء الدين ووزع البيان في قم وأرسل إلى رئيس

الوزراء ، كما أعلن الحداد القومى العام على الشهداء فى كل أنحاء إيران وأضرب السوق فى تبريز ومشهد .

كان تبرير النظام للمذبحة أن المظاهرات التى قامت إنما قام بها حفنة من الرجعيين المضادين للإصلاحات والإصلاح الزراعى وحرية المرأة ، وهى نغمة ظلت مستمرة إلى وقت متأخر من العام ، وأعلن الشاه أن الإضطرابات التى حدثت إنما حدثت من عناصر لا دين عندها ولا إيمان ، كما أعلن وزير بلاطه عباس هويدا أن المشاكل التى تحدث فى إيران مشاكل عادية جداً تواجه عادة إقتصاداً فى حالة تطور سريع وسوف تنتهى إن خفت حدة هذا التطور (١٨).

وظل الشهر التالى للفاجعة يقدم كل يوم صداماً جديداً بين قوى النظام وجماهير الشعب ، فى جامعة طهران والجامعة التكنيكية والجامعة الفنية وفى الأسواق والشوارع ومن جميع طوائف الشعب ، ولم يكن من السهل قبول الأمر بعدم إقامة مجالس عزاء للشهداء ، ولم يسكت الإمام على ما حدث ، وفى ٢٢ يناير أصدر بياناً شاملاً وكان هذا البيان وما تلاه من بيانات يؤكد على الوعى التام بما يحدث فى إيران والسبب الرئيسى وراء هذه المذابح وهو فقدان إيران لاستقلاها وتبعيتها الكاملة لأمريكا التى تشجع كل القوى حتى الماركسية التى تسميها الواقعية وليس لها من عدو حقيقى داخل إيران إلا علماء الدين المسلمين ، ونادى الإمام بضرورة الإتحاد بين كل القوى الإسلامية واعتبار أمريكا شريكة فى الإثم مع الشاه ، واعتبر ما حدث فى قم استفتاء طبيعياً على سقوط الشاه ونظامه ، **ومن ثم نادى بها ثورة حتى النصر** .

لقد أثبتت مذبحة قم أن النظام كان يريد التصفية فحسب ، فكل الملابسات كانت تبين أن المظاهرات السلمية لم يكن لها من هدف إلا الوقوف فى صف آية الله الخمينى والاحتجاج على الإهانة التى وجهت إليه ، وكان فى وسع النظام لو أنه كان يريد للعاصفة أن تمر أن يبدى بعض التراجع أو يحمل الصحيفة مسئولية ما حدث ، لكن الواضح بالفعل أن المقال كان مقصوداً ، فما أن تجمعت المظاهرات حتى لجأ النظام الذى كان لا يزال يبشر بالحرية إلى استخدام السلاح ، وكان بوسعه أن يفرق المظاهرات بالوسائل العادية ، لكن

ربما لم يتدرب بوليس الشاه إلا على القتل ، وبالرغم من أن الحكومة الإيرانية كانت أول من يعلم أن الدم لا يفضى إلا إلى الدم ، وأن المشاكل فى انتظارها عندما يحين ذكرى الشهداء ، وبالرغم من أنها كانت تواجه فى الفترة التى تفصل بين الحادثة وذكراها الأربعينية عدة حوادث فردية يسقط فيها العديد من الضحايا ، بالرغم من أن النظام كان يعرف المواعيد المحددة للتجمع والإنفجار فلماذا بالفعل إن لم يكن حريصاً على تصفية العناصر المناوئة – لم يلجأ إلى حل وقائى ؟ لماذا كان ينتظر حتى تتجمع عناصر المعارضة ثم يقوم بتصفيتها ؟ **الجواب : أن النظام كان يهدف إلى خروج كل عناصر المعارضة من مخابئها لكنه لم يظن قط أنها بهذا الحجم .. كان يظن أنه بضرب قم قد ضرب كل مراكز المقاومة وأن ما تبقى لها هو بضع جيوب تنتشر فى كل أنحاء إيران سيأتي أوان تصفيتها .. وقد فات فلاسفة النظام إدراك حقيقة هامة وهى أن جناحاً ما قد يشعل الثورة لسبب ما ، ثم لا تلبث أن تنضم بقية الأجنحة برغم تعدد أهدافها ودوافعها ، كما فاتهم أن إيران تضم عدداً من الأقاليم المتباعدة ولكل إقليم ظروفه التى تدفعه إلى التمرد والثورة ..**

كانت ذكرى الأربعين لشهداء قم تقترب ، وكان الدور هذه المرة على تبريز ، وتبريز بحكم بنيتها الاجتماعية تعد موطناً للثورة فى إيران طوال المائة سنة الأخيرة ، وهى التى حملت السلاح عدة مرات ، وهى التى كانت تحلم طوال هذه السنوات بأن يكون تحرير إيران منطلقاً منها . وأعلن آية الله شريعتمدارى إمام تبريز يوم ٢٩ بهمن (١٨ فبراير) يوم حداد عام ، ووزع بيانه فى تبريز ، والحداد العام فى إيران لا يقتصر على مجرد إغلاق المحلات وتنكيس الأعلام ، بل هو فرصة للتجمع فى المسجد الكبير والحديث عن الشهادة وربط الحاضر بالماضى .. هو فى حد ذاته عصيان وثورة واعتراض .. وكانت الإستجابة لدعوة الإشتراك فى ذكرى أربعين شهداء قم عامة ، وفى اليوم المحدد انصرف طلاب الجامعة عن الدراسة ، وأغلق السوق واتجه الجميع فرادى إلى المسجد الأعظم وفى العاشرة صباحاً كان سيل الجماهير يتدفق من كل الشوارع المؤدية إلى السوق متجهاً إلى المسجد ، **لكن الجماهير فوجئت بقوات الشرطة تحيط بالمسجد وتتخذ أماكنها على نواصى حارات السوق ،**

وفى بضع دقائق بلغ عدد المتظاهرين حوالى عشرين ألفاً لم يمكنوا من دخول المسجد وأطلق رجال الشرطة الرصاص فى الهواء ، وهجم ضابط آخر على المتظاهرات يسبهن بأفحش الألفاظ ، ولما حاول أحد المتظاهرين منعه أرداه الضباط قتيلاً ، وهجم المتظاهرون مرددين الهتاف بحياة الخمينى ، وقلبت الجماهير إحدى عربات الشرطة وأشعلت فيها النار ، وإزاء هذا الهجوم سقط خمسة أو ستة من أفراد الشرطة ، وانقسمت الجماهير إلى عدة فرق ، أخذت فرقة تهاجم البنوك وأخرى تهاجم دور السينما ،وثالثة تهاجم مقار حزب رستاخيز والحانات وتماثيل الشاه وأسرته وصورهم ، **وكان عملاء الساواك قد اندسوا بين الجماهير وأخذوا يحرضونهم على تحطيم المحال والمتاجر العادية إلا أن الطلبة فطنوا للهدف من هذا وأحبطوا المؤامرة** ، ولما لم تتمكن الشرطة من الوقوف أمام هذا المد الجماهيرى انسحبت ،**وفى الحادية عشرة والنصف دخل الجيش بالدبابات أرض المعركة** ،لكن أهل تبريز لم يستسلموا وواجهوا هجوم الجيش بالطوب والحجارة ، وبالطبع كانت نتيجة المعركة معلومة فسقط عشرات القتلى كما جرح بضع مئات توفى أغلبهم فى المستشفيات ، إلا أن الخسائر المادية التى لحقت بالنظام كانت فادحة فدمرت معظم البنوك وأحرقت ولحقت معظم الخسائر ببنك صادرات الذى يملك هزبر يزدانى معظمه ، كما احترقت عدة مقار للشرطة ولحزب رستاخيز وبعض المتاجر المملوكة للبهائيين ، واحترقت تماماً معظم الحانات والأندية الليلية فى المدينة . (١٩)

كان التحدى الذى أبدته تبريز والثبات الذى أبداه أهلها فى مواجهة قوى الحكومة مرحلة هامة من مراحل الثورة ، وبعدها فقد النظام صوابه تماماً وتبعت مذبحة تبريز حركة اعتقالات تصل بعض المصادر بأعداد المقبوض عليهم فيها إلى ستة آلاف وخمسمائة شخص ، ولأول مرة أثيرت أحداث من هذا القبيل فى المجلس النيابى ، وبالطبع أدانها أعضاء المجلس ، **ووصفت الحركة التى نادى بها المشايخ شريعتمدارى وگلبايگانى ونجفى مرعشى وروحانى بأنها حركة شيوعية ، ووجدت الحكومة وجهاً صفيقاً لتقول بأن عدداً من المشبوهين والعملاء هم الذين عبروا الحدود « من آذربيجان السوفيتية**

بالطبع » **وأشعلوا الفتن فى تبريز** .. إلا أن الفضيحة كانت عالمية هذه المرة ، فليست تبريز مدينة منعزلة داخل الهضبة الإيرانية مثل قم ، فانعكست آثار المذبحة فى الصحف الفرنسية التى أعلنت قيام الثورة الإيرانية ، أما الصحف الأمريكية والنيوزويك خاصة فكان كل همها أن تحصى الخسائر التى منيت بها الحكومة وعدد الأماكن التى أحرقت أو خربت (٢٠) ، كانت أحداث تبريز من العنف بحيث غطت على أحداث أخرى حدثت فى مشهد قبلها بأيام وأحداث حدثت فى نفس اليوم فى شيراز ، كما شهدت الأيام الباقية فى فبراير مظاهرات وصدامات وشهداء فى جهرم وزاهدان وأهواز ، ثم : **لم تبق قرية ايرانية إلا وقامت تدفع نصيبها من ضريبة الدم .**

كانت أحداث قم وتبريز **بمثابة إعلان للثورة فى إيران ، لكن مطالب الثورة ووجهتها لم تكن قد تحددت بعد ، وربما كان الهدف العام فى خلال هذه المرحلة هو الإصلاح داخل النظام أو العودة إلى تطبيق الدستور والإصلاح الاقتصادى وعدم التبعية للسياسة الأمريكية** ، ولأن الحركة هى التى تخلق القادة وليس العكس ، بدأت أسماء كثير من القادة تلمع فى الأفق ، وتجلت السمة العظيمة للثورة الإيرانية أنه بينما كانت المظاهرات والصدامات والدم فى الشوارع ، كان هناك من المثقفين داخل إيران وخارجها من يملكون القدرة على مخاطبة النظام بأسلوب منطقى وفى نفس الوقت تقديم صورة عظيمة للثورة خارج البلاد .. وكان الخمينى هو بالفعل الوجه الذى أجمعت عليه كافة القوى التحررية سواء من علماء الدين أو المثقفين فى الداخل والخارج أو جماهير الشوارع التى كانت تنطق باسمه وهى تتلقى رصاص الشرطة ، والذى يحاول أن يرصد البيانات التى صدرت فى تلك الآونة سوف يجد اجماعاً على الوقوف صفاً واحداً تحت زعامة الإمام ، وبدأت البيانات والمنشورات تنهمر بحيث يعجب الباحث أن إيران كانت تضم كل هذه الجماعات بينما كان النظام يتوقح ويدعى أن المعارضة فى إيران لا تضم إلا « شرذمة من الحاقدين » ، فإلى جوار العناصر الحرة فى كل النقابات والإتحادات التى ثبت أنها كانت قائمة بالرغم من أن النظام كان يمنع قيامها ، ظهرت فجأة على السطح : حركة مسلمى

إيران « جنبش مسلمانان إيران » وجماعة الكهف وجماعة القمر ورسالة الثورة « بيام انقلاب » وصوت الثورة « آواى انقلاب » ، وبلغت البيانات التى صدرت داخل إيران وخارجها بعد مذبحة تبريز ما يزيد عن مائة وثلاثين بياناً ، كانت تتفاوت فى حدة اللهجة إلا أنها كانت تشجب ما يحدث فى إيران وتطالب بضرورة التغيير . (٢١)

وعندما كان السلاح يتوقف ، كانت الحرب الإعلامية تدور ، كان النظام يزيف بيانات عن علماء الدين الكبار تدعو الناس إلى الهدوء ، كانت الجماعات الثورية تنشر أنباء عن تمرد داخل الثكنات العسكرية فى تبريز ، وكان موقف العميد بيد آبادى الذى تمرد وانضم إلى صفوف الثوار ، والجندى الذى قتل قائده وأربعة من أفراد كتيبته ثم انتحر لكيلا يطلق الرصاص على الثوار تملأ النفوس بالأمل . (٢٢)

ماذا كان على النظام أن يفعل تجاه هذا الرفض العام ؟ بدلاً من أن يعود إلى جادة الصواب ويعلن عن بعض الإصلاحات أو محاولات الترضية ، إذا به يلجأ إلى حيلة ليست جديدة تماماً فى محيط إيران ، أراد النظام لكى يحفظ البقية الباقية من ماء وجهه أمام العالم أن يصور الأمر وكأنه صراع بين جماعات سرية ، فقد كانت الحجة التى خرج بها من البداية وهى أن عناصر مخربة تسللت عبر الحدود وأشعلت الفتن فى تبريز تشين النظام نفسه ، فأى نظام هذا الذى يمكن أن تتسلل من حدوده كل هذه الآلاف ؟ وأى نظام هذا الذى تستطيع جماعة تسللت عبر الحدود أن تشعل السخط العام ضده ؟ ومن ثم لم يبق أمام النظام إلا الطريقة الإيرانية التقليدية ، فقام الساواك والشرطة بتكوين جماعات عمل فى صورة جمعيات « سرية » أطلقت على نفسها : الإنتقام ، والإقدام ، وقوة الصمود « نيروى پايدارى » ، **وقامت هذه الجماعات ببعض الأعمال الإرهابية تشير إلى أن النظام كان مستعداً لعمل أى شىء فى سبيل أن يبين للعالم الذى كان قد بدأ يتابع ما يحدث فى إيران وينتبه إليه أن ما يحدث ليس ثورة أو تمرداً أو سخطاً أو رفضاً ، بل مجرد صراع بين جماعات ارهابية وسرية** ، ومن ثم أقدمت الجمعية المسماة بجمعية الانتقام فى ١٨ أبريل

على محاولة لنسف المهندس مهدى بازرگان بوضع قنبلة داخل منزله ، كما اختطفت الدكتور حبيب الله بيمان « پايدار » من عيادته حيث أخذته إلى مكان ناء وأوسعته ضرباً ، واختطف المهندس رحمة الله مقدم ومحمود مانيان وضربا ، ونسف منزل داريوش فروهر ووضعت قنبلة فى منزل الدكتور سنجابى ، هذا إلى جوار الأعمال الصبيانية الأخرى مثل تهديد على أصغر حاجى سيد جوادى عن طريق المكالمات التليفونية . (٢٣)

هذه التصرفات إن دلت على شيء فإنما تدل على عجز النظام وقلة حيلته ، فلم يكن يهم النظام معالجة الأمور بقدر ما كان يهمه ألا تتجاوز أصوات الرفض حدود إيران ، والنظم الديكتاتورية فى هذا المجال لا تهتم إلا بألا تتجاوز فضيحتها النطاق المفروض ، وكانت القوى الثورية تدرك هذه النقطة من نقاط الضعف فى النظام كنظام ملحق يهتم أكثر ما يهتم بالقوى الخارجية وبصورة النظام أمام العالم ، فلم تكن تمنح النظام فرصة لوضع الخطط والتقاط الأنفاس ، فإذا تبجح النظام وقال أن العناصر المتمردة حفنة من الرجعيين الغاضبين من حرية المرأة ويروج ذلك فى العالم بحيث لا يكون السؤال الذى يوجهه الصحفيون إلى الخمينى أو شريعتمدارى إلا حول هذه القضية ، وكأنه لم تبق فى إيران مشكلة غيرها ، كانت مظاهرات ٧ مارس فى مشهد وتبريز وطهران وكلها مظاهرات نسائية مائة فى المائة أبلغ رد على أولئك الذين كانوا يروجون أن السبب فى الاضطرابات هو أن الشاه قد « حرر » المرأة خلافاً لرغبة علماء الدين ، وإذا روج النظام أن الثائرين من علماء الدين « الرجعيين » فى قم ، فوجيء بإضراب أساتذة الجامعة التكنيكية ومعظمهم من الذين تعلموا فى أوربا ومن الذين لا يدرسون الدين (٩ مارس) ، وإذا حاول النظام أن يروج أن تعداد المسجونين السياسيين لا يذكر وأن معظمهم من المهربين والمخربين وأن إيران من الدول التى تحترم حقوق الإنسان ، كان أبلغ رد إضراب المسجونين السياسيين فى سجنى « أوين » والقصر عن الطعام وانتقال فضيحة السجون الشاهنشاهية إلى العالم من ناحية ، وتجمهر أقارب السجناء المضربين أمام السجون وانتقال هذه الصورة الكئيبة المفجعة إلى العالم ، وازدياد حدة الثورة داخل إيران . (٢٤)

ومما يثير السخرية حقاً فى تلك المرحلة من مراحل الثورة أن النظام كان يحاول بشتى الطرق أن يظهر لنفسه شعبية عن طريق المظاهرات « مدفوعة الثمن » التى تقوم بتأييده ، ومن ثم أرادت الحكومة فى ١٥ مارس أن تحتفل بذكرى ميلاد رضاخان ، وبدلاً من أن تقوم كعادتها بإقامة الزينات ووضع المصابيح والأعلام أبت إلا أن يكون الاحتفال موافقاً لمقتضى الحال ، أى عن طريق تسيير مظاهرات لصالحها ، فرصدت لهذه العملية مبلغ مليار ريال وأرسلت إلى محافظى الأقاليم منشوراً سرياً ، وبالرغم من هذه المحاولات لم تستطع الحكومة أن تجمع العدد المطلوب « الذى يستر » وباءت محاولاتها بالفشل ولأول مرة تفشل حكومة الشاه فى تنظيم مظاهرات لصالحها فى مرحلة الإعداد . (٢٥)

كانت أعياد النوروز (٢١ مارس رأس السنة الإيرانية) وهو من أهم الأعياد الإيرانية تقترب ، وكان الشاه لا يزال يحتفل بالعيد على ما كان أكاسرة الفرس يحتفلون قبل الإسلام ، فإلى جوار الزينات التى تغرق كل إيران ، كان الشاه يمنح الأوسمة والعطايا (؟) واللقاء برجال الدولة فى قصره ، **وفى مثل هذه الأعياد غالباً ما تغطى الزينات على الجراح فى القلوب ، كما كان من المنتظر بالطبع أن يدعو الشاه الصحافة العالمية ليشهدها على أن إيران على ما يرام وأن ما حدث لم يكن إلا زوبعة وانفضت** ، وأصدر آية الله شريعتمدارى فتوى بتحريم كل صورة للإحتفال بالعيد ، إذ كيف يمكن الإحتفال بالعيد بعد سقوط كل هؤلاء الشهداء فى قم وتبريز وزاهدان وجهرم ؟ إن أربعين شهداء تبريز لم يحن بعد ؟ وكيف يمكن الإحتفال بالعيد والسجون مكتظة وقادة الأمة فى منافيهم ؟ وأضافت جبهة تحرير إيران سبباً آخر لتحريم الإحتفال بالعيد وهو الهجوم الوحشى الإسرائيلى على جنوب لبنان (٢٦) وفى تلك الأيام ، لم يكن يمر يوم واحد دون إضراب أو مظاهرة أو صدام أو اشتباك فى إحدى الجامعات أو أحد المساجد والأسواق ، وباعتراف صحف النظام نفسها **شهد آخر مارس إضرابات فى ثمان وثمانين مدينة وقرية إيرانية .**

كانت ذكرى الأربعين الثانية لشهداء قم والأربعين الأولى لشهداء تبريز

تقترب ، وهذا يعنى أنه لا بد وأن يقام احتفال ، فماذا فعل النظام ؟ لا شيء ، ولم يكن أيضاً يمكنه أن يفعل شيئاً ، فلم يكن حتى راغباً فى إصدار بيان أو تحذير أو منع للإحتفالات فإن ذلك كان يعنى فضيحته فى المقام الأول فضلاً عن تأكده بأن مثل هذا الأمر لن يجد قبولاً وتنفيذاً ، كان هذا العجز يعنى أن النظام لن يستطيع أن يتخذ أى إجراء إذا توسعت الثورة ، وفى كل مناسبة من هذه المناسبات كانت المذبحة تتجدد لكن فى مكان آخر لم يكن قد دار للنظام الإيرانى بخلد ، ومن ثم ففى ١٠ فروردين (٣٠ مارس)**وكان الإحتفال بأربعين شهداء تبريز مقاماً فى يزد التى أعلنت** الحداد العام وعطلت الأسواق ، واجتمع ما يزيد عن خمسين ألف شخص فى مسجد يزد الكبير ، وكالعادة وقف الخطيب وهو السيد يزدى فتحدث عن الشهادة والشهداء ثم تحدث عن مطالب الشعب الإيرانى ، وفى الساعة الحادية عشرة صباحاً انتهى الإجتماع وبدأ الناس يخرجون من المسجد ، إلا أن الشرطة سدت عليهم الطرق وبدأ الضرب دون إنذار كالعادة ، والنتيجة ؟ أكثر من مائة قتيل ومئات من الجرحى وآلاف من المعتقلين ، ولم تسلم جثث الشهداء إلى ذويهم وارتفعت أسعار تسليم الجثة الواحدة إلى ٨٥٠٠ ريال (٨٥ جنيهاً مصرياً) ، وسرعان ما انتشر خبر المذبحة فى أنحاء إيران ، وتكفل علماء الدين فى قم بنشره ، وذلك لأن الحكومة فرضت حصاراً عسكرياً على المدينة وأغلقتها تماماً ومنعت تسرب الأخبار منها ، وفى الأهواز ودزفول تكررت نفس المأساة عند قيام المدينتين بالإحتفال بأربعين شهداء تبريز فى ٢ ابريل فقتل حوالى عشرون وجرح ستون أثناء الإحتفال داخل مسجد الأهواز الكبير،(**ومعنى ذلك أن الثورة قد انتقلت إلى عاصمة البترول**) ، وفى دزفول قتل خمسة ، كما عذب عدد من طلاب جامعة جنديسابور وقتل بعضهم تحت التعذيب كما حكم على عدد منهم بالسجن ، إلا أن المظهر الواضح فى أحداث الأهواز ودزفول هو أن المتظاهرين قاوموا تدخل الشرطة وقتلوا بعضهم ، وفى ٢٩ أبريل أصدر آية الله الخمينى بياناً تعليقاً على مذبحة يزد ، فحلل الوجه الكريه للنظام البهلوى ، كما دعا الناس إلى الصمود وإلى مزيد من الرفض **وأعلن أن إيران قد استيقظت وأنها على وشك انفجار عظيم** (٢٧) .

وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه بعض الأحداث الصغيرة هنا وهناك تبين أن الثورة لا تزال مستمرة وأنها سوف تلجأ إلى العنف إذا لزم الأمر (مثل شنق أحد عملاء السافاك فى جامعة آريامهر) ، كانت أهداف الثورة تتشكل ، ففى ١٠ أبريل صدر منشور موقع من الهيئة الدينية فى إيران « جامعهٔ روحانيت إيران » من أربع عشرة نقطة ، كان أول بيان يتحدث صراحة عن أهداف الثورة ويحددها بـ : كف سيطرة البلاط والأسرة البهلوية عن الشعب وإعادة الثروات التى اغتصبتها هذه الأسرة إلى الشعب وإلغاء نظام الحزب الواحد وإقامة حكومة إسلامية ديموقراطية وحرية الصحافة والمطبوعات وعودة آية الله الخمينى فوراً والإفراج عن المسجونين السياسيين وإعادة كل مشايخ قم المبعدين وإلغاء كل المعاهدات الإقتصادية العسكرية مع الكتلة الغربية والكتلة الشرقية ، ورفع المعاناة عن الصناع والزراع وإلغاء القواعد العسكرية الأمريكية وطرد المستشارين العسكريين الأمريكيين والإسرائيليين وتشكيل لجنة من العلماء المسلمين لوضع ما يستجد من قوانين فى إطار الشريعة الإسلامية ، وتشكيل لجنة للفتوى لتوحيد الفتاوى الشيعية ، وتأسيس صندوق لجمع الأموال للإنفاق على إعلاء كلمة التوحيد (٢٨) وفى نفس الوقت أعلن مواصلة إضراب سجناء سجن القصر الذى كان قد استمر شهرين ثم قطع فعاد فى الرابع من ارديبهشت (٢٤ أبريل) كما عم الإضراب كل الجامعات الإيرانية .

كان شهر خرداد ذكرى ثورة ٦٣ ومذابح ٧٥ واستشهاد شريعتى على الأبواب وفيه أيضاً تحل ذكرى الأربعين الرابعة لشهداء قم ، كما كان ٩ مايو يوافق أربعين شهداء يزد وجهرم والأهواز وأصفهان ، وكان تحدياً بالغاً للسلطة أن يقام الإحتفال فى المسجد الكبير فى سوق طهران « مسجد شاه » فى ١١ مايو وأن يعاد إعلان الأهداف التى أذيعت فى بيان ١٠ أبريل ، وكلما كانت الحركة تصعد مطالبها كان النظام يصعد إرهابه ، **وفى قم كانت بيوت آيات الله تهاجم ، وهو أمر مخالف للعرف الإيرانى الذى كان يرى فى بيوت آيات الله حرماً آمناً لا ينبغى أن تطأه أقدام الشرطة أو يهاجم أو يفتش ، وكان الهجوم على منزل آية الله شريعتمدارى الرجل الثانى بعد آية الله الخمينى عنيفاً ، فقتل فيه ثلاثة وأصيب شريعتمدارى بأزمة قلبية ، كما هوجم منزل**

آية الله مرعشى ومنزل آية الله گلبايگانى حيث أصيبا أيضاً بأزمة قلبية (١١ مايو) ولما نشرت الحادثة فى الصحف العالمية وفاحت رائحة الفضيحة ، اتهمت الحكومة المتظاهرين ، ثم اعتذرت فى بيان تال باعتذار أقبح من الذنب وهو أن الذين ارتكبوا هذه الفضيحة من رجال الشرطة الغرباء عن المدينة ، بينما كانت إيران كلها تعلم أن الحملة على منازل آيات الله من فعل الجيش لا الشرطة ، وكان من أبلغ ما وزع تعليقاً على الحادثة منشور نقابات طهران الذى جاء فيه : **نهنىء الجيش الشاهنشاهى وكل ضباطه وصف ضباطه فى القوات البرية والجوية والبحرية كما نهنىء ضباط الشرطة وصف ضباطها على الحملة المظفرة التى قام بها الفريق أركان حرب منوچهر خسروداد قائد القوات الجوية والمظليين والقوات الخاصة الشاهنشاهية على منزل المرجع العظيم للشيعة آية الله شريعتمدارى وقتل ثلاثة من الطلبة الأبرياء المظلومين ونهنىء هذا القائد الشجاع المحبوب الذى ضحى بروحه وخاطر بحياته فى مواجهة القوات المسلحة التى كانت متحصنة وراء جدران منزل السيد شريعتمدارى**.(٢٩)

وبينما كانت الحكومة تفشل فى تنظيم المظاهرات التى تؤديها يوماً بعد يوم كانت موجة المظاهرات الطلابية تتصاعد وتزداد عنفاً وحدة ، ووجهت مظاهرات جامعة تبريز بقمع شديد أدى إلى سقوط عدد كبير من الطلاب شهداء ، وبلغت حدة مظاهرات جامعة آريامهر الصناعية حداً بحيث لم تجد الحكومة بدا من إغلاق الجامعة ، ولما لم يؤد هذا الحل إلى نتيجة أصدرت قراراً بنقل الجامعة إلى أصفهان وتحويل مقرها فى طهران إلى ثكنة عسكرية ، ورفض أساتذة الجامعة تنفيذ أوامر النقل ، فما كان من الحكومة إلا أن أوقفت صرف مرتباتهم ، **وهنا تجلى وجه آخر من أهم وجوه الثورة الإيرانية ، فقد قام تجار السوق بفتح حساب اكتتابى فى أحد البنوك لصرف مرتبات الأساتذة ، فلم تجد الحكومة بدا من العدول عن قرارها بنقل الجامعة .**

ومنذ ١٤ مايو منع النظام نشر أى أنباء عن الاضطرابات فى صحفه ، حتى بالشكل الممسوخ الذى كانت تنشر به وبالأسلوب المزدان إياه ، أسلوب :

« قامت بعض المظاهرات وهاجم المتظاهرون رجال الشرطة فاضطر رجال الشرطة للدفاع عن أنفسهم وإطلاق النار فى الهواء وبكل أسف جرح شخصان»، (هذا الخبر نشر بعد مذبحة جامعة تبريز فى ٨ مايو)،حتى مثل هذه الأخبار ضنت بها صحف النظام ، لكن هدف النظام فى ألا يعلم العالم شيئاً عما يدور داخل إيران باء بالفشل ، ذلك أن الصحف العالمية لم يعد لها من شاغل إلا ما يدور داخل إيران ، ونشرت الصحف العالمية مقالات مفصلة عن مذابح ١٠ مايو واحتلال الشرطة لجنوب طهران وحظر التجول فى منطقة جنوب طهران كلها ، وبينما كانت سمة النظام تجاهل كل ما يحدث نشرت الهيرالد تريبيون تفصيلاً بكل ما حدث فى إيران ، وأخذت على الشاه أنه لا يقدر قوة أعدائه حق قدرها فى حين أن هناك من أخلص خلصائه من يقولون أن الجنود لم يطلقوا النار على المتظاهرين فى تبريز لأنهم هم أنفسهم يؤيدونهم .

وكانت الحكومة تتوقع التجمهر الأكبر والمواجهة الحاسمة فى ١٥ خرداد (٥ يونيه) يوم ذكرى ثورة ٦٣ ، ولا شك أنها كانت تستعد لذلك اليوم استعداداً حافلاً ، فرفعت درجة الاستعداد إلى قمتها فى حين شهدت الطرق الرئيسية فى إيران إمدادات عسكرية إلى المدن الهامة قم وأصفهان وتبريز ومشهد طوال الأسبوع السابق على ذلك اليوم ، **وهنا تجلى بُعدٌ هام من أبعاد الثورة الإيرانية إذ اتفق أن يكون الإحتفال بهذا اليوم عن طريق الإضراب السلمى وإخلاء الشوارع تماماً** ، كان هذا القرار العبقرى من أعظم ما يبين أصالة الثورة ، فإذا كان المقصود بالإضراب أو التظاهر هو إبداء الاحتجاج على النظام فلا بأس من الاحتجاج على النظام دون سقوط ضحايا جدد ، ودون أن تتم مواجهة لم تكن القوى الثورية قد حسبت حسابها لها بعد ، وكانت الاستجابة عامة اللهم إلا فى بعض محلات شمال طهران التى اتخذها آموزگار تكئة وأخذ يقول : لقد كانوا يخوفون الناس من هذا اليوم فليأتوا ولينظروا فكل المحلات مفتوحة تبرهن على أن قلة معدودة لن تستطيع أن تعرقل مسيرة التقدم ، بينما نشرت الصحف العالمية أن الإضراب لم يكن سائداً فى طهران فحسب بل وفى كل المدن الإيرانية ، وفى حين توقح الناطق بلسان الحكومة داريوش همايون

وقال ان طنين العمل هو الذى كان مشهوداً فى ذلك اليوم وليس جلال الصمت فضحته الصحف الشاهنشاهية التى صدرت عصر ذلك اليوم وهى تتحدث عن تدابير الأمن التى اتخذت وعن أن قوى الحكومة تسيطر تماماً على الموقف ، بل وكتبت الجريدة شبه الرسمية كيهان بالحرف الواحد « **إن القوات العسكرية احتلت منذ ليلة الأمس كل الشوارع ومفترقات الطرق والأماكن المزدحمة بالسكان والمؤسسات والنوادى لمقاومة أى تمرد محتمل ، واليوم تراقب المدن مراقبة تامة** » ولم تجد الحكومة من عقاب لأولئك الذين تجرأوا وأضربوا فى ١٥ خرداد إلا فرض غرامات كبيرة عليهم ، وفى اليوم التالى كان السوق فى طهران ميدان حرب حقيقية بين الشرطة والتجار الذين سيق الكثيرون منهم إلى المعتقلات .

ولأن هذا اليوم انتهى على غير ما كان النظام يهوى ، وفسرت السلطات الحاكمة ما حدث على أنه تراجع من القوى الشعبية ، **تشجع الشاه وخرج من مكمنه وتحدث إلى جماعة من المثقفين الشاهنشاهيين قائلاً : إننى أتعجب كيف أن هناك جماعة من المثقفين أمثالكم تعمل لصالح الوطن فى صمت ولا يتحدث عنها أحد أبدا ، لكن إذا ظهر خمسة من المنحرفين ومستواهم العلمى أقل منكم بمراحل وتحدثوا بكلمة أو كلمتين ضد وطنهم يشتهرون كل هذه الشهرة ؟ (هكذا) وزاد الشاه فقال أنه ارتكب خطأ بشعاً بمنحه الحريات (!!!!!) ونيته فى إقامة انفتاح سياسى فى حين أن المشاغبين رءوس الفتنة أثبتوا أنهم لا يستحقون ذلك ، وهم قلة من الخونة والعملاء وسوف يثوبون إلى رشدهم** ، وكان من أبلغ ما كتب رداً على هذه التخريفات الشاهنشاهية منشور انتشر فى اليوم التالى فى أنحاء إيران جاء فيه : «ياصاحب الجلالة ... يا من له قدرة القدر .. يا قوى الشوكة ، أعدل عن حرية آبائك وأجدادك ، وما أفضل أن تفعل هذا قبل أن يمحى شعب إيران من الوجود ، خلصنا من شر منحة الحرية التى وهبتنا إياها .. لقد ندمنا على الديموقراطية ... أشفق علينا وصر ديكتاتوراً .. إن القضاء على الإسلام والاعتقال الجماعى والمذابح الجماعية هى هدية صاحب الجلالة إلى الأمة » والإمضاء : أنصار الانغلاق والانفتاح السياسى الشاهنشاهى !

كان النظام باقتراب الأعياد الدينية يفقد أعصابه ويصعد إرهابه ، ففى ١٥ شعبان (٢١ يوليو) حل الاحتفال بعيد ميلاد القائم (إمام الزمان والمهدى المنتظر) ، وهو من أهم الأعياد الدينية الإيرانية ، وعلى غير العادة وطبقاً لتعليمات الإمام الخمينى والأئمة الدينيين لم تزين العواصم بالأنوار ، **وكان الدور هذه المرة على مشهد ثانية العواصم الدينية وعاصمة خراسان** ، ومر احتفال مساء ١٥ شعبان بسلام ، وكانت الشرطة تعد نفسها لليوم التالى وبالفعل فى اليوم التالى بينما كانت تشيع جنازة أحد علماء الدين هاجمت الشرطة المشيعين لتفرقتهم ، وانقلبت الجنازة إلى مظاهرة ، وقامت الشرطة بمطاردة المتظاهرين إلى داخل حرم الإمام الرضا ، ولم تراع الشرطة صحن الجامع المزدحم بالزوار على الدوام فأحدثت مذبحة قتل فيها حوالى ثلاثمائة بعضهم من النساء والأطفال ، وبعد ظهر نفس اليوم هاجمت الشرطة مدرسة نواب الدينية وهاجمت الطلاب فى حجراتهم فقتلت عدداً منهم واعتقلت ستين طالباً وأغلقت أبواب المدرسة على الجرحى لتمنع من وصول النجدة إليهم ، وفى نفس الوقت كانت هناك مذابح أخرى تجرى فى شيراز ورفسنجان وجهرم ، وكان رد الحركة ممثلاً فى فتوى للإمام بأن يخصص شهر رمضان للتوعية الدينية وفضح النظام وتوحيد الصفوف ورأب الصدع .. ومن ثم شهد شهر رمضان صدامات علنية لا فى كل العواصم الإيرانية فحسب بل وفى كل المدن الصغرى والقرى .

وفى طهران اضطرت السلطة إلى وضع المساجد تحت الحراسة المسلحة (!!!) وشهدت مساجد المدينة حملات وحشية طوال الشهر المبارك ، وفى قم اتسمت المظاهرات ببعض العنف وبدأت الأسلحة تظهر فى أيدى المتظاهرين ، وفى أصفهان حدث عدد من الإعتصامات أرادت الشرطة أن تنهيها بالقوة فسقط بعض القتلى ، ورد المتظاهرون بالمثل فأعلنت الأحكام العرفية (١١ أغسطس) وعندما تحدى الأهالى أوامر حظر التجول سقط عدد كبير من القتلى ، كانت المذبحة تحدث فى مدينة ما فتتلوها مذبحة فى مدينة أخرى قامت احتجاجاً وبدأت أسماء مدن لم يكن لها دور فى الشهور الأولى تقريباً تظهر فى نشرات المقاومة مثل شهسوار واردكان وبهبهان وزنجان وقزوين وغيرها.(٣٠)

وتعد مذبحة مشهد ومذابح أصفهان وإعلان الأحكام العرفية فيها وفرض الحراسة على المساجد ومحاصرتها بالجنود قمة هذه المرحلة من مراحل الثورة وبالرغم من كل هذه المذابح لم يكن النظام قد أسفر عن وجهه الحقيقى الدموى الذى سوف يظهر بكل بشاعته فى المرحلة التالية . كان النظام لا يزال يظن أنها غضبة وسوف ينتهى الأمر ، وحتى مذبحة مشهد وإعلان الأحكام العرفية فى أصفهان كان النظام يصر أمام العالم أن الأمر لا يعدو مشاكل دولة فى حالة تطور سريع ، وحتى وهو يعترف بهذا أمام العالم ، كان عليه أن يعترف بأن الأمر فى حاجة إلى علاج ، إلا أنه - وهذا أعجب ما فى الأمر - لم يكن يعترف بأى حق للمتظاهرين فى أن يتظاهروا أو للرافضين فى أن يرفضوا ، وكان الشاه نفسه على رأس المتحدين للثوار والكاذبين على أنفسهم قبل أن يكذبوا على العالم ، وحتى قبل مذبحة سينما ركس بيومين جمع الشاه رجال الصحافة والإعلام وتحدث إليهم بمناسبة حلول ذكرى ٢٨ مرداد (الانقلاب الذى أسقط مصدق وأعاد الشاه إلى السلطة) وفى هذا اللقاء بدا الشاه خالى الذهن تماماً عما يحدث فى إيران ، وبدا وكأنه يتحدث عن بلد آخر فتحدث عن شهداء ٢٨ مرداد الذين يزعم أنهم سقطوا فى سبيل أن يعود إلى عرشه ولم يدر بخلده أن العشرات من أبناء الوطن يسقطون يومياً فى احتجاجهم على نظامه ، وكعادة الطغاة الذين لا يرون إلا أنفسهم أخذ يفسر أحداث التاريخ من وجهة نظره ، وبالطبع سئل الشاه عن الأحداث الأخيرة فكانت كلها من وجهة نظره من فعل الماركسيين الإسلاميين وجماعة من الإرهابيين المخربين ، **ولم يجد تفسيراً لكثرة عدد المنضمين إلى المظاهرات إلا أن أحد أجنحة حزب رستاخيز وراء هذه المظاهرات ، ولم يدر أنه بهذا يترك النظام يأكل نفسه وأنه يبدى استعداده للتضحية برستاخيز لإنقاذ عنقه ،** وزاد الشاه بأن معظم المتظاهرين من التجار الذين قبض عليهم للبيع بأزيد من التسعيرة وفقد أعصابه أمام رجال الإعلام الذين دعاهم بنفسه ووضع بلاطة الأسئلة لهم وثار قائلاً : **وما الضرر فى أن يكون فرد أو شخصان من غير الراضين ؟** وبعد كل هذه المذابح كان الشاه يرى أن أحداث إيران الدامية من فعل شخص أو شخصين .. ثم تحدث عن انتخاباته الوشيكة فأكد أنها سوف

تجرى فى موعدها ، وسوف تقدم لائحة بقانون الحريات إلى المجلس الجديد ، **لكن الحريات لن تعنى أبداً حرية الكذب والافتراء (ياسبحان الله)** وتحدث عن أياديه البيضاء على الإسلام والمسلمين وتضحياته فى سبيل الأمة .. لكنه انتقل إلى التهديد بالأحكام العرفية ... لماذا والأمر كله لا يزيد عن شخص أو شخصين ؟ كان هذا التناقض المضحك الذى ورد فى حديث الشاه ودفاعه الواهى عن الفساد لم يكن يعنى إلا تأكيد الشائعة التى انتشرت فى إيران بأن الشاه فى طريقه إلى الجنون ، وهو جنون سيتضح يوماً بعد يوم وسوف نرى آثاره المشئومة فى المرحلة التالية ، ذلك الجنون الذى دفعه إلى أن يقول صراحة : **إننى أعد مواطنى بحضارة عظيمة لكننى أعد أعدائى برعب شديد**(٣١) .

وكان أن دفع النظام الثمن غالياً ، فلم تكد هذه المرحلة تنتهى حتى وضعت الشاهنشاهية نفسها فى الميزان ، ولم تعد بيانات علماء الدين وحدها هى التى تطالب بإلغاء الشاهنشاهية بل وانضمت إليها بيانات الجبهة الوطنية وحركة التحرير الإسلامى ، **وكان من الغريب أن يعالج النظام الأمر بتجاهله تماماً وكأنه لم يحدث ويصر فى بياناته وتصريحاته على أن الأمر لا يعدو تحركات فردية وعمل عصبة خارجة عن النظام وشرذمة من المشاغبين والخونة والمأجورين وعملاء الإستعمار الأحمر والإستعمار الأسود إلى غير ذلك من مصطلحات فلاسفة الشاه .**

وكانت نتائج هذه المرحلة تشير إلى أن النظام بالرغم من مؤسساته القمعية وحزبه الواحد وجهاز مخابراته نظام متفسخ ومهترىء تماماً ، فلم تكن المبادرة فى يده خلال هذه المرحلة قط ، **لم يقم بأى إجراء وقائى** ، لم يكن الأمر يعدو مجرد أفعال من الحركة الشعبية وردود أفعال من النظام ، كان ينتظر قيام المظاهرة ثم يخمدها ، وفى بعض الأحيان كانت المظاهرات سلمية تماماً من الممكن أن تمر ، إلا أن الغباء الذى كانت تعامل به واستفزاز العناصر المتظاهرة كان يقلبها إلى مذبحة ، ومن العسير أن نصدق أن الجسور بين الشاه ونظامه وبين مجموع شعبه (لا عناصر قيادة الحركة) قد تفسخت تماماً ، إلا أن هذه

السياسة الغبية كانت تتيح تكثفاً وتوسعاً لحركة المقاومة عن طريق انضمام عناصر إليها لم تهتم يوماً بالسياسة ، ومن ثم فإن المقاومة برغم المذابح والاعتقالات والنفى كانت قد خرجت من هذه المرحلة أكثر تماسكاً وقوة وتشجعاً على النظام .. لقد أدركت مواطن الضعف فيه وأدركت أنه ليس ذلك الأسد الهصور ، بل هو أسد من ورق .. أما النظام فإنه حين أراد أن يمسك بزمام المبادرة فقد ارتكب أخطاء قضت عليه تماماً .. وهذا ما سنتناوله فى الفصل التالى .



الفصل الثانى

الدم

« مرنى يامولاى أجعل لك
طهران كومة من التراب »

الجلاد غلامرضا أويسى : الحاكم العسكرى
لطهران

حينما أرادت حكومة آموزگار أن تأخذ بزمام المبادرة ، لم تكن تريد أن تتقدم خطوة فى طريق الإصلاح ، أو أن تفعل ما يمكن أن يقلل من حدة اندفاع الثورة بل **كان كل ما يهم الحكومة التى كانت ترى نفسها فى مهب الريح فى حين أن المراقبين كانوا قد تنبأوا لها بأن تعمر أكثر من حكومة هويدا هو أن تشوه الحركة الشعبية** ، وكان الهدف من هذا الوصول إلى أكثر من نتيجة : أولها أن تثبت أمام العالم إدعاء النظام بأن الثوار ليسوا أكثر من حفنة من المخربين وثانيها أن تفتت التكتل الشعبى المتزايد يوماً بعد يوم ، وكان اختيارها عبادان مسرحاً للجريمة مدبراً بإتقان ، فإن عبادان مركز النفط الإيرانى الذى يضخ إلى دول الغرب ومن ثم كانت تريد أن تظفر بتأييد الغرب لما سوف تقوم به من إجراءات قمعية فيما بعد على الأقل بدعوى حماية منابع البترول ومن هنا كان تدبير الحكومة لحادثة سينما ركس فى عبادان فى ٢٨ مرداد (١٩ أغسطس ذكرى انقلاب زاهدى ضد مصدق) .

قام النظام بتدبير حادثة حرق السينما على روادها ، وكانت النتيجة إحتراق أكثر من خمسمائة رجل وإمرأة وطفل وتفحمهم داخل السينما بحيث صعب

على ذويهم التعرف عليهم ، وبالرغم من أن الكارثة كانت قد دبرت باتقان لكى تلقى مسئوليتها على كواهل الثوار أو المخربين بتعبير الدولة **إلا أن أحداً لم يصدق** ، وسرعان ما تسربت الفضيحة على ألسنة شهود العيان الذين شهدوا بأن أبواب السينما كانت مغلقة من الخارج بعد إشتعال النيران وأن المواد المحرقة كانت مخزونة داخل السينما وموزعة بإتقان ، وأن إدارة السينما قد تأخرت فى إبلاغ إدارة الإطفاء عشر دقائق بالرغم من أنها لا تبعد عنها أكثر من عدة أمتار ، وفيما بعد ظهرت ملابسات أخرى فإدارة الشرطة التى لم تخف لانقاذ الضحايا والتقليل من حجم الكارثة على بعد مائة وخمسين متراً من السينما ، وصنابير الإطفاء فى عبادان،أكبر مركز عالمى لتصفية البترول وتصديره، كانت خالية من المياه (!!!) ، **كان إيمان الناس بأن الحكومة هى التى دبرت الحادثة راسخاً ، وبعد عدة أيام من الحادثة هاجم الناس مركز الشرطة بالفؤوس والمدى مطالبين برأس التيمسار رضا رزمى مدير الشرطة وكان قد استدعى إلى طهران بعد الحادثة** ، وفى ٢٢ أغسطس أصدرت حركة مسلمى فارس « نهضت مسلمانان فارس » بياناً عددت فيه الأدلة على أن الحكومة هى التى دبرت الحادثة ، وكان أبلغ دليل ورد فى هذا **البيان أنه ثبت أن قيادة السلاح البحرى فى عبادان وزعت أمراً دورياً على الجنود بألا يذهبوا إلى دور السينما يوم الحادثة** ، كما ذكر البيان أن دور السينما كانت تحت الحراسة المشددة بحيث لا يجرؤ أحد على المرور إلى جوارها فضلاً عن دخولها وتدبير هذا الحادث هذا التدبير المحكم ، **هذا فى حين أن العمليات الثورية التى كانت تستهدف دور السينما كانت تهدف دائماً إلى تدمير المبنى دون إلحاق الضرر بأحد** ،وبالرغم من أن إدارة الإطفاء فى عبادان مجهزة تماماً إلا أنها طلبت العون من إدارة الإطفاء فى خرمشهر ، **وإلى جوار ذلك حاصرت قوات الجيش دار السينما المنكوبة ومنعت عربات الإطفاء من الاقتراب منها حوالى عشرين دقيقة كاملة** (٣٢) **وكان يمكن لعربة واحدة أن تحدث فجوة فى جدار السينما الهش لإنقاذ الضحايا** (٣٣) .

وبعد الجريمة خرجت صحف الحكومة تتحدث عن عزم أهالى الضحايا على الانتقام من المجرمين،(دون أن تحدد من هم المجرمون بالطبع) ، واتضح

تماماً أن النظام كان يريد أن يستغل الحادثة لضرب الناس بعضهم بالبعض وشغلهم عن جرائم النظام ، ومن ثم كان إعلان المجرم الحقيقى وهو الحكومة بأدلة لا تقبل الشك قد رد السلاح الذى أرادت الحكومة إستخدامه ضد الشعب إلى نحرها ، **وكانت النتيجة أن كثيراً من أفراد الشعب الذين كانوا بعيدين عن الحركة مشغولين بحياتهم اليومية قد أفاقوا فجأة وأدركوا جانباً من بشاعة النظام وصدقوا كل ما كان يحكى عنه وكانوا يعتبرونه فى جكم الشائعات التى لا تصدق .. ومن هنا تعد الحادثة إحدى نقاط الانطلاق فى الثورة الإيرانية ، وإحدى الحوادث التى ساعدت على تكوين الضمير القومى الإيرانى وساعدت على التكتل وهو عامل له أثره فى المرخلة الأخيرة من الثورة كما سنرى** ، كان للحادثة نتيجتان : أن النظام أسفر عن وجهه الكريه وعرى كل مخازيه على الملأ ، ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء البسطاء أنصاف النيام الذين كانوا يظنون أنه لا شأن للحكومة بهم ما لم يتدخلوا هم فى شئونها أدركوا أن النظام لا يرحم أحداً وأن نتيجة السكون هى نفس نتيجة الثورة ، وأن النظام لن يرحم حتى أولئك الذين يشاهدون ما يحدث فى الظلام وعن بعد . (٣٤) .

وبالرغم من هذا الحادث البشع وما أدى إليه من نتائج ، فإن الحكومة ظلت فى نومها العميق الذى تتخلله أحلام السعادة ولا يقلق بالها شىء ، وهذه سمة من سمات الحكومات الديكتاتورية فهى ترى أنها مهما فعلت غير جديرة بأن يوجه إليها نقد أو اعتراض ، وهى تؤمن أن أمامها رسالة تاريخية ومسئولية مقدسة عليها أن تقوم بها حتى آخر نفس ، وهذه السمة عند كل الحكومات الديكتاتورية التى تمتلىء صفحات التاريخ بمخازيها تؤدى إلى عدة نتائج من أهمها : أن الحاكم الجبار يظل على جبروته مادام يعتقد فى داخله أنه من أجل الوصول إلى الهدف وتحقيق الرسالة لا بد من وجوده ، ومعظمهم يظن أنه متمتع بالتأييد الإلهى ويرى أن استخدام أحقر الوسائل جائز بل واجب ، وطبقاً لهذه الرسالة المزيفة والشرعية المصطنعة والسلطة غير المحدودة تؤمن الحكومة الديكتاتورية أنها مؤيدة بالتأييد الإلهى وغير قابلة للزوال ، ويعتقد الحاكم المستبد أنه ضرورى جداً وأنه لا يمكن أن يخلف وأنه إن حدث واضطر إلى أن يمضى إلى حال سبيله فلن يخلفه إلا الهرج والفوضى وضياع الأمة وضياع

استقلال الوطن ، ومن ثم فالنتيجة النهائية أن الحاكم المستبد يسقط فى نوع من الخدر السياسى والسعادة النفسية والاطمئنان التام ، وعندما يرى ضميره مستريحاً وأعصابه مسترخية تمده السلطة والقوة بحلم عميق وجميل يزداد فيه استغراقاً يوماً بعد يوم ، ومن خلال هذه الحالة يزين له المنافقون الذين يزدادون من حوله ما يفعل ويؤيدونه ويدفعونه من الاعتدال إلى التطرف ، فيتنبى ثم يتأله .

فى مثل هذه الظروف والنظام الإيرانى الشاهنشاهى مستغرق فى أحلامه السعيدة إذا به يسمع أصواتاً وهمهمات وغمغمات على البعد ، فإذا به يتقلب من جنب إلى جنب ثم يصدر أوامره الملوكية بأن يذهب آموزگار رجل المعجزات ويأتى جعفر شريف إمامى على رأس وزارة سميت « **المصالحة الوطنية : آشتي ملى** » (٢٦ أغسطس) وهكذا لم تقض مبادرة آموزگار الأولى على الثورة بل قضت عليه هو شخصياً .

كان تنصيب جعفر شريف إمامى رئيساً للوزراء مظهراً آخر من مظاهر غباء النظام وسوء تقديره للأمور ، وكان السبب الواضح جداً لاختيار شريف إمامى أنه ينتسب إلى أسرة من علماء الدين وأنه أقدر على التفاهم مع الأجنحة الدينية .. وكان هذا فى حد ذاته اعترافاً بوجود الثورة وبوجهها الدينى وبأنها فى يد علماء الدين بل وبشرعيتها ، فإن أى تمرد غير شرعى من فرد أو فردين لا يقوم بإسقاط وزارة ، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً سوف يكون كل إجراء يتخذه النظام وكل قانون يصدره فى صالح الثورة وسوف يتنازل عن كثير من عنجهيته وغروره .

كان جعفر شريف إمامى آخر من يصلح لرئاسة الوزارة فى هذه الظروف فهو القائم بتزييف الحركة الديموقراطية طيلة الخمس عشرة سنة الأخيرة كرئيس لمجلس الشيوخ ، كما كان رئيساً لأكبر مؤسسة للنهب المنظم فى إيران وهى مؤسسة بهلوى ، وبمجرد إعلان أسماء أعضاء الوزارة الجديدة ، تلك الوجوه المعروفة المجربة (بفتح الراء وتشديدها) والتى رسبت فى الإمتحان أكثر من مرة على حد تعبير أحد الكتاب الإيرانيين ، اتضح أن نوم النظام كان أثقل مما يجب ، وأنه لم يأخذ الأمور بجدية ، وأن الأمر لا يعدو نفس الكأس ونفس الشراب بتعبير المثل العامى الإيرانى .

وكان فهم شريف إمامى للثورة عجيباً حقاً فلم يفهم إلا أن هناك اعتراضاً من بعض علماء الدين وبسبب بعض المظاهر غير الإسلامية التى نتجت عن عملية التحديث (هكذا) ، وبذلك وضع يده على بعض أعراض الداء وشخصها ، لكنه بالطبع لم يفهم كنه الداء الحقيقى ، فلم يفعل إلا أن أكد الوجه الإسلامى للثورة ، وبحركة استعراضية أعلن إغلاق دور اللهو والنوادى الليلية والكازينوهات ، كما أعلن إعادة التقويم الهجرى الشمسى ، كما أعلن أن حكومته سوف تفعل المستحيل لكى تقضى على سوء التفاهم الذى حدث بين السلطة علمـــاء الدين وأكد مراراً أن آية الله الخمينى عائد إلى إيران لا محالة وكأن الخمينى كان ينتظر الإذن منه ، إلا أن شريف أمامى فشل فى أن يجد من يتطوع بالقيام بالمفاوضة مع الإمام وإقناعه بالعودة إلى إيران فقد كان الوقت قد فات ، **وكان آية الله الخمينى قد أعلن أنه لن يعود إلى إيران مادام الشاه فيها .**

وبالرغم من إلغاء حزب رستاخيز وحله وهو أول ضحايا الثورة ولن يكون آخرها ، فقد كان من المعروف آنذاك فى إيران أن الحزب قد حُل لا لفساده كما قد يتبادر إلى الذهن بل لأنه فشل فى مواجهة التكتل الشعبى وانهيار التكتل الشاهنشاهى الذى كان من المفروض أن يمثله ، وكان الشاه قد هاجمه واتهمه ، ومن هذا القبيل طرد جنرالات الجيش من البهائيين ، فقد كان الشعب كله يود أن يحاكم هؤلاء الجنرالات الذين اشتهروا بالفظاظة والغلظة ، وكان يمكن — إن توفرت بعض الثقة — أن تؤتى هذه التصرفات ثمرة ما وبعض ردود الأفعال الإيجابية عند الثوار لولا الدماء التى سالت طوال الشهور الماضية ، **كما أن شخصية جعفر إمامى نفسها والطريقة الإستعراضية التى أعلن بها قراراته التى ستغير وجه التاريخ ، ومحاولاته الظهور بسحنة المنقذ المخلص لم تكن تثير إلا سخرية الناس من القط الذى أصبح عابداً بتعبير المثل الإيرانى ، ولم يكن لهذه التصرفات من صدى لدى الشعب إلا أنها أثبتت استخزاء النظام واستسلامه وتخليه عن عناده التقليدى ، وأن التجبر المفتعل فى سبيله إلى الزوال والإنهيار .**

وكان إعلان النية بالسماح (وليس السماح) بتكوين الأحزاب عاملاً مساعداً فى إضافة لمسة جديدة من السخرية على صورة وزارة جعفر إمامى ، فسرعان ما بدأت الصحافة تنشر أسماء الأحزاب واتجاهاتها وأسماء مؤسسيها أو زعمائها ، وكانت معظم الأحزاب أحزاباً قديمة ذات زعامات وأسماء قديمة لم يكن أحد فى إيران يظن أنهم مازالوا على قيد الحياة فضلاً عن عدم وجود أيديولوجية محددة أو قاعدة شعبية لها ... إلا أن هذا الأمر كان له حسناته ، فقد بين بجلاء أولئك المستعدين للعمل السياسى مع وجود النظام ووجود الشاه ، وكان إعلان الجبهة الوطنية عن نفسها كحزب برئاسة بازرگان وسحابى مجال انتقاد من الحركة الإسلامية ، كما أعلن عن تكوين حزب جديد باسم حزب إيران على يد شاهبور بختيار وكريم سنجابى ، وبالرغم من أن هؤلاء قد نفوا تماماً تكوينهم لهذه الأحزاب ، إلا أن مجرد انتشار هذه الأخبار لم يكن يدل فى نظر الثوار إلا أن النظام مستعد للتعاون مع هؤلاء ، وبالرغم من أن هذه الأحزاب لم تتشكل رسمياً قط إلا أن وصمة إعلانها فى هذه الظروف لحقت بكثير من القادة الذين سقطوا فى منتصف الطريق ،**ولعب النظام لعبته المكررة فى تاريخ إيران فأعلن عن أسماء أحزاب معارضة صنفها هو تحت أسماء القادة الفكريين لتيارات الثورة ، كان يريد أن يظهر فهماً لما يجرى فأخطأ الهدف ، وتجاهل القيادات الدينية تجاهلاً تاماً يدل على جهل مطبق بما يجرى** (٣٥) .

كانت النتيجة الرئيسية للشعارات التى رفعتها وزارة شريف إمامى من قبيل « المصالحة الوطنية » و « الوطن فى خطر » ... الخ أن الثورة بدأت تنتقل إلى صحف النظام ، وبدأت نغمة جديدة تحاول أن تبرىء الشاه مما حدث ، وهذا أيضاً من أبشع أخطاء النظام ، فماذا يعنى الشاه دون المحيطين به ؟ ومن الذى يمكن أن يتجرأ ويساعده أو ينضم إليه وهو يراه يلقى بكل أخطائه على كواهل أولئك الذين ساعدوه فى مقابل فتات من الغنيمة ؟ وحتى وإعلام الشاه يحاول أن يبرئه يقع فى تناقضات مضحكة جداً كانت تدين الشاه ، فحين تريد الصحافة الشاهنشاهية أن تقدم درساً من التاريخ عن السلطان الذى تفسده بطانته لا تجد غير **كاليجولا المجنون يتحدث عن نفسه** (٣٦) وحين تريد أن تبرىء أقطاب عصر النهب لاتفعل إلانشر خطاب للملياردير هزبر يزدانى يبرىء فيه نفسه(٣٧).

وتنشر مقالاً غفلا من الإمضاء فحواه أن حساب الشاه غير حساب الآخرين وتدافع عن العمد التى سقطت (!!!!)**وتبدى خوفها – وهو خوف فى محله – من ألا تقوى العمد المهترئة الجديدة على حمل السقف فينهار على من فيه.**(٣٨)

ومنذ الأسبوع الثانى من الأسابيع العشرة التى مكثتها وزارة إمامى فى الحكم قامت بتعرية واقع النظام الإستبدادى الفاسد وخبثه المتأصل وعدم قابليته للإصلاح وأدرك أكثر الناس غفلة أن النظام الفاسد لا يمكن أن يكون أداة لمحاربة الفساد وأن الظالم لا يستطيع – مادام موجوداً على كرسى الظلم – أن يقضى على الظلم ، وأن الحكومة الفاسدة المستبدة التى لا يحكمها قانون لا قدرة لها على قطع يد الظالم لأنها لا تستطيع أن تقطع يدها ، وللمرة الألف فى التاريخ يحفر نظام إستبدادى قبره بيده وذلك لأن كل ما أدركه النظام وكل ما أدركته حكومة إمامى أن الشعب الإيرانى تلزمه بعض التقية من قبل الحكومة وبعض الشكليات الدينية ، ومن هنا سلك سبيل الرياء والإحتيال وارتدى ثياب الزهد الريائى ، فالقوانين التى أصدرتها الحكومة قوانين لم تمس إلا المظهر وأثبتت عجز النظام على إدراك أغوار السخط العام وفى تقديره لما يحيط بالحكم من كوارث ومصائب وأخطار ، وأثبت النظام أنه لم يقدر الحركة أو قوة علماء الدين حق قدرها فاطمأن أنه بهذا الزهد الريائى سوف يضع علماء الدين فى موقف حرج .

ولم يكن هذا الفهم المحدود للحركة ولدور علماء الدين قاصراً على فلاسفة النظام أو منظرى حزب رستاخيز بل إن كثيراً من القوى المعارضة للنظام كانت تفكر بنفس الطريقة ، إذ صرح الدكتور أمينى أكثر من مرة أن علماء الدين لا يريدون شيئاً إلا الاحترام ، وأن على آية الله الخمينى أن يتسامح ، دون أن يدرك أن تظلم الأمة غير قابل للنسيان أو التسامح (٣٩) ، والذى حدث بعد ذلك لا يدل إلا على أن الحكومة ظلت سادرة فى نومها العميق ، وبالرغم من كل ما حدث فإنه لم تكن هناك أدنى بارقة أمل فى أن الحكومة سوف تستيقظ من نومها (بصرف النظر عما قيل من أن الحكومة ليست نائمة **بل ميتة**) ، لو

كان النظام مستيقظاً لأتى بالدكتور أميني بدلاً من شريف إمامي الذى يعد من شخصيات عصر النهب ولأخمد كثيراً من الفتن ولحال دون كثير من الكوارث التى ارتكبتها حكومة إمامي فى مهدها ، ولما سفك كل هذا الدم الطاهر ، لكن النظام أصبح على استعداد لتحمل أميني يوم أن لم يعد لا أميني ولا حتى أفلاطون بالتعبير الإيرانى يستطيع أن يحيى النظام الذى مات .

والذى لم يدركه المراقبون والمحللون فى إيران أن **حكومة إمامي فعلت ما يمكن لها فى سبيل تهدئة الأمور فلما لم تفلح بدأت فى سفك الدماء أى المهمة التى نصبت من أجلها فى الأصل ، أما كل المظاهر التى بدأت بها فكانت للفصل بين من هم على استعداد للتفاهم مع النظام وأولئك الذين ينبغى أن يموتوا على الفور ، كان الهدف الأول فصل القيادة الدينية عن مجموع الشعب ، وكان من نتيجة هذه الخطة المكشوفة تماماً أن بدأت موجة التضامن الشعبى العظيمة الأولى فى بداية الأسبوع الثانى لحكومة شريف إمامي ، وبدأت موجة المسيرات العظيمة السلمية والتى كانت كل منها تمثل – فى رأى للإمام الخمينى استفتاء لإسقاط النظام** ، وفى صباح عيد الفطر (٤ سبتمبر) تجمع فى شوارع طهران حوالى مليون شخص وقامت مسيرة منظمة وسلمية فى شوارع طهران ، وفى المدن الكبرى الأخرى تمت مسيرات مماثلة منظمة وسلمية وهادئة تماماً ، تجمع الناس ورددوا شعاراتهم وصلوا صلاة جامعة ثم انصرف كل إلى سبيله ، وبالرغم من أن مسيرة طهران كانت تضم مليون (بقيادة الدكتور مفتح والدكتور باهنر وحجة الإسلام غفارى) ، اشتهرت بالنظام الشديد والهدوء ، وترددت شعارات من قبيل : سلاماً على الخمينى ، الإستقلال . الحرية . الحكومة الإسلامية ، أيها الجندى أنت أخى لا تقتلنى . لا تقتل موسى من أجل فرعون ، ثورتنا ثورة حسينية وعدونا الحكومة اليزيدية ، حزبنا حزب الله ، الله أكبر والخمينى مرشدنا « الله أكبر خمينى رهبر » وضمت هذه المسيرات الأولى فى كل مدن إيران ما يزيد عن أربعة ملايين نسمة ، ومرت كلها دون ضحايا اللهم إلا فى الكرج وعيلام وخمين وقم إذ سقط ما يقرب من عشر شهداء ، كانت هذه المسيرات أبلغ رد على ما حاول إمامي أن يمثله ،

كما كانت الأولى فى سلسلة المسيرات ذات الملايين التى تعبر عن السخط العام على النظام والرغبة فى إسقاطه ، كانت مسيرات مهيبة ومثيرة للرعب أدهشت النظام ، وبدلاً من أن يفيق ازداد جنونه ، وعلى مدى أقل من أربعة أيام انقلبت المظاهرات السلمية فى العاصمة التى كان متظاهروها يقدمون الزهور للجنود المعسكرين فى الشوارع إلى مذابح دموية .

وفى السادس عشر من شهريور (٧ سبتمبر) ردت حكومة المصالحة الوطنية على شعارات المتظاهرين بالرصاص وقتلت أكثر من مائة شخص ، وكان هذا إرهاصاً بقيام أكبر مذبحة علنية فى التاريخ وهى مذبحة الجمعة السوداء فى ١٧ شهريور (٨ سبتمبر) .

وقبل يوم الجمعة الأسود ، وبمذبحة ١٦ شهريور (٧ سبتمبر) ، كان الامتحان الصعب قد طرح أمام العناصر الثورية ، فإن حكومة المصالحة قد أسفرت عن وجهها الحقيقى القبيح دون أدنى رياء أو زيف ، **والآن لم يبق أمام الناس إلا أن يختاروا : فإما أن ينصرفوا عن طريق هذا الزنجى الثمل بالتعبير الإيرانى أو أن يصمدوا ويقتلوا** فالنظام كان قد أعلن عزمه واستعداده لقمع كل حركة وخنق كل صوت ، وكل ذلك ثبت ولم يعد فيه مجال للشك بعد عدة ساعات من مذبحة ٧ سبتمبر بإعلان الأحكام العرفية والحكم العسكرى فى طهران وإحدى عشرة مدينة أخرى ، ولم يكن لهذا القرار من داع إلا أن النظام لم يكن يريد أن يمنح الناس الفرصة لتقدير قوتهم ، وسلب مجرد المطالبة السلمية منهم ، لم يكن النظام يريد أن يمنح الأكثرية الصامتة الفرصة لاختيار أحد طريقين إذ لم يكن هناك فى زعم النظام إلا طريق واحد : الصمت والغيبوبة ، ويطرح التسرع المتعمد فى إعلان الأحكام العرفية هذا التساؤل : هل كان النظام بهذا المباغتة يريد أن يعطى نفسه الفرصة لجمع قواه من أجل تصعيد القمع للقضاء على الحركة قضاء مبرماً ؟ إذن : لقد تآمر النظام وأعد خطة مسبقة ليقوم بمذبحة الجمعة السوداء لإرهاب الشعب تماماً .

أكان من الممكن أن يقوم النظام بهذه المذبحة لو لم يظفر الشاه بالتأييد المسبق من القوى العالمية ؟ هل يمكن أن تكون الرسالة الخاصة السرية التى حملها إليه سفيره فى أمريكا أردشير زاهدى فى الفترة ما بين مسيرة عيد الفطر

والجمعة السوداء غير محتوية على الضوء الأخضر للشاه في إقامة المذبحة ؟ وبعد وصول الرسالة عقدت جلستان شديدتان السرية باشتراك سوليفان سفير أمريكا في طهران وبريجنسكي مستشار الرئيس الأمريكي للأمن القومي وزاهدى ونصيرى وأويسى واشترك إمامى في إحداهما فقط ، وهناك تقرير آخر عن جلسة سرية عقدت مساء الخميس (٧ سبتمبر) وقبل أن تنتهي المسيرات،وحضر الجلسة كبار الضباط وكان سكرتيرها هوشنك نها وندى (رئيس المكتب الخاص للشهبانو) ، وكان من تقرير الجلسة أن نصب غلامرضا أويسى سفاح ٦٣ حاكماً عسكرياً لطهران ، أجل : لم يكن تنصيب أويسى حاكماً عسكرياً إلا تمهيداً للمذبحة فهو الذى قال في جلسة سرية أخرى عقدت في أغسطس : ينبغى فتح الرشاشات عليهم،أى على الثوار ، وقتل عشرة آلاف منهم حتى ينتهي الأمر ، وهو أيضاً الذى سقط تحت أقدام الشاه بعد ذلك بعدة شهور قائلاً : مرنى يا مولاى أجعل لك طهران كوماً من تراب . ومن ثم أعلنت الأحكام العرفية في المراكز الرئيسية للثورة : طهران وتبريز ومشهد وأصفهان وشيراز وعبادان والأهواز وقزوين وكازرون وجهرم والكرج ، ويسرى حظر التجول من الخامسة صباحاً إلى التاسعة مساء ويعد تجمع شخصين تجمهراً . (٤٠)

وبالرغم من إعلان الأحكام العرفية ومنع التجمهر حتى لشخصين ومذبحة ٧ سبتمبر ، وبالرغم من أن القادة الدينيين لم يأمروا بخروج أى مسيرات أو مظاهرات ، وبالرغم من أن إذاعة طهران ظلت تذيع قرار الأحكام العرفية وأوامر الحاكم العسكرى بين لحظة وأخرى وأصبحت طهران تبدو كمدينة سقطت تحت رحمة جيش مغير ، بالرغم من كل ذلك ، قام عدة آلاف (يقدرهم المراقبون وشهود العيان بخمس عشرة ألفاً) بالخروج والتجمع في ميدان زاله (الذى عرف منذ ذلك اليوم باسم ميدان الشهداء) .

كيف خرج هؤلاء ؟ وبناء على أى أوامر أو تعليمات ؟ لا أحد يدرى ، وأغلب الظن أن هؤلاء كانوا من كبار المتحمسين للثورة الذين لم يكونوا في انتظار أوامر لتحدى السلطة ... لقد نشرت سير بعض شهداء يوم الجمعة السوداء فيما بعد ومنهم شباب من العمال والطلبة قالوا جميعاً لذويهم قبل أن

يخرجوا من بيوتهم فى ذلك اليوم المشئوم : **لا ينبغى أن نتخلى عن الإمام ، إن الحكومة تريدنا أن نسكت ونكف تأييدنا عن الإمام ، لكننا لا نستطيع .**

كان من الوضح أن هؤلاء الضحايا العزل الذين تعرضوا لأبشع مذبحة فى التاريخ المعاصر قد خرجوا لمجرد التعبير عن مشاعرهم العاطفية وشعورهم السياسى والعاطفى تجاه القائد ، ورأوا من واجبهم أن يخرجوا فى مسيرة سلمية للتعبير عن عدم اهتمامهم بمواد الأحكام العرفية والقانون العسكرى .. يقول أحد شهود العيان : « ... وفى الميدان تجمع الناس ، وكان الجيش على استعداد ، كان الجنود قد ارتدوا الخوذات ومانعات الغاز ووقفوا صفوفاً فى مفترق الطرق إلى جوار شاحناتهم ، وكان الأمر يبدو كالمصيدة ، فكلما زاد تكثف الجماهير فى الميدان كلما ضاقت دائرة الجنود حولهم .. لم تكن هناك هتافات بل صمت ، كان المتجمهرون يرفعون ملابس شهداء اليوم السابق ملوثة بالدماء واللافتات المكتوبة باللغة الإنجليزية ، كانوا يحسبون للصحافة العالمية حساباً ، وترددت بين الجماهير شائعة أن ثلاثمائة إسرائيلى قد وصلوا بالأمس لحماية الشاه ، وارتفع صوت فظ من ميكروفون يأمر الناس بالتفرق ، وكان الرد : نحن نطالب بالحكومة الإسلامية فالشاه قاتل ، وفى الساعة الثامنة والنصف كانت الجماهير قد ازدادت عدداً ووصل آية الله نورى فبث حضوره فى الجماهير الحمية ، وفى الساعة الثامنة ونصف وخمس دقائق أطلقت قنبلة الغاز الثانية نحو الخط الأول للجماهير ، بينما كونت جماعة منهم خطاً واحداً وقف لا يتحرك أمام الجنود الذين كانوا يتقدمون كانت الفجوة تضيق لحظة بلحظة بين القوات المهاجمة والجماهير ، وكان الموت يرفرف فوق الرؤوس ، لكن أين المفر ومسارب الميدان قد أغلقت تماماً ، وفى التاسعة والربع كان الرصاص يصفر فى الميدان ، لقد استغرق الأمر ثلاثين ثانية ، لم تكن حرباً .. كانت مذبحة ، وكان الجنود يتراجعون مسافات تكفى للتهديف جيداً وكانت الأهداف هى قلوب العزل الذين كانوا يواجهون الرصاص بصدور عارية ، لم يكن أحد يظن أن الجيش سوف يتجرأ ، ومن ثم ارتفعت الصيحات اليائسة : **لقد تجرأوا .. لقد تجرأوا** .. كان الناس يسقطون فى ذهول والدموع تسيل من أعينهم ، وكان الأطفال يتجولون بين الجثث وقد ضاعت لعبهم وسرعان ما ينصب عليهم

الموت فيسقطون فوق جثث الكبار ، وشاهدنى رجل فنظر إلى بكراهية شديدة صائحاً : أمريكى أمريكى ، بينما جذبنى شابان من ذراعى يحميانى من الرجل الذى هجم على بسكين وهما يصيحان : أهرب ، قص ما رأيت على العالم ، ولم تكد الساعة تبلغ الثانية عشرة حتى كان العدم .. واحسرتاه ، لقد كسب الجيش الذى كان يكرم بالأمس الجولة بالنقط لكن بأى ثمن ؟ إن الدم لا يفضى إلا إلى الدم » .(٤١)

ويقول شاهد عيان آخر : « كنت ترى الأمهات قد احتضن أطفالهن يتقدمن الصفوف بخطوات واثقة ، والأخوات قد أمسكن بأيدى إخوانهن ، والشيوخ يقضون الدقائق الأخيرة من حياتهم ، والشباب الذين لا يملكون من حطام الدنيا إلا شبابهم يبذلونه عن طيب خاطر .. هكذا بدأيوم الجمعة الأسود هادئاً مفعماً بالحب والاتحاد ، سيل يمضى فى الطريق فى طهر عيون الماء ، كل قطرة منه فى شفافية الدمع ، وبينما هم فى تحركهم الصامت .. بدأت المأساة ، فى البداية تم سكب البنزين على الأكوام التى كانت موجودة على جانبى الشارع وأشعلت النيران ، وبينما كان الجمع الخائف من النيران فى تلاطم ، أضرمت النيران فى عدة سيارات وحافلات ، كما أضرمت النيران فى مجمع المتاجر فى شارع فرح آباد ، وجاء بعدها دور الرشاشات ، دون إنذار ومن جميع الجهات ، من الأرض ومن السماء ، كانوا قد سدوا كل طرق الهرب ، كل الشوارع المتفرعة من الميدان بل والحارات الصغيرة قد سدت بالجنود ، **لم يكن الهدف تفريق الناس بل كان الهدف هو الإبادة ، حتى أولئك الذين لجأوا إلى الدور والعمارات طوردوا وقتلوا بل ومنعت نجدات الدم من الوصول إلى الجرحى ، ولم يكد ينتصف النهار حتى كانت آلاف الجثث الشريفة تتخبط فى الدم»**(٤٢) **لقد انتهى يوم الجمعة الأسود بحوالى خمسة آلاف شهيد** ، فالإحصائية التى قدمت من جبانة « بهشت زهرا » تحتوى على أربعة آلاف ومائتين شهيداً ، لكن هناك احتمالاً مؤكداً بأن عدداً كبيراً من الجثث لم يدفن فى هذه الجبانة العامة ، وكما حدث فى المذابح التالية لم تكن جثث كثيرة تدفن فى المقابر العامة ، وكانت أبعاد هذه المذبحة مثيرة للرعب بحيث أن كثيراً من الناس لم يصدق أن عدد الشهداء بلغ ألفاً ، وكيف يمكن أن يصدق أن النظام الذى تآمر ونظم وخطط لقتل خمسمائة فى ظلام

سينما عبادان يجرؤ على صب الموت من الأرض والسماء على العزل ويقتل خمسة آلاف فى وضح النهار .. حقيقة أنه فى اليوم السابق على الجمعة الأسود وما قامت به حكومة المصالحة الوطنية قد كشف الغطاء عن وجهها القبيح ، لكن الجرائم التى حدثت بعدها بشهور وفى نهاية فترة حكومة الجنرال أزهارى جعلت الواقع الأسود الأليم قريباً من التصديق . (٤٣)

وقد هزت المذبحة العالم ، وأدرك العالم مدى بشاعة النظام الإيرانى عندما عرضت دور السينما فى أوربا وأمريكا الفيلم التسجيلى الذى يصور المذبحة ، وبعدها بشهور وقبل سقوط الشاه نهائياً عرض فى إيران نفسها ، فكان سبباً فى ألا يرتفع صوت واحد يدافع عن نظام الشاه ، ولم يصدق أحد قط أكاذيب شريف إمامى فى تبرير المذبحة أو الأرقام المضحكة التى أعلنها النظام عن الضحايا (**جرحى وقتلى لا يبلغون المائتين**) ، لم تكن الحكومة لتجرؤ على الادعاء بأن واحداً من المتظاهرين كان مسلحاً ، ومع ذلك فإن الحكومة لم تجد مبرراً للمذبحة إلا أن تتهم المتظاهرين بأنهم « **ينتوون** » الهجوم على مجلس النواب ودار الإذاعة والتليفزيون وغيرها من مؤسسات الدولة ، وكان اتهاماً بلا أساس ، كان الجميع **يعلمون أن الوثائق التى قدمها رئيس الوزراء إلى مجلس النواب عن وجود : حركة مضادة للشعب « قيام ضد ملى » لا تحتوى على شىء اللهم إلا بعض الشعارات التى لا يصل أكثرها تطرفاً إلى شعار « الموت للشاه » الذى غطى كل جدران منازل إيران وشوارعها بعد المذبحة ، ذلك الشعار الذى أصاب النظام بالجنون .**

ويعد يوم الجمعة الأسود نقطة تحول فى تاريخ الثورة الإيرانية ، ففى ذلك اليوم الأسود الدموى تطورت حركة سلمية تطالب بالقانون والعدالة إلى ثورة شعبية ، وقبل يوم الجمعة الثامن من سبتمبر سنة ١٩٧٨ كانت هناك أجنحة عديدة من الثوار لا تريد أكثر من التنفيذ الكامل للدستور ، كان الكثيرون من خصوم النظام لا يريدون له الفناء الكامل ، ولم يكن جهاد الكثيرين منصباً على القضاء على الشاهنشاهية بقدر ما كان من أجل الحد من السيطرة الأمريكية على منابع النفط أو منع تصدير النفط إلى إسرائيل أو جنوب أفريقيا ، ولم يكن أحد يظن أو يتخيل أن يأتى يوم يصير فيه عمال النفط وموظفو وزارة المالية

والعاملون فى حقل الاقتصاد أو البنك المركزى أو الطيران الإيرانى أو إدارة التليفون والتلغراف أو مؤسسة التخطيط والميزانية أو عمال الكهرباء وهيئات التدريس فى الجامعات والمثقفون والقضاة والحقوقيون والصحفيون وأعضاء النقابات والتجار ، يصير هؤلاء جميعاً متحدين ويضربون عن العمل ولا يخافون من التهديد والتخويف والتعذيب والقتل والسجن والإعدام والنفى ويقفون على شفا التضحية بالروح ولا يتخلون عن إيمانهم .

ولو أن أحداث العام الدامى للثورة الإيرانية وضعت فى مجال التقييم ، وتنوولت أعمال النظام وأخطاؤه بالبحث والتحليل ، فسوف يكون ما حدث يوم الجمعة الأسود بلا جدال هو أشد أخطاء النظام ، فعلى الرغم من مذابح قم ثم مذابح تبريز ثم مذبحة السابع من سبتمبر فى طهران كانت الحركة لا تزال حركة سلمية ، لكن تصرف الحكومة يوم الجمعة الأسود والآلاف الذين سقطوا ، **قد نقلوا الناس فجأة إلى جو آخر هو جو الدم** ، كان الناس قد فقدوا ضحايا أكثر من ذى قبل ، وألقى بهم فى أتون الصراع طوعاً أو كرهاً ، فلم تترك حكومة المصالحة أى مجال للمصالحة ، وأغلقت كل طرق الرجعة ، وهل يمكن أن نتوقع الصبر من ذلك الأب العبادانى **الذى فقد أولاده الأربعة فى النار ؟ أو من ذلك الرجل الذى حمل جثة زوجته وجثة طفله بين ذراعيه ؟ أو من الأخ الذى يبكى على جثة أخيه التى شوهها الرصاص ؟ أو الأم التى ترى جثة ابنها بلا رأس ؟ أو العجوز التى لا تدرى أين دفنت جثة ابنها ؟ كيف يمكن لهؤلاء الصبر والنسيان ؟ كيف يمكن للمعلم الذى يعلم أنه لن يرى بعد أكثر تلاميذه ذكاء ونجابة أن ينسى ؟ كيف يمكن للطبيب الذى يرى مريضه ينزف حتى الموت دون أن يستطيع أن يمده بالدم أن ينسى ؟ كيف يمكن للتاجر الذى فقد أشرف من يتعاملون معه أن ينسى ؟ كيف يمكن للصديق أن ينسى صديقه ؟ كيف ؟ وكلهم يعلمون لماذا فقدوا أحباءهم ومن أجل من ؟** (٤٤)

وهكذا كانت النتيجة : إن كل شهيد من شهداء يوم الجمعة الأسود خلق عشرة فدائيين وأثار حمية مائة شخص وحرك ألف شخص وأيقظ عشرة آلاف شخص ، فلم يمر وقت طويل حتى وجد النظام نفسه فى مواجهة كل الشعب ،

وأدرك الحقيقة المرة وهى أن المدافع والدبابات لم يعد لها أثر بعد ، وأن الحكم العسكرى والأحكام العرفية أصبحت مجرد ألفاظ دون أى محتوى أو معنى .

لقد واجهت الأكثرية الغالبة من الناس ماهية النظام السفاحة التى لا تقبل التسامح أو المصالحة ، فالقتل الذى تم بخسّة لآلاف الناس ومنهم النساء والأطفال قد جعل آلاف الناس مستعدين للشهادة ، لقد أدرك الثوار أنهم إن انسحبوا من الميدان وأنه إن ظهرت عليهم أمارات الرعب فإن النظام لن يرحم أحداً وسوف يقوم بعدها بتصيدهم الواحد بعد الآخر .. ومن خلال المذبحة ظهر أول صدُع فى الحصن الحصين الذى يحتمى به النظام وهو الجيش عندما صوب أحد الجنود رشاشه نحو قائده فقتله ثم انتحر ، لقد أعطت هذه الحادثة شعاعاً من الأمل فى أنه من الممكن أن ينضم الجيش إلى الشعب .

وكان للفضيحة بالطبع بعدها العالمى ، ولوثت رئيس الولايات المتحدة صاحب سياسة حقوق الإنسان والذى يحرص على إلقاء الموعظة فى كنيسته كل يوم أحد ، فإلى جوار أنه قد تأكد أنه كان ضالعا فى المذبحة وأنه ألقى إشارة الضوء الأخضر للشاه قبل تنفيذها ، كان كل فرد فى إيران يعلم أنه لولا تأييد رئيس أمريكا لما وجه الشاه جيشه نحو شعبه ، لكن لم يكن كارتر وحده هو الذى يلام لولا أن السلاح الذى ضرب به الشعب كان أمريكياً ، فالتأييد قدمته الصين أيضاً فى المعمعة بزيارة وزير الخارجية الصينى ، والسوفيت بسكوتهم المريب ، وديستان الذى بالرغم من شجبه للمذبحة إلا أن أحداً لم يكن ينكر أنه صديق ، كان سهم المبشر الأمريكى فوق كرسى الرئاسة ونصيبه من الاتهام أكبر ، وكانت أنباء مكالمة كارترية للشاه فى اليوم التالى للمذبحة تتردد فى طول إيران وعرضها فتزيد الشكوك والريب حول الدور الأمريكى فى المذبحة . (٤٥)

وبالطبع كانت الضحية الأولى لمذبحة الجمعة السوداء هى سياسة المصالحة ، فقد وصلت الحكومة إلى نقطة اللاعودة ، وكان منح الثقة لحكومة شريف إمامى بعد المذبحة وسكوت وزير العدل والنائب العام على هذه الفضيحة العالمية قد أثبتا بما لا يدع مجالاً للشك أن السلطتين التشريعية والقضائية ليستا

إلا ألعوبة فى يد السلطة التنفيذية ، ووضعت الرقابة العسكرية ظلها الأسود على الصحف والأنباء ، بينما أشيع أن الشاه يضع برنامجاً لمحاربة الفساد فى الأيام التالية ، أما النتيجة العظمى للمذبحة فهى أن العناصر التى كانت قد استبشرت خيراً بحكومة **شريف إمامى واشتركت فى ألعوبة الأحزاب التى لم تكوّن هى التى دفعت الثمن أولاً فإن حملة الاعتقالات التى تبعت الجمعة السوداء لم تترك أحداً من هذه العناصر ، لقد فتكت حكومة شريف إمامى فى غضبتها الدموية بأولئك الذين كانوا على استعداد لأنصاف الحلول والتفاهم ، بالثوار المثقفين الذين يقلقهم منظر الدم والذين كانوا لا يزالون على بعض الثقة بالنظام** ، فتم القبض على آية الله روحانى وآية الله نورى الذى ألقيت عليه تبعة تحريك الجماهير وإخراجهم إلى ميدان ژاله بينما من المؤكد أنه وصل إلى الميدان بعد تجمعهم وبهدف حمايتهم كما ألقى القبض على عدد كبير من رجال الدين الأقل شهرة ، وتم اعتقال عدد كبير من أقطاب الجبهة الوطنية مثل حاجى مانيان زعيم السوق وكريم سنجابى وداريوش فروهر ومتين دفترى حفيد مصدق ولاهيجى وعلى أصغر حاجى سيد جوادى وكلهم من أعضاء جمعية الدفاع عن حقوق الإنسان التى كانت تشكلت أخيراً فى إيران . (٤٦)

وبالقبض على كل هذه الوجوه والشخصيات بعد إعلان سياسة المصالحة ، **حطمت حكومة المصالحة جسراً آخر من الجسور التى كان ينبغى أن تحافظ عليها ، وبصقت فى البئر الذى احتاجت إلى الشرب منه فيما بعد ، ودخلت فى صراع علنى مع الجناح الذى كان يجب أن يعامل معاملة خاصة ، وهكذا : أتى الشاه بشريف إمامى لينقذه ، فلم يفعل شريف إمامى أكثر من أنه عزل الشاه وتركه وحيداً بعد العاصفة معتمداً على جناحيه التقليديين : الجيش والساواك** ، ولا شك أن الشاه لم يكن يريد أن يعتمد علناً على هذين الجناحين ، وأن يكون وجوده ووجود نظامه رهن حماية سفاح طهران غلامرضا أويسى ، فإن هذا المظهر لم يكن ليتفق قط مع سياسة حقوق الإنسان التى كانت أمريكا تنادى بها ، ثم إن هذا سوف يضع إيران ونظام إيران فى صف واحد من الديكتاتوريات العسكرية الصريحة ، وهذا مالا يتفق مع سياسة أمريكا المعلنة على الأقل .. **ومن ثم كان الشاه نفسه واحداً من ضحايا الجمعة السوداء** (٤٧)وفى خلال شهر واحد تعرضت حكومة المصالحة للتعديل ثلاث

مرات ومع ذلك كانت فى كل مرة تحوز ثقة المجلس النيابى ، بينما أعلنت القوى الوطنية كلها أنها لا تعترف بالمجلس النيابى الذى يمنح الثقة لحكومة الجمعة السوداء ، وكان هدف المظاهرات التى اشتعلت فى جامعة طهران وفى عيلام وسارى والأهواز وكرمانشاه وآمل وبوشهر ويزد وتبريز هو سقوط وزارة إمامى ، لم يكن إمامى نفسه على قدر من الثقة فى حكومته فقد صرح فى إحدى خطبه : **إننا نقوم بكل جهد لكيلا يسقط قتلى ، فلهؤلاء القتلى ذكرى أربعين وذكرى سنوية ، ولم يكن إمامى يجد ما يدافع به عن حكومته إلا أنها أفضل من أية حكومة عسكرية على كل حال ، بينما كانت الشائعات تملأ محيط إيران بأن حكومة إمامى قد استنفذت أغراضها وأنه لا بد سوف تخلفها**

حكومة عسكرية ، فالجيش هو القوة الوحيدة التى كانت تفعل فعلها فى إيران منذ مذبحة الجمعة السوداء ، وحين أرادت حكومة إمامى أن تتقرب من الشعب مرة أخرى ببعض التصفيات فى جهاز الساواك وإعطاء بعض الحرية للصحف عجلت فى عمرها ، فقد كان من نتيجة **حرية. الصحافة أن بيانات آية الله الخمينى قد أخذت تنشر فى صحف النظام نفسها** ، ولعل هذه الفقرة التى نشرتها جريدة « پيغام امروز » تمثل خير تمثيل سياسة حكومة جعفر إمامى فى الأسابيع الثمانية التى مكثتها بعد مذبحة الجمعة السوداء،« **ترى ماذا يحدث فى إيران حتى نرى مانراه الآن ؟ فالحكومة تفرج عن المسجونين السياسيين ثم تسلط عليهم حملة الهراوات ، وتحاول التقرب من علماء الدين ومع ذلك تحرق المساجد بمن فيها ، وتتحدث عن حرية الفكر ورفع القيود عن الجامعات وما يحدث فى المؤسسات العلمية من فضائح لا يمكن السكوت عليه ، وفى الظروف التى استجدت ، فإن وجود حكومة عسكرية أو عدم وجودها لن يغير شيئاً من رعب الأيام السوداء القادمة** »،وحين أرادت الحكومة أن تتقرب أكثر من الشعب ، قامت برفع كل الأجور والمرتبات فى الدولة لكن هذا لم يمح غار الجمعة السوداء .

وحتى قبل تولى الحكومة العسكرية وإعلان برنامج الفساد ، نشرت جريدة رستاخيز نفسها وهى لسان حال حزب رستاخيز المنحل بياناً لآية الله الخمينى ولقاءات مع قادة النضال فى إيران . كان البيان الذى أصدره الإمام موجهاً إلى

كل فئات الشعب الإيراني يطلب منهم الصمود في مواجهة النظام ، كان بياناً شاملاً للطلاب والكتاب والقوى العسكرية والمسجونين السياسيين ، وأبرزت الصحيفة التي كانت تمجد النظام بالأمس القريب قول الإمام لمراسل النيوزويك : إن جماهير إيران تكتفي بالمظاهرات حتى الآن ، لكنها سوف تلجأ إلى وسيلة أشد عنفاً إذا استدعى الأمر ، وأنه قادر تماماً على سحق النظام وهو في منفاه ، كما أبرزت الصحيفة فشل الوساطة التي قام بها كريم سنجابي ومحمود مانيان رئيس النقابات وحسين مهديان أحد مؤسسي حسينية الإرشاد لدعوة الإمام إلى مفاوضات بينه وبين النظام ، وأبرزت أن هؤلاء الثلاثة قد عادوا من مهمتهم وهم أشد عنفاً في معاداة النظام ، وقد أعلن سنجابي أن الجبهة الوطنية سوف تناضل تحت زعامة الخميني ، كما دخلت جبهة تحرير إيران تحت زعامته .

ونتيجة للسخط العام ، فإن النظام قام لكي يصرف الأنظار والأفكار عن الكارثة ويحد من حجمها وعواقبها في الرأي العام بتحمل نشر بعض فضائح النظام نفسه في الصحافة وفي المجلسين وذلك عن طريق نواب أعدوا بعناية لكي يظهروا في صورة الثوار وذلك لامتصاص الثورة ، وهذا التصرف إن دل على شيء فهو يدل على أن النظام لم يعد يدري ماذا يفعل ، فإن الشعب بدلاً من أن ينصرف عن الكارثة أصبح أكثر وعياً ، فقد كان أكثر ما يقال يعتبر يوماً ما عند الشعب في حكم الإشاعات ، أما الآن فالنظام نفسه هو الذي يعترف ، والإشاعات تأكدت وثبتت ، وأدرك الشعب أن المذبحة حلقة في سلسلة سابقة ولاحقة ، فكل ما ينشر في صحف النظام مما لا يصدق .

وكان زلزال طبس في ٢٥ شهريور (١٦ سبتمبر) ضغثاً على إبالة ، ليس فحسب لأن مركزاً من مراكز رصد الزلزال في الإتحاد السوفيتي كان قد أنذر الحكومة الإيرانية قبل وقوعه بعدة شهور ، ولم تقم الحكومة بأدنى إجراء لمواجهته ، بل أيضاً لأن هذا الزلزال قد أبدى بجلاء إلى أي مدى قد تفشى الفساد والإهتراء في المجتمع الإيراني ، فإن جمعية الأسد والشمس الحمراء (الهلال الأحمر الإيراني) لم تقم بأدنى نشاط لإغاثة منكوبي الزلزال ، وأعاد هذا إلى الأذهان ما حدث بالأمس عندما كفت نفس الجمعية مساعداتها عن

ضحايا الجمعة السوداء ، **أما مساعدة الشاه شخصياً لضحايا الزلزال فتمثلت في ثلاثين ألف كيلو جرام من الأرز والسكر والشاى تبلغ قيمتها كلها حوالى ثلاثين ألف جنيه** ، ولنا أن نتصور بماذا كان يمكن للشاه أن يتبرع لمنكوبى شعبه إذا لم يكن يريد التقرب منهم ، وقد زكمت الفضيحة الأنوف عندما اشترى أحد المواطنين جوالاً من السكر فوجد فى داخله بطاقة تشير إلى أنه ليس للبيع وأنه هدية من إحدى الدول لمنكوبى الزلزال .

والآن وقد تحدثنا عن نتائج الجمعة السوداء ، نستطيع أن ندرك الإطار الذى انعقدت فيه الزعامة لآية الله الخمينى ، وكيف قرر القادة صورة النضال للمرحلة القادمة أى المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل الثورة ، **كان النظام ينتظر بعد فاجعة الجمعة السوداء أن تفقد جماهير الشعب أعصابها وأن يطرح الحل العسكرى ويعلن الجهاد ، وكان النظام ممثلاً فى عمده الثلاثة: «أويسى» «وازمون» «وثابتى» ينتظر هذه الفرصة لكى يصل الثوار بأقدامهم إلى المذبح ، وحتى يستطيع النظام أن يجد الذريعة للقيام بمذبحة أخرى تنهى الأمر تماماً ، لقد أعلن النظام الحرب الساخنة فى مواجهة الحرب الباردة التى أعلنها الثوار** ، وأخذ يروج بين الجنود الغرور العسكرى وعشق السلطة فى مواجهة النخوة الوطنية وشعارات احترام علماء الدين والمطالبة بالعدالة واحترام حقوق الإنسان .

وهنا يتجلى بعد آخر من أبعاد شخصية آية الله الخمينى العظيمة ، لقد أدرك بحاسته السياسية الفائقة ما يريده النظام ، فلم يمكنه من هذه الفرصة ، كان الصحفيون العالميون الذين أدركوا أن مفتاح الموقف فى يد هذا الشيخ المنفى وأنه أكثر سلطة ونفوذاً من الجالس على عرش الطاووس يسألونه مراراً : متى يعلن الجهاد المقدس ؟ وكان من الممكن لو كان آية الله الخمينى شخصاً عادياً أن تسكره السلطة والشهرة والإحساس بأن فى يده مصير شعب بأكمله ، لكن متى كان الإمام من الذين تسيطر عليهم هذه النزوات ؟ كان يدرك تماماً أنه إن دخل مع النظام فى مواجهة عسكرية فسوف يكون مسئولاً عن آلاف الأرواح التى سوف تزهق ، وأنه بدلاً من أن يضم الجيش إلى الثورة سوف يدفعه دفعاً إلى الدفاع عن النظام ، وإلى جوار ذلك رد الإمام على مندوب التليفزيون

الإيطالى عندما سأله : متى تقوم الحرب الأهلية فى إيران ؟ **إن الحرب الأهلية تقوم فى بلد ما عندما تنقسم هذه البلد إلى فئتين ، لكن شعبنا فئة واحدة ضد الشاه**.(٤٨)

ومن هنا بدلاً من أن يأمر الإمام بمهاجمة يد النظام الحديدية ، قرر أن يهاجم العمود الفقرى للنظام أى مؤسساته الإقتصادية والإدارية ، ففتح جبهة القتال فى ميدان لم يكن النظام يتوقعه : ميدان الاضرابات العامة فجندل النظام بأقل الخسائر الممكنة ، وجعل الشاه يجثو على ركبتيه كما سنرى بالتفصيل فى الفصل التالى .

الفصل الثالث

انهيار الطاغوت

« اعلموا أنى إلى جواركم فى ثورة شعب إيران
على الظلم والفساد »

محمد رضا شاه

ربما كان أحد جوانب عبقرية آية الله الخمينى أنه كان متفهماً لكل عناصر النظام الذى يواجهه **فبدأ حرب الإضراب أو حرب الأعصاب بالمعنى الأصح من نقطة تعد الشريان الأصلى للنظام ونقطة التقائه الأساسية مع الإستعمار الجديد والإمبريالية الأمريكية أى صناعة النفط ، كان الإمام يريد بالطبع أن ينقل نداء الثورة الإيرانية ، ليس إلى كل بيت في إيران فقد تكفلت الجمعة السوداء بذلك ، بل كان يريد أن ينقل نداء الثورة إلى كل بيت في العالم ، كان الهدف هذه المرة أن يفقد النظام هيبته تماماً أمام العالم تمهيداً لإسقاط الشرعية عنه فيما بعد ،كان الهدف أن يفقد النظام السند الوحيد الذى يستند عليه وهو القدرة على السيطرة على منابع النفط ، وفى الوقت نفسه يفقد النظام مصدره المالى الذى يمول عملية القمع والذى يعتمد عليه في سياسة طول النفس** ... ومن هنا لم يكد يمر يومان على مذبحة الجمعة السوداء حتى بدأت الموجة الأولى من موجات الإضراب فى مصفاة طهران وفى خلال أقل من أسبوعين كان الإضراب قد وصل إلى معامل التكرير الكبرى فى عبادان ، ومن ثم إلى كل بيت ومصنع فى أوربا الغربية وأمريكا وإسرائيل .

وعلى الصعيد الداخلى كان لهذا الإجراء العبقرى أثره الفورى ، وكان رد

حكومة إمامى التى ولدت ميتة أنها مدت يدها إلى الإحتياطى وإلى الكمية المخصصة للاستهلاك الداخلى فصدرت منها إلى جنوب أفريقيا وإسرائيل ، وكانت بهذا الإجراء تريد القضاء على الحركة الشعبية ، لكن جو البلبلة الذى نتج عن انخفاض الطاقة والوقود كان له أثره الفعال فى نمو حركة الإضراب ، كيف ؟ من ناحية كان يشجع المصانع الصغيرة التابعة للقطاع الخاص على الإضراب ، فما دامت الحكومة هى التى عطلت العمل فلا بأس إذن من الانضمام إلى حركة الإضرابات ، ومن ناحية أخرى كان الشلل الذى أصاب الاقتصاد الإيرانى دافعاً إلى أن الآلاف كانوا يستيقظون صباحاً فيجدون أنفسهم بلا عمل بالفعل ، وكانت حكومة إمامى تريد أن تلقى بمسئولية الشلل الاقتصادى على كواهل حفنة « المجرمين » الذين حرضوا عمال النفط على الإضراب ، بينما كانت الجماهير تعلم من هو المجرم الحقيقى ، فتندفع فى موجات عارمة من المظاهرات العنيفة إلى الشوارع ، وكان الجيش بالمرصاد ، ومن ثم استمرت سلسلة المذابح الصغيرة فى كل أنحاء إيران ، وإن كان من الملاحظ أن مركز الثقل قد انتقل إلى العاصمة حيث كان يبدو للمراسلين الأجانب بجلاء تام الفشل الذى كانت تمنى به الحكومة يوماً بعد يوم ممن ظلت تصفهم حتى آخر لحظة بأنهم شرذمة من الخونة والعملاء والرجعيين .

ولجأت الحكومة إلى سلاح كان قد افتضح تماماً وفل من كثرة الإستعمال لمقاومة هذه الجبهة العامة التى كانت قد فتحت ضد الحكومة فى كل أنحاء إيران ، لقد صار الشعب فى حرب مع الدولة ، فقد أصبح المتظاهرون يهاجمون ولا ينتظرون الذبح وهم وقوف ، وأخذت صحافة الشاه تحرض ضد الثورة وهى لا تعلم فى الحقيقة أنه لا يوجد هناك من تحرضه ، أو تحرض الجيش ضد الثوار ، أو تستفز الثوار للهجوم على الجنود ، وبدأت الحكومة فى تنفيذ الطريقة الإيرانية على نطاق واسع ، فقد أخذ جهاز السافاك يشحن عملاء ، بالملابس المدنية فى هجمات منظمة على مؤسسات الدولة ، لكن طريقة « شعبان بى مخ » التى أفلحت فى أوائل الخمسينات منيت بإخفاق شديد فى أواخر السبعينات ، لقد بدأت هذه العصابات المنظمة فى الحرق والإغارة والتحطيم ، وكان الهدف خلق جو عام من الفوضى يمهد لإعلان حكومة عسكرية ، وبدأ

عملاء الساواك وجنود الجيش فى ملابس مدنية يهاجمون الناس بالهراوات فى كل مكان من بابل حتى كرمانشاه ، ولم يكن يمر يوم واحد دون صدام فعلى بين هؤلاء الشاهنشاهيين أنصار الشرعية كما كانوا يسمون أنفسهم وبين الجماهير التى نفد صبرها .. **ولولا حكمة آية الله الخمينى الذى كان يكرر فى بياناته التزام الصبر والصمود وضبط النفس لقامت الحرب الأهلية بالفعل فى إيران** ... كان عملاء الساواك يستفزون الناس ويقومون هم أنفسهم بإعداد جو الصدام كأن يقوموا بإنزال تمثال من تماثيل الشاه من فوق قاعدته فيتجمع الناس من حولهم ، وبلا سابق إنذار يقومون بالهجوم عليهم بوحشية ، كان الهدف الأكبر هو شق طريق فى هذا التكتل الشعبى يؤدى إلى المواجهة المسلحة .

وبالرغم من أن التنسيق المشترك بين جهاز الساواك ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية قد افتضح منذ البداية وبلغت الفضيحة فى بابل حد هجوم الجنود المدرعين لتخليص عملاء الساواك الذين احتجزتهم الجماهير فى محكمة بابل ، إلا أن النظام قام لكى يعلن حكومة الجنرال أزهارى العسكرية بمواصلة الخطة حتى النهاية ، وكان الهدف إحداث جو من الفوضى الشديدة فى العاصمة ، وقبل تنفيذ الخطة بيوم واحد وفى ١٣ آبان (٤ نوفمبر) حاصرت قوات الجيش الطلاب المعتصمين فى جامعة طهران وقامت من خارج الأسوار بإطلاق الرصاص عليهم فأردت العشرات منهم قتلى ، **ولم تكن هذه المذبحة المفاجئة إلا تمهيداً لإحراق طهران فى اليوم التالى ، وكان النظام يريد بمذبحة الجامعة إن يلقى بتهمة إحراق طهران على عاتق الثوار وكانتقام للمذبحة ، وقد افتضحت الخطة لأنها كانت شاملة ومتسعة ومتعددة الأطراف بحيث يصعب التكتم عليها فى هذا الجو ، وشاع أن السفير الأمريكى سوليفان قد اشترك فى وضع الخطة بالاشتراك مع عدد من الرأسماليين منهم رضا فلاح وعلى رضائى ، واضطر الساواك إلى إشراك البنوك فى المؤامرة لكى يجد فرصة لحفظ وثائقه الأساسية فيها ، كما افتضح الأمر الذى تلقته كل مراكز الشرطة فى العاصمة بالابتعاد عن الأحداث وعدم الوقوف فى وجه « الناس » ، كما جرد الحراس غير العسكريين كحراس شركة الغاز من**

أسلحتهم ، كل هذه التدابير فضحت الخطة فى مهدها فلم تكد النار تضرم فى بعض المبانى حتى هجمت الجماهير لا لإشعال النار والسلب والنهب كما كان يتوقع النظام بل لإخماد النار ، وسرعان ما انتشرت البيانات التى فضحت المؤامرة بالكامل ، واختفت أدوات التنفيذ تحت الأرض على الفور ، ولم يستطع حريق طهران المدبر إحراق شىء اللهم إلا حكومة إمامى التى كان عليها أن تختفى منذ زمن وفى أعقاب مذبحة الجمعة السوداء.(٤٩)

وقبيل ظهر يوم الإثنين ١٥ آبان (٦ نوفمبر) وعن طريق الاذاعة ، ألقى الشاه خطاباً إلى الأمة ، ولأول مرة ظهر صاحب الجلالة الشاهنشاهية آريا مهر (ومعناها شمس الآريين) الجالس على عرش الطاووس المتمتع بالعناية الالهية والمجد الهمايونى متخاذلاً ضعيفاً ، ولأول مرة أنعم بلقب الثورة على ما كان يعتبره بالأمس القريب فتنة من شرذمة من الخونة وقال بالحرف الواحد :

«إن ثورة إيران لا يمكن إلا أن تحظى بتأييدى بصفتى مواطناً إيرانياً ، لكن للأسف حدث فى معمعة الثورة من الدسائس وسوء استغلال الآخرين لعواطفكم وغضبتكم ما أدى إلى الهرج والمرج والفتنة ... إن موجة الإضرابات ومعظمها على حق قد غيرت وجهتها أخيراً حتى تشل عجلة الاقتصاد اليومى للدولة ، وحتى جريان النفط الذى ترتبط به حياة هذه الأمة قد قطع وحتى لا تتوفر الاحتياجات اليومية للناس ، إن انعدام الأمن والهرج والثورة والقتل أمور قد انتشرت فى أنحاء وطننا بحيث أصبحت تهدد هذا الوطن بالخطر ، وإن الأحداث المؤسفة التى أدت إلى حرق العاصمة بالأمس لم تعد تحتمل بالنسبة للشعب والأمة ، وعلى اثر استقالة الوزارة ومن أجل الوقوف فى وجه تدهور المملكة وضياع الوحدة الوطنية ، وبهدف إقرار دولة القانون واستعادة النظام والإستقرار بذلت كل جهدى لتشكيل وزارة ائتلافية ، لكنى وبكل أسف بمجرد أن اكتشفت عدم إمكانية تشكيلها اضطررت لتكوين حكومة مؤقتة ، وأنا على علم بأنه من الممكن أن تتكرر الأخطاء الماضية والضغوط والإختناق بحجة إخماد الفتن والهرج والمرج ، وأنا أعلم أيضاً أنه من الممكن أن يحس البعض أنه باسم المصالح القومية وتقدم الأمة وبالضغوط إياها سوف يتجدد الخطر والخوف من أن يتكرر الحلف غير

المقدس بين الفساد المالى والفساد السياسى ، لكنى وأنا ملككم الذى أقسمت بأن أحافظ على كل أراضى المملكة فى وحدة وطنية وأن أحافظ على المذهب الشيعى الإثنى عشرى أكرر قسمى أمام الأمة الإيرانية وأتعهد ألا تتكرر أخطاء الماضى وانعدام القانون والظلم والفساد وسوف تعالج الأخطاء من كل النواحى ، وأتعهد بأنه بعد إقرار النظام والهدوء وفى أقصر وقت ممكن سوف تتشكل حكومة قومية لمنح الحريات السياسية وإجراء انتخابات حرة حتى ينفذ الدستور الذى نلناه بدمائنا فى الثورة الدستورية تنفيذاً كاملاً ، وأنا بدورى سمعت أيضاً نداء ثورتكم يا أبناء شعب إيران وأنا حارس على الملكية الدستورية وهى عطية إلهية فوضت من طرف الأمة إلى الشاه ، وأنا ضامن لما حصلتم عليه بدمائكم ..... وإننى هنا أطالب حضرات الآيات العظام وهم قادة الأمة الروحيين والدينيين وحراس الإسلام فى صورته الشيعية الاثنى عشرية أن يجاهدوا بإرشاداتهم فى دعوة الناس إلى الهدوء من أجل الحفاظ على الدولة الشيعية الوحيدة فى العالم ... إننى أناشد القادة الفكريين الشبان أن يقوموا بدعوة الناس إلى الهدوء والنظام وأن يقوموا بالتمهيد لنضال أصيل من أجل إقرار الديموقراطية الحقيقية ، اننى أناشدكم أيها الآباء الإيرانيين وأيتها الأمهات الإيرانيات يا من تحسون بالقلق على مستقبل إيران ومستقبل أبنائكم أن تقوموا بمنعهم من الاندفاع وراء عواطفهم والإشتراك فى الفوضى والهرج ... إننى أناشدكم أيها العمال والموظفين أن تبادروا بسعيكم وجهدكم إلى تحريك عجلات اقتصاد الوطن حتى نستطيع بنشاط أكثر أن نحافظ على إقتصاد بلدنا ونقوم بإحيائه ... إننى أريد منكم أيها المواطنين الأعزاء أن نفكر جميعاً فى إيران ، وفى هذه اللحظات التاريخية الحاسمة اتركونا جميعاً نفكر فى إيران ... واعلموا أنى إلى جواركم فى ثورة شعب إيران على الظلم والفساد ، وسوف أكون إلى جواركم من أجل الحفاظ على وحدة الأمة ووحدة أراضى الوطن وحدة لا تتجزأ وحفظ شعائر الإسلام وإقرار الحريات الأساسية والنصر وتحقق كل مطالب الشعب الإيرانى وأهدافه ومثله (!!!!!!) » (٥٠) .

بالتعبير الإيراني : آفرين (عفارم) ، أحسنت ، بارك الله ، حتى ولو كان سيادة الشاه صادقاً (ولم يكن كذلك كما سنرى) فإن هذا الخطاب الذى لا يحتاج إلى تعليق جاء فى غير أوانه تماماً ، لقد بدأ الشاه فى سياسة إطعام التمساح بتعبير النيوزويك ، فاما أنه كان يدرى أنه المقصود والمطلوب فى هذه المرحلة وقرر التجاهل ، وإما أنه كان يحاول أن يكسب الوقت حتى يعد لسياسة قمع جديدة وبأسلوب جديد ، كان هذا الخطاب متأخراً ، وكان أكذوبة جديدة يحاول أن يهون بها على الناس فرض حكومة عسكرية ، ولم يكن يعلم أن الناس كانوا قد استعدوا تماماً لأسوأ الظروف وأبشع الإجراءات ، النتيجة الوحيدة الإيجابية لهذا الخطاب الذى يعد من أخطر تطورات الثورة الإيرانية ، هى أن الشاه حين حاول التظاهر بالانضمام للشعب لم يقبله الشعب ولم يكن من الممكن أن يقبله ، وفى نفس الوقت **فإن الشاه بهذا الخطاب قد قام بنشر الروح الانهزامية فى معسكره وما تبع هذا الخطاب من إجراءات سماها الشاه « محاربة الفساد » جعل معسكر الشاه يفقد الثقة تماماً فى النظام الذى بدأ يأكل أبناءه من أجل أن يحمى « فرداً »** .

ومن ثم فمنذ أن تولت حكومة أزهارى العسكرية ، بدأت الأحداث تتطور بسرعة شديدة نحو النتيجة الحتمية ، فلم يعد أحد يريد أن يضحى بنفسه من أجل نظام يعلم تماماً أنه آيل للسقوط فضلاً أن يدافع عنه ، فإن السمة البارزة للفئة التى تستفيد من النظم الفاسدة هى الهرب بما قد غنمت والسفينة موشكة على الغرق ، فضلاً عن أن هذه الفئة غالباً ما تكون الرفاهية الزائدة عن الحد قد قتلت فيها كل إحساس بالصمود أو النضال ، ومن هنا بات الشاه وحيداً تماماً : فلا الشعب قبله وقبل توبته المزعومة ، ولا الفئة المستفيدة منه باتت تثق فيه فقد أصبح فى نظرها ولأنها صدقته أخطر عليها من الجماهير .

واتخذت حكومة أزهارى العسكرية على عاتقها مهمتين متناقضتين تماماً : مهمة القضاء على الثورة ، ومهمة تطهير الجهاز الحكومى ، وبينما خطت خطوات واسعة فى المهمة الثانية انطلاقاً من برنامج محاربة الفساد الذى وضعه الشاه وتقاعست حكومة إمامى فى تنفيذه **لأنها على حد تعبير الثوار لم تكن تدرى على من تقبض بتهمة الفساد وتترك من** ، وحين تولت حكومة أزهارى

كانت القوائم جاهزة ، وكان أبرز الخراف الذين قدمتهم الحكومة عباس هويدا رئيس الوزراء لثلاث عشرة سنة وفيلسوف الثورة البيضاء ثم وزير البلاط فى حكومة آموزگار ، ولم تكن العناصر الشعبية تتوقع خروفاً بهذه الضخامة ، وسرعان ما لحقه قطيع من الخرفان « السمان » فقبض على اثنى عشرة شخصية أخرى من النجوم اللامعة فى نظام الشاه ومن الذين كانوا على رأس النظام العسكرى والأحكام العرفية فى طهران ، كما قبض على منوجهر آزمون ونعمت الله نصيرى (رئيس الساواك المتقاعد) وداريوش همايون المتحدث باسم الحكومة ولسانها وأحد مستشارى النظام العظام طيلة الخمس عشرة سنة الأخيرة ، وتبعهم عدد من العاملين فى البلاط من رؤساء التشريفات والياورات والحرس الخصوصيين كما أعلنت قائمة بالممنوعين من السفر تحتوى فيما تحتوى على أسماء خمسة من الوزراء وعشرين من وكلاء الوزراء وتبع هذه الموجة إعلان تأسيس ديوان للعقاب (ديوان كيفر) لمحاكمة المقبوض عليهم ، ولم يكد يمر أسبوع حتى اتسعت القائمة لتشمل حوالى ثلاثمائة شخص من الذين كانوا يشغلون المناصب العليا فى حكومات هويدا وآموزگار وإمامى وتضم خمسة عشر وزيراً من الوزارات السابقة وخمسة وأربعين محافظاً(٥١) (من هنا نعلم أن أوائل من حاكمتهم الثورة فور انتصارها وأعدمتهم كانوا من الذين أدانهم نفس النظام الذى خدموه وقبض عليهم وقدمهم إلى الثورة) .

كانت هذه الحملة فى حد ذاتها معولاً فى هدم النظام فقد كان الجميع يعلمون أن هويدا والمقبوض عليهم كانوا مجرد أدوات فى أيدى النظام الفاسد ، وأن محاكمة الأداة دون محاكمة الأيدى التى تحركه نوع من النفاق الذى لا ينبغى أن تخدع به الجماهير ، وكان تعليق القوى الثورية على طرد أربعة وعشرين من كبار ضباط الساواك على رأسهم ثابتى وإحالتهم إلى الإستيداع **أن هؤلاء لا يستحقون العزل بل يستحقون القتل** ، واتضح فيما بعد – وكما سنرى – أن كل ما تم كان مجرد تمثيليات لم يكن لها من نتيجة إلا إضافة عدد من المترددين والخائفين إلى صفوف الثوار ، واتضح تماماً صدق ما كان يشيع عن هؤلاء حتى فيما يختص بالفضائح الأخلاقية ، ومن ثم فقد وفر النظام

على الثوار مهمة فضح عمده لكى ينصرفوا إلى خطتهم فى مواصلة الإضرابات وتوسيع نطاقها . وكان إعلان الشاه عزمه على أن يطلب من أسرته تقديم إقرارات عن أموالهم هو الجانب الفكاهى فى هذا الإطار القائم من السواد .

نعود إلى الثوار : قبل أن يفيق النظام من الصدمة الأولى لإضراب عمال النفط بدأت الموجة الثانية من الإضرابات وشملت السكك الحديدية وشركات المياه والبنك الوطنى الإيرانى ، (٢٨ شهريور - ٩ مهر / ١٩ سبتمبر - أول اكتوبر) ، أما الموجة الثالثة فقد بدأت بمظاهرات طلاب كرمانشاه ومعلميها ومظاهرات خرم آباد ، (١١ - ١٣ مهر / ٣ - ٥ اكتوبر) ، وبلغت أوجها بإضراب كل الجامعيين والمثقفين والمعلمين فى ١٥ مهر (٧ اكتوبر) ، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً لم يمر يوم دون أن تضرب إحدى الإدارات أو المؤسسات فامتدت شرارة الإضراب إلى وزارة الاقتصاد والمالية وبعدها إلى مؤسسة التخطيط والميزانية والبنك المركزى هذه الأركان المالية الثلاثة الركينة للنظام المالى للحكومة كلها تفسخت دفعة واحدة ، ولم يمر وقت طويل حتى أغرق طوفان الإضرابات كل مؤسسات الحكومة وأركانها (اللهم إلا القوات المسلحة والساواك ورئاسة الوزراء والبلاط) .

وفى فترة قليلة امتدت إضرابات العاملين فى الدولة إلى العاملين فى القطاع الخاص ، فلم يكن يمر يوم دون أن تعلن إحدى الشركات إغلاق أبوابها حين تفاجأ فى الصباح أن عمالها وموظفيها قد قبعوا فى بيوتهم ، بل وهجر الفلاحون المزارع التى كانوا يقومون بالعمل فيها لحساب الدولة ، وبالطبع كان السوق مغلقاً منذ الجمعة السوداء ، كان النظام قد ألقى سلاحه تماماً بخطاب الشاه الذى سبق ذكره وبحملة محاربة الفساد ، وبمجرد أن ظهرت بوادر حكومة الجنرال أزهارى فى الأفق لم تتأكد قيادة الإمام الخمينى فحسب بل واكتسبت أيضاً صفة العالمية ، كانت هجرة الإمام من النجف إلى فرنسا (٢٤ سبتمبر) بعد محاصرة منزله فى النجف بالجنود العراقيين سبباً فى أن سهم النظام لم يصب هدفه وبدلاً من أن يضعف موقف الإمام قوى منه ، كما أن سفر سنجابى وبازرگان إلى باريس ولقائهما بالإمام الخمينى واتفاقهم على إعلان عدم شرعية النظام الشاهنشاهى فى إيران قد قوى من مركز الإمام فى القيادة ، وأصبح من

الواضح أن النظام الشاهنشاهى هو الهدف المباشر ، وأن هذا الهدف وحده من الممكن أن يحمل فى طياته كل أهداف الثورة ، وثبت بالدليل القاطع أنه لا يمكن للثورة أن تدوم ولا لأى جناح من أجنحتها أن يحرز توفيقاً إلا إذا انضم تحت قيادة الإمام وظفر بتأييد الإمام ، وكان هذا فى حد ذاته دفعة جديدة للثورة إلى الأمام فإن توحيد القيادة وتوحيد الأهداف فى هذه المرحلة التى بدأ النظام يمارس فيها سياسته ذات الوجهين بحذر شديد كان أمراً ضرورياً وحيوياً .

بينما كان النظام يمارس سياسة محاربة الفساد ويقبض على عمده ، كانت حكومة أزهارى تقوم بمواصلة سياسة المذابح والقمع ، بل واتضح أن هدفها منذ البداية كان إغلاق الفجوة التى كانت حكومة إمامى قد سمحت بها للصحافة والإعلام بعد الجمعة السوداء ، فهذه الرخصة فى رأى حكومة أزهارى قد أسىء استعمالها كثيراً إلى حد أن الصحف والمفروض أنها صحف تتبع النظام كانت قد أخذت فى الترويج للثورة وفى نشر المقالات عن حروب المدن وصنع زجاجات المولوتوف والقنابل وإقامة المتاريس ، بينما عرض التليفزيون الإيرانى الفيلم الذى التقط يوم الجمعة السوداء ويوم مذبحة جامعة طهران ، بل إن صحيفة « آيندگان » التى يملكها داريوش همايون المتحدث باسم النظام كانت قد فاقت الجميع فى الهجوم على النظام وبالتعبير الإيرانى قد قطعت الطريق الذى ينبغى أن يقطع فى مائة سنة فى عدة ليال ، ومن ثم لم تكد حكومة أزهارى تتولى السلطة حتى احتلت قوات الجيش دور الصحف الكبرى (اطلاعات وكيهان ورستاخيز وآيندگان) واعتقلت عدداً من المحررين ، فما كان من نقابة الصحفيين إلا أن اجتمعت وقررت إضراب الصحافة ، وبدأت الصحف الكبرى إضرابها الطويل (الذى بدأ ٧ نوفمبر وانتهى فى ٦ يناير) بينما وقفت الساحة الصحف الجديدة التى كانت أخذت ترخيص النشر فى أواخر عهد حكومة إمامى ، وكان من المعروف أنها كلها تتحدث بلسان الثورة ، فحتى الصحف القديمة التى كان صدورها قد أوقف ما يقرب من عشرة سنوات (منها مجلات فردوسى وسبيدوسياه وجرائد جوان مردان ومهر إيران وستارهٔ إسلام ومرد مبارز وجوان وارادهٔ آذربيجان)،

كان من المعروف إلى أى جانب تقف ، وبينما حاولت الحكومة أن تعوض بسيطرتها التامة على الإذاعة والتليفزيون ، فوت عليها إضراب عمال إدارة الكهرباء الفرصة تماماً ، **فقد كان الإضراب مؤقتاً لمدة ساعتين كل ليلة وفى نفس الوقت الذى تذاع فيه نشرة الأخبار الحكومية .**

إن البعد الصحفى لثورة إيران يعد من أهم أبعادها العظيمة ، فلأول مرة فى الثورات المعاصرة تنضم الصحافة بكل ثقلها وبكل ما لها من دور عظيم فى توجيه الرأى العام إلى الثورة ، فإن مجرد عدم صدورها يعد انضماماً إلى الثورة ، فقد جرد النظام فجأة من لسانه ، وبينما كانت أنباء الضربات التى تكال له عن طريق الإضرابات يوماً بعد يوم تنتشر فى طول البلاد وعرضها عن طريق الصحف المستقلة والنشرات الثورية والمنشورات ، وبينما كانت جرائم النظام تصور بكل تفصيلاتها ، وبينما كانت لقاءات الإمام مع ممثلى الصحافة العالمية تترجم على الفور وتوزع فى كل أنحاء إيران وتنشرها الصحف المستقلة بحذافيرها وتعليقاتها ، كان برنامج محاربة الفساد الذى يحاول النظام عن طريقه إنقاذ ما يمكن إنقاذه لا يجد أى دعاية ، وكان يجرى وكأنه يجرى فى الخفاء أو فى دولة أخرى لا يعلم أحد عنه شيئاً ولا يأبه به أحد ، **والآن جاء دور النظام فى أن يجرب القهر والصمت ، كانت الإضرابات تكيل الضربات التى لا ترحم لبنيته الإقتصادية والمالية ، وكان إضراب الصحافة والوعى الحاد بقيمة الخبر والنبأ فى وسائل الإعلام الأخرى يجعل الثورة وحتى قبل انتصارها النهائى هى المسيطرة بالفعل على عقول الجماهير بعد أن سيطرت على عواطفهم قبل ذلك** ، كان واضحاً أن الثورة وحدها فى الساحة .. أما كل ما كان النظام يقوم به فلم يكن أكثر من سعى الذبيح (تلاش مذبوحانه) قبل أن يلفظ النفس الأخير ، وهكذا أثبتت الصحافة خلال ثورة إيران أنها « السلطة الرابعة » بالفعل ، لكنها كانت التجربة الأولى فى التاريخ المعاصر على كل حال .

أما نداء الشاه إلى آيات الله بأن يبادروا ويطلبوا من الناس الهدوء فلم يقابل إلا بالسخرية ، وكانت الإجابة المباشرة بياناً من آية الله الخمينى (٧ نوفمبر)

ورد فيه مصطلح **الجمهورية الإسلامية لأول مرة ، وأعلن أن الهدف هو طرد أسرة بهلوى ، أما الوسيلة فهى الإضرابات فى كل أنحاء البلاد كما أعلن أن الحكومة العسكرية حكومة غير قانونية وغير شرعية** ، ووجه الإمام شكره إلى كل العمال والموظفين الذين أضربوا ، وقال أن الإضرابات واجب إسلامى كما فضح توبة الشاه المصطنعة ، لأن هذه التوبة لم تمنع حكومته من مهاجمة الناس وقتل المزيد منهم ، وذكر الشاه بالأمس القريب يوم أن كان يسمى علماء الدين الرجعية السوداء والرجعية المتعفنة ، ويوم كان يعتبرهم ألد أعدائه ، وكيف بعدها يطلب من رجال الدين أن يثقوا فيه بعد كل هذه الجرائم التى ارتكبها فى حقهم وحق الإسلام ، وما الضمان الذى يمكن أن يقدمه لكى يثقوا فيه ؟ إنه يقسم مرة ثانية ، لكن الذى حنث بالقسم مرة يمكن أن يحنث فيه مرة أخرى ، إن الرجل الذى حول ساحات الجامعات إلى مذابح هو الذى يطلب من شباب الجامعات أن يثقوا فيه ، وختم الإمام بيانه إلى الشعب فأوصاه بألا يخاف من الحكومة العسكرية ، إن على الشباب والمعلمين والطلاب والموظفين والعمال والمثقفين أن يواصلوا الطريق الذى بدأوه وألا يخدعوا ثانية من وعود الشاه ومن أحاديثه ، كما وجه نداء إلى الذين لم ينضموا بعد إلى الثورة بأن ينضموا إليها فهى لا محالة منتصرة . (٥٣)

وفى ١٥ نوفمبر وجه الإمام رسالة إلى عمال النفط المضربين « الذين شرفوا الأمة بإضرابهم » ونبههم إلى الدور العظيم الذى لعبه إضرابهم العظيم فى دفع الثورة إلى الأمام وقال : **إن كل ساعة من إضرابكم خدمة لله ولدولة الإسلام ، وواجب الأمة الإيرانية النبيلة أن تؤيد إضراب عمال النفط ، وعليها أن تنضم إلى هذا الإضراب المقدس ، فالحكومة العسكرية التى جاء بها الشاه لتحميه شخصياً لن تستمر طويلاً ، وإن الخونة والعملاء يخوفون الناس من رحيل الشاه وما سوف ينتج عنه من فوضى وفراغ ، فأية فوضى هذه وأى فراغ يملؤه الشاه إلا جيوب الأجانب وجيبه وجيوب أقاربه ؟ وإن إرادة الله هى أن يعاقب هؤلاء إما آجلاً أو عاجلاً ، وإن أمريكا تهدد بأنها سوف تحاول حماية آبار البترول ومنابع النفط عن طريق تأييدها للشاه ، ولو تعرض إضراب عمال النفط الذين يريدون رحيل الشاه للخطر فإنهم يعلمون تماماً ما الذى**

سوف يقومون به .. وفى نهاية الرسالة وجه الإمام الشكر لكل الجماعات المضربة وطالب القادة الدينيين بأن يكون صوتهم أقوى ، وأن يجاهدوا فى مساعدة الفقراء على الصمود فهم الذين يعانون عواقب الإضراب ، وهم الصفوف الأولى من قوى النضال ، وعلى علماء الدين أن يمدوهم بالأموال التى تعينهم وذلك من الأموال الدينية (سهم الإمام) (٥٤) ... **ومن هنا نستطيع أن نفسر كيف صمد الشعب فى إضرابه طوال أسابيع وشهور ، فقد قام تجار السوق والأئمة الدينيون بواجبهم فى مدهم بالأموال ... وهكذا كانت الطبقات القادرة تبذل بسخاء ، ولم يجرؤ الشاه أو أى معلق أجنبى أن يتهم الثورة بأنها تمول من أجنبى أو من دول معينة أو من جهات معينة إلى غير هذه الاتهامات التى تضرب كل ثورة وهى فى المهد ، كانت الفئات غير المحتاجة ترفض المساعدة المادية وتحولها إلى من هم أحوج إليها ، وعندما وضع الإمام ثلاثمائة ألف دولار تحت تصرف نقابة الصحفيين عند إضرابها ، أعلنت أنها ليست فى حاجة إلى المبلغ وأنه تحت تصرف من يطلبه .**

وعندما باء استخذاء الشاه أو استسلامه بالفشل ، عاد سريعاً إلى طبيعته ، فقامت الأسرة المالكة بزيارة إلى النجف الأشرف (١٩ نوفمبر) ، كان الهدف المعلن هو زيارة الأعتاب المقدسة ، وهى فرصة بالطبع لترويج صور فرح وهى بالملابس الإيرانية التقليدية الملاءة والرأس المغطى وهى توقد الشموع فى أضرحة آل البيت وقد اكتسى وجهها بخشوع مصطنع ، أما الهدف الذى لم يعلن فهو محاولة استقطاب آيات الله فى النجف وعلى رأسهم آية الله خوئى وهو أحد مراجع الشيعة العظام إلى صف البلاط ومحاولة دفعه إلى الوساطة لدى آية الله الخمينى الذى أعلن أكثر من مرة أنه لا يقبل التفاوض ، وبالطبع باءت الزيارة بالفشل ، فلم يكن هناك أحد من آيات الله على استعداد للخروج عن الإجماع ، وهنا قام النظام بتصرف آخر يدل على التخبط فقام بتشجيع الحركة الشيوعية فى إيران فى محاولة لإضفاء اللون الماركسى على الثورة ، فإذا بالمطبوعات الماركسية تملأ الأسواق ، وإذا بوجوه كانت معروفة بميولها الماركسية المتطرفة تطلق لحيها وتندس بين المجاهدين الثوار وتصعد المنابر

فى المساجد ، لكن النشرات والصحف الإسلامية سرعان ما كشفت هؤلاء المندسين وحذرت الجماهير منهم وباءت المؤامرة الثانية بالفشل (٥٥) .

وكان أول حديث للشاه بعد خطابه المشهور مفعماً بالفشل ، ويدل على طبيعته الإنفصامية وفقدانه الأعصاب تماماً ، كان حديثاً لجريدة النيوزويك بعد أن حاول أن يجمع عدداً من الصحفيين الإيرانيين وفشل ، لم يكن الشاه قادراً على الحديث أو على عرض أفكاره ، فطلب من الصحفى الذى أجرى معه الحديث أن يعيد كتابته بأسلوبه .. إن الشاه لم يستطع إنهاء إضراب عمال النفط فلم يفعل أكثر من القبض على عدد ممن ظن أنهم قد حرضوا على الإضراب ، واتضح جهله المطبق بما يجرى (أو تجاهله فى الحقيقة) فصور آية الله الخمينى بأنه طالب سلطة ، وسأل مراسل النيوزويك : **إذا قام البابا بتحريض سكان بولندا على الثورة ماذا يكون حكمكم عليه ؟ ثم ذكر مراسل النيوزويك بقول خروشوف : إن إيران تفاحة ناضجة آيلة للسقوط (أين كان خروشوف آنذاك ؟) كان من الواضح أن الشاه يستعدى الغرب ضد شعبه ويطالبه بأن يستعد للدفاع عنه ، ويقارن بين النظام الذى سيحل محله ونظام العقيد معمر القذافى فى معاداة الغرب ، وأن الحكومة التى سوف تحل محله سوف تبدل إيران إلى لبنان آخر ، ويربط بين ثورة إيران وبين ثورة أفغانستان الماركسية ... أخذ الشاه يستشرف المستقبل وكأنه يتحدث عن وطن آخر ، إنه يحذر الغرب : إذا انتصرت الثورة فى إيران فسوف تحدث وضعاً جديداً فى الشرق الأوسط يهدد باكستان وتركيا والعراق والسعودية والخليج بحيث أنه إما أن يسلم الغرب تماماً أو تقوم الحرب العالمية الثالثة .. وتساءل الشاه المدافع عن مصالح الغرب حتى الرمق الأخير : ماذا يمكن أن يفعل ؟ لقد قدم الوزراء إلى المحاكمة وهو مستعد لتقديم أسرته أيضاً إلى المحاكمة إذا ثبت فساد أحدهم ، لكن المشكلة كما لخصها جناب الشاهنشاه هى أن هؤلاء أى الثوار يريدون كل شىء أو لا شىء**.(٥٦)

وبينما كان موقف الشاه من الغرب ومن أمريكا لم يتغير ، كان موقف أمريكا مشابهاً ، ففى تحليل لمجلة تايم الأمريكية عن الوضع فى إيران ذكرت

أن رئيس أمريكا والهيئة الحاكمة فيها لا تستطيع شيئاً إلا أن تتخذ جانب الشاه لأنها إن لم تفعل فسوف يحل محل الشاه هرج ومرج لن يستفيد منه إلا السوفيت فى حين أن المصالح الإستراتيجية والإقتصادية الأمريكية لا يمكن أن تمنح السوفيت هذه الفرصة ، وبعد أن جاء الشاه بحكومة عسكرية عقد اجتماع فى البيت الأبيض حضره المسئولون الأمريكيون وعلى رأسهم بريجنسكى مستشار الأمن القومى ، وبعد انتهاء الإجتماع أطلع بريجنسكى الشاه على أن أمريكا تؤيده فى كل ما يقوم به من إجراءات لإقرار الأمن فى إيران ، ونقلت التايم عن مسئول كبير فى إيران أن جيش إيران قادر على حماية الشاه فى حالة صموده هو ، وتنبأت السلطات الأمريكية لأول مرة بقيام حكومة إسلامية « لن تستمر طويلاً بسبب عناد الزعماء الدينيين » ، كما قامت بتحذير السوفيت من تأييد الثوار لأن هذا لن يكون فى صالح مستقبل جمهورياتها الإسلامية ، كما قامت بتحذير الثوار المسلمين من السوفيت من انتهاز فرصة ما يجرى فى إيران لركوب الثورة الإسلامية وفرض حكومة يسارية ... إلا أن ختام هذا التحليل الواقعى للسياسة الأمريكية لا يخفى قلق أمريكا ، لأن نظام الشاه هو النظام الوحيد الذى يضمن لأمريكا مصالحها الإستراتيجية والإقتصادية .. ثم عطفت على إضراب عمال النفط وحللت مضاره على الإقتصاد الأمريكى ثم على الإقتصاد الإيرانى.(٥٧)

ولأن أمريكا زجت بنفسها كطرف فى الصراع ، لم يستطع السوفيت الصمت أكثر من ذلك ، وفى ١٩ نوفمبر وبعد حوالى سنة من بداية الأحداث خرج السوفيت عن صمتهم التقليدى وعلقوا على أحداث إيران بأنها أحداث داخلية وليس من حق « أحد » التدخل فيها ، وكان من الواضح أن هذا « الأحد » المقصود هو أمريكا ، إلا أن الروس – وهذا تحليل منقول عن لوموند الفرنسية – كانوا يفضلون أن يظل الشاه ، فلم يكن قيام نظام إسلامى إلى جوار الجمهوريات الإسلامية السوفيتية المحتلة بالمحتمل بالنسبة للسوفيت ، كما أن الشاه كما رأينا ، كان يحافظ على لعبة التوازن فيمنح الروس نصيبهم من غاز الشمال الإيرانى غير منقوص . (٥٨)

وهكذا ، كانت القوى العالمية فى صراع حول إيران وما يحدث فى إيران ، بينما كانت الأحداث فى الداخل تتطور نحو الذروة ، وكانت المقالات التى تنشر فى بعض الصحف (ومنها المجلة الوحيدة التى ظلت شبه وفية للنظام تدعو إلى التعقل وهى مجلة خواندنيها) تسخر من الحملة على الفساد ومحاكمة عمد النظام وترى أنها ليست إلا تمثيلية ، مثل التمثيلية التى كانت قد تمت منذ عدة شهور ، وفيها برىء عدد من مختلسى ملايين التومانات وأفرج عنهم « مع التحية والسلام» ، **وكشفت أن الدكتور يگانه الذى أسندت إليه رئاسة المحكمة الدستورية العليا وعدد آخر من المشتركين فى هذه المحاكمات قد شوهدوا فى منزل هويدا عند القبض عليه ، كما أن المشار إليهم وعدداً كبيراً من شخصيات وزارة العدل وكبار القضاة أعضاء معاً فى جمعيات ماسونية ، فكيف يحاكم بعضهم البعض ؟** (٥٩) ، **وفى مقال آخر قال كاتبه ساخراً : « أخشى أن تنتهى محاربة الفساد إلى القبض على عدد من الضعاف المساكين ، ثم يصرح لبعضهم بالذهاب إلى أوربا وأمريكا ويختفى بعضهم تماماً ، ثم يعدم** (فلان) **من البشر لكى يسكت الناس »**.(٦٠)

وبينما كانت الحكومة تكرر فى كل بيان لها ، وبينما كان الشاه يدق فى أحاديثه كثيراً على محاربة الفساد كآخر ما يمكن أن يقوم به ، كان جهابذة القانون يجتمعون فى حلقات بحث طويلة لتكييف الجرائم التى ارتكبها المقبوض عليهم من الناحية القانونية ، وقدم أحمد بنى أحمد نائب تبريز استجواباً إلى المجلس النيابى ورد فيه « **كيف يمكن أن تكون المحكمة العسكرية صالحة لمحاكمة الطلاب لمجرد أنهم قرأوا كتاباً ؟ لكن من أجل هؤلاء المجرمين المحترفين تقوم المحكمة بشغل نفسها من أجل صياغة مواد خاصة بهم ، ولماذا لا ينبغى أن يرقص مائة من أقذر عناصر المجتمع على أعواد المشانق بينما تراق دماء آلاف من أنبل شباب الوطن ومن أغلى الدماء ؟** » (٦١)

وبالرغم من أن الحكومة العسكرية كانت قد أعلنت بمجرد صعودها إلى الحكم قائمة بأسماء الممنوعين من السفر ، أخذت الصحف تنشر يوماً بعد

يوم أسماء الذين هربوا من الباب الخاص ، فهرب الملياردير على رضائى وأخوه بالرغم من أنه لم يكن يحمل جواز سفر سياسى ، وهرب الملياردير ياسينى ، ويد الله شهبازى وهوشنك انصارى « مدير شركة النفط » والدكتور ايادى طبيب الشاه الخاص وبرويز ثابتى ضابط الساواك السفاح « هرب إلى إسرائيل » وجمشيد آموزگار ، **ومن ثم فإن أغلب الذين ضمتهم قوائم الإتهام غادروا إيران ، وبالطبع لم يكن من الممكن لهم أن يغادروها إلا بعون من السلطات** ، فقد غادروا إيران بعد أن رحلوا عائلاتهم وخرجوا جميعاً من مطار طهران الدولى من باب كبار الزوار وبجوازات سفرهم التى لم تكن قد سحبت منهم ، بل إن منهم من هرب على متن إحدى طائرات الدولة وباعها فى أوربا بعد وصوله ، ومن ثم كانت الحكومة قد بدأت تستخدم الرياء على أوسع نطاق ، فقد قبضت على المتهمين بالفساد إسمياً ، ثم قامت بترحيلهم وبعلمها ومساعدتها ، **ففى مثل هذه الهزات عندما يقوم نظام ما بمحاكمة عمده ، سوف تلحق المحاكمة بالنظام نفسه** ، ومن ثم لم يبق فى السجون إلا من شاءت له الحكومة أن يبقى ، وحتى انتصار الثورة النهائى لم يكن هؤلاء قد حوكموا وتمت محاكمتهم على يد الثورة .

وفى ٢٥ نوفمبر أصدر موظفو البنك المركزى قائمة بأسماء الذين قاموا بتهريب أموال إلى الخارج ، وسرعان ما ألصقت القائمة الفاضحة على كل جدران المنازل فى طهران وبقية العواصم ، وذهلت الجماهير من فحوى هذه القائمة التى أعلنت أن مائة وأربعة وأربعين من المشتركين فى الحكم فى الخمسة عشرة سنة الأخيرة قد قاموا خلال شهر واحد فقط (من منتصف أغسطس إلى منتصف سبتمبر) بتهريب ثلاثة آلاف مليون دولار إلى الخارج ، كان أكثر ما احتوت عليه القائمة أسماء موظفين كبار لا يزاولون أى نشاط تجارى ، وأغلبهم ممن شغلوا منصب الوزارة أو وكالة الوزارة ، وبالطبع لم ينس موظفو البنك أن يذكروا أن أغلب هؤلاء كانوا أعضاء فى مباحثات اقتصادية مع الشركات الكبرى وأن هذه الثروات تمثل جزءاً من العمولات والرشاوى التى تقاضوها ، وأثبتت القائمة أن أميرين من الأسرة المالكة هربا ١١٣ مليون دولار

وأن أميرة واحدة هربت ٤١ مليون دولار ، كما تضمنت القائمة أسماء عدد من الذين لا زالوا يشغلون مناصب رسمية ويزاولون عملهم داخل إيران ، ومن ثم ثبت أن الهاربين كانوا قد أعدوا عدتهم قبل مذبحة الجمعة السوداء وقبل أن تأتى حكومة أزهارى العسكرية بل وقبل أن يعلن برنامج محاربة الفساد ، ولم يكن هذا يعنى إلا أن النظام ضليع تماماً مع من قدمهم إلى المحاكمة ، **وأن المحاكمة كما قال وزير العدل نفسه فى حديث تليفزيونى : ليست أكثر من تمثيلية** ، ومن ثم فقد النظام التكئة الواهية التى كان يعتمد عليها ضماناً لاستمراره ، وافتضحت مهزلة محاربة الفساد .

لم يكد يمر ثلاثة أسابيع حافلة بالأحداث على وزارة أزهارى العسكرية ، حتى بدأ بعد آخر من أبعاد الثورة الإيرانية ، فقد حل شهر المحرم شهر العزاء المذهبى عند الشيعة ، وفى المحرم تسير المسيرات تذكر الحسين وآل البيت عليهم السلام الذين استشهدوا أيضاً فى ثورة ضد اللاشرعية وضد اغتصاب الحقوق ، وعلى مدى ألف عام من الفاجعة كان الشيعة يحتفلون كل عام بهذه المناسبة ، ولم تستطع حكومة مهما كان جبروتها أن تمنع هذه الاحتفالات والمسيرات ، حل المحرم هذا العام والمؤمنون لا يذرفون الدموع على الحسين بل يسكبون الدم (٦٢) .

ومن هنا كان حلول المحرم يعنى المواجهة النهائية بين الثوار والنظام ، وكان كل المراقبين العالميين يرون أنها سوف تكون المواجهة الحاسمة ، وكثرت التكهنات : ترى هل يمنع النظام المسيرات الدينية ؟ ترى ماذا سوف يحدث إن تمت هذه المسيرات ؟ هل سيتدخل الجيش ؟ وهل إذا تدخل سوف يقبل الثوار الذبح دون مقاومة ؟ هل يستعد الثوار للمقاومة ؟ ... **كان العالم كله ينتظر التاسع والعاشر من محرم ليرى الجولة الأخيرة .**

وعلى المستوى الشعبى بدأ الشهر المقدس بمظاهرة دينية هى الأولى من نوعها ، **فما أن حلت ليلة الأول من محرم (اليوم الأخير من ذى الحجة ليلاً) حتى ضجت أسطح المنازل بالنداء العظيم ، نداء المجاهدين فى صدر الإسلام وعصر الفتوح « الله أكبر »** ، كل فرد إيرانى جمع أسرته يستطلع هلال

المحرم ، شهر الشهادة وشهر الحرية ، والشهيد بتعبير شريعتى العظيم **هو قلب التاريخ** ، ومن يستشهد فى المحرم لا شك أنه سوف يحشر مع الحسين وشهداء آل البيت ، وكما كان المسلمون الأول يقابلون الشهادة وهم يكبرون ، كان كل من يرى هلال المحرم يطلق الصيحة العظيمة التى زلزلت الطغاة ، كما يبلغ عدد الذين اشتركوا فى هذه المظاهرة الأولى من نوعها،التي لا يستطيع جيش مهما أوتى من قوة وعنف وجبروت أن يفرقها ، لا شك أغلب شعب إيران ، كانت قوات الحكومة تتصيد المكبرين من فوق السطوح بالرشاشات ، إلا أن الأصوات لم تصمت واختلطت التكبيرات بطلقات الرشاشات ، وسقط شهداء ، لكن النظام كان يعلم أنه لن تمر عشرة أيام حتى يحمل المتظاهرون أكفانهم على أكفهم أو يلبسونها (حقيقة لا مجازاً) ثم يواجهون الرشاشات ، وبعد أن أثبتت الرشاشات عدم جدواها ، أعلنت الحكومة أن كل أصوات التكبير كانت تصدر عن شرائط مسجلة .

وعلى مستوى القيادة أصدر آية الله الخمينى فى الحادى والعشرين من ذى الحجة (٢٢ نوفمبر) بياناً جاء فيه : « **لقد هل المحرم شهر الشجاعة والتضحية ، هذا هو الشهر الذى هزت فيه دماء الشهداء السيوف ، واجتاحت الحقيقة الزيف ، لقد علم المحرم الأجيال خلال التاريخ كيف تهزم (الطغيان) ، فالشهر مقدس على أساس أنه الشهر الذى هزمت فيه الحقيقة الطاغوت ، فى هذا الشهر علمنا إمامنا الحسين كيف نستطيع أن نهزم دبابات الطغاة ورشاشاتهم .. وكيف أن النصر فى النهاية يكون للحق ، علمنا الحسين أننا ينبغى أن نحارب الطغاة الذين يحكمون المسلمين حتى ولو كنا أضعف قوة وأقل نفرا ، وأنه إذا كان الإسلام فى خطر علينا أن نضحى بأنفسنا وننقذ الإسلام بدمائنا ، وإن وجود نظام الشاه مخالف للإسلام ، والشاه قد جلب العار للإسلام فى سبيل أطماعه وأطماع سادته الأجانب ، والذين قاموا ضد الشاه هدفهم أن يحرروا أنفسهم من هذا العار وباتساع مقاومتهم ضد النظام سوف يسقطونه ، إن الحكومة العسكرية فى إيران غير شرعية ومخالفة لشريعة الإسلام وواجبنا أن نعترض ونرفض أن نكون جزءاً منها ، على الناس ألا يدفعوا الضرائب وعلى عمال النفط أن يواصلوا إضرابهم فلا يستخرجوا قطرة واحدة**

منه ، ألا يعلم عمال النفط أنه يتحول إلى سلاح يستخدم فى قتل رجالنا ونسائنا وأطفالنا ؟ ألا يعلمون أن نظام الشاه هو المصدر الأول للبترول إلى إسرائيل عدوة الإسلام وآكلة حقوق المسلمين ؟ ... وإذا حاول النظام أن يضغط على عمال النفط لإنهاء المشكلة فسوف تنتهى دفعة واحدة وإلى الأبد .. وعلى أولئك الذين يقلقهم مستقبل إيران أن يعدوا قائمة بأسماء الوزراء والخونة والقادة العسكريين الذين أصدروا الأوامر بقتل الناس حتى يتعامل الناس معهم كما ينبغى عندما يحين الحين ... على الحكومة والقيادة العسكرية أن تتوقع عقاباً صارماً فى المستقبل القريب إن هم أصروا على تأييدهم للشاه الخائن للإسلام وإيران ... إن شهر المحرم هو سيف الله البتار قد وضع فى أيدى أتباع الإمام الحسين ، وسوف يضرب كما ينبغى بعونه ، وسوف تجتث شجرة الظلم من جذورها .. سوف تحيا من جديد ذكرى استشهاد الحسين خاصة فى عاشوراء ، يوم الانتقام للمطحونين ... وعلى علماء الدين أن يقوموا بمسئولياتهم أمام الله فى فضح جرائم النظام أكثر من أى وقت ، على علماء الدين أن ينزلوا إلى القرى ويشرحوا للناس كيف أن قوات الشاه قد قتلت العزل ، عليهم أن يخبروا الفلاحين أن الحكومة الإسلامية لن تؤيد الإقطاعيين وكبار الملاك كما يريد الشاه أن يقنعهم ، وأن الإسلام فى صف المطحونين والفلاحين والفقراء وأن الشاه هو الذى حطم زراعتنا ومنح ثرواتنا الطبيعية للإقطاعيين فى سبيل حكومة الولايات المتحدة ... وأنهم سوف يكونون درع الحكومة الإسلامية ... إننى أدعو علماء الدين والطلاب والصحفيين والعمال والفلاحين والتجار والموظفين والعمال وكل الفئات أن تعمل جنباً إلى جنب فى سبيل طرد الأسرة البهلوية الطاغية وتأسيس جمهورية إسلامية تستند على الشريعة الإسلامية التقدمية وأنا على يقين من أنكم سوف تنتصرون ، وعليك يا شعب إيران النبيل أن تقوم بمسيراتك دون أن تنتظر إذناً من السافاك أو الشرطة ، ومن الجائز أنهم سوف يقومون بمحاولة إيقافك ، سوف يسحبونك إلى الشوارع ويقومون بمواصلة جرائم النظام الشاهنشاهى ... هذه هى اللحظة الحاسمة فى تاريخ الإسلام وبالنسبة لشعب إيران المسلم ... تستطيعون يا أبناء شعب إيران المسلم أن

تحققوا مجداً ... واليوم لا عذر لأحد فى أن يكون سلبياً أو صامتاً أو منسحباً ، فهو فى هذه الحالة يكون منتحراً وعوناً للطغاة ... وكل من يحيد عن طريق الإسلام أو الشعب فهو خائن وعدو ... وأولئك الذين يسيئون إلى الحركة الإسلامية بصمتهم أو تأييدهم للشاه ويظنون أنهم بهذا ينقذون الشاه مخطئون ، فلن يبقى الشاه من بعدهم ، وإن بقى فلن يكون وفياً معهم ، وماضيه يثبت ذلك ... إننى أود أن أشد على أيدى أبناء شعب إيران العظيم الذين استطاعوا بقوة الإسلام أن يتحدوا الشاه وأعوانه ، وإننى أعتبر الشهادة فى سبيل الحق هى قمة الشرف ، وأهنىء آباء الشباب الذين بذلوا دماءهم فى سبيل الإسلام والحرية وأهنىء أمهاتهم ، وأغبط الشباب الأبى الذى بذل حياته فى سبيل الله .. إن الثورة الإيرانية العظمى قد انعكس صداها فى الدول الإسلامية ونالت شرفاً عظيماً ، أنتم يا أبناء شعب إيران العظيم قد أيقظتم الشباب المسلم الغيور فى كل العالم ، ودعونا نأمل بمجهوداتكم أن يرتفع علم الإسلام المشرف فى جميع أنحاء العالم ، وهذا هو ما أدعو الله سبحانه وتعالى أن يحققه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » (٦٣).

وفى الناحية المقابلة ، لم يكن الشاه يدرى ماذا يفعل ، كان يعلم تماماً أن الحكومة العسكرية لن تنهى مشكلة ولن تكسب شعبية أو شبه شعبية حتى ولو لم تقم بأى قمع لمجرد أن اسمها الحكومة العسكرية ، وكان يحلم بأن يقدم فى أقرب فرصة وقبل عاشوراء حكومة مدنية ائتلافية ، ويا حبذا لو كان على رأسها أحد المعارضين من الجبهة الوطنية أو من المثقفين ، أو أحد الوجوه يستطيع أن يقنع الناس به ، أو بمعنى أصح يخدعهم حتى يلم أطراف شتات نظامه الذى أخذ يتفسخ يوماً بعد يوم ، لكن : من الذى كان يمكن أن يجازف ويتقدم للشاه فى ذلك الوقت ؟ لقد حاول الشاه مراراً مع سنجابى لكن النتيجة أن سنجابى لم يرفض فحسب لكنه كان يعود من كل زيارة للخمينى أكثر عداء للنظام وأكثر تشدداً ، والتفت الشاه حوله ، يستعرض الشخصيات الباقية التى اعتزلت السياسة منذ سنوات طويلة بلغت عند بعض المرشحين عشرين بل وخمسة وعشرين عاماً ، بحيث أن كبر السن وحده كان سبباً كافياً للإعتذار ، ومن ثم كان الدكتور أمينى وغلا محسين صديقى واللهيار صالح ونجم الملك

ومحمد نصيرى وغيرهم وغيرهم من الشخصيات القديمة جداً التى نسيها الناس لكنهم لم ينسوا قط أنهم ينتسبون إلى العصر البهلوى ، وأن أقصى ما قامت به فى سبيل الشعب أنها اعتزلت السياسة وقنعت بزاوية العزلة دون مقاومة أو مواقف تذكر ، ومن ثم فبتعبير التايمز البريطانية (فى آخر عدد صدر منها ، العدد ٦٠٤٧٢) أنه لن يتطوع أحد لشغل رئاسة الوزارة الإيرانية فى شهرى المحرم وصفر (ديسمبر ويناير) ، وتعبير يتطوع هنا تعبير فى محله ، فقد كان الذين تعرض عليهم الوزارة بالفعل يعلمون أن المشكلة لن تحل بتغيير الوزارة ، وأن هذه الفترة بالذات فترة احتمال سفك الكثير من الدماء ، وبالتالى لن يستطيع أحد أن يجازف ويأخذ على عاتقه مسئولية سفك الدماء فى هذه المرحلة الحرجة ، ومن ثم كان الوضع كما عبر عنه بنى صدر تماماً حين قال « **إن هذه الحكومة العسكرية تحمل على ظهرها جثة الشاه ، فإما أن تنهار تحت ثقل هذه الجثة وتحت ثقل ضغط المقاومة الشعبية ، وإما أن تضطر إلى إلقاء هذه الجثة تحت أقدام الشعب** »(٦٤) .

ولم تكن هذه الحيرة التى سقط فيها الشاه حين أراد أن يشكل حكومة ائتلافية إلا نتيجة من نتائج محو الشخصية الإيرانية ، واعتماد النظام الديكتاتورى على عدد لا يتغير من الشخصيات ينقلها من مكان إلى آخر داخل رقعة الشطرنج المسماة بحكم الفرد ، بحيث أنه لوث كل الشخصيات ، أو بتعبير إحدى الصحف الإيرانية « **إن مدرسة الرجال كانت قد أغلقت تماماً** » .

كان هذا الفشل المتزايد يصيب الشاه بفقدان الأعصاب ، **كانت فترة سجنه الإنفرادى فى قصره منبوذاً من كل القوى قد بدأت ، وربما كان يتساءل فى ذلك الوقت : متى ينضم حرسه الإمبراطورى إلى الثورة ؟ كان الشاه قد سقط نفسياً قبل أن يحل عاشوراء ، وانعكست هذه الحالة المنهارة على الأحاديث الصحفية التى لم تكن على طريقة السؤال والجواب ، كان يترك نفسه على سجيته فى الحديث وعلى الصحفيين بعد ذلك أن يعيدوا صياغة ما يقول عند النشر ، لقد هزم الشاه من الداخل قبل أن يستسلم تماماً ، وكان حديثه إلى**

التايم الأمريكية فى تلك الأيام العصيبة مجموعة من المتناقضات لم يحفل محرر الجريدة بأن يضفى عليها بعض المنطق أو التسلسل ، فالشاه لا يزال يأمل فى أن يقبل كريم سنجابى تكوين وزارة ائتلافية ، وإن كان قد يئس تماماً من التواصل إلى اتفاق مع آية الله الخمينى ، إنه يعرب عن أمله فى أن الجفوة مع رجال الدين سوف تنتهى ، إن تاريخ إيران حافل بأمثال هذه الجفوات التى انتهت ، ولا بد أن هذه هى الأخرى سوف تنتهى .. إنه لم يكن يتصور أن الفساد قد وصل إلى هذا الحد ، لكنه قادر على القضاء على هذا الفساد تماماً ... عظيم ، ثم وفى السطر التالى مباشرة يهدد بالجيش ، إن الجيش على وفائه له ولن يتركه وحده ، ويستنفر الجيش ... إن الضمان الوحيد لوحدة الجيش هو وجود الشاه ، وإن ذهب الشاه فسوف يدفع الجيش الثمن ... ويبلغ انهيار الشاه قمته حين يريد أن يلوث الثورة الإسلامية فلا

يجد إتهاماً يوجهه إليها إلا أنها تتعاون مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ... أجل ففى رأى الشاهنشاه أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ظلت على اتصال طيلة الخمس عشرة سنة الأخيرة بالجماعات « المعادية » ، وهى التى تمدها بالعون حتى تسيطر الولايات المتحدة على أية قوى من الممكن أن تصل إلى الحكم فى يوم ما ... هكذا بينما كانت المخابرات المركزية الأمريكية تعمل جاهدة لكى تجد وسيلة تنقذ بها الشاه وتخرجه من ورطته ، خرج الشاه يتهمها بأنها وراء الأحداث وهكذا الطغاة لا يرون الشعب قادراً على شىء حتى على الثورة فإذا قامت تخبط الطاغية هنا وهناك ووضع الثورة على كاهل هذا وكاهل ذاك حتى ينفى عن شعبه شرف الثورة ، وهناك « نكتة » شاهنشاهية أخرى وردت فى هذا الحديث ، وهى جديرة حقاً بالذكر وذلك حين يقول : **حينما تصل وسائل تفريق المظاهرات سلمياً من أمريكا إلى إيران ، نأمل فى أننا سوف نستطيع تفريق المظاهرات دون سفك للدماء.**(٦٥)

وهكذا ينقلب الطغاة المتمتعون بالعناية الالهية والمجد الإلهى إلى ممثلين هزليين عند الخطر ، فتكون أحاديثهم وتبريراتهم وتصرفاتهم هى الجانب الهزلى الوحيد بين فصول التراجيديا السوداء .

كان الشاه ، وكان الثوار ، وكان العالم كله يعلمون أن مصير النضال ضد الشاه ونظامه سوف يتقرر فى محرم ، وقبل التاسع من محرم بثلاثة أيام كانت الحكومة فى حيص بيص لا تدرى ماذا يمكن أن تفعل .. **فإن حجم المظاهرات والمسيرات على طول إيران وعرضها سوف يكون بالتأكيد أكبر من مقدرة الجيش على القمع .. فضلاً عن أن هناك بعض الظواهر التى بدأت تتأكد فى الجيش أن صغار الضباط وصف الضباط قد بدأوا يملون هذه اللعبة .... فهم أولاً وأخيراً إيرانيون ومؤمنون ، ومن الذى سوف يجرؤ على قتل مؤمن واحد اعترفت الحكومة واعترف الشاه نفسه بحقه فى الثورة ؟ من الذى سوف يجرؤ على قتله أو ضربه يوم تاسوعاء أو عاشوراء فيدمغ بهذه الصفة « صفة شمر » (شمربن ذى الجوشن قاتل الحسين) إلى أبد الآبدين ؟ وفى سبيل من ؟ فى سبيل أولئك الذين هربوا عائلاتهم ثم أموالهم ثم هربوا بجلدهم قبل الطوفان ؟** كان مصير الثورة قد حسم بالفعل قبل تاسوعاء وعاشوراء ... وبالرغم من ذلك فقد قام الحاكم العسكرى لطهران بإصدار أمر بمنع كل الإحتفالات والمسيرات والمظاهرات فى يومى تاسوعاء وعاشوراء (الموافقان لـ ١٠ و ١١ ديسمبر) وأن تقتصر الاحتفالات على التكايا والزوايا ، ومن خلال الإذاعة ظل يذيع بياناً وتحذيراً من « المشاغبين » و « المخربين » و « الإرهابيين المسلحين » يقعدون للشعب كل مرصد ليحطموا كل « مكاسبه » وكل شىء ..... ثم ساد صمت تام .

وكان أول صوت شق هذا السكون المليء بالترقب والرعب والإنتظار هو صوت آية الله الطالقانى ذلك المجاهد العظيم الذى كان قد خرج من السجن إلى ساحة النضال مباشرة ، والذى أعلن أنه - سوف يقوم بمسيرة تبدأ من منزله فى الساعة التاسعة صباح يوم تاسوعاء (١٠ ديسمبر) بالرغم من علمه بكل المخاطر والعواقب ... وبالرغم من أن كل التيارات المعارضة للنظام قد قامت بدعوة الناس للإشتراك فى المسيرة ، وبالرغم من أن النظام قد تراجع فى النهاية وسحب القوات العسكرية من الشوارع ، لم يكن أحد يتوقع أن تكون مسيرات تاسوعاء وعاشوراء على هذا القدر من العظمة والإتساع والشمول ، وعلى هذا القدر من التنظيم والهدوء **بحيث بدت معجزة سياسية واجتماعية أذهلت**

العالم .. فعلى مدى يومين كان الجزء الأكبر من العاصمة وهو الجزء الأكثر ازدحاماً بالسكان في أيدى الثوار بالفعل ، وفى مساحة تصل إلى مائة وثمانية كيلو متر مربع (الضلع الشرقى والغربى ١٢ كيلو متر والضلع الشمالى والجنوبى تسعة كيلو مترات) فى هذا الجزء الأشد ازدحاماً فى المدينة ، والذى وصل فيه تعداد السكان والمتظاهرين معاً إلى أربعة ملايين ، لم تتواجد قوة عسكرية أو قوة تتبع الشرطة ، أو حتى قوات لتنظيم المرور ، كانت كل أمور النظام فى أيدى مكلفين من قبل الشعب ، ولم يحدث فى تاريخ العالم كله أن تجمع مثل هذا العدد فى مكان واحد بمثل هذا النظام والهدوء ، وحتى السرقات العادية وحوادث النشل قد قلت إلى أقل من نصف معدلها الطبيعى فى تلك الأيام ، ولم يحدث ما يعكر الصفو ، لا مشاجرة ، ولا تزاحم ، وكل هذا فى هذه الظروف التى يحيط بها الترقب والتشنج والرعب ... لقد قلبت الثورة الإيرانية كل ما تعارفت عليه العلوم الثورية : إن الثورة تبدأ عادة بالبعد العاطفى وعدم الرضا العام ثم البعد الأيديولوجى فالسياسى فالعسكرى ، لكن البعد العاطفى كان آخر بعد ظهر فى الثورة الإيرانية ، فلاشك أن أغلبية المتظاهرين،ممن لم يعاصروا مصدق ولم يقرأوا شريعتى ولم ينضووا تحت لواء المجاهدين ، فى ذلك اليومين التاريخيين لا يمكن أن تنسى عظمة الإنسان وقوة روحه ، وصلابة الأبعاد الإنسانية والروحانية والقومية للثورة ، وفوق كل ذلك كان هذا الوعى والترابط الذى لا يصدق لأكثر طبقات المجتمع ، كان هذا المنظر أشد رهبة من أقوى العروض العسكرية وأقوى منها .

كان السيل العرم يتحرك ، ثم ترتفع الشعارات والهتافات شعراً منغماً تهتف به فى آن واحد هذه الملايين يتنقل فى موجات من الصفوف الأولى إلى الصفوف الأخيرة تهتف به حناجر تمثل الشعب الإيرانى كله : النساء المحجبات والنساء السافرات ، الأقوياء من الشبان والضعفاء من الشيوخ ، والصبية والأطفال ، ترتفع فوق رءوسهم صور آيات الله والشهداء ، والشعارات هذه الشعارات العفوية التى تخرج بنت اللحظة من أفواه الجماهير هى التى تعبر فى الغالب عن المسار الصحيح للثورة ، كانت الشعارات تعبر عن هذا الإمتزاج

العظيم بين الدين والسياسة : الله أكبر ... خميني رهبر،(**رهبر على وزن أكبر معناها الزعيم أو القائد أو المرشد وليست هى الأخرى أكبر كما قيل**)،رهبرما خمينى است .. مذهب ما حسينى است : زعيمنا الخمينى ومذهبنا الحسينى ، حزب فقط حزب الله ... رهبر فقط روح الله : الحزب الوحيد هو حزب الله والقائد الوحيد هو روح الله أو فرستادة صاحب الزمان است ، آية الله خمينى رهبر آزادگانست : إنه رسول صاحب الزمان (الإمام المنتظر) هو آية الله الخمينى زعيم الأحرار ، كانت هذه الشعارات تثبت إلى أى مدى كان سعى النظام عبثاً فى أن يثبت أن الثورة ماركسية أو حتى ماركسية إسلامية ، أو أن الذين يقومون بتنظيمها علماء دين لا يفقهون شيئاً خارج مدارسهم ومراكزهم العلمية . (٦٦)

ومن هنا انقلبت مسيرات التاسع والعاشر من محرم من مظاهر عزاء على آل البيت إلى استفتاء حقيقى يدين النظام ويخلع الشاه ويؤكد زعامة الخمينى ويبايعه ، لعلها المرة الأولى بالفعل التى يحتفل فيها الشعب الإيرانى بذكرى الحسين الثائر الشهيد قولاً وعملاً ، وبعد انتهاء مسيرات تاسوعاء وعاشوراء أصدرت قيادة المسيرات بياناً من سبعة عشر بنداً على النحو التالى :

١ – إن آية الله الخمينى هو زعيم أمتنا ومطالبه هى مطالب الشعب ، ومرة ثانية هذه المسيرة تعبير عن الثقة التى منحت له من أعماق قلوبنا وهى أيضاً تعبير عن الشرف الذى تحس به الأمة الإيرانية المناضلة بالقيادات الدينية .

٢ – نطالب بطرد الشاه من فوق عرش إيران قضاء على سلطته الطاغوتية ووضع نهاية للسيطرة الأجنبية التى يؤيدها الطغيان الداخلى .

٣ – نطالب بتأسيس حكومة العدالة الإسلامية قائمة على الشورى ، تحافظ على استقلال الوطن ، وتحقق العدالة الاجتماعية وفقاً لمبادىء الشريعة .

٤ – ننتهز فرصة توافق هذه الأيام مع اليوم العالمى لإعلان حقوق الإنسان لنعلن أن أحد الأهداف الأولى لثورتنا هو تأكيد حقوق الإنسان التى أكدت عليها الشريعة الإسلامية .

٥ – إن الانضمام لأية قوة شرقية أو غربية مرفوض تماماً ، وعلاقتنا بكل القوى تقوم على الاحترام المتبادل .

٦ - إن الحقوق الإجتماعية والسياسية للأفراد بما فيهم الأقليات ومواطنى الدول الأجنبية المقيمين فى إيران محترمة تماماً ومكفولة تماماً .
٧ - إن الحرية الحقيقية والإحترام والتمتع بالمزية البشرية التى كفلت للمرأة فى الإسلام بما فيها ما نالته من حقوق سوف ينظر إليه باحترام تام .
٨ - العدالة الإجتماعية لكل القوى العاملة من عمال وفلاحين مكفولة تماماً .
٩ - كل تفرقة فى الحقوق الاجتماعية واستغلال الإنسان للإنسان ومركزة الثروة فى يد واحدة أمور مرفوضة تماماً .
١٠ - إن الإستقلال الإقتصادى وإحياء الزراعة وتشجيع الصناعة الوطنية وتنميتها والوصول إلى حد الإكتفاء الذاتى هدف من أهداف الثورة .
١١ - إننا نؤيد الإضرابات التى يقوم بها العمال والموظفون فى أنحاء الدولة من أجل إسقاط الطاغية ... وسوف تراعى احتياجات المضربين الضرورية .
١٢ - من الضرورى أن يوجه الناس عونهم المادى لمساعدة المضربين .
١٣ - نشجب تمركز الجيش فى الشوارع والطرقات كإهانة للجيش والشعب ، وعلى الجيش الإيرانى أن يعلم أن واجبه الإسلامى والوطنى والإنسانى هو أن يقف ضد الإعتداء الأجنبى على حقوق الناس وليس ضد الناس أنفسهم .
١٤ - إن الدعاية التى يقوم بها النظام فى سبيل إظهار الثورة كثورة شيوعية متخفية فى رداء الإسلام أمر مرفوض تماماً ولن يستطيع أن يضعف الحركة ، فإن الناس يعلمون جيداً أن دافعهم إلى الثورة هو الإسلام والقرآن وحبهم لوطنهم .
١٥ - إننا نحيى ذكرى شهداء المقاومة الإسلامية فى إيران وبخاصة شهداء الخمس عشرة سنة الأخيرة ، أولئك الذين حملوا العبء الأكبر فى دفع أهداف الثورة إلى الأمام انطلاقاً من استشهاد الحسين .
١٦ - نطالب النظام بالإفراج عن كل السجناء ويرد كل المنفيين الذين حرموا من حرياتهم لدفاعهم عن الحق .
١٧ - من أجل تحقيق الأهداف المذكورة آنفاً ، فإن ثورة شعبنا مستمرة حتى النصر ، ولن يستطيع النظام مهما أوتى من مقدرة على القمع أن يوقف مسيرة أمتنا نحو الحرية . (٦٧)

ومر أسبوع بعد عاشوراء هادئاً ، بحيث ظن المراقبون أن النظام قد أصيب بالرعب من مسيرات عاشوراء وأنه ألقى سلاحه وأدرك أخيراً أنه كلما ازداد تقتيلاً كلما ازداد المتظاهرون عدداً ، وفيما عدا بعض الطلقات هنا وهناك ، لم يكن الأمر يقاس بالأسابيع السابقة أو الأسابيع اللاحقة ، وفى فترة التقاط الأنفاس هذه كان النظام يأكل نفسه ، فضائح بالجملة ، وتهريب للأموال بالملايين وجنرالات وقادة يقدمون للمحاكمة ، **ولعل الشاه كان يحاسبهم على تقاعسهم في الدفاع عن النظام وتحت هذا العنوان البراق : محاربة الفساد ، فالطغاة عادة عندما يريدون تصفية أعدائهم أو محاسبة عمالهم على عدم الولاء التام ، يضعون شعارات براقة تبرئهم هم أمام الشعب** ، ومن هنا كان الإعلان عن محاكمة بعض الجنرالات بتهمة تهريب ٣٥ مليار ريال إيرانى (حوالى ٣٥٠ مليون جنيه مصرى).

وكانت هذه المحاكمات التى لم تتم قط فى وقتها سبباً فى أن تزداد شراهة حكومة أزهارى العسكرية إلى الدم ، فلم تكد العشرة الثانية من محرم تنتهى حتى بدأت المذابح من جديد ، كانت العشرة الثانية من الدموية بحيث غطت على مذابح مسجد كرمان ومسجد حبيب فى شيراز **حيث أغلق المسجد على المصلين وحصدوا بالرصاص من السقوف والنوافذ وارتفعت ألسنة النار من المآذن** (وكان هذا فى أربعين شهداء الجمعة السوداء فى ١٩ أكتوبر) وتكرر الإعتداء أكثر من مرة على حرم الإمام الرضا فى مشهد ، كان من خصائص هذه الفترة هجوم العسكريين على مراكز نقل الدم والمستشفيات والصيدليات وذلك للحيلولة دون معالجة الجرحى ، **كان هجوم الجنود على مستشفى نجف آباد فى أصفهان وقتل ثلاثة من الرجال الذين يعالجون حادثاً ذا دلالة على مدى ما وصل إليه النظام من يأس** ، وفى قزوين انتهى الأمر إلى تخريب كل الصيدليات ، وطوال هذه الأحداث الدامية لم تتحرك جمعية الأسد والشمس الحمراء ، ولم تحتج ، ولم تصدر مجرد بيان لذر الرماد فى العيون ، ولم يتحرك متطوعوها لإنقاذ جريح ، **ومهما قيل من أن رئيسة الجمعية الأميرة شمس بهلوى أخت الشاه ليست مسلمة بل كاثوليكية** ، وأن هذا هو السبب فى تقاعس الجمعية فى إنقاذ الجرحى فإن الأمر كان أخطر من ذلك .

وبالرغم من أن مذابح أصفهان ونجف آباد ومشهد وقزوين وكرمانشاه وتبريز وزنجان وعدة مدن أخرى فى أواخر آذرماه والنصف الأول من ديماه (ديسمبر كله) لم تكن فى حجم الجمعة السوداء ، أو خسائرها من البشر ، إلا أن الأسلوب الذى كانت تتم به إن دل على شىء فإنما يدل على البربرية والوحشية كانت آخر جرعة فى الإرهاب ، **فقبل هذه المذابح لم تكن الدبابات والمصفحات « تفرم » الضحايا وتعجنهم بالتراب ، ولم تكن تنسف المنازل فوق سكانها ، ولم تكن تدهم صفوف الناس وهم فى انتظار حصصهم من الوقود ، لم تكن ترمى الجريح بالرصاص وهو بين أيدى ممرضيه ، ولم تكن تضرم النار فى عنابر الجرحى فى المستشفيات ، لقد لجأت حكومة الطاغية إلى كل الوسائل غير المشروعة لمحو العدو ، كل وسائل الإختناق والتعذيب والقتل ، لقد أخذ النظام يقتل ويقتل ويقتل إلى قدر ما يستطيع ، مذابح مستمرة ، فى البداية فى الخفاء وخلف قضبان السجون وفى الأغوار ، ثم فى المدارس والجامعات والمعسكرات والمصانع والمزارع والجبال ، وبعد ذلك على الملأ فى الشوارع ، لم يرحم نظام الشاه حتى الرضيع بين أحضان أمه ، لكن كل هذا لم يجد فتيلاً ، فى اليوم التالى ، كانت الأخت تحمل سلاح أخيها الشهيد والزوجة تحل محل زوجها الذى جندله الرصاص ، وعندما علم النظام أن محو عائلات بأكملها لم يجد فتيلاً ، صعد درجات فى سلم الجريمة ، وبدأ المرحلة النهائية : القتل الجماعى ، لا ينبغى أن يظل أحد حياً ، فالجرحى يدفنون أحياء ، ومن يمدون أيديهم إليهم يمطرون بالرصاص ... كان الشاه لا يزال يجلس على عرش قوائمه مائة ألف من الضحايا ويفخر بقوة جيشه ، لكنه كان قد أدرك تماماً أنه لكى يبقى على عرشه لا بد وأن يبيد شعباً بأكمله .**

كانت المذابح من البشاعة بحيث نضرب صفحاً عن ذكر تفاصيلها ، كانت من البشاعة بحيث أن كثيراً من الضباط والجنود بدأوا يتمردون على قادتهم ويخلعون الزى العسكرى وينضمون إلى الثوار ، وإن هذا ليثبت أن الإنسان الحقيقى لا يمكن أن ينقلب إلى حيوان فى ظل أية ظروف ، وأن أقوى الحكومات الطاغوتية فى العالم وأبشعها وأكثرها قهراً وثروة وتنظيماً لا تملك

القدرة على تلويث شعب بأكمله ... والشاه مثل كل الطغاة الفاسدين ، حتى مثل أذكاهم ، لم يدرك قط حتى فى أواخر حكمه أن كل البشر مهما هيئت الظروف لايمكن أن يتحولوا جميعاً إلى أمثال «أويسى» و«ثابتى» و«رزمى».(٦٨)

كانت نتيجة المذابح قياماً جماعياً وشاملاً ، لم يعد من أجل الدين فحسب ، فمن كان يؤمن بالله كان يتحرك من هذا المنطلق ، ومن لم يكن يؤمن بالله ، كان الواقع الإجتماعى هو الذى يحركه (٦٩) وأضيف : إن الذى لم يكن يتحرك من واقع إيمانه بالله أو بسبب واقعه الإجتماعى ، كان لا بد له أن يتحرك ، وأن تحركه الفظائع التى تحدث ، وللدفاع عن نفسه على الأقل .

وفى عبارة واحدة : كان العنف الزائد عن الحد من النظام يقابل بالإضراب السلمى جداً من قبل الشعب ، وكان هذا الإضراب هو الذى حدد مصير النظام ، هذه الإضرابات المتتالية التى استمرت أربعة شهور شلت النظام وقتلته ، وبحيث أن كل حكومة جاءت بعد حكومة جمشيد آموزگار ، كانت تزداد عجزاً وقلة حيلة يوماً بعد يوم ... **ولم يكن أمام الشاه إلا جولة أخيرة وهى أن يلجأ إلى الطيران حين فوجىء وفوجىء العالم معه بإضراب القوات الجوية وانضمامها إلى الثورة ، وكان هذا يعنى أن ذراع النظام قد انفصل عنه فجأة ومل من ضرب قاعدته الأساسية أى الشعب ، إن هذا البعد العظيم من أبعاد الثورة الإيرانية ، أى بعد الإضراب بُعدٌ ذو أصول تاريخية ، إنه نقطة التقاء الشعب ورجال الدين ، والسياسة والدين ، ومجموعة هذه الأصول والخصائص التاريخية التى تكونه ، بالرغم من أخطار التعميم والميل إلى الكليات الذهنية تتداخل جميعها وتكون ما يسمى بالشهامة « مردميت » وهى التى تتولد من وحدة الوجدان ووحدة اللسان والتعاطف والذى يجمع بين شعب ما بصرف النظر عن الإختلاف فى الدين أو المذهب أو المسلك أو المعتقد فى مرحلة من مراحل تاريخه ... هذه السمة إلى جوار سمة أخرى : هى الصوفية الإيرانية التى تتجلى فى كل فرد إيرانى،(حتى ولو لم يكن مثقفاً وحتى وإن كانت علاقته بالدين مقطوعة) ، ساعدت فى نجاح هذا البعد العظيم : بعد الإضرابات ، وكل هذا تجلى فى ضبط النفس الجماعى الذى كانت تمارسه الجماهير ، فالجماهير تدوسها الدبابات والمصفحات فلا تقاوم**

ولا تهاجم لأن أمراً بالجهاد لم يصدر بعد ، كل هذا فى حد ذاته - وحتى ولو لم تنتصر الثورة - كان وثيقة بطلان أخلاقيات عصر عباس هويدا ، كما أنه أسقط إلى الأبد التهمة التى كانت توجه إلى الشعب الإيرانى من أنه « لا يستطيع القيام بعمل جماعى » و « أنه شعب يشيع فيه التفكير الفردى وأن كل فرد فيه يمضى فى أثر مصلحته » و « أنه ليس مهيأ بعد للديموقراطية ، ولا يستطيع أن يمارس الحياة السياسية جيداً » .

فى ظل هذه الوحدة القومية ، كان الإضراب ، هذا السلاح الفعال ضماناً للنصر النهائى للمستضعفين ، واستجابة لنداء الإمام : لا سمع ولا طاعة ، وقد قدم هذا السلاح أعظم مظاهرة فى ثورة إيران ، فلم تقرأ عن ثورة نجحت نجاحاً تاماً بهذا السلاح ، حتى الغرب صاحب « المقاومة المدنية » وغاندى صاحب « المقاومة السلبية » لم يصل أى منهما إلى هذه النتيجة ... ومن الذى كان يصدق أن أكثر الوسائل سلبية وسلمية يمكن أن يكون أنجحها وأنجعها وأكثرها تأثيراً فى مواجهة جيش يعد من أكثر جيوش العالم تنظيماً وأقواها سلاحاً وأغلظها شعوراً ؟ ، كان الإمام الخمينى هو الذى نفض التراب عن هذا السلاح ، وكان هو الذى لا يفتأ يكرر أن النصر لا محالة قادم ، وكان هو أيضاً الذى حذر من أن مذابح النظام الأخيرة لا تهدف إلا إخراج المضربين من مكامنهم والقضاء عليهم ، وكان هو أيضاً الذى يقوى من قلوب كثير من الزعماء الذين شكوا فى مدى ما يمكن أن يقدمه الإضراب من نتيجة وذلك فى معمعة حكومة أزهارى العسكرية . (٧٠)

ولا شك أنه الدين هو الذى قلب كل النظريات الثورية رأساً على عقب ، لقد جعل الدين كل طبقة تفكر خارج إطارها الطبقى ومثلها ومبادئها ، كيف أن يمكن أن يضرب عامل طوال هذه الفترة وهو لا يظفر بتأمين البطالة ولا تحميه نقابة ؟ كيف يمكن إضراب السوق وهو من البورجوازية الصغيرة؟ كيف فهم الفلاحون دون نظريات أو « قوميسارات » أو منظرين حزبيين وحتى دون توجيه من الأئمة الدينيين أن الثورة تعنى عودة أراضيهم إليهم فاحتلوها قبيل الإنتصار النهائى للثورة وأخذوا يزرعونها ؟ إنه بلا شك الدين والقيادة الحكيمة

التى نجحت بالرغم من المذابح والقمع فى أن تصل بأعظم الثورات إلى النصر النهائى على أبشع القوى بأقل الخسائر الممكنة .

ولم يكد عام ١٩٧٩ يبدأ ، حتى كان ذلك إيذاناً ببقاء عدة أيام على رحيل الشاه ونظامه وكل ما يمثله من إيران .. وهذا هو ما سنتناوله فى خاتمة هذا الكتاب .



الخاتمة

ذهب الشاه .... عاد الخمينى

« إن طهران تنتظر انفجاراً .. .. إنفجار
الفرج وانفجار الشهادة »

جريدة كيهان بمناسبة عودة الإمام إلى
إيران .

فى ٢٦ ديسمبر ٧٨ انتهى آخر أمل للشاه فى تشكيل حكومة ائتلافية برفض غلامحسين صديقى،وهو أحد السياسيين القدامى،تشكيل الوزارة . وفى ٣٠ ديسمبر تقدم شاهبور بختيار أحد الأعضاء القدامى للجبهة الوطنية،بمقترحات لتشكيل حكومة مدنية ، وقد اشترط عدة شروط قبلها الشاه كلها ، وأهم هذه الشروط أن يغادر الشاه إيران وأن يعين مجلس وصاية ويحل المجلس النيابى ويحل جهاز الساواك وتعطى الحكومة المدنية سلطة السيطرة على القوات المسلحة ، وفى حروف بسيطة كان شرط بختيار هو سلب الشاه كل سلطاته ، ليس هذا فحسب بل والركيزتين الباقيتين للشاه : الجيش والساواك .

ولا يزال تقدم بختيار،رجل الجبهة الوطنية وأحد الذين يشتهرون بمواقفهم ضد الشاه والذى تعرض للسجن والنفى،لتولى السلطة أمراً يثير تساؤلات عديدة ... من الذى وضع هذه الشروط ؟ هل هو بختيار نفسه ؟ وهل كانت الجبهة الوطنية وراءه ؟ أم أن الشاه هو الذى تقدم بهذه الشروط وأبلغها إلى

بختيار ليقدمها ؟ ولماذا لم يسافر بختيار إلى باريس ليتباحث مع الإمام كما فعل سنجابى مرات عندما عرضت عليه الوزارة ؟ ثم : هذا القرار العائم بأن يغادر الشاه إيران وأن يعين مجلس وصاية دون أن يتنازل الشاه رسمياً عن العرش ؟ ألم يكن فى حد ذاته يثير ذكريات مرة عند الحركة الوطنية ، ذكريات يوم أن غادر الشاه إيران فى أغسطس سنة ١٩٥٣ ثم عاد إليها بعد ثلاثة أيام محمولاً على أكتاف المخابرات المركزية ليفتك بالحركة الوطنية فتكاً ذريعاً ؟ وهل يمكن أن يلعب بختيار الدور الذى لعبه زاهدى فى الخمسينات ؟ هذا السؤال الأخير هو الذى حدد الإستقبال الذى استقبلت به حكومة بختيار بمزيج من التخوف والترقب . . . وبادرت الجبهة الوطنية لكى تبرىء ساحتها بطرد بختيار من الجبهة لأنه خرج على إجماع الأمة وقبل تشكيل الوزارة .

على كل حال شكل شاهبور بختيار وزارته فى ٦ يناير بعد أن وافق المجلس النيابى (**الذى اشترط حله ؟**) عليها فى ٣ يناير ، وكان أول ما أعلنه رئيس الوزراء المنقذ مخيباً لكل الآمال فقد أعلن أن الشاه لن يتنازل عن العرش لكنه سوف يغادر البلاد لكى يتيح الفرصة لتطبيق الدستور (؟)وأن مجلس الوصاية هو الذى سيتولى الحكم ، وفى نفس اليوم (٩ يناير) أعلن آية الله الخمينى أنه لن يكون رئيساً للجمهورية ولن يحتل أى منصب إلا إذا رحل الشاه نهائياً ، لكنه سوف يكتفى بأن يكون مرشداً للأمة ، وبعدها بيومين تعهد شاهبور بختيار عند إعلانه برنامج حكومته بتعميق العلاقات بين الدول العربية وإيران والشعب الفلسطينى والعمل على استعادة حقوقه المشروعة ، و « العمل » على حظر تصدير البترول إلى كل من إسرائيل وجنوب أفريقيا ، وإلغاء الأحكام العرفية وحل منظمة السافاك .. ثم : لا حديث آخر عن شكل الحكومة أو منح الحريات أو الأحزاب ، كما لم يقترب من الجناح الدينى ... لقد أثبت بختيار أنه أكثر تعنتاً من الشاه نفسه ، أو لعله كان يطمئن الشاه قبل مغادرته إيران أنه عائد إليها قريباً لا محالة ، وأنه سوف ينفذ الدور الذى رسم له كما ينبغى .

وفى ١٦ يناير شهد مطار مهر آباد الدولى فى طهران آخر ملوك الأسرة البهلوية واخر ملوك إيران،التى لم يحكمها سوى ملوك منذ فجر تاريخها،يغادر

إيران ... وكان لا بد من بعض التمثيليات « لزوم الحال » ، وبكى الشاه كالنساء على ملك لم يحافظ عليه كالرجال ، وأجهش حرسه الخاص بالبكاء ، وانحنى أحدهم على قدمه يقبلها ، بينما انحنى طاغية العصر يجمع بعض تراب الأرض التى نبذته ، ولعله كان مخضباً ببعض الدماء الزكيه ، دماء النصف مليون شهيد الذين سفكت دماؤهم على يديه وعلى يدى والده من قبله ...
وبالرغم من رحيل الشاه لم تكن المظاهرات فى إيران كما هو متوقع ، لماذا ؟ لأن الأمور كلها كانت معلقة ... حقيقة أن آية الله الخمينى كان قد أعلن قبل رحيل الشاه بيومين تشكيل مجلس الثورة الإسلامية (ولا تزال أسماء بعض أعضائه سراً حتى الآن) وذلك للإعداد لقيام جمهورية إسلامية فى إيران ، واستغلها حزب توده فرصة لممارسة النضال (؟) فوجه نداء من العاصمة الفرنسية لإعلان الثورة المسلحة ضد حكومة الشاه (وأين حكومة الشاه ؟) وتشكيل جبهة موحدة (ثانى ؟) للنضال الوطنى (ولعله كان يقصد العمل ضد مجلس الثورة الإسلامى) فقد كان إعلان تكوين جبهة موحدة ضد الشاه من قبيل الضرب فى الميت .

ولم تمض أيام ثلاثة على مغادرة الشاه أرض إيران حتى حلت ذكرى الأربعين العظيم (أربعين شهداء كربلاء فى ٢٠ صفر ١٩ يناير) وشهدت البلاد مسيرات لا تقل عن مسيرات عاشوراء جلالاً وعظمة ، كان النصر النهائى قاب قوسين أو أدنى ، وإن كانت ذكريات أغسطس ٥٣ تؤرق الثوار وتجعلهم على حذر ، وبعد انتهاء المسيرات أعلنت الهيئة الدينية قراراتها على النحو التالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

«فى هذا اليوم التاريخى وقد وصلت الأمة الإيرانية المسلمة المجاهدة فى ذكرى أربعين سيد الشهداء وقائد الأحرار حضرة الحسين بن على عليهما السلام وصحبه المجاهدين إلى مرحلة جديدة من ثورتها الشاملة ضد الطاغوت ، وفى ضوء القيادة الحاسمة المتميزة بوضوح الرؤية للقائد العظيم الإمام الخمينى وسائر مراجع التقليد علماء الدين الواعين المجاهدين قد بلغت أسمى

أهدافها ، وقطفت ثمرة دماء الآلاف من الأعزاء أبناء الثورة الإسلامية التي تشكل الأغلبية الساحقة لشعب إيران البطل ، تعلن - قلباً واحد وصوتاً واحداً - مطالبها التالية وتواصل بحزم كامل تحقيقها وتنفيذها :

١ - نعلن انتفاء الشرعية عن حكم الأسرة البهلوية ، وخلع الشاه من الحكم الذى كان هو وأبوه قد اغتصباه بالقوة الجبرية .

٢ - نشجب النظام الشاهنشاهى الرجعى ، ونطالب بإقرار النظام الجمهورى الإسلامى فى إيران ، جمهورية إسلامية تعلن برأى الأمة ، وتدار الدولة على أساس الشرعية الإسلامية التى تهب الحياة .

٣ - نؤيد تشكيل مجلس الثورة الإسلامية فى إيران ذلك الذى أعلنه الإمام العظيم قائد النضال آية الله الخمينى بناء على الثقة التى أولتها الأمة إياه مراراً وتكراراً ، ونطالبه بأن يعلن بأقصى سبرعة أسماء أعضاء مجلس الثورة والحكومة المؤقتة حتى يبادروا فيأخذوا بأيديهم زمام السلطة فى البلاد ، ويمهدوا للقيام باستفتاء عام لتحديد مستقبل البلاد .

٤ - لا نعترف رسمياً بحكومة بختيار التى تحكم بناء على أوامر السلطة غير الشرعية والمجلسين غير الشرعيين .

٥ - نعلن أن الجنود وضباط الصف والضباط الذين ينضمون إلى صفوف الشعب ويؤيدون الثورة هم موضع احترام الأمة ، ونطالب كل العسكريين بألا يفصلوا أنفسهم عن إرادة الأمة ، وألا يسمحوا لأحد بأن يستخدمهم كأداة لتهديد الأمة وقمع المناضلين الأحرار .

٦ - إن نضال الأمة الإيرانية ذو ماهية إسلامية تماماً ، وكل طبقات الأمة مشتركة فيه بإخلاص ، وليس له أدنى علاقة أو ارتباط بقوة أجنبية ، وسوف تكون أمتنا دائماً حارسة للأصالة الإسلامية ولنضالها الشامل ، ونحذر كل فئات المناضلين من الإختلاف والفرقة .

٧ - إننا نهدف إلى إقامة علاقات حسنة مع كل الدول ، وذلك بشرط ألا

تتدخل فى نضال أمتنا البطلة ، فإن أى نوع من التآمر على الثورة سوف يكون لطمة شديدة لعلاقات إيران السياسية والإقتصادية بها .

٨ - إن نضال أمتنا فى أشكاله المختلفة من مظاهرات وإضرابات وما إليها مستمر حتى النصر النهائى واستقرار الحكومة الإسلامية العادلة ، وقد أثبتت أمتنا عملياً أنها صابرة وقادرة تماماً على تحمل مشاق النضال فى سبيل هذا الهدف ، على رجاء وعدا لله بتحقيق النصر النهائى الإلهى .

٩ - نطالب نواب المجلسين غير الشرعيين بأن يمتنعوا عن الذهاب إلى جلسات المجلسين وبأن ينضموا إلى صفوف الشعب .

١٠ - نطالب أولئك الذين دخلوا كأعضاء فى مجلس الوصاية غير الشرعى بأن يعلنوا عدم شرعيتهم ، ويعلموا أن الأمة ترى أن تكون كل مسئولياتها بين يدى مجلس الثورة الذى سوف يحدد الإمام الخمينى أعضاءه » .

لجنة إقامة مسيرات علماء الدين فى ذكرى الأربعين العظيم» (٧١)

ولم تكد تمر ثلاثة أيام أخرى ، وفى ٢٢ يناير أعلن رئيس مجلس الوصاية جلال طهرانى أمام الإمام **فى باريس عدم شرعية مجلس الوصاية وقدم استقالته إليه ، وبهذه الإستقالة انتهت الأسرة البهلوية قانونياً وشرعياً فى إيران ، كما انتهت التكتة الوحيدة التى كانت تستند عليها حكومة شاهبور بختيار ، وباتت حكومة معلقة فى الهواء تقريباً ، فلا قاعدة شعبية تستند عليها ، ولا الأسرة الحاكمة التى كلفتها أو مجلس الوصاية الذى حل محلها أصبح لهما أى وجود فى إيران .**

ماذا كان على شاهبور بختيار أن يفعل ؟ ما كان متوقعاً ومنطقياً هو أن يقدم استقالة وزارته إلى مجلس الثورة الإسلامى ثم يرحل ؛ لكن الذى يبدو أن بختيار كان يحلم بالفعل بدور الجنرال زاهدى ، لكن السلطة الأمريكية

لم تكن فى الساحة هذه المرة ، فمنذ منتصف ديسمبر لم يعد خافياً أن السفارة الأمريكية تخضع لرقابة شديدة من الثوار ، وبلغت الرقابة قمتها فى ٢٥ ديسمبر بحيث اضطر حرس السفارة إلى تفريق المتظاهرين بالغازات المسيلة للدموع .. وشهد شهر يناير رقابة صارمة على كبار الموظفين الأمريكيين ، كما كان المطار محاصراً منذ وقت مبكر وتحت رحمة الثوار من ضباط الطيران المنضمين إلى الثورة .. ومن ثم فقد كان على أى مسئول أمريكى يريد أن يتدخل فى هذه الظروف أن يستعد لفضيحة عالمية ، وبدون أن يقوم بأى إجراء كان سيتهم على الفور ، فضلاً عن أن القوى التى كان فى إمكانها أن تساعد فى ذلك الوقت كانت كلها إما فى السجون وإما هاربة إلى الخارج ، ومن هنا كان أمل التدخل الأمريكى غير ذى موضوع عند بختيار ، ومع وجود كل هذه الظروف التى تكتلت ضد بختيار حاول أن يلعب دوره إلى النهاية ، فطلب من حكومته فى ٢٥ يناير فرصة استعادة الموقف مع الإلتزام بإجراء انتخابات حرة خلال أربعة **شهور للإختيار بين النظام الملكى الدستورى (!!!!!!) وبين قيام جمهورية إسلامية فى إيران ... ثم تذاكى وقال : حسناً ليكن لإيران الفاتيكان الخاص بها فى قم** ، ويريد بهذا أن الإمام عندما يعود سوف يكون له حكم على علماء الدين فى قم وبذلك تحل المشكلة وهكذا أثبت بختيار غباءه ، وأنه ابن الثقافة الغربية المخلص ... لكن : أى موقف فى الأصل كان يمكن أن يصلحه بختيار ؟ إنه يدافع عن أسرة حاكمة لم يعد لها أى وجود فى إيران ، وعن نظام تمزق إربا ، وعملاء الساواك يتصيدون فى كل مكان ويعدمون على نواصى الشوارع ، والجماهير حتى فى القرى النائية تهاجم مخافر الشرطة وتحتلها كإعلان بأن القرية قد سقطت فى يد الشعب ، وبات واضحاً أن الشعب يريد أن يحمل السلاح وكانت ظاهرة الهجوم على مخافر الشرطة واحتلالها والإستيلاء على سلاحها قد بدأت فى « تربت حيدريه » وهى بلدة فى أقصى الشمال الشرقى لإيران،(وفى وقت مبكر جداً فى ٩ ديسمبر ٧٨) ، كما كانت الثكنات المحيطة بطهران تهاجم فى رابعة النهار وتحتل ثم تعود الجماهير محملة بأثقالها من السلاح انتظاراً لليوم الموعود ... وكان كبار قادة الجيش يخضعون لرقابة شديدة وصارمة بحيث لم يكن فى وسعهم أن يجتمعوا ليخططوا لأى شىء ، كان كل يوم يمر يمر بنصر جديد واستعداد

أكثر لقوى الشعب ، وكان من الواضح أن أى تصد لهذه الموجة العارمة سوف يكون ماله الفشل ، وأن الضحايا لن يكونوا من بين صفوف الشعب هذه المرة ... بل إن ساعة الحساب قد دنت .... وبرحيل الشاه ، وإسفار بختيار عن وجهه الكريه ، كان لا بد وأن يعود آية الله الخمينى إلى إيران ، ولنترك شاهد عيان يصف لنا هذا اليوم المشهود فى تاريخ الشعب الإيرانى :

« كل المدن والشوارع والحوارى زينت بالورود ونثرت فيها أطنان النقل ، كل مكان غرق فى السعادة ، كل الشفاه مبتسمة ، كل مكان زين بالمصابيح فجعلته يلمع بضوء كضوء الظهيرة ، كل العيون حتى عيون السيارات تتألق .... كل شخص يبتسم حتى الجنود والحراس .... لا أدرى فى أية دولة وفى أى عصر صارت أمة ما سعيدة مبتسمة إلى هذا الحد ، لكنى أعلم أن الإيرانيين لم يكونوا هكذا سعداء مرحين منذ قرون ، لم أر فى حياتى إيرانياً سعيداً إلى هذا الحد ، لم أكن قد رأيت قط رجلاً أو امرأة من هذا الجنس الممتحن ضاحكاً إلى هذا الحد ... وبالنسبة لأمة أحنت ظهرها لقرون متتالية تحت سياط أكبر جبارى المشرق من جنكيز خان إلى آقا محمد خان ومن تيمورلنك إلى محمد رضا بهلوى وهى جريحة متألمة ، ولو أنها تنفست لفترة تكون فترة قصيرة جداً وعابرة .. ومع ذلك لا تزال تحلم بسلطان عادل ، وبالنسبة لأمة مبتلاة تنتظر لمدة ألف سنة ظهور الإمام الغائب حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلما وجوراً ، وبالنسبة لعرق عظيم أنتج واحدة من أكثر الثقافات حرية وإنسانية على وجه الأرض وهو يعيش أسيراً فى أكثر أغوار التاريخ ظلمة ، أية حادثة يمكن أن تكون أعظم وأكثر اعزازاً وأكثر بعثاً للروح من أن يقوم رجل من بين أكثر المظلومين تعرضاً للظلم ، وهو فى نفس الوقت طاهر الجبلة ومتواضع وزاهد ومتقى وفى نفس الوقت عنيد ومناضل وصامد ، ويأخذ حق هذه السنوات الألف من ظالم ، ويصمد كل هذا الصمود ، ويقاتل كل هذا القتال حتى يجتث آخر جذور الظلم من هذا الوطن العزيز » (٧٢) .

هكذا كانت طهران يوم الخميس ١٢ بهمن (أول فبراير ٧٩) يوم عودة الإمام ، تصفها صحيفة كيهان فى عددها الصادر يوم ١٠ بهمن أى قبل عودة الإمام بيومين،(كانت الصحف قد عادت إلى الصدور وأنهت إضرابها يوم ١٦

ديماه / ٦ يناير وبعد أن احتجبت إحدى وستين يوماً كاملة) :

« إن قلب المدينة ينبض من أجل الإمام ، طهران تنتظر انفجاراً : انفجار الفرح وانفجار الشهادة ، طلقات الرصاص لا تخيف أحداً ، ويقول سكان الأقاليم : لن نعود من طهران حتى يأتى الإمام .. مئات الآلاف من سكان الأقاليم ، من قم ومن أصفهان من مشهد وتبريز ، من كل المناطق فى إيران يقيمون هذه الأيام فى طهران ، إنهم يفكرون فى الإمام بحب .. وأنتم مهما كنتم ضد عبادة الفرد ، عندما تلتقون بهؤلاء العشاق الذين وضعوا أرواحهم على أكفهم سوف تعطونهم الحق .. حتى ولو كنتم قد نزلتم من القمر ، ومهما كنتم لا تعرفون الإمام ، فإن إيمان هؤلاء الناس العميق الخالص سوف ينبهكم أن الإمام شخص يملك شيئاً هو بالنسبة لهم كل شىء ، وهو فوق كل شىء دليل النضال والمقاومة ».(٧٣)

وتصف مجلة « طهران مصور » الصادرة يوم الخميس ١٢ بهمن بعد الظهر وصول الإمام قائلة : « نزل الإمام من الطائرة ، واحتضنه ضباط الطيران وكأنهم سد حوله بحيث تبادر إلى الذهن أنهم يريدونه لأنفسهم فقط ويريدون أن يحرموا الآخرين منه ، الضباط الكبار والضباط الصغار وصف الضباط ، كانوا قد نسوا تماماً تسلسل الرتب ، كان كل منهم يجاهد بدوره فى المحافظة على الإمام ، ليس من أجل أن ينال رتبة فى العام التالى ، وليس بسبب القانون العسكرى ، لكنهم كانوا يحمون الإمام من أعماق أرواحهم ، كانوا يرحبون بمقدمه ، كان الجو رائعاً ... وحقيقة أى يوم من أيامنا القومية هذا العام أبدى فيه الجو أى نوع من التغير ؟ بخلاف السنوات الماضية حيث كان علينا أيضاً فى أيام القهر والذل أن نتحمل الثلج والبرد والعواصف الثلجية الشديدة ، وفى عامنا هذا كان كل العام ربيعاً ، من نفس ذلك اليوم الذى كنا نبذل فيه الشهداء فى الميدان حتى تلك الأيام التى كنا نذهب فيها لنجعل الربيع خالداً ، كانت السماء إلى جوارنا تعين وتساعد .. فى يوم الخميس ، اصطحبت العائلات حتى أولادها الصغار ، وكأنهم يريدون تطهيرهم فى هذا الجمع الحافل الذى ينتظر الإمام ... سار الناس عشرات الكيلو مترات ... ولم يمتنعوا حتى عن تقبيل العربة التى

كانت تقل الإمام ، لم يكن تصور سيل الناس أمام الجامعة ، كان الوقت ظهراً ، ورن صوت الأذان فى جنبات الجامعة ... وخارج محيط الجامعة كانت جموع الناس تردد مع المؤذن : الله أكبر ، وطلب الإمام من الناس أن يتحركوا بهدوء لكيلا يؤذوا النساء والأطفال ، وأطاع الناس الأمر بسرعة ، كان كل فرد يشق على نفسه ليريح الآخرين ».(٧٤)

لم يكن الحب فقط هو الذى فكرت فيه الملايين التى خفت للقاء الإمام فى طهران فى يوم لم يكن له مثيل فى تاريخ إيران .. أجل ، كانت الثورة الناضجة قد تعلمت من تجارب السنين .. وكانت قمة نضجها فى الاستعداد لكل ظرف ولكل خيانة ، ففى نفس يوم وصول الإمام كان ميلاد حرس الثورة « باسداران انقلاب » ، كان الحرص البالغ فى الحصول على السلاح فى سبيل أيام منها هذا اليوم المشهود . . . كانت المدينة خالية من قوات الجيش وقوات الشرطة . . . ومع ذلك كان هناك أكثر من سبعين ألف من المسلحين احتلوا شوارع طهران من المطار وميدان شهياد،(الذى سمى ميدان الحرية منذ ذلك اليوم)،شمالاً وحتى جبانة بهشت زهرا فى الجنوب ، **وفى اليوم الأول لنزول الإمام طهران فعل ما لم يكن يجرؤ الشاه على فعله طوال فترة حكمه خاصة منذ ٥٣ ، فقطع شوارع طهران التى لم تشهد فى تاريخها مثل هذا الجمع فى عربة ، قطع المدينة لا فى صورة الغازى الذى يستعرض فتحه ، وليس فى طريقه إلى قصر السلطان** ، بل كإمام ورع زاهد جندل أعتى نظام عرفه التاريخ المعاصر ، متوجهاً من المطار إلى بهشت زهرا حيث دفن شهداء الحرية يصلى عليهم ويدعو لهم ويذكر تضحياتهم التى لولاها ما كان ذلك اليوم .

استقر الإمام فى إحدى مدارس طهران يرقب سقوط بختيار رجل المقاومة القديم الذى كان يتشبث تشبث الغريق بقشة ، كان الإمام يرقب الأحداث عن كثب ، وفى أنحاء البلاد تجدد الصدام ، لكنه لم يصادف هذه المرة صدوراً عارية ، كان الأمر أخطر من ذلك ، وكان الشعب قد تسلح كما كان مؤيداً بالقوات الجوية والحرس الإسلامى يتشكل ويزداد عدداً يوماً بعد يوم ، ولم تكن حكومة بختيار تقوم بهجومها كما ينبغى لحكومة تدعى الشرعية ، بل

كانت معظم استفزازاتها من قبيل حروب العصابات ، هاجمت قواتها مدينتين فى الشمال هما گرگان وكنبد قابوس فتصدت لها القوات القوية والحرس الإسلامى ، وكان الإمام قد هدد بإعلان الجهاد إذا لم تقدم حكومة بختيار استقالتها ، وفى ٥ فبراير أعلن الإمام تعيين مهدى بازرگان رئيساً للحكومة الإسلامية المؤقتة لتشرف على الاستفتاء الذى سيتم تمهيداً لإعلان الجمهورية الإسلامية ... وشغلت إيران حكومتان اتخذ الصراع بينهما صفة العلنية .. فمن ناحية أعلن الجيش ولاءه لحكومة بختيار على أساس أنها السلطة الشرعية فى البلاد ، وفى نفس اليوم اتضح أن هذا الإعلان من قادة الجيش المهترئين فحسب ففى نفس اليوم انضمت ثكنات بأكملها إلى الثورة وفتحت مخازن أسلحتها للجماهير ، وقدم ثمانية وعشرون عضواً من أعضاء المجلس النيابى استقالتهم تلبية لنداءات آية الله الخمينى .

وفقدت حكومة بختيار أعصابها فبدأت تستفز الجماهير فى الشوارع تمهيداً لإعلان الأحكام العرفية ، وبعد صدامات ليلة السبت ويوم السبت ٢١ بهمن (١٠ فبراير) ، كانت كل العلامات – التى يفهمها الشعب الايرانى جيداً – تشير إلى أن حكومة بختيار تعد لإنقلاب عسكرى يعيد الشاه ويقضى على الثورة ، كان من المقرر أن يكون الإنقلاب فى الثامن والعشرين من بهمن أو هكذا أشاعت الحكومة لتأخذ الثوار على غرة ، لكن اليوم المحدد كان ٢١ بهمن بعد منتصف الليل ، وكان الأمر قد وضع على عاتق الفريق مهدى رحيمى ، وأعلن راديو طهران فى الساعة الثانية بعد ظهر السبت أن ساعات حظر التجول قد زيدت وأصبحت من الساعة الرابعة والنصف عصر السبت إلى الثانية عشرة من ظهر اليوم التالى .. كان هذا الإعلان بمثابة إخلاء للشوارع طيلة ليلة الأحد ، وبعد إعلان البيان قلق الناس كثيراً واستعادوا ذكرى ٢٨ مرداد بكل ملابساتها ، وخشوا أن تكون الحكومة تدبر لمذبحة مثل مذبحة الجمعة السوداء ، فأخذوا ينصرفون من الشوارع وكل فرد يبلغ الآخر بفحوى الأمر العسكرى ، كما كتبوا الأمر العسكرى فى منشور أخذوا يتداولونه ويعلقونه على الجدران ، **ولو أن هذه الخطة قد نجحت ولجأ الناس جميعاً إلى منازلهم لنجح الإنقلاب العسكرى المدبر ، فإن الشوارع آنذاك كانت ستخلو للجيش وتصفى الثورة تماماً وتحاط بيوت القادة والأئمة بالجند ، ويقبض عليهم أو**

يعدمون على الفور ... وينتهي الأمر ، وبمجرد أن علم الإمام بالخبر أدرك بحسه الثاقب ما كان يدبر في الخفاء ، وأصدر فتواه بأن ينزل الناس إلى الشوارع وألا يبرحوها متجاهلين الأمر العسكرى تماماً ، وبمجرد أن وصل محتوى الفتوى إلى الناس تقاطروا على الشوارع ليس هذا فحسب ، بل وأخذ الثوار يقيمون المتاريس والخنادق ، كان من المؤكد أن الجيش سوف ينزل إلى الشوارع فى تلك الليلة فأعدوا للأمر عدته ، وطوال ليلة الأحد كانت شوارع طهران ميدان حرب حقيقية ، ففى ناحية : القوات الجوية والحرس الإسلامى وكل فرد من أفراد الشعب استطاع أن يحصل على سلاح ، وفى الطرف الآخر قوات مشاة الجيش والمدرعات ، كان الناس قد حصلوا على السلاح من هجومهم على مخافر الشرطة فى نارمك وتهران نو وثكنات القوات الجوية ومخفر الجوادية .. وبدأ الصدام الحقيقى فى منتصف الليل عندما بدأت دبابات الجيش تظهر فى الأفق ففوجئت بالمتاريس فى الشوارع التى كان ينبغى أن تخترقها ، وفوجئت أيضاً بالقنابل وزجاجات المولوتوف تنهال عليها من فوق سطوح المنازل ، وما أن دارت المعركة حتى خرج الناس من بيوتهم حاملين الأكفان يهاجمون مخافر الشرطة فى قلب العاصمة للحصول على السلاح ، ويقومون بتوزيعها على المجاهدين ، بينما سهرت النساء فى المنازل يقدمن المشروبات والطعام للمجاهدين ، ولم يكد صباح الأحد ٢٢ بهمن (١١ فبراير) يشرق ، حتى كانت قوات الحكومة قد تقهقرت من الميدان ، ففى السابعة صباحا كانت قوات الثوار قد استولت على خمس دبابات وإحدى عشر بطارية مدفعية وقدر كبير من السلاح ، كما انضم عدد كبير من الجنود إلى صفوف الثوار ، وعندما تحقق للشعب هذا النصر الكبير واصل زحفه على قصر الامبراطور ، ولم يدم « خلود » فرقة الخالدين « جاويدان »،(الحرس الامبراطورى) ،فى الميدان أكثر من بضع ساعات ، وسقط القصر الإمبراطورى ، **وعندما وجد بختيار أن كل خططه قد انهارت سارع بالهرب ، ولم يكن هناك من نتيجة لتخطيطه إلا سقوط عشرين ألف شهيد فى القتال الذى استمر فى هذين اليومين فقط ... ولم يعد فى الميدان بعد هروب بختيار إلا حكومة بازرگان الإسلامية .** (٧٥)

وهكذا بعد عام وشهر ويومين من الصدام انتصرت ثورة إيران ، ففى اليوم التالى مباشرة انضمت قوات الجيش الإيرانى والحرس الإمبراطورى إلى الثورة ، وتولت حكومة بازرگان زمام السلطة الفعلية فى البلاد ، وارتفع علم الثورة الإسلامية خفاقا فى بلاد نهبت ومزقت شر ممزق وانهار اقتصادها ومحيت زراعتها من الوجود ، وفوق ذلك لحقت شخصيتها القومية جراح تحتاج إلى سنوات لكى تعالج ، هذا إن لم يحط الأعداء بالثورة من الشرق والغرب ومن المسلمين أنفسهم ويا للعار والخزى ، كان على حكومة الثورة الإسلامية بعد أن ألقت بالشاه فى مزبلة التاريخ على حد التعبير الرائع للإمام الخمينى أن تعيد بناء آيلا للسقوط بل كان قد سقط بالفعل ، وأن تواجه التحديات فى الداخل والخارج والفتن والدسائس التى لاتزال تحيط بها وهذا ما سنعود إليه فى جزء ثالث لهذا الكتاب إن شاء الله .

ومهما قيل عن الثورة الإيرانية فى الإعلام الغربى وأذنابه ، **فسوف تظل أهم حدث عالمى فى القرن العشرين ، وأهم حدث إسلامى منذ دخول محمد الفاتح القسطنطينية ، وبالنسبة للمنطقة فهو لا يقل أبداً عن دخول إيران فى الإسلام فى عصر الفتوح** ... وسوف يمر وقت طويل قبل أن يفهم العملاء والخونة والذين يتباكون على الحضارة الغربية،وهم مجرد خدم لها،قيمة الثورة الإيرانية وما أدته للإسلام ، لقد كان الإسلام – وبناء على بعض تصرفات ممن يدعون القيمومة عليه – يوصف بالرجعية والخنوع – فإذا بثورة إيران تصفع العالم الغربى بإسلام عرفه جيداً وهزم منه فى يوم ما ، ومن هنا نستطيع أن نفهم هذا العواء الصليبى فى أوربا والعالم الغربى .... لكنه ليس مفهوماً بالمرة إذا صدر من أناس يدعون أنهم مسلمون بل ويدعون أنهم المسلمون الوحداء ، وكان عليهم أن يفخروا بثورة إيران فقد أعادت إليهم كرامتهم المفقودة ... وعلى كل حال سوف نعود إلى الحديث عن ردود الأفعال العالمية بالنسبة لثورة إيران فى الجزء الثالث من هذا الكتاب كما ذكرت من قبل بإذنه تعالى .

وسبحان الله العظيم ، سبحان من بيده ملكوت كل شيء ، والحمد لله رب العالمين ناصر المستضعفين وقاصم الجبارين والصلاة والسلام على نبيه العظيم محطم الأوثان والداعى إلى عبادة الله وحده .

هوامش الباب الثالث والخاتمة

(١) هذا الجزء من مذكرات شخصية كتبها المؤلف إبان إقامته فى إيران صيف ٧٧ .

(٢) خواندنيها عدد ٢٦ شهريور ١٣٥٦ – ١٧ سبتمبر ٧٧ .

(٣) من مقال لعلى أصغر حاجى سيد جوادى پيام مجاهد شمارة ٥٢ .

(٤) بيام مجاهد شمارة ٤٦ – ٤٧ .

(5) Halliday (F.), Iran dev. $ Dect. pp. z88 - z89 .

(٦) پيام مجاهد شمارة ٤٦ .

(٧) لمعلومات أكثر أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٨) پيام مجاهد شمارة ٥١ .

(٩) پيام مجاهد شمارة مخصوص آبان ٥٦ .

(١٠) پيام مجاهد شمارة ٥٢ .

(11) Helmut Richard, Human Rights and chict. in I. Erupts p. go

(١٢) قيام حماسةُ آفرينان قم وتبريز جلد أول ص ٣٩ جاب نهضت آزادى إيران خارج از كشور فى اسفندماه ١٣٥٦ شـ .

(١٣) بنى صدر : آنجه بايد دانست ص ٣٢ .

(١٤) قيام حماسه آفرينان ، جلد اول ص ٤٧ .

(١٥) المصدر السابق ص ٤٧ .

(١٦) نفس المصدر صص ٥٣ – ٥٤ .

(١٧) قيام حماسه آفرينان ، أول صص ٥٦ – ٥٨ .

(18) Thirry A. Burn, The Roots of popular Agitation. in I. Erupts P.36

(١٩) پيام مجاهد شمارة ٥٤ .
(٢٠) بيام مجاهد شمارة ٥٤ ص ٦ .
(٢١) بيام مجاهد شمارة ٥٥ .
(٢٢) بيام مجاهد شمارة ٥٥ .
(٢٣) نشرية كميته برادى دفاع از حقوق بشر وپيشبرد آن درايران فى ٢١ مايو ٧٨ .
(٢٤) المصدر السابق .
(٢٥) نورى الهلا : گزارشى دربارة ايران .
(٢٦) پيام مجاهد شمارة ٥٦ .
(٢٧) پيام مجاهد شمارة ٥٧ .
(٢٨) پيام مجاهد شمارة ٥٩ .
(٢٩) نشرية كميته براى دفاع از حقوق بشر شمارة ١٢ .
(٣٠) پيام مجاهد شمارة ٦١ .
(٣١) خواندنيها عدد ٤ شهريور ٥٧ – ٢٦ أغسطس ٧٨ .
(32) The Tragdy of Dbaelan, in I.Erupts p.p. 181 - 184 .
(٣٣) پيام مجاهد شمارة ٦٢ .
(٣٤) سيروس برام : انقلاب ايران صص ٢٢ – ٢٥ .
(٣٥) خواندنيها شمارة ١١ شهريور – ٢ سبتمبر ٧٨ .
(٣٦) المصدر السابق صص ٢٤ – ٢٥ .
(٣٧) نفس المصدر ص ٢٩ .
(٣٨) نفس المصدر ص ٧٩ .
(٣٩) سيروس برام : انقلاب ايران صص ٢٦ – ٢٨ .
(40) The Iranian black Friday in I.Erupts p.195
(41) Yves - gug Berges, Eye Wittness report From Martyrs square, le Figaro sept.9 - 1O 1978 in I.Er.
(٤٢) برام : انقلاب إيران صص ٣٤ – ٣٥ .
(٤٣) المصدر السابق : ص ٣٢ .
(٤٤) نفس المصدر ص ٣٧ .

(45) Carter and the Tehran dead,by Georges Montaren in Ir. Erupts pp. 207 - 209 .

(46) The Iranian black Friday in Ir - Erupts 204- 205

(47) Editorials From lemonde in Iran Erupts p.221

(٤٨) مصاحبه های إمام خمینی جلد أول ص ١٢٦ .

(٤٩) سیروس برام : إنقلاب إيران ص ٤٣ .

(٥٠) خواندنيها : عدد ٢٠ آبان / ١١ نوفمبر ٧٨ صص ٣ – ٤ .

(٥١) خواندنيها عدد ٢٧ آبان / ١٨ نوفمبر ٧٨ .

(٥٢) تفصيلات اضراب الصحافة فى خواندنيها عدد ٤ آذر / ٢٥ نوفمبر وعدد ١١ آذر / ٢ ديسمبر .

(53) Iran Erupts, pp. 224 - 226 .

(54) Ibid, pb. 227 - 228 -

(٥٥) خواندنيها عدد ٤ آذر / ٢٥ نوفمبر .

(٥٦) المصدر السابق .

(٥٧) نفس المصدر .

(٥٨) خواندنيها عدد ١١ آذر / ٢ ديسمبر .

(٥٩) محمد على معتمد : اعلام جرم نسبت به بلند پايگان فى خواندنيها عدد ٤ آذر / ١١ نوفمبر .

(٦٠) هدايت الله حكيم الهى : من ازين مبارزه بافساد مى ترسم خواندنيها ٤ آذر .

(٦١) خواندنيها عدد ١٨ آذر / ٩ ديسمبر .

(٦٢) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب .

(63) Iran Erupts, pp, 229 - 231 .

(٦٤) بنى صدر : إيران غربة السياسة والثروة ص ٣٤ .

(٦٥) خواندنيها : عدد ١١ آذر / ٢ ديسمبر ٧٨ .

(٦٦) سيروس برام : انقلاب إيران ص ٦٩ .

(67) Iran Erupts, 233 - 235 .

(٦٨) سيروس برام : إنقلاب إيران ص ٦٢ .
(٦٩) بنى صدر : آنچه بايد دانست ص ٣٤ .
(٧٠) برام : إنقلاب إيران صص ٧٣ - ٧٤ .
(٧١) محمد رضا حكيمى : تفسير آفتاب صص ٢٨٢ - ٢٨٥ .
(٧٢) برام : إنقلاب إيران صص ٧٦ - ٧٧ .
(٧٣) كيهان عدد ١١ بهمن / ٣١ يناير ٧٩ المقال الإفتتاحى .
(٧٤) طهران مصور عدد ١٢ بهمن / أول فبراير ٧٩ .
(٧٥) محمد حكيمى : تفسير آفتاب صص ٣٥١ - ٣٥٢ .

تم بحمد الله تعالى وبعون
منه الجزء الثانى من كتاب
الثورة الإيرانية .

الفهـرس

رقم الايداع : ٨٦/٢٢٧٩
رقم الايداع الدولى : ٤ - ١٢ - ١٤٧٠ - ٩٧٧

الزهراء للإعلام العربى



• سوف تظل الثورة الإيرانية مجال أبحاث وكتب ، لكن مالا تستطيع الأبحاث والكتب أن تذكره أو تقدره حق قدره هو تلك الروح العارمة التى استيقظت فى الشعب الإيرانى بعد نوم القرون . ولن يستطيع أحد أن يدرك أبعاد هذه الروح العارمة إلا بأن يدرك فى البداية أبعاد الروح العظيمة لمحرك

تصميم الغلاف : عصمت داوستاشى